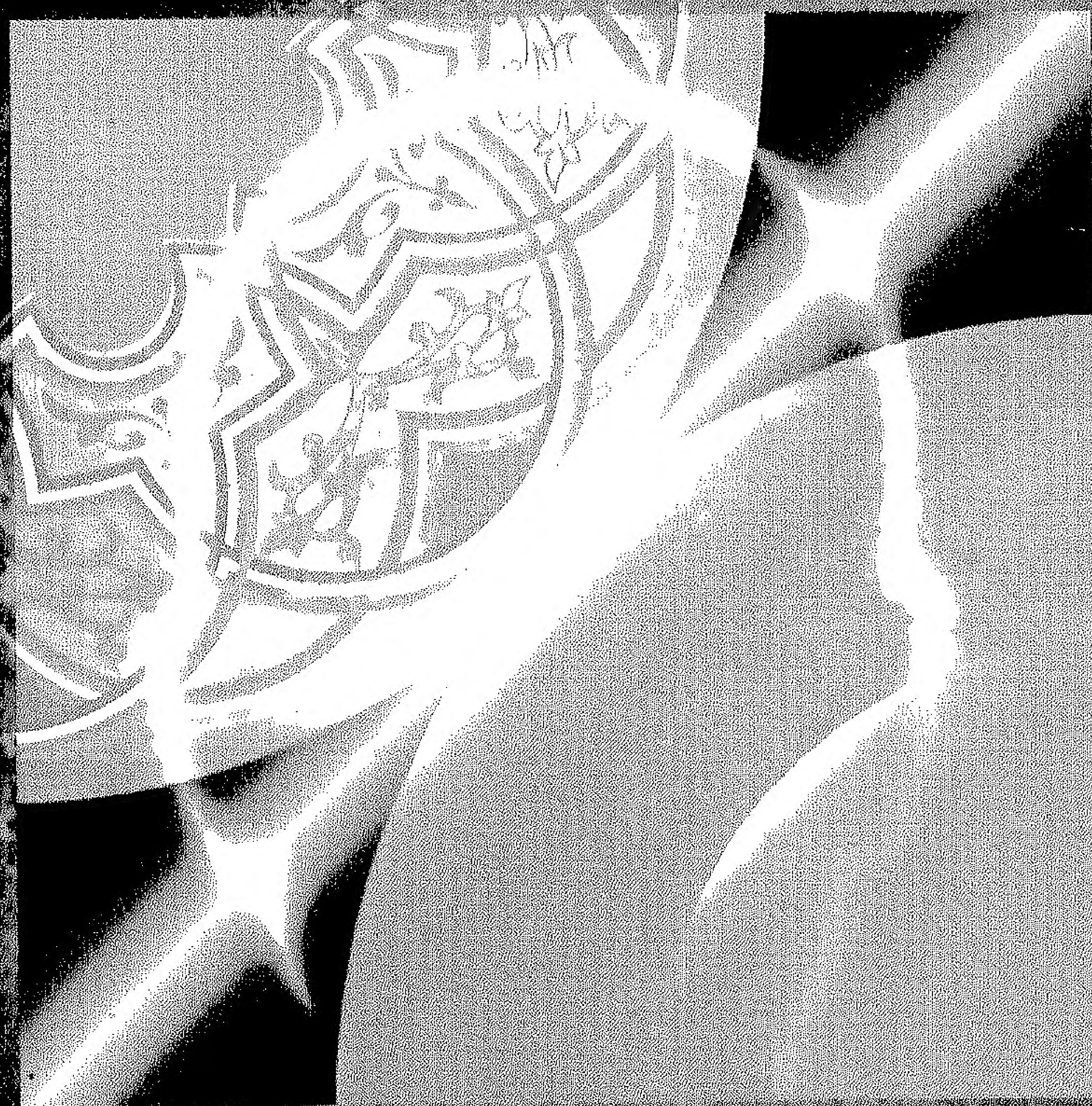
السلوك الإنساني

بين التفسير الإسلامى وأسس علم النفس المعاصر



د. عبد المجيد سيد أحمد منصور
د. زكريا أحمد الشربينى
د. إسماعيل محمد الفقى



مكتبة الأنجلو المصرية

اهداءات ٢٠٠٢
مكتبة الانجلو المصرية
القاهرة

السلوك الإنسانى
بين
التفسير الإسلامى
وأسس علم النفس المعاصر

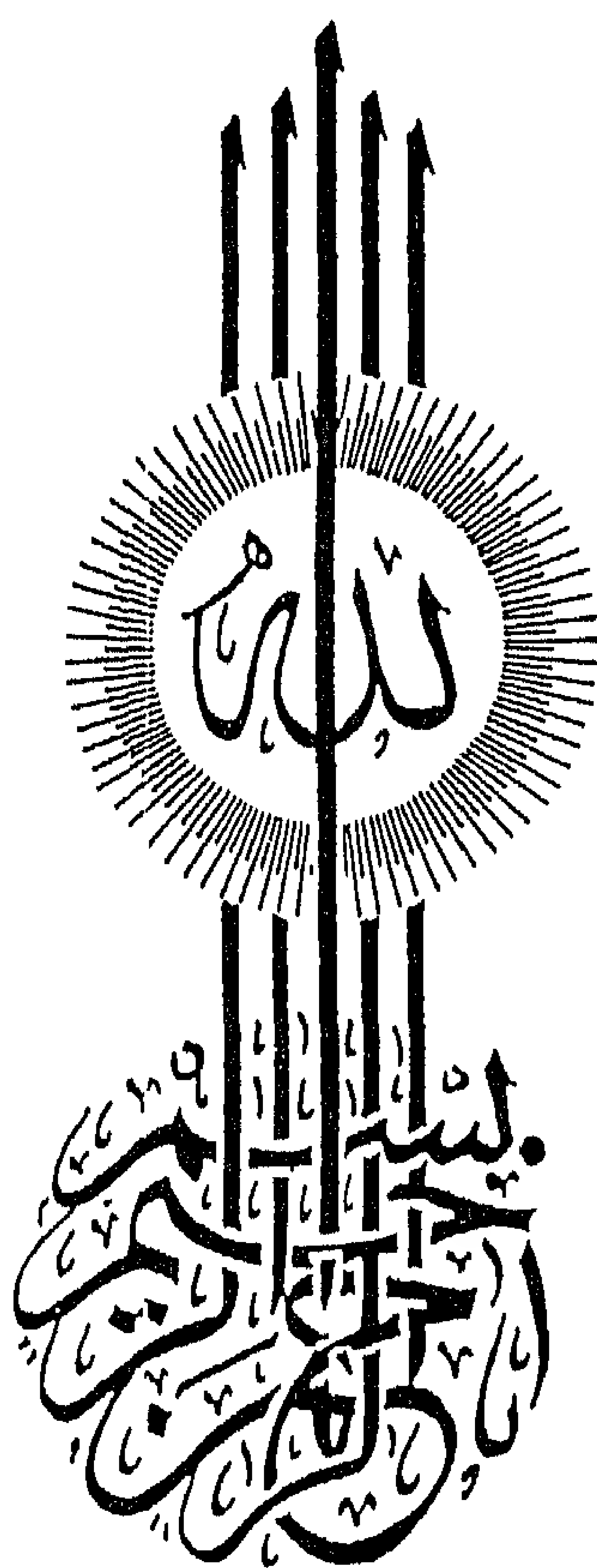
الدكتور
عبدالمجيد سيد أحمد منصور
أستاذ علم النفس
بجامعات المملكة العربية السعودية
وجامعة الأزهر سابقاً

الدكتور
زكريا أحمد الشربينى
أستاذ علم النفس
المشرف العام علي الانتساب الموجه
ومدير مركز الانتساب
جامعة الإمارات العربية المتحدة

الدكتور
إسماعيل محمد الفقى
أستاذ علم النفس المشارك
قسم علم النفس التعليمى
كلية التربية
جامعة عين شمس

مكتبة الأنجلو المصرية
١٦٥ شارع محمد فريد - القاهرة

اسم الكتاب : السلوك الإنسانى بين التفسير
الإسلامى وأسس علم النفس المعاصر
اسم المؤلف : د/ عبد المجيد سيد أحمد منصور
د / زكريا أحمد الشربينى
د / إسماعيل محمد الفقى
اسم الناشر : مكتبة الانجلو المصرية
اسم الطابع : مطبعة محمد عبد الكريم حسان
رقم الايداع : ٢٠٠٢/٥٠٧١
الترقيم الدولى : I.S.B.N 977-05-1905-7


الله
بسم الله الرحمن الرحيم

يقول الحق تبارك وتعالى فى مُحكم آياته :

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَعَمِلُواْ الصَّلِحَتِ وَتَوَاصَوْاْ بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِالصَّبْرِ﴾

صدق الله العظيم

العصر : الزمان الذى يقع فيه حركات بنى آدم من خير وشر . (*)

اقسم الله تعالى بأن الإنسان لفى خسر ، أى فى خسارة وهلاك . (إلا الذين امنوا وعملوا الصالحات) ، فاستثنى من جنس الإنسان عن الخسران الذين آمنوا بقلوبهم وعملوا الصالحات بجوارحهم .

(وتواصوا بالحق) وهو أداء الطاعات ، وترك المحرمات . (وتواصوا بالصبر) ، أى على المصائب والأقدار ، وأى من يؤذى ممن يأمرونه بالمعروف وينهونه عن المنكر .

... ولقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يذّكرون ويوصون بعضهم بعضاً بتلاوة سورة العصر كل يوم ... ليتذكروا سبب سعادة الإنسان وأمنه ، أو شقاوته واضطرابه ، ونجاحه فى الحياة أو خسرانه ودماره .

ولهذا قال الإمام الشافعى رحمه الله : لو تدبر الناس هذه السورة لوسعتهم . (**)

(*) الحافظ عماد الدين أبو الفداء اسماعيل بن كثير – تفسير القرآن العظيم – المجلد الرابع – مكتبة دار التراث – القاهرة .

(**) محمد على الصابونى – مختصر تفسير ابن كثير – المجلد الثالث – دار القرآن الكريم بيروت – الطبعة السابعة – ١٤٠٢ هجرية / ١٩٨١ ميلادية – ص٦٧٤ .

تقـــــديم :

نبدأ بذكر الله .. (ألا بذكر الله تطمئن القلوب) .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين . الرحمن الرحيم . مالك يوم الدين . إياك نعبد وإياك نستعين .

والصلاة والسلام على من بعثه . الحق ، تبارك وتعالى بشيراً ونذيراً ورحمة للعالمين ، وأشرقت بنور هديه خير أمة أخرجت للناس أجمعين ، وعلى آله وصحبه ومن والاه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين ... وبعد .. (إن المتتبع لنتاج المدارس الفكرية المعاصرة فى عديد من المجالات النظرية والتطبيقية فى العلوم النفسية ، يرى امتداد نتاجها الوافر من القضايا والاهتمامات الخاصة بتفسير السلوك والتوافق البيئى للإنسان والضبط والتنبؤ لكل الأنماط السلوكية للإنسان .

وهناك محاولات فى الوقت الحاضر نحو صياغة الفكر الإسلامى ومناهجه، فى مجال الدراسات النفسية ، والتى نطلق عليها التفسير الإسلامى وعلم النفس المعاصر ، فى حين يطلق البعض الآخر علم النفس الإسلامى ، وإن كان فى هذا تجاوز عن الموضوعية ، التى يكون عليها العلم ، فى حين تنادى هيئات علمية بوصف هذه المحاولات تحت مايعرف بإسلامية المعرفة .

وليس القصد من هذه المحاولات بناء مناهج جديدة فى علم النفس ، بل إن الهدف الأساسى الوصول إلى علم نفس ، يتوافق فى نظرياته ومناهجه وموضوعاته مع المجتمع الإسلامى .

وليس معنى ذلك أن هذه المحاولات ستبنى من فراغ ، بل هناك الجهود والأصول فى التراث الإسلامى ، خاصة عندما يتم بحث ما سبقنا إليه علماء المسلمين والفلاسفة والأئمة من السلف الصالح ، وعلماء الإسلام المعاصرين ، ممن قاموا بتفسير سلوك الإنسان ، وحيث الاهتمام بدراسة النفس الإنسانية والبناء النفسى للانسان، بهدف فهم طبيعة سلوك الإنسان وغاياته وأهدافه فى الحياة .

والمتتبع لنتاج مدارس علم النفس المعاصر ، يلمس تأثر فكر علماء النفس – فى الاتحاد السوفيتى أو ألمانيا أو بريطانيا أو الولايات المتحدة الأمريكية أو غيرها – بثقافة الحياة وفلسفة المجتمعات التى نشأ فيها علماء النفس بهذه البلاد ، وحيث تتميز كل مدرسة فكرية بخصائص وملامح ، كان من نتاجها نظريات وقوانين واهتمامات وقضايا ومناهج بحثية متباينة .

وفيما يتعلق بهوية علم النفس فى العالم العربى ، نجد أن علم النفس يتشكل من نظريات وأفكار وآراء مدارس علم النفس المعاصرة . كما أصبح واضحاً مدى تغلغل أفكار هذه المدارس فى عالمنا العربى فى تفسير وضبط سلوك الفرد ، والتنبؤ بما يمكن عمله من السلوك ، وعلاج الاضطرابات أو الانحرافات السلوكية فى ضوء ماتشير إليه مدارس ومناهج علم النفس فى عالمنا المعاصر . ومثال ذلك أنه رغم اختلاف البيئة والثقافة والعقيدة فى عالمنا الإسلامى والعربى ، فإننا لانزال نستخدم المنهج العلاجى ، الذى تنادى به مدارس علم النفس المعاصر فى علاج الاضطرابات والانحرافات السلوكية ، دون أن نتجه إلى منهج العلاج ، الذى ينادى به الإسلام من تزكية النفوس وإصلاح القلوب .

ونود أن نشير إلى أن التفسير الإسلامى وعلم النفس المعاصر ، لايقصد من وراءه رفض نظريات وأفكار ومقولات وتجارب علم النفس المعاصر رفضاً تاماً ، إذ ليس فى هذا موضوعية العلم ، وحيث يؤكد الإسلام الاستفادة من المعارف ، التى تعمل على استقرار حياة الإنسان وأمنه وأمانه ، وتقلل قدر ماتستطيع من المعوقات، التى تعمل على اضطراب حياته الاجتماعية .

كما نود الإشارة أيضاً إلى أن علم النفس المعاصر يرفض الجمع بين الدين والعلم ، فى حين يؤكد الإسلام امتزاج الدين والعلم ، من منطلق أن غاياتهما وأهدافهما مشتركة ، وحيث يعمل الدين عند التحامه بالعلم ، من أجل توافر الأمن النفسى للإنسان وصلاح أمره وسوية سلوكه .

هذا بالاضافة إلى أن الإسلام ينظر إلى الإنسان على أنه كيان متكامل من نفس وعقل وقلب وروح ، ولذلك يرفض النظرة المادية لطبيعة الإنسان ، الذى عندما يشبع حاجته من الدين ، فإن نفسه تصبح راضية مرضية مطمئنة ، تسعى فى مناكب الحياة ، دون خلل أو اضطراب .

كما أن علم النفس المعاصر يرفض الاعتراف فى أحيان كثيرة وجود نفس وراء سلوك الإنسان . وحجة علماء النفس فى الوقت الحاضر فى ذلك مرجعها ، أن النفس لاتخضع للقياس العلمى ، الذى هو جوهر العلوم التجريبية ، حيث يستخدم علم النفس المعاصر القياس العلمى المشار إليه .

والواقع أن هذا يُعد قصوراً فى علم النفس المعاصر ؛ لأن النفس هى جوهر الإنسان، كما أن الروح التى لايهتم علم النفس المعاصر بدراستها ، هى الموجه لسلوك الإنسان السوى ، بجانب عقله وقلبه .

وعند النظر إلى التراث الإسلامى فى تفسير سلوك الإنسان ، نجد أنه يحتوى آراء عديد من السلف الصالح ، الذين كان مرجعهم القرآن الكريم وسنة محمد عليه أفضل صلاة واتم تسليم ، وامهات الكتب فى التفسير . كما يحتوى آراء وأفكار فلاسفة الإسلام ، الذين تأثروا بالفكر الإغريقى ، إضافة إلى مساهمات علماء الكلام الذين أفاضوا فى المباحث النفسية لاتصالها بالعقيدة الدينية ، مع مساهمات أفكار رجال الصوفية ، الذين قاموا بتحليل النفس الإنسانية تحليلاً عميقاً، مؤكدين جانب السلوك الصوفى المفضى إلى طريق الله تعالى .

كما أن المتتبع لمساهمات علماء المسلمين فى دراسة النفس الإنسانية ، يجد أن الإمام الغزالى منذ النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى ، بذل جهداً كبيراً فى تفسير النفس البشرية وفعاليتها وأحوالها ، وقام بتحليل السلوك وخلجات الضمير، وطمأنينة النفس وثبات القلب . بل إنه فى دراسته للنفس البشرية ، قام بدراسات موضوعية ، حيث ميز بين منهجين لدراس النفس : ... منهج يعتمد على النظر إليها ... كجوهر روحى ، ومنهج آخر يخرج عن نطاق الفلسفة والميتافيزيقا إلى الوضعية والموضوعية ، خاصة عندما قام بتفسير نشاط النفس وأحوالها وفعاليتها .

هذا بالإضافة إلى مانؤكده ، من أن علماء المسلمين لم تكن دراساتهم للنفس الإنسانية مجرد معرفة نظرية ، ولكنها كانت بهدف الوصول إلى تعديل السلوك والرقى بالأخلاق والوصول إلى التوافق النفسى للفرد وتكامل الشخصية .

ولقد كان أمام علماء المسلمين من قرون مضت ، النبع الفياض الذى استقوا منه دراساتهم المستفيضة عن التفسير الإسلامى للسلوك الإنسانى ؛ حيث قاموا بتفسير النفس الإنسانية على أنها تمثل مجموعة الظواهر والحالات النفسية

والخواطر التى فى خبرة الإنسان .

كما كانت اجتهادات علماء المسلمين فى تفسير السلوك الإنسانى ودوافعه ، تدور حول دراسة النظريات والمناقشات حول النفس الإنسانية ، وحيث استمدوا أفكارهم وتفسيراتهم من القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف ، ومن دراسات الصوفية وآراء المتكلمين . كما أن الفلاسفة من علماء المسلمين استقوا أفكارهم الإسلامية من المصادر الإسلامية ، المشار إليها آنفاً ، بجانب تأثرهم بأفكار ونظريات من سبقهم من الفلاسفة الإغريق .

وإذا تتبعنا جهود علماء المسلمين فى التفسير الإسلامى للسلوك الإنسانى – دون الدخول فى تفاصيل كثيرة فى هذه المقدمة – فإننا نلمس مباحثهم الزاخرة فى البحث عن طبيعة الإنسان من حيث غايته فى الوجود .... وسماته .... وخصائصه .... ومسئولياته .... وتكاليفه ... وسعيه فى مناكب الأرض ... ومصيره ... وطبيعة علاقاته مع الجماعة ، التى يعيش بينها حسب وضعه فى الحياة الاجتماعية ... وعن تأثره وتأثيره فى الآخرين .

ولقد أضاف علماء المسلمين أبعاداً على جانب كبير من الأهمية فى تفسير السلوك الإنسانى ، وحيث لم يتطرق لهذه الأبعاد علماء النفس المعاصرين . من هذه الأبعاد اهتمام علماء المسلمين بدراسة ما يعرف بالنية (العزم أو القصد) Intention فى سلوك الإنسان ، واهتمامهم أيضاً بالجانب الإرادى والاختيارى (المشيئة أو الاختيار) Volition ، والجانب الأخلاقى Ethical فى السلوك الإنسانى.

هذا إلى أن الجانب الأخلاقى ، ومايتصل به من السلوك الدينى ، والشعور الدينى Religious feeling للإنسان ، كان موضع اهتمام علماء المسلمين ، حيث نظروا إلى هذا السلوك والشعور نظرة أخلاقية ، فى حين لم يلق هذا الجانب الحيوى فى سلوك الإنسان اهتمام علماء النفس المعاصرين .

كما قام علماء المسلمين بدراسة مظاهر تعبير الفرد عن شخصيته وتفرده عن غيره ، وهو مايتوافق مع مايعرف فى علم النفس المعاصر بالفروق الفردية .

ونود أن نشير إلى أنه قد يتطرق إلى أذهان البعض من القارئين لجهود علماء المسلمين أن الطابع النظرى الفلسفى أو العقلى هو الذى كان يغلب على الدراسات من نتاج علماء المسلمين . والواقع أن نتاجهم تميز بالموضوعية

والمنهجية – لحد ما – عندما تعرضوا للبحث عن نشاط النفس الإنسانية وأحوالها . ولقد استخدم البعض منهم بجانب اتجاهاتهم الفلسفية – فى بعض الأحيان – أساليب تتسم بالموضوعية النسبية ، والتأمل الباطنى Introspection (التأمل الذاتى – وهو ما بدأت تهتم بدراسته بعض المدارس النفسية المعاصرة فى الوقت الحاضر – إضافة إلى اهتمامهم بملاحظة سلوك الآخرين ، وتحليل هذا السلوك والظواهر النفسية المختلفة) .

هذا بالإضافة إلى جهود علماء المسلمين فى استخدام العلاج النفسى والأسلوب التحليلى فى حل المشاكل والاضطرابات النفسية .

وبذلك سبق علماء المسلمين فى أصالتهم فى دراساتهم ، ماهو معاصر لنا من الميادين نفسها فى الدراسات النفسية .

ومن خلال مايحتويه هذا المؤلف ، نرجو أن تتضح جهود علماء المسلمين عن التفسير الإسلامى للسلوك الإنسانى ، حيث نعرض ماتوصلت إليه الدراسات النفسية المعاصرة من مفاهيم وقضايا عديدة تتعلق بتفسير السلوك الإنسانى وأنماط أنشطة وجوانب السلوك وآثارها على الحياة النفسية ، والتوافق النفسى ، وبنية الشخصية . كما نعرض فى مقابل ذلك تفاسير وجهود علماء المسلمين من الفلاسفة والسلف الصالح وائمة الإسلام المعاصرين فى هذه المناحى الخاصة بالسلوك الإنسانى والنفس الإنسانية . وبقدر مانعنى أن يكون فى هذا الإيضاح مايفيد طالب العلم المتخصص فى علم النفس ، بقدر مايهمنا أيضاً أن يستفيد من هذا الإيضاح القارئ ، الذى له اهتماماته بهذا المجال من العلوم الإنسانية .

وينتظم هذا الكتاب فى أربعة أبواب رئيسة ، تضم تسعة عشر فصلاً ، حيث يحتوى:

الباب الأول : مدخل عام .

الباب الثانى : التفسير الإسلامى لأنشطة وجوانب السلوك الإنسانى وآثارها على الحياة النفسية .

الباب الثالث : التفسير الإسلامى للتوافق النفسى .

الباب الرابع : الإسلام وتكامل بناء الشخصية .

وفى ختام كل فصل من الفصول التسعة عشر ، يجد القارئ تلخيصاً يتناول الأفكار الرئيسية ، التى يتناولها كل فصل ، كما أن هناك تعقيباً لزيادة إيضاح الأفكار الواردة ، أو تناولها بالنقد والتحليل .

ويتضمن الكتاب فى مواضع عديدة آيات من الذكر الحكيم وأحاديث نبوية . كما ذيل الكتاب بقائمة المراجع والعربية والإنجليزية ، التى وردت فى متن الكتاب، وحيث تم ترتيب وتسلسل هذه المراجع ، وفق التسلسل الرقمى الوارد فى متن الكتاب . كما صنفت قائمة المراجع ، على أساس وضع مراجع كل فصل من فصول الكتاب على حدة .

هذا بالإضافة إلى تضمين الكتاب لجداول ونماذج إيضاحية لبعض الموضوعات، التى اقتضى الأمر جدولة بياناتها أو إيضاح محتواها .

ونرجو أن يرافق هذا الكتاب – بمشيئة الله – الكتاب الثانى فى سلسلة التفسير الإسلامى وعلم النفس المعاصر ، والخاص بإسهامات وتاريخ الدراسات النفسية عند علماء المسلمين ، بهدف استكمال جانب مهم من التأصيل الإسلامى للدراسات النفسية ، ولإبراز جهود علماء المسلمين فى عديد من الأفكار والمفاهيم والقضايا ، التى يعالجها علم النفس المعاصر .

ونود أن نذكر أن كل موضوع من موضوعات هذا الكتاب يحتاج إلى مبحث قائم بذاته ؛ الأمر الذى جعلنا نقتصر على أهم الجوانب المتعلقة بمختلف المظاهر السلوكية ، التى وردت ضمن موضوعات هذا الكتاب .

كما نسأل الله أن يمكننا من استكمال الجهد المتكامل فى طبعات قادمة ، أو من زملاء آخرين أكثر نتاجاً فى هذه المباحث .

وأخيراً نتقدم بهذا الكتاب للدارسين فى أقسام علم النفس والتربية والجامعات العربية وغيرها ، وإلى الراغبين فى التزود بهذا العلم ، ونرجو أن يحقق هذا الكتاب الهدف من إعداده .

وإذ نتقدم بهذا الجهد المتواضع ، فإننا نرجو القبول من الله تعالى ، وأن ينعم علينا دائماً بفضله وكرمه .

كما ننتهز هذه الفرصة ، ونتقدم بوافر الشكر والتقدير إلى زميلنا وأخينا الفاضل الاستاذ الدكتور عبدالله النافع ، الأستاذ بقسم علم النفس بكلية التربية

بجامعة الملك سعود بالرياض ، والذى نعتز بزمالته وعلمه ، وحيث سعدنا بمشاركته فى عديد من الدراسات والبحوث ، وكان لآرائه ومعاوناته العلمية وجهده المتواصل وتشجيعه الدائب ، ما جعلنا نبذل كل جهد فى هذا الإنتاج العلمى وغيره .

كما نود أن نُشير إلى ريادته فى تضمين ما يُعرف بمقرر التفسير الإسلامى للسلوك – والذى يمثل هذا الكتاب المحتوى الخاص بالتفسير الإسلامى للسلوك ، وحيث أصبح مقرر هذه المادة العلمية فى الثمانينات من القرن الماضى ضمن خطة الدراسة بقسم علم النفس بكلية التربية بجامعة الملك سعود بالرياض ، وغيرها من أقسام علم النفس بجامعات المملكة العربية السعودية ، ونسأل الله أن يجزيه خير الجزاء لإخلاصه ووفائه فى عمله وتعامله .

وبعد .. نسأل الله دوام فضله ، ونرجو أن يكون من وراء هذا الجهد المتواضع بعض العلم الذى ينفع ، وأن تكون هذه اللبنة المتواضعة بداية الطريق أكثر اثراءً لمزيد من الدراسات الرائدة للتفسير الإسلامى للسلوك الإنسانى .

وبعد ... (ربنا لاتؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا) .

(وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين) .

المؤلفــــون

القاهرة : مصر الجديدة

٢٠ ربيــع الآخر ١٤٢٢

١١ يوليو ٢٠٠١

المحـــــتوى

الباب الرابع

الإسلام وتكامل بناء الشخصية

الباب الأول

مدخل عام

الباب الأول
مدخل عام

* **تمهيد :**

كتاب الله . . الذى نزل بالحق لهداية الناس جميعاً ، والذى لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وسنة النبى المباركة ... الذى كرمه الله تعالى وخلقه فى أحسن تقويم ؛ إذ يمكن للقارئ المتمعن أن يجد فيهما النبع الكبير الأصيل عن طبيعة الإنسان ، الكثير من آيات الذكر الحكيم ومن أحاديث الرسول المصطفى عليه أفضل صلاة وتسليم التى توضح أدوار الإنسان فى الحياة ، وعن السلوك الإنسانى ، ومايحركه من حاجات ودوافع ، وعن انفعالات الإنسان وعاداته السلوكية وإحساسه وإدراكه ونشاطه العقلى ، وغير ذلك مما يتصل بالعديد من القضايا والجوانب التى تعد من قضايا واهتمامات علم النفس منذ أمد بعيد وحتى وقتنا المعاصر .

وقد مثل هذا البناء الشامخ الشامل فى أصوله الثابتة ، مع غيره من أصول أخرى سيأتى ذكرها فى موضعها ... مصدراً متجدداً للفكر الإسلامى الخاص بدراسة النفس الإنسانية الذى يستمد واقعه من الأمد البعيد والقريب أى من الأصالة والمعاصرة للتفسير الإسلامى للسلوك الإنسانى .

هذا ويشتمل الباب الأول كمدخل عام للتفسير الإسلامى للسلوك الإنسانى على أربعة فصول :

الفصل الأول : قضايا واهتمامات علم النفس المعاصر ونماذج السلوك.

الفصل الثانى : الهدى الإسلامى ومكونات النفس الإنسانية .

الفصل الثالث : المفهوم الإسلامى وأحوال النفس الإنسانية .

الفصل الرابع : مدخل لدراسة التفسير الإسلامى للسلوك الإنسانى .

الفصل الأول

قضايا واهتمامات علم النفس المعاصر ونماذج السلوك

المحتوى :

* تمهيد
* قضايا واهتمامات علم النفس المعاصر
* ماهية السلوك
* الاهتمامات الرئيسية فى دراسة السلوك الإنسانى .
* التوافق البيئى للإنسان .
* النماذج الأساسية للسلوك الانسانى .
* تلخيص .
* تعقيب .
* تمارين .

الفصل الأول

قضايا واهتمامات علم النفس المعاصر

تمهـــيد :

قبل أن نتعرف على قضايا واهتمامات التفسير الإسلامى للسلوك الإنسانى ، نحتاج إلى تحديد الموضوعات الرئيسية النظرية والتطبيقية التى يهتم بها علماء النفس فى الوقت المعاصر .

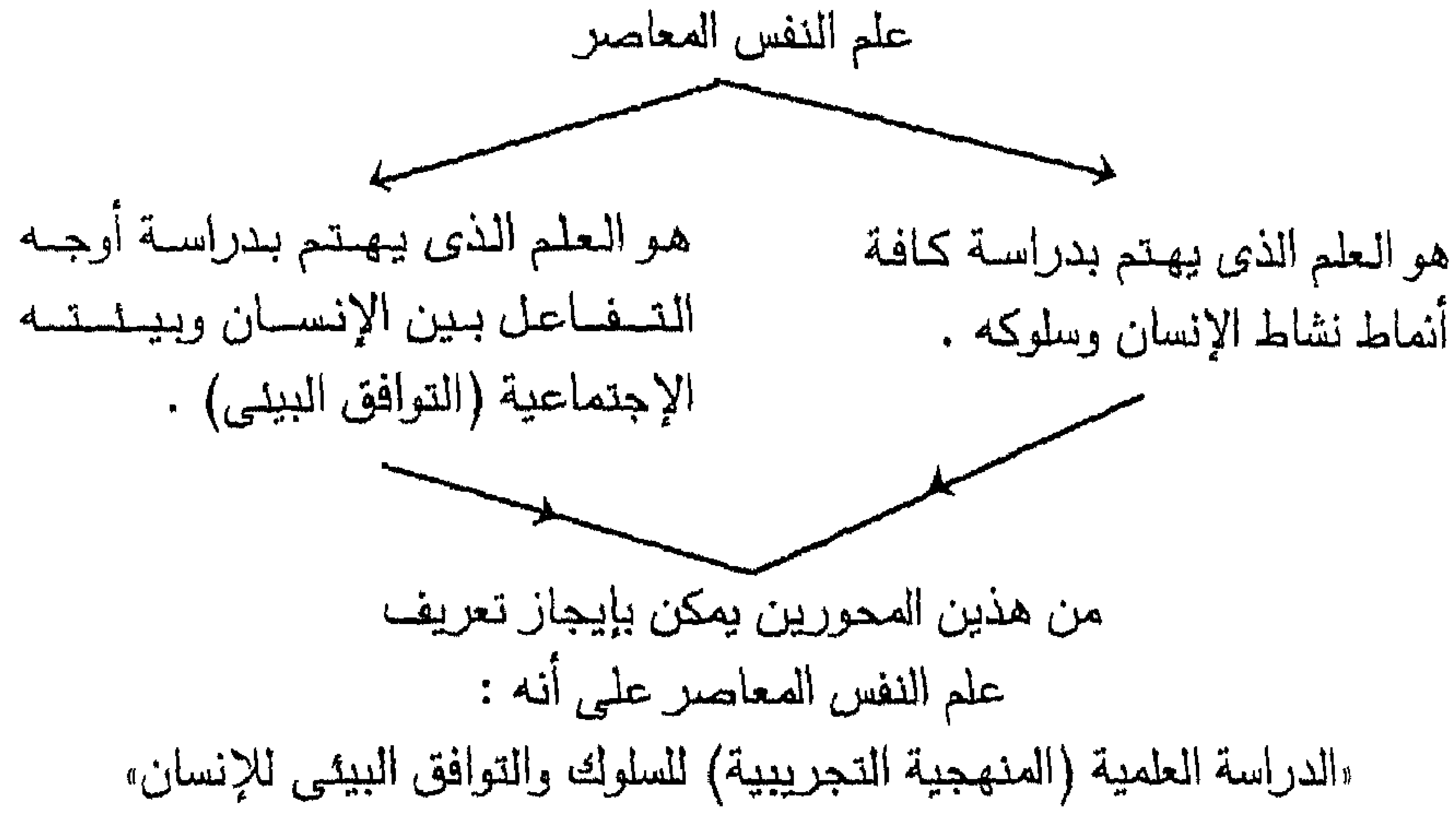
وفى السنوات الأخيرة جذب علم النفس انتباه العامة والخاصة بسبب آفاقه وميادينه ونظرياته وازدهاره السريع ، وأضحت تفاسيره ونتائجه فى ميادين العلاج النفسى والطب المرضى وميادين الجريمة والإدارة والسلوك الفردى والجماعى ، والتطبيقات المتعددة للدراسات النفسية موضع اهتمام لعديد من الدارسين للعلوم الإنسانية والنفسية والاجتماعية . بيد أن الناس دأبت إلى الاهتمام بالنفس ، منذ أقدم العصور حيث كانت هناك المعتقدات والأساطير الخاصة بالنفس، وتأثير النفس وخلود النفس والمصير والعلاج ... وكانت هذه الدراسات رغم الجانب الذاتى فيها وقصورها العلمى ، ترد إلى أصول واهتمامات عند الإنسان لمعرفة كنه النفس .

وفى وقتنا المعاصر يحتل علم النفس فى المدارس والجامعات بين العلوم الإنسانية مكانة واضحة ، حيث هناك البرامج والدراسات والمختبرات ، وحيث تشعبت ميادينه وتدرجت وتعددت آفاقه وتطبيقاته .

ولما كان علم النفس المعاصر يختلف فى قضاياه واهتماماته ، عما سبقه من دراسات تختص بالنفس الإنسانية عند علماء المسلمين وماسبقهم من الفكر الإغريقى أو غيره ، فإنه يتعين علينا أن نحدد قضايا واهتمامات علم النفس المعاصر .

قضايا وإهتمامات علم النفس المعاصر : *

يمكن أن نوجز اهتمامات وقضايا علم النفس المعاصر فى الشكل التالى ، والذى يمكننا من الوصول إلى مفهوم علم النفس المعاصر .



(شكل رقم (١) لتحديد مفهوم علم النفس المعاصر) .

السلوك الإنسانى بين النظرية والتطبيق :

يهتم علماء النفس فى الوقت المعاصر بدراسة جوانب متعددة فى نشاط الإنسان وسلوكه . وتتعدد الاتجاهات بين علماء النفس ، فمنهم من يهتم بالجوانب النظرية للسلوك بينما يتجه آخرون إلى الجوانب التطبيقية فى دراسة السلوك .

وقبل أن نوضح أمثلة لبعض من هذه الاهتمامات ، نود أن نشير إلى أن مصطلح علم النفس Psychology (سيكولوجى) . اشتق من الكلمتين اليونانيتين Psyche أى الذات أو العقل أو الروح ، وكلمة Logos وتعنى العلم أو الدراسة .

* لانميل إلي استخدام كلمة الحديث في وصف علم النفس أو غيره من العلوم الإنسانية ، فالجهود السابقة تمثل الاصالة في العلم والجهود المعاصرة تمثل المعاصرة في العلم . والحاضر نبت الماضي ، والماضي يؤثر في الحاضر ، والحاضر القائم في وقتنا المعاصر ، سيغدو الماضي في القريب العاجل .

أى إن المصطلح «سيكولوجى» الذى يستخدم بصورة شائعة فى وقتنا المعاصر ، معناه دراسة الذات عن طريق مايظهر منها فى الأداء والعمل بنشاط .... أى فى السلوك بصفة عامة . ومن الاهتمامات النظرية أو التطبيقات العملية فى دراسة السلوك مما يتمثل فى اهتمامات بعض العلماء بدراسة :

١– صور ومظاهر وجوانب النشاط والعمليات النفسية العامة .

٢– مابين الأفراد والجماعات من فروق فى القوى النفسية والاستعدادات والقدرات الخاصة .

٣– مراحل النمو المختلفة التى يمر بها الفرد فى حياته ، وخصائص كل مرحلة من النواحى الجسمية والعقلية والانفعالية .

٤– الخصائص النفسية للجماعات والصور المختلفة للتفاعل الاجتماعى ودور القيم والاتجاهات والتعصب على سلوك الإنسان .

٥– السلوك السوى والسلوك اللاسوى (المنحرف) كالجريمة وإنحراف الأحداث والضعف العقلى ، ومحاولة وصف الجوانب السلوكية وتفسيرها وبيان أنجع الوسائل فى علاجها .

٦– توجيه المواقف التعليمية والتربوية لتحقيق الأهداف الموضوعية بكفاءة ومحاولة حل المشكلات الخاصة باكتساب المعارف ونعلم اللغات وكيفية علاج التأخر الدراسى .

٧– الاستخدام الأمثل لرفع كفاية الإنتاج فى الوحدات الصناعية ، ورفع معنويات العمال ، وتهيئة الظروف المثلى للإنتاج .

٨– حاجات المستهلكين والدوافع المؤثرة فى سلوك البيع والشراء والقوى المؤثرة فى ذلك كالدعاية والإعلان .

٩– العلاج النفسى وتشخيص جوانب الاضطرابات والأمراض النفسية كالتخلف الدراسى وحالات القلق والاكتئاب والمخاوف واضطرابات الكلام ، ومحاولة علاج هذه الاضطرابات باستخدام المقاييس النفسية .

هذه الجوانب النظرية والتطبيقية الخاصة بدراسة السلوك – هى على سبيل المثال لا الحصر – تقوم على دراسة الظواهر النفسية التى تتمثل فى السلوك الإنسانى المتعدد الأنماط والعمليات المختلفة التى تتضح فيه كالتفكير والانفعال

والتذكر والتعلم ، هذا بالإضافة إلى وجود أساليب مختلفة للسلوك تميز كل فرد عن غيره من الأفراد ، وتتلاءم أو تتعارض مع ظروف الموقف الذى يوجد فيه الفرد ، مما يؤدى إلى توافق أو عدم توافق سلوك الفرد .

لذلك إذا كان السلوك Behaviour يُمثل محوراً رئيسياً لقضايا وإهتمامات علم النفس المعاصر ، فإنه يتعين علينا أن نحدد ماهية السلوك !! .

ماهية السلوك :

تتعدد جوانب السلوك الإنسانى ، ذلك لأن النشاط والظواهر السلوكية ذاتية (ترتبط بالإنسان الفرد) ، وهى غير مباشرة ومعقدة ، الأمر الذى يشكل صعوبات تعترض الباحثين والدارسين .

وفى اهتمامات علم النفس بدراسة السلوك مايشير إلى أنه مُتغير تابع للزمن، بمعنى أن العمر فى تعاقب مراحله يؤثر فى السلوك كماً وكيفاً .

فعند دراسة مراحل النمو ، نجد أن مظاهر النمو تتمثل فى السلوك من الكل إلى الجزء ، ومن العام إلى الخاص ، وغير ذلك من القوانين الخاصة بالنمو فى تطوره البنائى التكوينى الوظيفى من الطفولة وعبر مدارج العمر حتى اكتماله ؛ أى وصوله إلى النضج (أى اكتمال الوظائف الخاصة بالنمو) .

لذلك يمكن أن نحدد **ماهية السلوك** ، على أنه عبارة عن :

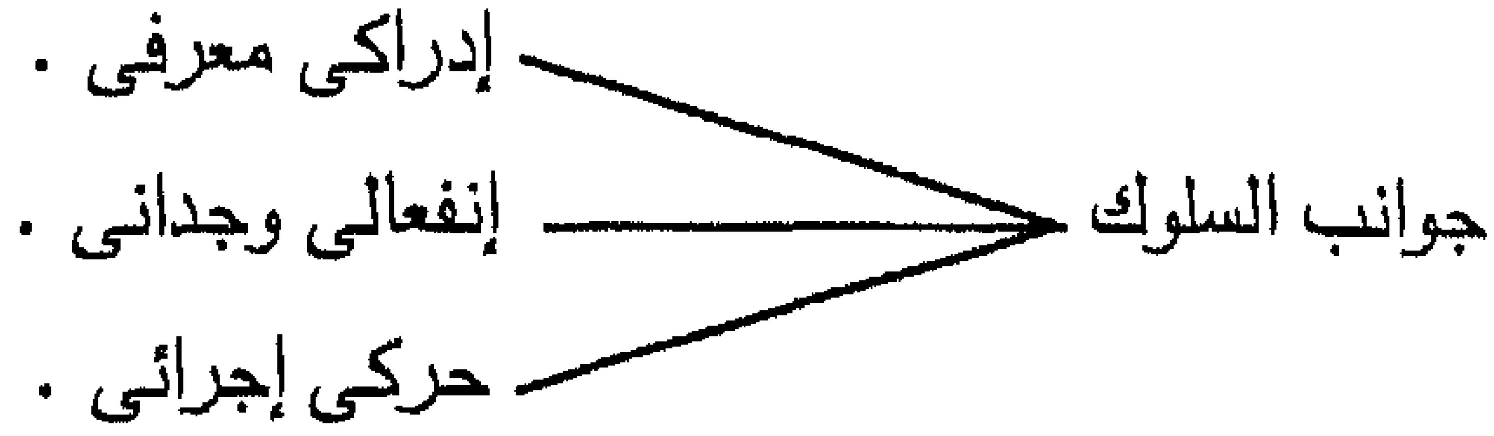
«النشاط الكلى المركب الذى يقوم به الفرد والذى ينطوى على عمليات جزئية وحركات وأداءات تفصيلية » . ويهتم علم النفس بالكليات فى السلوك ، بدرجة أكبر من الجزئيات ، أى بالنشاط الكلى أكبر من النشاط الجزئى .

وليس معنى ذلك إهمال النشاط الجزئى ، فهناك حالات لابد أن نتناول النشاط الجزئى فيها بالتحليل ؛ حتى يمكن تعرف الأداءات التفصيلية فيها ، لتعلم نشاط معين أو تعديل سلوك معين .

مثال ذلك فى تعلم الكمبيوتر أو الآلة الكاتبة أو الآلة الحاسبة يكون الاهتمام بحركات الأصابع ، والمهارة اليدوية التى يكتسبها المتعلم ، كى يتم التدريب عن طريق توجيه حركات الأصابع أفضل توجيه لسرعة وإتقان اكتساب مهارة استخدام الآلة الكاتبة أو الحاسبة .

.... إذاً ما معنى السلوك كنشاط كلي مركب ؟

الواقع أن السلوك كنشاط كلي مركب يتضمن ثلاثة جوانب رئيسية :(١) .



١- **الجانب الإدراكي المعرفي** : Perceptual & Cognitional هذا الجانب من السلوك يختص بإدراك المظاهر والأحداث المختلفة التى تدور حول الفرد ، والتى يحدث فيها تفاعل برموز ومعان معينة ، والتى تشتمل العمليات العقلية كالإدراك والتمييز والتفكير والتصور والتخيل والتذكر والتعبير اللغوى ، وغير ذلك من الجوانب المعرفية والعقلية فى سلوك الإنسان .

٢- **الجانب الانفعالي الوجداني** : Emotional & Sentimental هذا الجانب يُمثل الحالة الانفعالية المصاحبة للسلوك ، كالميل إلى موضوع معين والإقبال عليه، وفى هذا مايمثل منشطات ومحركات للسلوك . وهذا الجانب أيضاً يتضمن الشعور بالارتياح أو عدم ارتياح تجاه موضوع معين ، مما يؤثر فى تثبيت Affective fixation (تثبيت انفعالى) أو تدعيم السلوك Reinforcement أو انطفاء Inhibition (كف) الاستجابة الخاصة بهذا السلوك .

٣- **الجانب الحركي الإجرائي** : Motional & Operational هذا الجانب يمثل الاستجابات الحركية التى تتم عندما يواجه الفرد مواقف معينة ، كالتوقف عن المشى ... عندما تجد أمامك حفرة عميقة وتدرك مخاطر الوقوع فيها ، أو إيقاف السيارة عندما تقترب من إشارة المرور . كما أن هناك أيضاً تنبيهات لفظية قد يعقبها استجابات حركية إجرائية أيضاً .

.... هذه الجوانب التى يتشكل منها السلوك ، تعمل فى وحدة كلية متكاملة Integrated wholesome، كما يظهر السلوك ومايتبعه من استجابات فى تقسيمات وصور السلوك نعرضها كالآتى :

١- **السلوك الظاهر** : Apparent

كالأكل والشرب والمشى والجلوس ومحادثة الآخرين وركوب الدراجة وقيادة

السيارة .... الخ .

٢- **السلوك الباطن** : Unapparent

كالتفكير والتخيل والتذكر ، وهو سلوك لايمكن ملاحظته ، ويمكن لهذا السلوك الباطن أن يكون عقلياً كالتفكير أو وجدانياً كالانفعالات والعواطف ... إلخ .

٣- **السلوك الفطرى** : Initial

وهو الذى يُولد الإنسان مزوداً به كالسلوك المتمثل فى تناول الطعام والشراب والإخراج والراحة والسلوك الجنسى والأمومة ... الخ .

٤- **السلوك المكتسب** : Acquired

وهو الذى يكتسبه الإنسان ويتعلمه من البيئة الاجتماعية كالرغبة فى التحصيل والتفوق ، والرغبة فى الأمن والشعور بالتقبل الاجتماعى واكتساب المعارف والمهارات .... إلخ .

٥- **السلوك السوى** : Normal

وهو فى المجتمع الإسلامى مايتفق مع الشريعة الإسلامية وفى المجتمعات الأخرى ، مايتفق مع عادات وتقاليد وأعراف هذه المجتمعات . ومعيار السواء والإنحراف له مناظير مختلفة . فمن الناحية الإحصائية يعد سوياً كل سلوك يتفق وتقاليد المجتمع أو يتفق مع غالبية سلوك أعضاء المجتمع . ومن المنظور الإسلامى يعد كتاب الله العزيز وسنة رسوله المباركة الأساس الذى يمكن الحكم به على سوية السلوك الذى يتفق مع الشريعة الغراء والهدى الإسلامى .

٦- **السلوك المنحرف أو الشاذ** : Abnormal

وهو مايُغاير ما أشير إليه من قبل سواء من المنظور الإحصائى أو الإسلامى.

.... أما عن بنية السلوك Structure فإن السلوك عبارة عن خبرة لاتتجزأ ، رغم أن بعض المظاهر السلوكية ، أو بعض أحداث السلوك تتميز فى ناحية على الأخرى ، وتصبح أكثر وزناً وأهمية من غيرها . مثال ذلك إذا كنا نركز الإهتمام على جانب من جوانب السلوك أو نعمل على استقصاء هذا الجانب من الجوانب الأخرى ، من أجل الدراسة العلمية ، فليس معنى هذا أن هناك خبرة سلوكية

لاتضم الجوانب التى يتشكل منها السلوك والتى سبق الإشارة إليها .

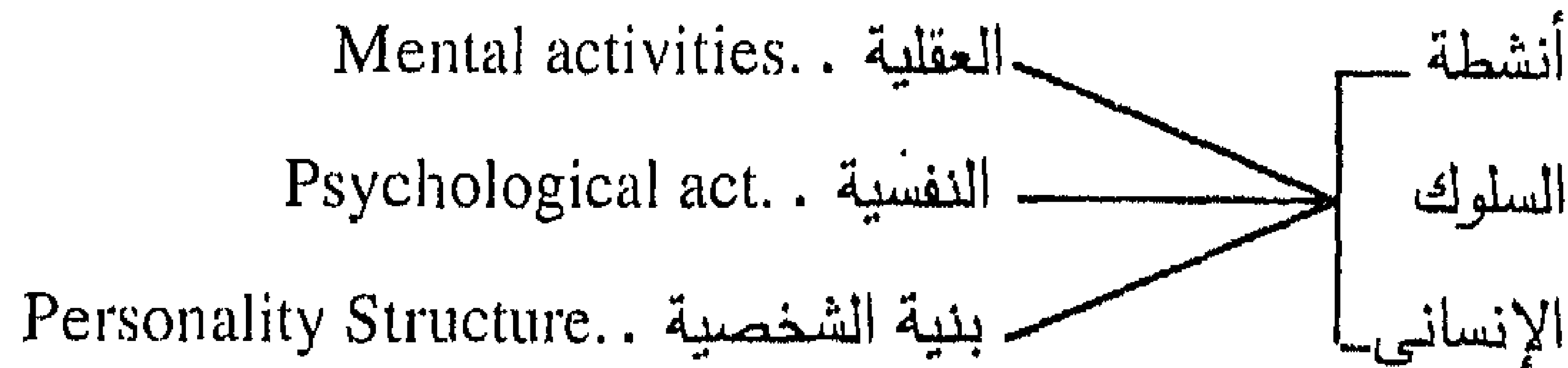
كما أن من خصائص السلوك مايُعرف بأنه عملية ديناميه dynamic، أى أنه قابل للتعديل والتغيير والتكيف والتطور ، وفقاً لما يقع على الكائن الحى من مؤثرات خارجية ، أو مايتعرض له من آثار مترتبة على هذا السلوك .

ولايقتصر علم النفس فى إهتماماته بدراسة السلوك على مرحلة معينة من مراحل الحياة الإنسانية ، إذ إن بدء تشكيل النطفة فى رحم الأم وعند الميلاد والخروج إلى الحياة فى صورة وليد ورضيع وفطيم وعبر مراحل الطفولة المبكرة والمتأخرة والبلوغ والمراهقة والشباب ، كما يتابع التغيرات السلوكية التى تحدث عبر مراحل الرجولة والكهولة والشيخوخة ، ويكشف عن القوانين والمبادئ التى تحكم مظاهر السلوك عبر مراحل العمر فى تدرجها ، ويعمل على توجيه وتنسيق قوانين وحقائق النمو فى نظام متكامل .

هذا بالإضافة إلى مايجب تأكيده فى مفهوم السلوك من أنه يتضمن التوافق البيئى للإنسان ، حيث إن الظروف البيئية ، تكون أساس محاولات وتكرارات وأداءات تصدر عن الإنسان ، للتعديل أو التغيير أو التحسين فى سلوكه ، كى تتوافق مع مقتضيات الحياة ، وحتى يتحقق للفرد التوافق النفسى مع أفراد مجتمعه وبقاء استمراره .

الاهتمامات الرئيسية فى دراسة السلوك الإنسانى :

نعرض فيما يلى الأنشطة التى يتشكل منها السلوك الإنسانى ، والتى تمثل الاهتمامات الرئيسية فى دراسة السلوك الإنسانى فى الدراسات النفسية المعاصرة :



١ - **الأنشطة العقلية** : يشير جيلفورد Guilford ١٩٧١ (٢) إلى النشاط العقلى فى سلوك الإنسان ، بأنه النشاط الذى يتميز عن غيره من أشكال النشاط الأخرى ، من حيث كونه يحقق للفرد تكامله ووحدته ، ويجعل الفرد منفاعلاً مع بيئته . وهذا المعنى لايقتصر على دراسة السلوك من الجانب العقلى (الراقى) عند الإنسان ، بل أيضاً مايتصل بالسلوك من جوانب أخرى فى

البناء النفسى للإنسان ، وفى تفاعله مع العوامل والمؤثرات الداخلية (الفسيولوجية والحيوية) ، والخارجية (الاجتماعية والثقافية) .

٢- **الأنشطة النفسية** : والتى تندرج تحتها الوظائف العقلية العليا فى سلوك الإنسان مثل : الإدراك - التفكير - التذكر - الانتباه - التصور - التخيل .... كما تتضمن تعلم اللغة واستخدامها كوسيلة اتصال حيوية فى الحياة الاجتماعية . كما تتضمن الأنشطة النفسية الدافعة أو المحفزة للسلوك ، والجوانب الانفعالية والوجدانية والحركية والإجرائية ، وحيث تدخل هذه الأنشطة فى تشكيل غالبية مظاهر السلوك والعمليات الناتجة التى تشكل الاستجابات الخاصة بالسلوك .

٣- **بنية الشخصية** : أى البناء النفسى للإنسان ، والأنشطة الكلية التى تشكل بنية الشخصية ، والتى يندرج تحت مكوناتها السمات :

أ - الجسمية العضوية . ب- العقلية المعرفية .

جـ- الإنفعالية العاطفية . د- الاجتماعية .

ومن شأن هذه السمات ، الإهتمام بدراسة تكامل البناء التكوينى للإنسان ، وحيث يحدد ذلك أسلوب ونمط السلوك ونوعيته فى المواقف الحياتية ، والتباين والفروق بين الأفراد فى المجتمع الواحد .

التوافق البيئى للإنسان :

من المحاور الرئيسية فى اهتمامات علم النفس المعاصر بجانب دراسة السلوك الإنسانى ... دراسة التوافق البيئى للإنسان . فقد تعددت مدارس علم النفس وتنوعت فروعه ، وتناول الباحثون فى مجالات علم النفس العديد من مشكلات الحياة الفردية والجماعية اليومية والمهنية والصحية النفسية ، كمشكلات وموضوعات إندرجت تحت مسميات سيكلوجية منها : سيكولوجية التعلم ، سيكولوجية النمو ، مشاكل السلوك ، اضطرابات الكلام .... إلخ .

والواقع أننا لانستطيع أن نُعرف علم النفس بما وصل إليه إتجاه علماء النفس فى الوقت المعاصر ، بأنه علم دراسة مشكلات الإنسان . فالمشكلات الاقتصادية والإجتماعية والتربوية والمهنية والصحية العقلية ، هى مشاكل من صنع البيئة ذاتها قبل أن ينفعل الإنسان بها ، أو يستجيب لها فى أنماط سلوكية متعددة .

والمشكلات عبارة عن قضايا أو مسائل عامة تثير الاتجاهات العقلية للأفراد وتوجه سلوكهم . وقد يهتم بدراستها علم النفس وعلم الاجتماع لأنها صعوبات تعترض المواقف الإنسانية التى تواجه الأفراد والجماعات ، وحيث تحفز انتباههم وتثير إهتمامهم ، بغية مواجهتها والتصرف بإزائها والسلوك وفق مقتضياتها .

كما أن هذه المشكلات تظهر أيضاً كمشكلات فى مجالات السلوك الإدراكى، والمعرفى والحركى أثناء نمو الطفولة والمراهقة والرشد والشيخوخة ، أى عبر مراحل العمر وتطوره ، وفى المواقف التربوية والمهنية وفى تنظيم الجماعة ، والصحة النفسية ... إلخ .

وعلم النفس لايهتم بالمشكلات كتنبيهات أو مواقف مادية خارجية قدر إهتمامه بالسلوك كإستجابة دافعها الانفعالى بالتنبيه ، وغايتها السلوك الناجم من التوتر الذى أثاره الإنفعال عند مواجهة الموقف سلوكياً على نحو أو آخر ؛ إذ لابد أن تتحول المشكلات التى هى قضايا أو مسائل موقفية إلى حالة نفسية حتى يستطيع أن يجعلها علم النفس موضوعاً له .

ومن الواضح أنه فى كل مجالات الحياة التى تثير مشكلات التفكير والسلوك، يهتم علم النفس بدراسة مدى وكيفية توافق الإنسان بالموقف . ومكنون الطبيعة الإنسانية – بل طبيعة كل كائن حى :

أ – التكيف بالبيئة للمحافظة على البقاء .

ب– والتخلص من توتر الانفعال بالمواقف المتجددة المتغيرة باستمرار ، بغية الاقتصاد فى الجهد وراحة النفس والشعور بالأمن ، وهو مايعرف بالتمتع بالصحة النفسية .

وكلما كان الإنسان أكثر توافقاً مع البيئة ، وتوافقاً مع متطلبات المواقف الحيوية – فهو فرد سوى ، موفقاً عملياً ومقبولاً اجتماعياً ويتمتع بالصحة النفسية . وكلما قعدت بالإنسان نشأته الاجتماعية غير التوافقية وشخصيته الفردية غير المتكيفة ... عن السلوك السوى الذى يؤازره الفكر الناضج والخبرة الواعية ... فهو فرد غير سوى وغير متوافق .

والحياة بكل مجالاتها التى تفرع إليها علم النفس فى مرحلة تفريعه إلى علوم وبكافة مشكلاتها التى تعاظمت تحت كل فرع من هذه الفروع ، يمكن النظر

إليها إذاً من جانب الفرد الذى يهتم علم النفس بسلوكه وتفكيره ، على أنها فى جملتها مسألة توافق أو عدم توافق Adjustment or Maladjustment .

لذلك من ناحية التوافق والسلوك الإنسانى ، يمكن أن نصوغ تعريفاً لعلم النفس ينطبق على ما وصل إليه من تقدم في وقتنا المعاصر ، كما يشتمل اهتمام علماء النفس فى الآونة الحاضرة ، وحيث يعرف علم النفس على أنه : «الدراسة العلمية للتوافق أو عدم التوافق للفرد الإنسان عند مواجهة متطلبات المواقف الحياتية ، عند استجاباته لهذه المواقف ، ووفق خصائص وسمات طبيعته الإنسانية» .

وهذا التعريف الخاص بالتوافق والسلوك الإنسانى ، يتفق مع ماسبق أن قام بصياغته (دسوقى – ١٩٧٤) (٣) . بأن علم النفس : هو «علم دراسة توافق الفرد أو عدم توافقه مع متطلبات مواقف حياته التى تمليها عليه طبيعته الإنسانية الشخصية فى استجاباتها للمواقف.» وفى رأى (دسوقى) أن هذا التعريف :

١– يبرز عنصر الغاية أو الهدف من السلوك أو الخبرة – وهو التوافق النفسى .

٢– يعنى الاستجابة للموقف ويبرز حركة أو فعل مواجهة الموقف سلوكياً أو عقلياً ، مقابل إبراز عبارة «متطلبات مواقف حياته» للجانب الإدراكى المعرفى فى الموقف .

٣– عبارة «طبيعة الإنسان الشخصية» تنطوى على الإشارة لكون دوافع سلوك الإنسان وتفكيره الموجه للسلوك قوامها تكون الشخصية اجتماعياً وفردياً واتسامها بالتوافق أو عدم التوافق ، حيث إن كلمة تمليها تعنى التوافق فى السلوك أو عدم التوافق . وحيث يؤثر ذلك فى بناء شخصية الفرد التربوية بحيث تصبح مزيجاً من الطبع أو التطبع ، يفرض نفسه على سلوكه وعلى اعتقاداته وخبراته بالناس من حوله والأشياء والمواقف .... لايحيد عنه إلا بصعوبة وإعادة تربية .

كما أن هذا التعريف لعلم النفس بالتوافق ، له خاصيته من حيث كونه ينطبق على علوم النفس المرضية والسوية ، النظرية والتطبيقية ، إضافة إلى ربطه للفرد الذى يدرسه علم النفس بالجماعة والمجتمع الذين يدرسهما علم الاجتماع – من حيث إن علاقة الفرد بمجتمعه علاقة توافق أو عدم توافق ، حيث أنه :

١- إذا كان علم الاجتماع يدرس تنظيم المجتمع وتفككه ومشاكله التى تنجم عن تغير المواقف .

٢- فإن علم النفس يدرس مدى توافق شخصية الفرد ، بمشكلات تغير المواقف على أساس تنظيم هذه الشخصية من الناحية الإدراكية والمعرفية الموجهة لهدف التوافق النفسى .

كما أن التكوين العقلى للإنسان ، هو انطباع صورة حياته الاجتماعية ، بحيث كلما تغير تنظيم وبناء عالم الواقع الذى هو بيئة الإنسان ، وجب عليه تغيير بناء وإعادة تنظيم خبراته وسلوكه كى يتكيف ويتوافق مع عالم الواقع الذى يواجهه ، ومن ثم يتمتع بالصحة النفسية .

ولعل سر ا نتشار الأمراض النفسية والعقلية فى وقتنا المعاصر ، إنما أساسه صعوبة ملاحقة التوافق : النفسى والعقلى والعملى لمتغيرات البيئة الإنسانية بإستمرار ، حيث لم يعد يواجه الإنسان فى توافقه بيئة محلية أو بيئية قومية فقط ، بل أصبح الإنسان المعاصر يواجه بيئة عالمية إنسانية تتجدد بتجدد الحياة نفسها .

والواقع أن التوافق من شأنه أن يوائم الإنسان بين ذاته والعالم الذى يعيش فيه من أجل البقاء ، وهذا التوافق أبعاده :

- التوافق الشخصى . Personal adjustment.
- التوافق الاجتماعى . Social adjustment.
- التوافق المهنى . Vocational adjustment.

والتوافق الشخصى نعنى به أن يكون الإنسان راضياً عن نفسه ، وأن تخلو حياته النفسية من الصراعات النفسية والتوتر ، والتى ترتبط بمشاعر الذنب والقلق والنقص . وهناك عوامل تتوسط بين الظروف الاجتماعية التى يمر بها الفرد والإنحرافات النفسية ، وهذه العوامل هى : الإحباط والصراع والقلق والكبت .

ومن حيث إن الإنسان يعيش فى وسط اجتماعى ... ومن حيث إنه يحدث فى إطار المجتمع عمليات من التفاعل فيما بين الأفراد والجماعات والمجتمع ، ويربط بين الأفراد نمط ثقافى معين ، كما أن سلوك الأفراد يتم وفق مجموعة من النظم والعادات والقيم التى تضبط سلوكهم ... فإن هذا يعرف فى علم النفس

المعاصر بعملية التطبيع الاجتماعى أو التنشئة الاجتماعية Socialization والتى تتم وفق أبعاد تتمثل فى:

- الالتزام بأخلاقيات المجتمع .
- الامتثال لضوابط وقواعد الضبط الاجتماعى .
- التفاعل فى مجالاته المتعددة : الاجتماعى ... الأسرى ... المدرسى ... المهنى .. وغير ذلك .

أما عن التوافق المهنى فهو ما نقصده بتوافق الفرد فى عمله ، وهو يشمل توافق الفرد لمختلف العوامل البيئية المحيطة به فى العمل والمتغيرات التى تطرأ عليها ، وتوافقه لخصائصه الذاتية ، ومع رؤساؤه ومرؤسيه ، ومع متطلبات العمل ومايحتاجه من استعدادات ومع متغيرات العمل ، ومع القدرات والميول الشخصية للفرد ذاته .

النماذج الأساسية للسلوك الإنسانى

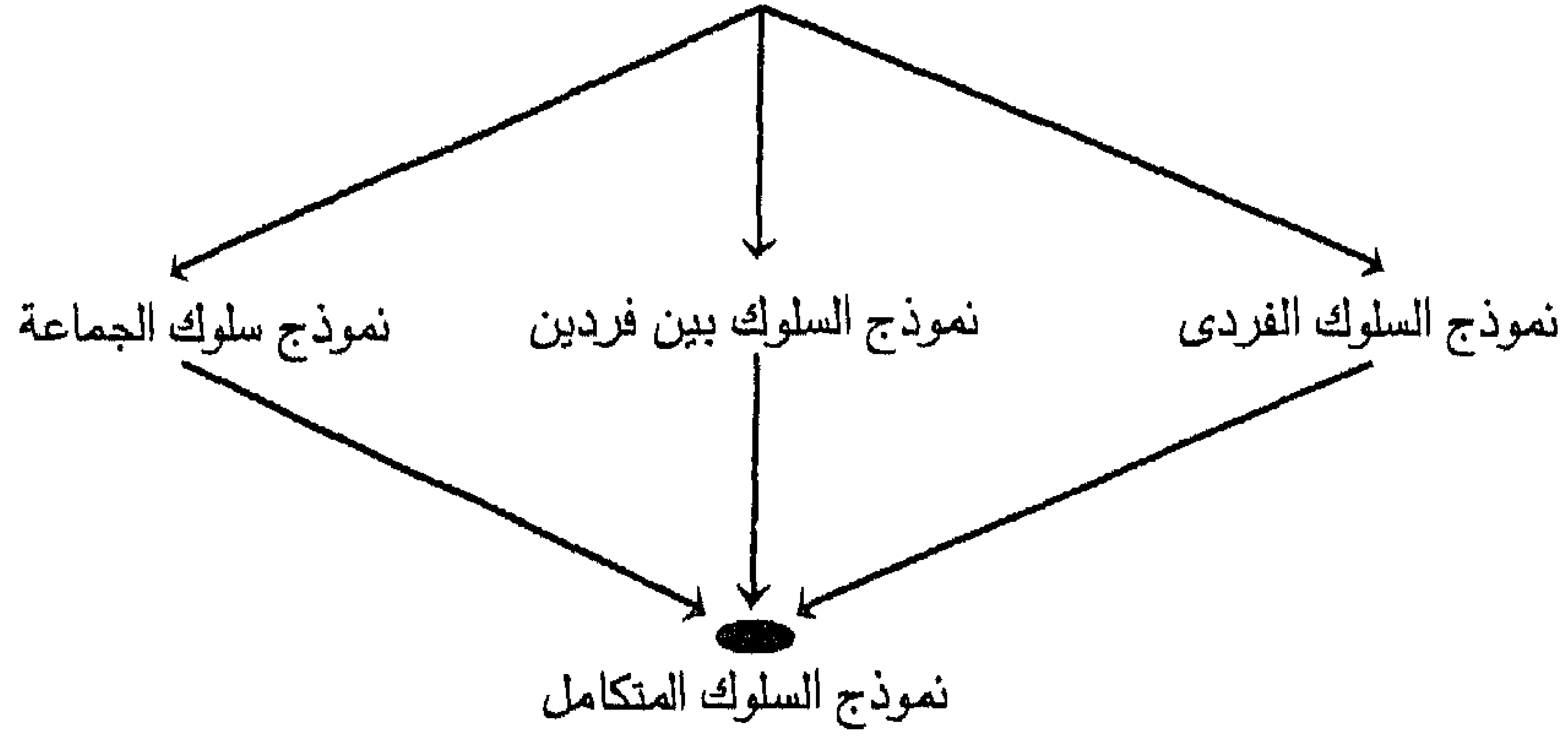
تعتمد الدراسة العلمية للسلوك الإنسانى بدرجة كبيرة على نوعية الافتراضات Assumptions والمفاهيم Concepts ، التى يحتفظ بها الباحث حول ظاهرة السلوك وعملية تنظيم وتنسيق الفروض ، والافتراضات والمفاهيم تسمى بناء النماذج Model Building ، وهى تحدد العناصر Elements المكونة للظاهرة السلوكية والعلاقات بينها ؛ مما يسهل :

(أ) فهم الظاهرة السلوكية .

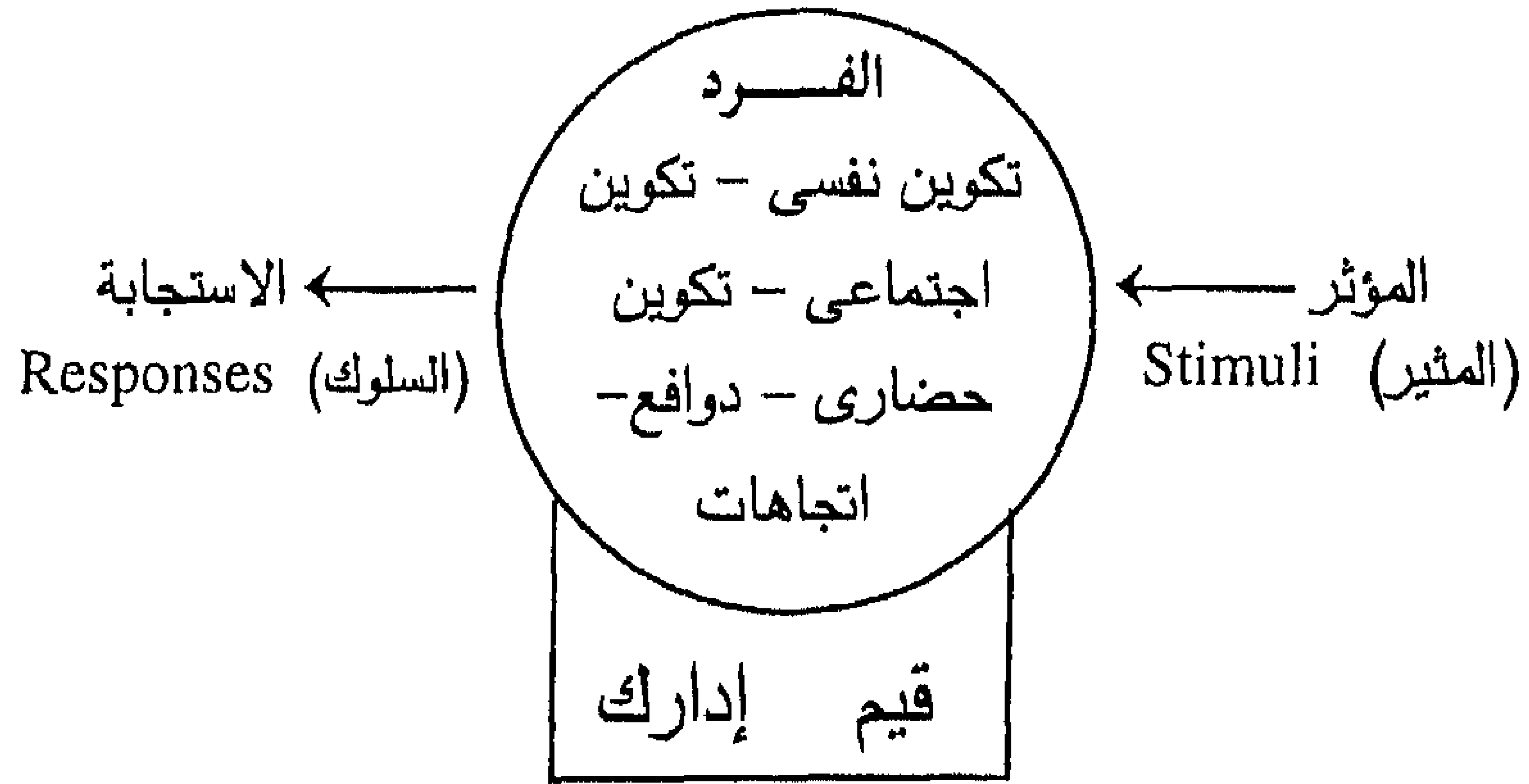
(ب) تفسير الظاهرة .

(جـ) التنبوء بالظاهرة السلوكية .

وهناك على الأقل ثلاثة نماذج أساسية عن السلوك الإنسانى عرض لها علماء النفس ، بالإضافة إلى نموذج تكاملى للسلوك ، يوضحها الشكل التالى :



نموذج السلوك الفردي The Individual Model



يسمى الصندوق الأسود Black Box

شكل (٢) : نموذج السلوك الفردى.

لوحظ من هذا النموذج :

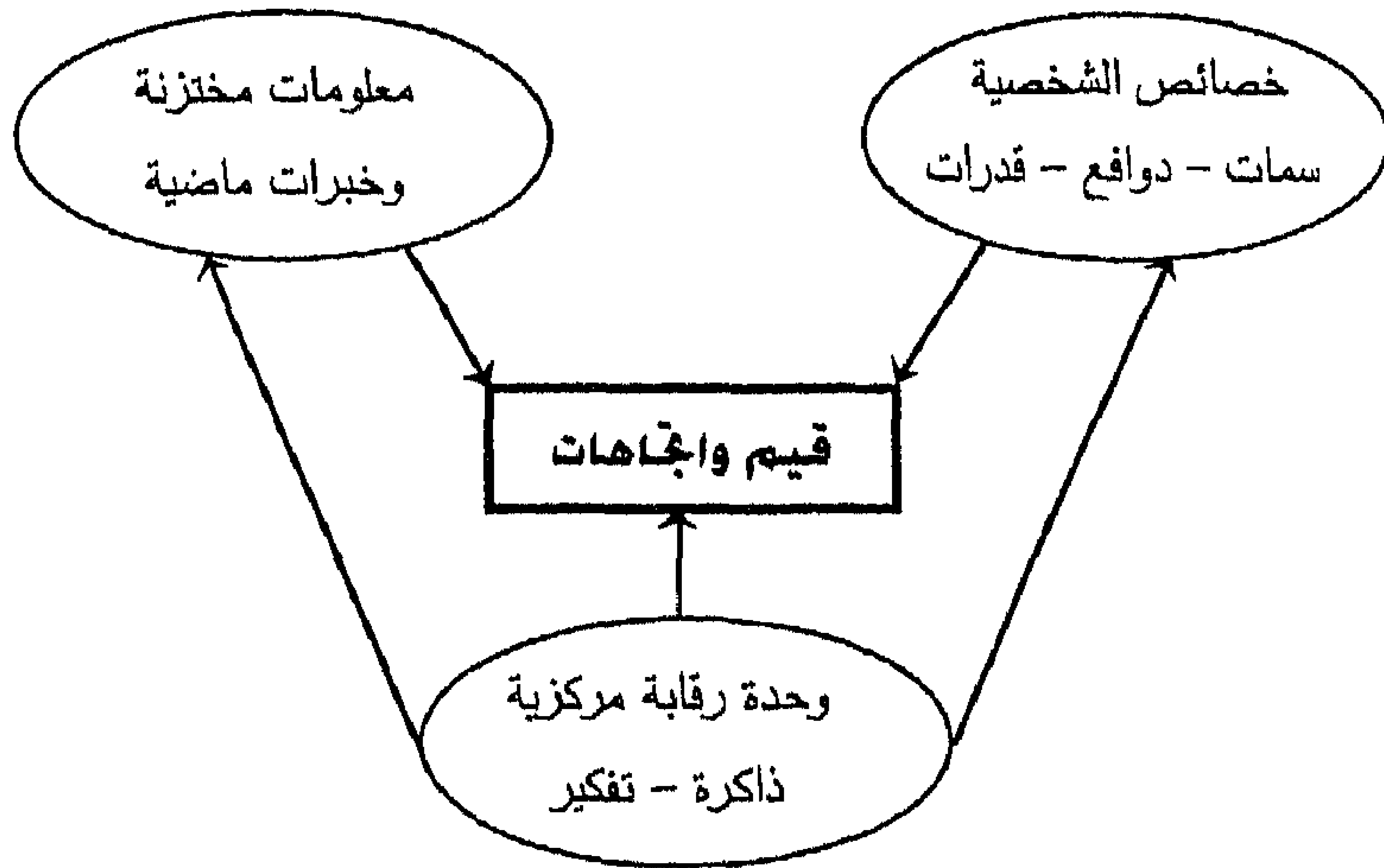
١– المؤثر الواحد ينتج أنواعاً مختلفة من السلوك لدى أفراد مختلفين ، وربما لدى نفس الفرد .

٢– مؤثرات مختلفة تحدث الاستجابة نفسها .

٣– هذا النموذج لايقدم إجابات قاطعة عن مشكلات سلوكية بعينها .

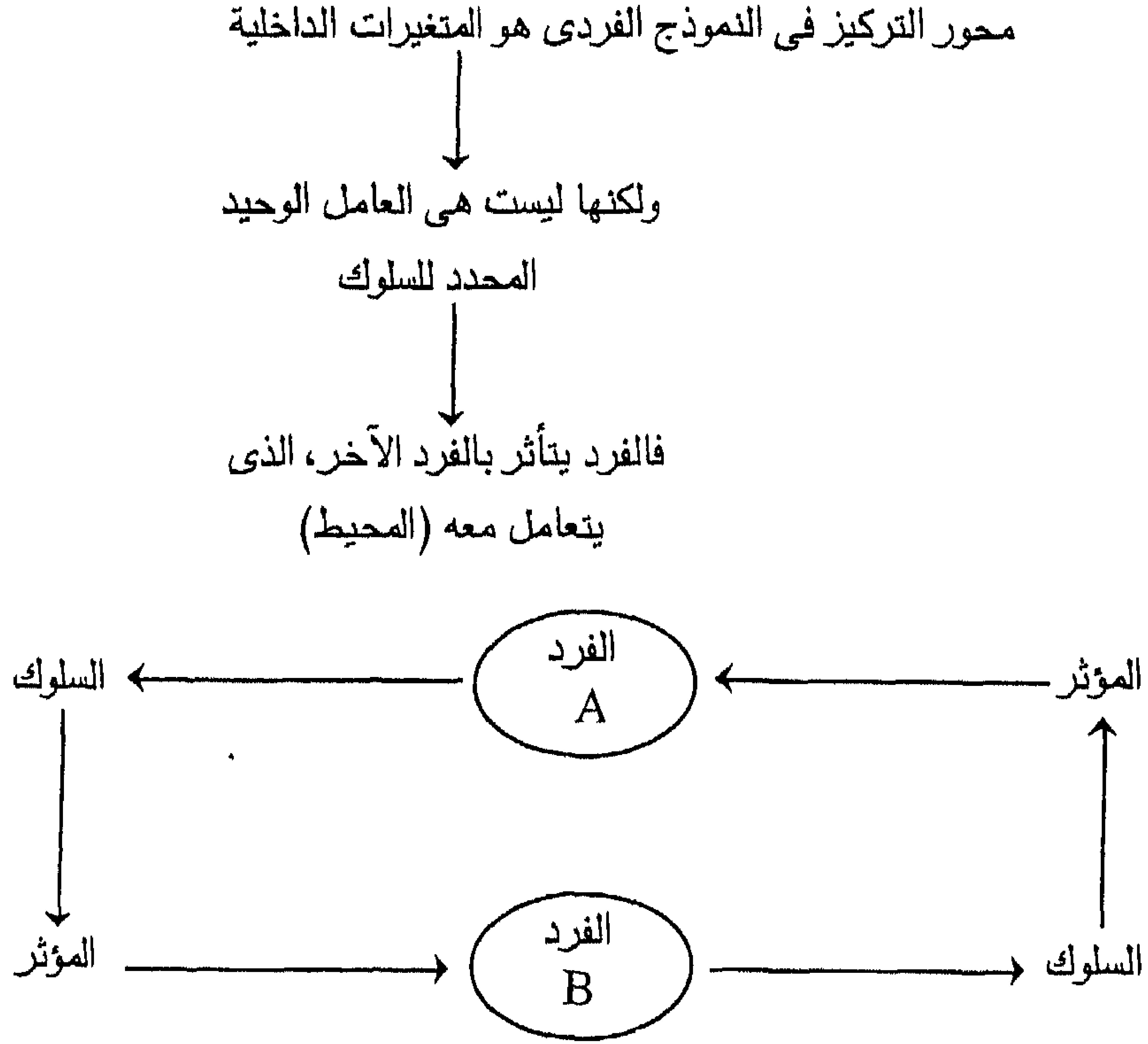
٤- يوفر أساساً منطقياً أولياً يفسر السلوك .

٥- تكوينات الفرد وخاصة التكوين النفسى تحتاج إلى التناول فى صورة تحليلية ، يبدو جزء منها فى الشكل التالى :



شكل (٣) : جزء من التكوين النفسى

نموذج السلوك بين فردين The Interpersonal Behavior Model



شكل (٤) : نموذج السلوك بين فردين

ويلاحظ فى هذا النموذج :

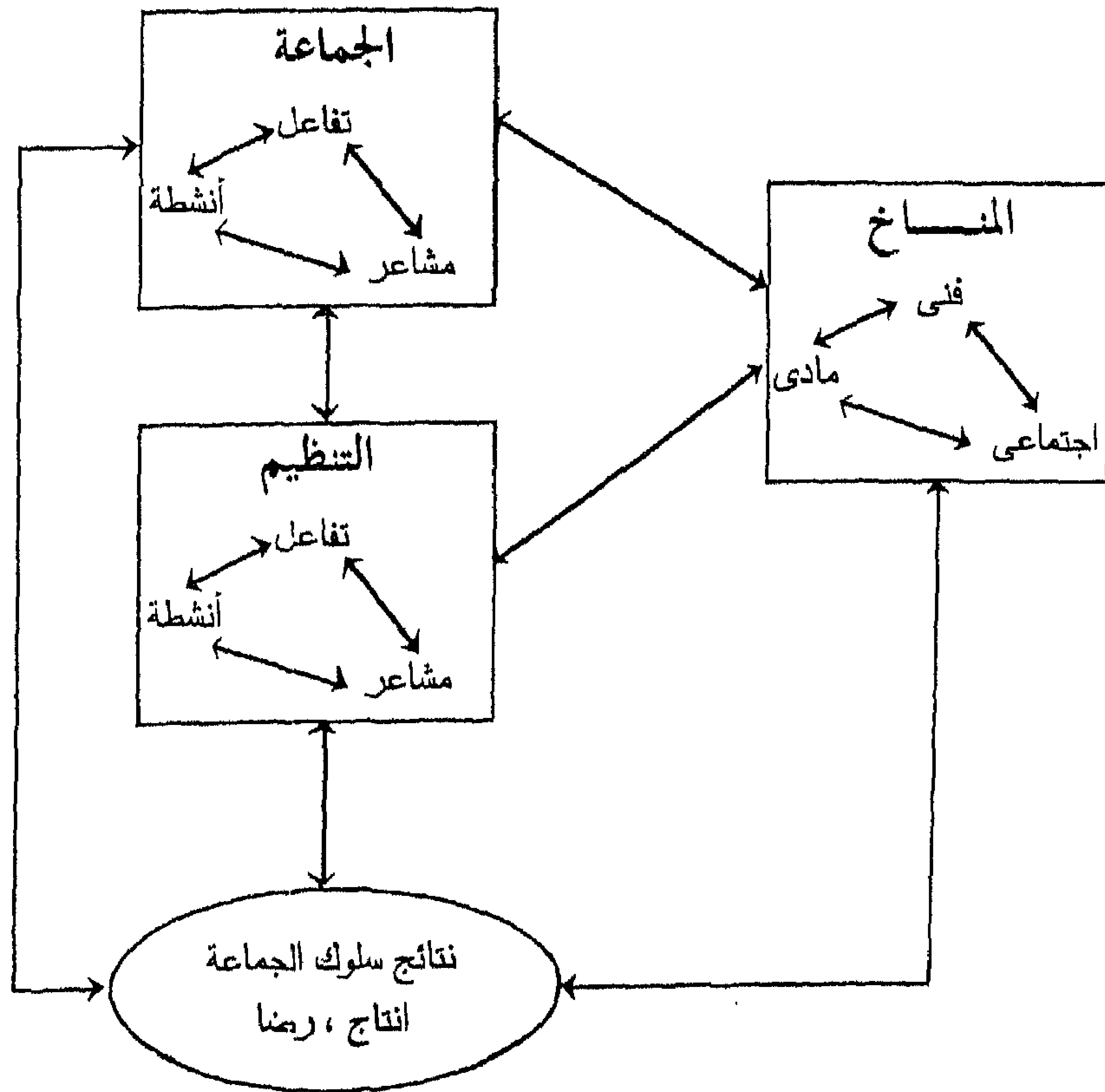
* أن سلوك الفرد A يعتبر بمثابة مؤثر على الفرد B .
* السلوك الانفعالى من A يستثير سلوكاً انفعالياً لدى B < يظهر / يتم ضبطه
* السلوك المتعقل من A يستثير سلوكاً متعقلاً غالباً لدى B
* سلوك من A ⟵ سلوك غير متوافق من B ، وفى هذه الحالة الأمر يحتاج إلى علاج ومثال ذلك : شخص غاضب يفهم حديث ودى من شخص آخر أنه شماته أو هجوم ...

نموذج سلوك الجماعة The Group Behavior Model

فى نموذج السلوك بين فردين ، رأينا كيف أن سلوك شخص ما يؤثر فى سلوك شخص آخر ، ويجعله يستجيب بشكل ربما يختلف عما تفرضه طبيعة تكوينه الذاتى .

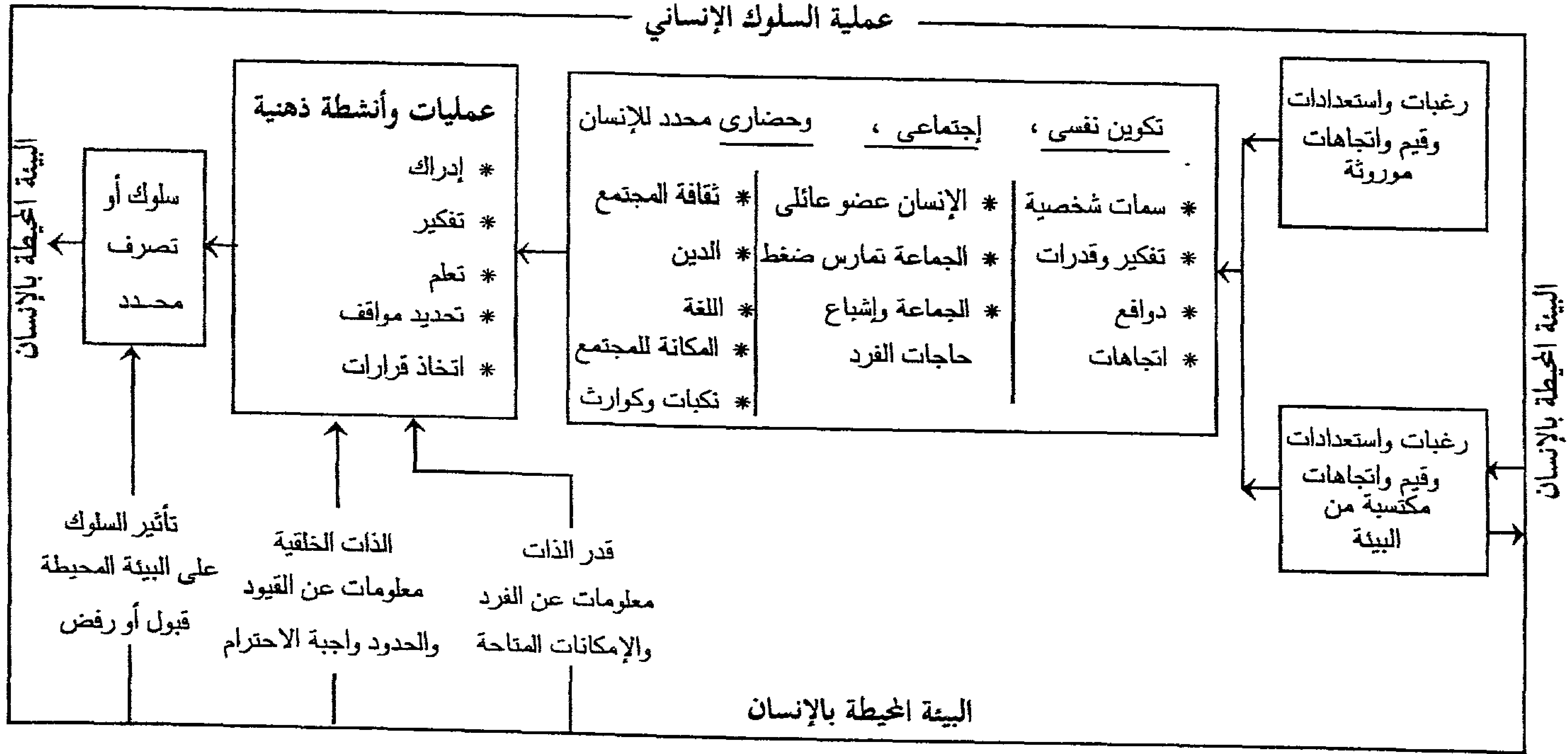
والأمر الآن لايقتصر على مجرد تكرار للعلاقات الثنائية ، فنجد الان كل فرد يتفاعل مع بقية أفراد الجماعة، وهنا نحتاج للايضاح ويثار السؤال التالى : كيف يتحدد السلوك فى المواقف الجماعية ؟

يفترض أن نموذج سلوك الجماعة يتكون من جماعة ، تنظيم ، مناخ ، وبين هذه المكونات نوع من التفاعل يحدد سلوك الجماعة ، والشكل التالى يوضح الأمر:



شكل (٥) : نموذج سلوك الجماعة

النموذج التكاملي للسلوك الإنساني
The Integrated Model of Human Behavior



شكل (٦) : النموذج التكاملي للسلوك الإنساني

* **تلخيص**

* علم النفس المعاصر وتصوره لنماذج السلوك الإنسانى تتعدد آفاقه وميادينه ونظرياته ، عما سبقه من دراسات تختص بالنفس الإنسانية عند علماء المسلمين وما سبقهم من الفكر الإغريقى أو غيره .

* يقوم علم النفس المعاصر على الدراسة العلمية (المنهجية التجريبية» للسلوك والتوافق البيئى للإنسان .

* تتعدد الاتجاهات المعاصرة فى علم النفس من جوانب نظرية وأخرى تطبيقية لدراسة الظواهر النفسية الخاصة بالسلوك الإنسانى المتعدد الجوانب والعمليات المختلفة التى تتضح فيه .

* دراسة السلوك فى علم النفس تشير إلى أنه متغير تابع للزمن ، يُمثل النشاط الكلى المركب الذى يقوم به الفرد ، وينطوى على عمليات جزئية وحركات وأداءات تتمثل فى جوانب إدراكية معرفية .. انفعالية وجدانية .. حركية إجرائية .

* يعمل السلوك فى وحدة متكاملة ، وتتعدد صوره : ظاهر .. باطن .. فطرى .. مكتسب .. سوى .. ومنحرف ، كما أن بنية السلوك تمثل خبرة غير مجزاة .

* من خصائص السلوك أيضاً أنه عملية دينامية أى قابل للتعديل والتغيير والتكيف والتطور .

* الأنشطة التى يتشكل منها السلوك الإنسانى : عقلية . . نفسية .. وبنية الشخصية .

* بجانب السلوك كمحور رئيسى فى اهتمامات علم النفس المعاصر ، هناك الاهتمام بدراسة التوافق البيئى للإنسان ، حيث يهتم علم النفس بدراسة مدى وكيفية توافق الإنسان فى المواقف والمشكلات التى تثير التفكير والسلوك . وحيث يتبع ذلك توافق أو عدم توافق للفرد عند مواجهة متطلبات المواقف الحياتية ، ووفق استجابات الفرد للمواقف تبعاً لخصائص وسمات طبيعته الإنسانية .

* تبعاً لذلك هناك مايُحدد علم النفس على أنه توافق أو عدم توافق الفرد مع متطلبات المواقف فى الحياة ، واستجابات الفرد وفق سماته الشخصية .

* من شأن التوافق أن يوائم الإنسان ين ذاته والعالم الذى يعيش فيه من أجل البقاء، وهذا التوافق أبعاده : توافق شخصى .. توافق اجتماعى .. وتوافق مهنى. ونكون هنا أمام نموذج متكامل للسلوك الإنسانى .

* **تعقيب :**

* من حيث إن علم النفس المعاصر يقوم على الدراسة العلمية (المنهجية التجريبية) للسلوك والتوافق البيئى للإنسان ، فقد تعددت الاهتمامات النظرية والعملية فى دراسة السلوك فى صوره المتعددة وأنشطته المتباينة وفى توافقه مع المواقف الحياتية أو سوء توافقه .

* وحيث تعقدت المواقف الحياتية فى المجتمع الإنسانى المعاصر ، وتبعاً لذلك تعددت مجالات وميادين الدراسات الإنسانية بصفة عامة ، والدراسات النفسية والاجتماعية بصفة خاصة ، فإن فروع علم النفس تشعبت فى واقعنا الحاضر ، لتواجه العديد من الدراسة المتعمقة المتأنية للمشكلات المادية والإنسانية والاجتماعية والاقتصادية التى تواجه الإنسان ، لتنظيم حياته ورفاهيته فى عالم دائب الحركة والتطور .

* وحتى يتم لعلماء النفس والمهتمين بفهم الإنسان من أجل محاولة تنظيم أو تغيير أو تعديل سلوكه ، ووصف الظواهر النفسية بغية التوصول إلى المبادئ العامة والقوانين التى تحكم هذه الظواهر ، أو بهدف الاستفادة من هذه القوانين فى التحكم فى السلوك الإنسانى ، وتعديله على أساس التوجيه السليم للفرد الإنسان فى المجتمع الإنسانى المتوافق ... فقد تعددت الاهتمامات والميادين فى علم النفس المعاصر وحيث تشتمل الميادين النظرية على : مدخل عام للعلوم النفسية – علم النفس الفسيولوجى – علم النفس الحيوانى – علم نفس النمو (طفولة – مراهقة – كبار) علم النفس الفارقى – علم نفس الشواذ (المرضى) – علم النفس الاجتماعى . كما تشتمل الميادين التطبيقية على : علم النفس التربوى – علم النفس الصناعى – علم النفس الإدارى – علم النفس التجارى – علم النفس الجنائى – علم النفس الحربى – علم النفس الكلينكى – هذا بجانب ميادين عديدة تطبيقية للنشاط الإنسانى فى قطاعات الحياة المختلفة .

* وإن كانت هذه الميادين والتفريعات قد استحدثت بعد أن مر الفكر النفسى عبر مراحل عديدة ، بدأت بالتطور الفلسفى على يد ديكارت (١٦٥٠) حتى نشأة العلم الحديث فى علم النفس على يد فخنر (١٨٦٠) وحيث تطورت علوم الفيزياء فى هذه الحقبة من الزمن وارتبط ذلك باستخدام قوانين الحركة فى الفيزياء فى تفسير وفهم السلوك الإنسانى والحيوانى . (٤)

ويمثل ديكارت بداية تطور تاريخ علم النفس المعاصر . (٥) وتبع ذلك ظهور مايعرف بسيكولوجية الملكات والتى تشير إلى وجود ملكات متعددة ترتبط بأجزاء معينة من الدماغ ، الأمر الذى أظهر الفراسة كعلم يتصل بالدراسات النفسية، وكان لهذه الأفكار آثارها فى الدراسات المعاصرة فى الفروق الفردية وفى الشخصية . (٦)

وتبع ذلك ظهور المؤثرات الفسيولوجية التى أدخلت علم النفس إلى العلوم التجريبية والتى استمرت تؤثر بعمق فى نظريات علم النفس المعاصر . وأدى ذلك إلى ظهور الدارونية التى تدنت بمستوى الإنسان ونظرت إليه على أنه استمرار للأشكال الأخرى من الحياة ، وكائن حى شأنه شأن الحيوانات ، ويتعرض لنفس المؤثرات والعوامل ، وإن كان سلوكه أكثر تعقيداً إلا أن سلوكه من النوع نفسه .

ثم تطور العلم بعد ذلك إلى إتباع المنهج العلمى التجريبى فى دراسة الطبيعة الإنسانية ، وظهرت بذلك مدارس عديدة لتفسير السلوك الإنسانى منها : المدرسة السلوكية – مدرسة الجشطلت – المدرسة الوظيفية – مدرسة التحليل النفسى . وغيرها من المدارس النفسية والتى سيرد ذكرها – بمشيئة الله – فى كتابنا الثانى «تاريخ الدراسات النفسية عند علماء المسلمين» .

* هذه المدارس دون الدخول فى تفاصيلها ونقدها وإظهار إيجابياتها أو سلبياتها ، تتعارض بعض أفكارها مع ماورد فى كتاب الله العزيز وسنة نبيه المصطفى عليه السلام ، وفى التفاسير الخاصة بالنفس الإنسانية للفلاسفة من علماء المسلمين والأئمة من السلف الصالح وعلماء الدين فى وقتنا المعاصر ، الأمر الذى احتاج إلى أن نبرز الحقائق الخاصة بالتفسير الإسلامى للسلوك الإنسانى ، وحيث نهتم فى جامعتنا العربية بعرض الآفاق الممتدة من الماضى وحتى وقتنا الحاضر فى المدارس الفكرية الخاصة بتفسير السلوك الإنسانى ، دون ما إشارة إلى دور علماء المسلمين ومساهمتهم لتتبين الخلط أو الإسراف الذى قد لايتناسب والهدى الإسلامى ، أو ليتضح للدارسين الإيجابيات والسلبيات فيما يدرسونه من فكر وارد إلى المجتمع الإسلامى منذ أمد بعيد .

* وقد يظن القارئ أن الدراسات النفسية المعاصرة رغم ما اتضح من آفاقها المتسعة لدراسة السلوك ونماذجه والتوافق البيئى للإنسان ، جامدة غير متحركة، والواقع غير ذلك فإن هناك الآفاق العديدة والجديدة فى علم النفس المعاصر (٧)،

والتى منها على سبيل المثال وليس الحصر :

١- الاتجاه التطورى النمائى (جان بياجيه) واستخدام المنهج الكلينكى فى البحث عن حقائق النمو النفسى للأطفال . (٨)

٢- الاتجاه البيولوجى والوحدة الوظيفية وأثر العوامل الاجتماعية الثقافية فى تشكيل المخ ، والكشف عن الميكانزمات العصبية التى تكمن وراء النشاط النفسى . (٩)

٣ - الاتجاه الاجتماعى التاريخى وتفسير العمليات النفسية كنشاط نامٍ متطور لأنها انعكاس للواقع الثقافى الذى يعيشه الفرد . (١٠)

٤- الاتجاه الإنسانى فى علم النفس ، وهو اتجاه يقع وسط بين المدرسة السلوكية ومدرسة التحليل النفسى ، فى دراسة السلوك الإنسانى ، من حيث الإهتمام بالإدراك اليومى للإنسان ، واحترام القيمة الذاتية للإنسان ، والاختلافات فى الاتجاه ، وتفتح العقل ودراسة العديد من الموضوعات المتصلة بسلوك الإنسان والتى تحتل مكانة ضئيلة فى النظريات والنظم القائمة فى علم النفس المعاصر.(١١)

٥- علم النفس التصرف (بيار جانى - الفرنسى) ، وهو يخالف آراء المدرسة السلوكية التى تقوم على إلغاء الوعى والعاطفة والتفكير والأفكار والاهتمام بدراسة السلوك ، والتى تزعمها واطسون فى أفكارها الأولى ، وحيث يرى «جانى» أن التصرف يتأثر بالوسط الاجتماعى بالغير والآخرين ، وبالوعى والغاية ، أى إن التصرف فى رأيه يمثل سلوكاً ، يضاف إليه الوعى والظواهر العليا فى الإنسان. (١٢)

٦- السيبرنطقيا (السيبرنية أو الربانية (من ربان السُفن)) ، وهى من أحدث نظريات علم النفس التى تحاول تمثل سلوك الإنسان عند دراسة الحركات المتعلقة بالآلات والأجهزة الميكانيكية ، وأساس اشتقاق اللفظ من اللغة اليونانية القيمة كوبرنتيكى Kuberneticke أى قائد السفينة . وتعتمد هذه النظرية على استخدام التنظيم والاتصالات فى الكائن الحى وفى الآلة حسب آراء العالم الأمريكى Wiener ، الذى كان وراء هذا العلم بالاشتراك مع البيولوجيين والرياضيين. (١٣)

ولايقتضى تعليقنا على قضايا واهتمامات علم النفس المعاصر ، أن ندخل

فى تفاصيل عديدة لما تشتمل عليه هذه القضايا من أفكار تتجدد كلما زاد الصراع الإنسانى فى عالمنا المعاصر ، إذ إنه ليس من اهتمامنا فى هذا الكتاب الدخول إلى هذه التفاصيل ، قدر ماهو إبراز الصورة القائمة الى أن المحور الرئيسى للدراسات النفسية المعاصرة يقوم على الدراسة العلمية (المنهجية التجريبية) للسلوك والتوافق البيئى للإنسان ، وحيث نعرض التفاسير والآراء الإسلامية فى السلوك الإنسانى ، والتى سنتبين من خلال فصول هذا الكتاب ما إذا كانت هذه التفاسير تتقارب أو تتباعد مع قضايا واهتمامات علم النفس المعاصر . فيما يتعلق بالسلوك والتوافق البيئى للإنسان .

إلا أنه يتعين علينا قبل أن ندخل إلى قوى النفس الإنسانية فى المفهوم الإسلامى .. ، إننا نود الإشارة إلى أن علم النفس المعاصر ، ابتعد عن الخوض بوجود «نفس» وراء سلوك الإنسان ، وحجتهم فى ذلك أن النفس يصعب بحثها من الناحية العلمية والعملية ، شأنهم فى ذلك شأن الدارسين فى العلوم الطبيعية الذين انتهجوا فى مناهجهم البعد عن الجوهر ، أو الطبائع المستقرة وراء الظواهر الطبيعية . والنفس الإنسانية فى واقعها تختلف عن الظواهر الطبيعية والتى تدرس من خارج منفصل عنها ، يلاحظ من بعيد ، وتخضع لتجارب العلميين القائمين بدراسة هذه الظواهر .

وعلم النفس المعاصر ، عندما يدرس الإنسان يلاحظ سلوكه من خارج وكيف يتأثر بالبيئة التى يعيش فيها وكيف يؤثر فيها . بينما الإسلام ينظر إلى الإنسان ... فى واقعه .. إلى جانب سلوكه الظاهر حيث يشعر بذاته أى يشعر بالخواطر التى تجرى داخله ، وهو يستطيع أن يصور شعوره ويحلل باطنه ، ويميز بين دوافعه واتجاهاته وميوله وعواطفه .

إضافة إلى أن الإنسان بإمكانه السمو إلى آفاق عليا روحانية دينية . لذلك فإن جوهر التفاسير والآراء الإسلامية فى السلوك الإنسانى يقوم على البحث فى النفس الإنسانية وتحليلها ومعرفة دوافعها وكيفية السمو بها وتعديل سلوكها ، إضافة إلى الاهتمام بالجانب الروحى وتعديل سلوكها ، إضافة إلى الاهتمام بالجانب الروحى والدينى والأخلاقى . وفى الفصول الثلاثة التالية نعرض مكونات النفس الإنسانية فى الاسلام .... خفاياها وفعاليتها وأحوالها ، ومايتصل بها من شهوات فتسمو أو تتدنى ، وعن طمأنينة النفس وثبات القلب وغير ذلك مما سيتضح مقاله ومقامه .

تمـــــارين :

١ – تتعدد قضايا واهتمامات علم النفس المعاصر ، والذى تزخر ميادينه النظرية والتطبيقية بالعديد من هذه القضايا والاهتمامات ؟ وضح .

٢ – حدد المعنى العام للسلوك الإنسانى .

٣ –ما الذى نقصده بالسلوك كنشاط كلى مركب ؟

٤ – ما القصد ببنية السلوك ؟

٥ – من المحاور الرئيسية فى اهتمامات علم النفس المعاصر ... دراسة التوافق البيئى للإنسان ؟ وضح .

٦ – حدد أبعاد التوافق النفسى عند الإنسان .

٧ – «هناك نماذج أساسية للسلوك الإنسانى لدى رواد علم النفس المعاصر» . اشرح ذلك فى تناول ناقد.

الفصل الثانى

الهدى الإسلامى ومكونات النفس الإنسانية

المحـــــتوى :

* **تمهيد**
* **دلالات الألفاظ الخاصة بالنفس الإنسانية فى القرآن الكريم :**
  - الدلالات اللفظية لمعنى النفس .
  - الدلالات اللفظية لمعنى القلب .
  - الدلالات اللفظية لمعنى الروح .
  - الدلالات اللفظية لمعنى العقل .
* **مفاهيم المكونات النفسية الإنسانية فى القرآن الكريم**
  - مفهوم النفس
  - مفهوم الروح :
  - آراء ابن حزم عن الروح .
  - آراء الإمام الغزالى عن الروح .
  - آراء ابن القيم الجوزية عن الروح .
  - مفهوم القلب .
  - مفهوم العقل .
* تلخيص
* تعقيب
* تمارين

الفصل الثانى

الهدى الإسلامى ومكونات النفس الإنسانية

تمهيد :

فى مكونات النفس فى الذكر الحكيم ، وفى الآيات البينات التى وردت فى كتاب الله العزيز مايدل على النظرة الشمولية المتكاملة للنفس الإنسانية . وقد يختلط على القارئ دلالات الألفاظ الخاصة بالنفس والروح والقلب والعقل ، الأمر الذى نحتاج معه إلى إيضاح هذه المكونات كما وردت فى القرآن الكريم .

وفى تفسير مكونات الطبيعة الإنسانية ، وردت فى كتاب الله العزيز فى أكثر من موضع آيات بينات توضح مكونات النفس الإنسانية ، وهذه الإيضاحات لها دلالاتها فى القرآن الكريم .

وعندما نظر علماء المسلمين إلى «النفس» لم ينظروا إليها على أنها «كيان مستقل أو جوهر قائم بذاته» ، وإنما كانت مباحثهم قائمة على أنها : «مجموعة الظواهر والحالات النفسية والخواطر التى فى خِبرة الإنسان» وقد تعرض الإنسان بالملاحظة والدراسة من قديم الزمن ، بما كان يعرف بالنفس الإنسانية .

وفى الفصل الثانى نعرض دلالات الألفاظ الخاصة بالنفس الإنسانية حسبما وردت فى الذكر الحكيم ، والتى تتشكل من :

١ – النفس ٢ – القلب

٣ – الروح ٤– العقل

كما نوضح مفاهيم هذه المكونات ، ونبين مدى اقتراب أو ابتعاد هذه المفاهيم من التفاسير الخاصة بالمفاهيم المقابلة فى علم النفس المعاصر .

دلالات الألفاظ الخاصة بالنفس الإنسانية فى القرآن الكريم:

وردت الألفاظ الخاصة بالنفس الإنسانية فى الذكر الحكيم كما سبق الإشارة إليها ، عدا لفظ «العقل» حيث ورد فى صورة «فعل العقل» .

وسنرتب إيضاح كل منها على أساس مدى شموله لمفهوم الإنسان ، بصورة عامة ، أو تخصصه لجوانب معينة منه .

وعلى هذا الأساس يكون إيضاح «النفس» فى البداية ، لأنها أوسع استعمالاً من مختلف بقية الألفاظ إذ غالباً ماتدل على كيان الإنسان بصفته كائناً حيّاً اصطفاه الله سبحانه وتعالى على سائر المخلوقات . ثم يرد لفظ «القلب» والذى يدل على العنصر الواعى والعاطفى فى الإنسان .

أما «الروح» وهى فى الذكر الحكيم تمثل حقيقة مجردة ذات أصل إلهى ، وتتصل بالإنسان على نحو خاص ، دون سائر المخلوقات .

أما العقل فقد سبق الإشارة إلى وروده بصورة «فعل العقل» وليس لفظة «العقل» ، وفعل العقل فى الذكر الحكيم يدل على الفهم والتفكير .

١- الدلالات اللفظية لمعنى «النفس» :

وردت لفظة «النفس» على صور متعددة فى صورة مفرد ومثنى وجمع ، فى كتاب الله العزيز (١٤) وحيث تكرر ورودها فى ٢٩٥ آية من آيات القرآن الكريم(١٥) ، وورد ذكرها فى الصور التالية :

نَفْسٌ – نَفْساً – نَفْسُكَ – نَفْسهُ – نَفْسَهَا

نَفْسى – النُفوس – نُفُوسكُمْ – الأنفسُ – أنفسكُمْ

أنفُسَنَاَ – أنُفَسُهْم – أنْفُسَهن .

وفيما يلى دلالات لفظة النفس فى القرآن الكريم : (١٦)

- وردت لفظة «النفس» فى الذكر الحكيم بمعنى أن الإنسان ... كائن حى أصله واحد (سواسية الخلق) ... يتكاثر .. ويكسب .. ويشتهى .. ويغضب .. ثم يجازى عن عمله أخيراً الجزاء الأوفى .
- وردت أحياناً للدلالة على طوية الإنسان وجوهره .
- وردت أيضاً للدلالة على شىء معين .
- كما وردت بمعنى الذات الآلهية جل فى علاه .
- ففى الآيات الدالة على الذات الآلهية قوله تعالى :

﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴾

(سورة آل عمران – آية ٣٠)

﴿ وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴾

(سورة طه – آية ٤١)

– ومن الأمثلة على استعمالها للدلالة على الإنسان قوله تعالى :

﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا ﴾

(سورة البقرة – آية ٤٨)

﴿ لا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلاَّ وُسْعَهَا ﴾

(سورة البقرة . آية ٢٣٣)

والنفس هنا بمعنى الذات الإنسانية كلها .

– كما استعملت كلمة «النفس» عند الدلالة على الإنسان لتشير إلى أشخاص بالذات كالأنبياء مثل قوله تعالى :

﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ ﴾

(سورة الكهف – آية ٦)

﴿ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي ﴾

(سورة يوسف – آية ٢٦)

– ومن الأمثلة على إستعمالها للإشارة إلى ضمير الإنسان وطويته قوله تعالى :

﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ ﴾

(سورة الإسراء – آية ٢٥)

– كما يُراد بها أحياناً الدلالة على أصل واحد للبشرية كقوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾

(سورة النساء – آية ١)

– كما وردت للدلالة كأمر خاص فى الإنسان ، قد يكون جوهراً قائماً بذاته، أو يكون مجرد تعبير مجازى عن حقيقة الإنسان وماهيته :

﴿ لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ . وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴾

(سورة القيامة – آية ١-٢)

– كما وردت بمعنى الروح والتى تدخل إلى جسم الإنسان وهو جنين ، وتخرج إلى بارئها عندما ينتهى الأجل كقوله تعالى :

﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ . ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴾

(سورة الفجر – آية ٢٧-٢٨)

– كما وردت اللفظة بمعنى العقل والقلب والفؤاد ، بما يتوافق مع مصطلح العرب عن النفس بمعنى العقل ، وحيث وصف العرب ذم العقل بالسفه الذى هو من الجهل وحيث يكون الجهل بخلاف الحلم وهو العقل ، كقوله تعالى :

﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ ﴾

(سورة البقرة – آية ١٣٠)

– كما وردت اللفظة بمعنى العقل أو القلب ، فالعلم ضد الجهل الذى ينسب إلى العقل والقلب كقوله تعالى :

﴿ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ ﴾

(سورة المائدة رقم ١١٩)

– وفى معنى العقل والقلب أيضاً ، ما ورد بمعنى الذكر الخفى والتضرع والخوف وهما ينسبان إلى القلب كقوله تعالى :

﴿ وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً ﴾

(سورة الأعراف رقم ٢٠٥)

– كما وردت بما يدل على فعل القلب من الحسرة وشدة الحزن كقوله تعالى:

﴿ فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ ﴾

(سورة فاطر – اية ٨)

– هذا وقد وصفت «النفس» بأحوال مختلفة سنعرضها تحت مايُعرف «بأحوال النفس» وهى : المطمئنة ... الوسواسة ... اللوامة ... الأمارة بالسوء...إلخ.

٢- الدلالات اللفظية لمعنى القلب :

وردت لفظة «القلب» فى القرآن الكريم فى ١٣٢ موضعاً (آية) ، وبذلك فإن لفظة القلب كان ورودها فى القرآن الكريم أقل وروداً من لفظة النفس .

ويظهر أن أكثر معانى القلب تدور حول المعنى العاطفى الوجدانى والعقلى فى الإنسان ، ولذلك يفسر على أساس الفطرة السليمة التى فطر الله تعالى الناس عليها ، كما يفسر على أساس العواطف المختلفة عند الإنسان ، سواء منها مايقوم على عنصر الحب أو عنصر البغضاء والكراهية (العواطف الإيجابية أو السلبية فى تقسيمها فى علم النفس المعاصر) .

كما يُفسر «القلب» أيضاً على أنه محل الهداية والإيمان والعلوم والمعارف والإرادة والضبط .

وورد لفظة «القلب» فى آيات الذكر الحكيم كما يلى :

قَلبٌ – قَلبكَ – قلبُه – قَلبْها – قَلْبى – قَلبَيْن – قُلُوب

قُلُوبكُما – قُلُوبكم – قُلُوبنا – قُلُوبَهم – قُلَوبهنَّ .

– ومما يدل على أن القلب موضع الفطرة السليمة قوله تعالى :

﴿ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾

(سورة الشعراء – آية ٨٩)

– ومن دلالة اللفظ على أن القلب هو المقصود به الاعتبار والفهم والهداية قوله تعالى :

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾

(سورة ق – آية ٣٧)

– وليس القلب دائماً محط الهداية والإيمان ، فقد يشير إلى الإثم والمعصية مثل قوله تعالى :

﴿ كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴾

(سورة الحجر – آية ١٢)

- أما دلالة لفظة القلب على العواطف النبيلة الطيبة أو المضادة المخالفة فمثل قوله تعالى :

﴿ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً ﴾

(سورة الحديد – آية ٢٧)

﴿ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ ﴾

(سورة آل عمران – آية ١٥١)

- وقد يستعمل الفؤاد فى القرآن الكريم بمعنى القلب ، واستعماله قليل كما هو شأن العرب فى استعمال الفؤاد كنية عن القلب ، ومثل قوله تعالى :

﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ ﴾

(سورة الأنعام – آية ١١٠)

﴿ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴾

(سورة النجم – آية ١١)

٣ – الدلالات اللفظية لمعنى «الروح» :

وردت لفظة «الروح» فى القرآن الكريم فى ٢٢ آية من آيات الذكر الحكيم ، ومع أن القرآن الكريم لم يكرر لفظة الروح إلا قليلاً إلا أن إستعماله كان أكثر تنوعاً.

ويتضح ذلك من ألفاظ آيات الذكر الحكيم التالية :

رُوَح – روحَ – روُحاً – روُحنا – روُحه – روُحى

- فقد وردت لفظة الروح بما يفيد إفاضة الحياة من الله على الإنسان كما تتمثل فى قوله تعالى :

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾

(سورة الحجر – آية ٢٩)

- والروح دائماً فى الذكر الحكيم مضافة إلى الله الواحد القهار دائماً . مثل قوله تعالى :

﴿ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

(سورة الإسراء – آية ٨٥)

– واستعملت الروح فى القرآن أيضاً للدلالة على خلق المسيح عيسى عليه السلام مثل قوله تعالى :

﴿ فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾

(سورة مريم – آية ١٧)

– كما استعملت للدلالة على القرآن ... كتاب الله العزيز ، مثل قوله تعالى :

﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾

(سورة الشورى – آية ٥٢)

– كما وردت كلمة الروح للدلالة على الوحى والملك الذى ينزل به مثل قوله تعالى:

﴿ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ﴾

(سورة غافر – آية ١٥)

هذا وسنوضح فيما بعد عندما نفسر مفهوم الروح ، صلة الروح بالجسد أى بالبناء الجسمى للإنسان باعتبار أن الخصائص والسمات الجسمية تؤثر فى سلوك الإنسان ، كما نوضح أيضاً معنى الروح فى الطبيعة الإنسانية وخاصة الجانب المعنوى فى حياة الإنسان سواء فى وجوده الفردى أو وجوده الاجتماعى .

٤– الدلالات اللفظية لمعنى «العقل» :

وردت لفظة العقل فى صورة فعل العقل فى القرآن الكريم فى ٤٩ آية من آيات الذكر الحكيم .

أما عن صور الألفاظ فهى كالآتى :

عَقَلُوهُ – تَعْقِلُونَ – نَعْقِلُ – يَعْقِلُهَا – يَعْقِلُونَ .

والعقل كمصدر لم يرد فى القرآن الكريم إطلاقاً ، وإنما ورد فعل العقل بمختلف اشتقاقاته . وكل الألفاظ الواردة تدل على عنصر التفكير عند الإنسان . أى أن القرآن لم يذكر العقل باسمه العلم أبداً ، كما أن العرب أنفسهم لايستعملون الإسم العلم للعقل إلا فى القليل النادر .

– من الآيات التى تدل على فعل العقل فى الذكر الحكيم على أنه عنصر التفكير فى الإنسان قوله تعالى :

﴿ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ ﴾

(سورة البقرة – آية ٧٥)

– وقد وصف القرآن الكريم العقل بأوصاف مختلفة منها :

– «اللب» مثل قوله تعالى :

﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الأَلْبَابِ ﴾

(سورة الرعد – آية ١٩)

– «النُهى» مثل قوله تعالى :

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لأُوْلِي النُّهَىٰ ﴾

(سورة طه – آية ٥٤)

– «الحلم» مثل قوله تعالى :

﴿ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلامُهُم بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾

(سورة الطور – آية ٣٢)

– «الحجر» مثل قوله تعالى :

﴿ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ﴾

(سورة الفجر – آية ٥)

– ومن الناحية اللفظية استعمل القلب مكان العقل ، بأوصاف مختلفة ، منها:

– «التدبر» وهو التفكر الواعى والفهم مثل قوله تعالى :

﴿ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾

(سورة محمد – آية ٢٤)

– «الفقه» بمعنى الفهم مثل قوله تعالى :

﴿ صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُون ﴾

(سورة التوبة – آية ١٢٧)

..... ما سبق يمثل الدلالات اللفظية لمعانى مكونات النفس الإنسانية فى القرآن الكريم . ونعرض فيما يلى مفاهيم مكونات النفس الإنسانية حسب ورودها فى القرآن الكريم ، وما يقابلها من تنظيم فى البناء النفسى للإنسان فى علم النفس المعاصر .

مفاهيم المكونات النفسية الإنسانية فى القرآن الكريم :

نورد فيما يلى مفاهيم المكونات النفسية الإنسانية كما وردت فى القرآن الكريم ، ونعرض فى ذاته الوقت ، ما يقابلها من تفاسير وتأويل فى علم النفس المعاصر .

١ - مفهوم النفس :

تعد النفس فى القرآن الكريم ، أوسع المكونات النفسية الإنسانية ، وهى حسبما أشرنا من قبل تدل على الكيان الإنسانى ككائن حى . والنفس الإنسانية ككيان للإنسان الفرد ، تمثل الكل المركب من الجسد والروح ، وهى التى نطلق عليها فى علم النفس «الذات» self أو ماتعرف «بالأنا» Ego. (١٧)

أى إن النفس الواردة فى الذكر الحكيم القصد بها مكونات وسمات الجسد والروح ، حيث أن سمات الجسم وخصائصه البنائية تشكل جانباً من الجوانب التى تحدد سلوك الإنسان الفرد ، بل تشكل أيضاً فعالية الإنسان ونشاطه وسلوكه .

وحيث إن الجسم والروح متلازمان ، فعلينا أن نوضح سمات الروح فى اتصالها بالجسم .

والروح فى العلوم النفسية قد يقُصد بها الروح المعنوية Morale أو Spirit «وهى القوة المعنوية أو الحالة النفسية التى تدفع الفرد نحو الإقدام أو الإحجام Ap-proach or avoidance لتدفع فيه حب الحياة ، وحب السعى فى مناكب الحياة ، والإقدام والمثابرة والتحمس . أو العكس بقصد إنجاز هدف أو أكثر من هدف ليصل الإنسان الفرد فى النهاية إلى غاياته وإلى حالة من حالات الرضا الذاتى . Self-Satisfaction، ولكنها تختلف عن الروح فى المفهوم الإسلامى فالروح سر من أسرار الخالق البارئ أودعها مخلوقاته. لأنها أساس الحياة والوجود.

لذلك فالنفس فى القرآن الكريم تمثل مجموع سمات الجسد والروح ، وتختلف كلية عن الجسد وعن الروح ، لأن صفات الكل شيء وصفات الأجزاء

المكون منه هذا الكل شيء آخر ، فضلاً عن الكل (كوحدة) غير مجموع عناصره وأجزائه .

وهكذا نجد أن القرآن الكريم ينظر إلى النفس نظرة متكاملة ، بينما يُقسم الجهاز النفسى فى علم النفس عند بعض العلماء إلى :

أ - اللاشعور : وهو الجزء الذى يشمل الدوافع والرغبات الجنسية ، وهذا الجزء يشمل جانبين : الهو ID وهو يمثل الجانب الغريزى الشهوى المورث والاستجابات المكبوتة .Repressed responses الخاصة ...... بالجنس والعدوان .

ب- الشعور : وهو كل مايمكن تذكره من أفكار وأحداث ووقائع ، وهو يمثل الذات المدركة Ego أو ماتعرف بـ «الانا» ، أى الجانب الواقعى فى بناء الشخصية .

جـ- الانا العليا : Super - ego أو الضمير ، والذى يبدأ ظهوره أثناء مرحلة الطفولة ، ثم يتتابع نموه فى المراحل العمرية التالية وهو يمثل الجانب المثالى ، وهو مكتسب .

وعندما ندقق فى هذه المكونات نجد أن هناك تماثلاً بين ماورد فى القرآن الكريم عن :

- النفس الأمارة بالسوء ، والتى تقابل «اللاشعور»
- النفس المطمئنة ، والتى تقابل «الانا العليا»
- النفس اللوامة ، والتى تقابل «الشعور»

هذا مانؤكده من أن القرآن الكريم فى وصفه للنفس الإنسانية يتسم بالنظرة الفاحصة الدقيقة التى تمتاز بالعمومية والشمولية .

ومن العمومية والشمولية مانجده فى القرآن الكريم من أن مركب الجسد والروح عند الإنسان ، يكسب حياته نشاطاً وحيوية ، وهى التى تدفعه إلى عمارة الأرض عندما يسعى فى مناكبها ، ويقيم الوجود الإنسانى حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

والروح لاتفارق الجسد طالما فيه حياة وحيوية ، وعندما يحم القضاء وتنتهى حياة الجسد ، فإن الروح تعود وتصعد إلى بارئها .

والجسد هو البناء الذى يجسد Enbody فى الفرد ، الجانب المادى المحسوس والملموس ، حيث أبان القرآن الكريم لفظة «الجسد» أو الجسم ، بما يدل على أن «الجسد» لايتعادل فى قيمته مع «النفس» أو «الروح» . ويتوافق هذا بأن الجسد يصبح رماداً بعد فناء ، فى حين أن الروح تخلد حتى يوم الحساب ، ولذلك هناك فرق واضح بين النفس والجسد .

ومن ناحية الاضطرابات والأمراض النفسية ، تبين وجود تزاوج بين الجسم والنفس ، حيث ثبت فى الدراسات الكلينيكية فى علم النفس المعاصر ، أن الأمراض النفسجسمية (السيكوسوماتية) التى يترتب عنها أمراض عضوية جسمية مثل قرحة المعدة والذبحة الصدرية وأمراض الحساسية ، توضح أن المتاعب النفسية توثر بالضرورة على الحالة الصحية والنفسية للفرد . وفى هذا كله مايؤكد مرة أخرى الصلة والرابطة بين الجسم والنفس .

٢- مفهوم الروح :

فى المعانى التى سبق الإشارة عنها فى الدلالات اللفظية للروح فى القرآن الكريم ، مايدل على أن «الروح» لاتدل على التكوين الجسمى أى الجسدى وحده ، ولا على «الجسد والروح» بمعنى الإنسان وفعاليته ونشاطه ، كما هو الأمر بالنسبة للنفس . وفى هذا ما يدل على تميز الروح عن النفس فى القرآن الكريم .

ليس هذا فحسب ، بل إن الذكر الحكيم يدعو إلى الانتباه بإن إدراكنا لطبيعة الروح قاصر فهى من أمر الله .

ولكننا نستطيع أن ندرك معنى مايوحى به فى الطبيعة الإنسانية من دلالات روحية ، إذ إن المعنى الذى يمثل جانباً هاماً فى حياة الإنسان ، هو الجانب المعنوى Moral وخاصة الأخلاقى ، والذى يجعل الإنسان وفق ماحباه الله من فطرة أن ينمو بذاته ويضبط سلوكه ويرتفع بقدر نفسه ، ويعلو على الماديات الحسية المتمثلة فى مساوئ الشهوات ومايصاحبها من ماديات ، كما يتطلع إلى الجانب المضئ فى بنائه الشخصى ، وهو الجانب الروحى والذى أشارت إليه الآيات القرآنية الكريمة عندما أوضحت سواسية الخلق وأنهم من نفس واحدة ، وأن الإنسان الفرد له قيمته ، والجماعة الإنسانية لها كيانها ووجودها أيضاً . فالإسلام لاينادى بالفردية ، بل يدعو إلى التماسك والتعاون وأن تكون المسافة الاجتماعية بين الأفراد فى علاقاتهم بين الأفراد فى علاقاتهم متقارية وليست متباعدة ، كما

ينادى بنبذ العصبية فلا فرق بين أبيض أو أسود ، ولافرق بين جماعة أو جماعة أخرى إلا بالتقوى .

كما أنه وفق ماسبق الإشارة إليه ، فإن العلاقة بين الجسم والروح علاقة دائبة طالما أن الجسم حياً ، إذ إن هناك أثر النواحى البيولوجية والفسيولوجية فى الجانب الروحى للإنسان ، وحيث يحدث الضعف والوهن والإرهاق والتراخى فى جهد الإنسان وفى حالته المعنوية ، إذا كان مريضاً مرضاً عضوياً ، مما يحدث خللاً فى طاقاته العقلية والحيوية ، وفى هذا مايؤيد القول بأن أساس الذات الإنسانية هو الروح .

هذا وقد سبق الإشارة بأن القرآن الكريم عالج الروح من حيث الدلالات اللفظية من جنبات متعددة ، ومن أكثر من منظور ، كما أكد القرآن أنها من عند الله تعالى ، وبذلك فهى أبدية حتى بعد زوال حياة الجسد . وقد أقر بذلك بعض علماء الغرب ، حيث نادى بعضهم بوجود الروح وأبديتها أمثال : فيكتور هوجو ، وكميل فلاماريون ، وجوته (١٨) .

فقد أشار «فلاماريون» فى دراساته التى تواصلت لمدة نصف قرن من الزمان بأن : الروح توجد فى صورة حقيقية منفصلة عن الجسد ، وأن لها خصائص لم يكتشفها العلم بعد ، وأن الروح تستمر بعد الجسم المادى .

وهؤلاء العلماء لايدينون بدين الحق ، ولكن الله تعالى أنطقهم كلمة الحق . إذاً ماهى آراء علماء المسلمين عن الروح ؟

فيما يلى آراء علماء المسلمين عن الروح ، وحيث نعرض آراء كل من «ابن حزم» «والإمام الغزالى» «وابن القيم الجوزية» .

أ - آراء ابن حزم عن الروح :

يشير ابن حزم فى كتابه «الفصل فى الملل والنحل» قوله «وذهب سائر أهل الإسلام والملل المقرة بالمعاد ، إلى أن النفس جسم طويل عريض عميق ، ذات مكانة عاقلة مميزة مصدقة للجسد . وبهذا يقول (ابن حزم) : «والنفس والروح اسمان لمسمى واحد ومعناهما واحد» ثم قال : «وأما من ذهب إلى أن النفس ليست جسماً فقول يبطل بالقرآن والسنة والإجماع» والإمام «ابن حزم» يتفق فى رأيه مع ابن قيم الجوزية فى نظر كل منهما إلى الروح والنفس .(١٩)

ب- آراء «الإمام الغزالى» عن الروح :

الروح عند الغزالى بمعنى النفس والقلب ، مما يدل على أنه يريد بهما معنى واحداً [٢٠] أى أنهما متصلان ، ولكنه فى العادة يزيد فى توضيح الفكرة ، فيطلق لفظ الروح بمعنيين أيضاً :

١ - **المعنى الأول** : القوة الحيوانية أو الروح الحيوانى ، وهو الجسم اللطيف الذى ينبع من تجويف القلب الجسمانى ، وينتشر بواسطة العروق الضوارب إلى سائر أجزاء البدن ، وهو الذى يفيض الحياة والحس والحركة والبصر والشم على أعضاء الجسم ، كما يفيض النور من السراج على البيت . وماهيته بخار لطيف أنضجته حرارة القلب وحقيقته الحرارة الغريزية ، المنبعثة فى الأعصاب والعضلات .

٢ - **المعنى الثانى** : الروح بمعنى النفس الناطقة ، أو اللطيفة العالمة المدركة من الإنسان وهو أحد معانى القلب ، وهو الذى أراده الله بقوله «قل الروح من أمر ربى» .

ويعطى الغزالى الروح بهذا المعنى كل صفات النفس الناطقة ، ولذلك يصفه بأنه ليس بجسم ولاعرض ، بل هو جوهر ثابت دائم لايقبل الفساد فلايضمحل ولايفنى ولايموت ، بل يفارق البدن وينتظر العودة إليه ويتولد منه صلاح البدن وفساده .

ثم أن الروح الحيوانى وجميع القوى الأخرى من جنود هذا الروح ، وهو غريب فى البدن لأنه من أمر الله . وهو بهذا المعنى جزء من القدرة الإلهية .

جـ- آراء ابن القيم الجوزية عن الروح :

يرى «ابن القيم» أن «الروح» جسم نورانى متحرك من العالم المعنوى مخالف بطبعه لهذا الجسم المحسوس (المادى) ، سار فيه سريان الماء فى الورد والدهن فى الزيتون ، لايقبل التبديل والتفريق والتمزيق ، يفيد الجسم المحسوس الحياة وتوابعها مادام صالحاً لقبول الفيض وعدم حدوث ما يمنع السريان ، وإلا حدث الموت ، وانتهت الحياة . [٢١]

وهنا ينظر «ابن القيم الجوزية» إلى الروح نظرة شفافة كالنسيم ، فهى موجودة بل هى أصل وجود الكائن الحى بمعنى أنها المحرك للجسم المحسوس ،

وأنها الروح ليست كتلة هلامية كالعهن المنقوش وهذه النظرة نظرة مجردة بحتة بعيدة عن النظرة المادية التى يأخذ بها بعض الفلاسفة والمفكرين .

ويصف ابن القيم الروح على أنها النفس ، وحيث يقول : سُميت النفس روحاً لحصول الحياة بها – سميت نفساً ، إما من الشيء النفيس لنعاستها وشرفها ، وإما من تنفس الشيء إذا خرج ، ولكثرة خروجها ودخولها فى البدن سميت نفساً ومنه النفس بالتحريك ، فإن العبد كلما نام خرجت منه ، فإذا استيقظ رجعت إليه ، فإذا مات خرجت خروجاً كلياً ، فإذا دفن عادت إليه ، فإذا سئل خرجت ، وإذا بعث رجعت إليه .(٢٢)

هذا ويربط ابن القيم بين الروح وفكرة الفيض ، حيث يذكر أن النفس البشرية إذا فاضت أى خرجت وفارقت الجسم ، فإن الجسم يموت ويفنى ، أى إن خروج الروح هو فراق الجسد .

والفيض عنده بمعنى الاندفاع وهلة واحدة (أى دفعة واحدة) ، ومنه الإفاضة وهى الاندفاع بكثرة وبسرعة . ويتقارب تفسير ابن القيم الجوزية مع تفسير ابن حزم عن الروح .

٣- مفهوم القلب :

ما ورد فى الذكر الحكيم عن مفهوم «القلب» ، يدل على أن القلب له تفاسير متعددة فى كتاب الله العزيز .

فقد ورد مفهوم القلب بمعنى العنصر الواعى والعاطفى وعند الإنسان ، وهو مايتمثل فى الضمير Conscious والذى يجعل الإنسان هادئ النفس مطمئناً أو فظ القلب يقسو على ذاته والآخرين ، وحيث يورد الإنسان إلى موارد الهداية أو إلى موارد الضلال والغواية .

فالقلب هو الذى يُحدث فى سلوك الإنسان الضبط والربط والالتزام ، وإما أن يدفع الإنسان إلى القيام بالسلوك المضطرب المنحرف .

وقد يُفهم من القلب عند وروده فى الذكر الحكيم ، مايدل على معنى النفس والعقل ، خاصة وأنه وردت آيات بينات كثيرة يفاد من معناها ما أشير إليه . كما يدل القلب على تقلب النفس وعدم الاستقرار Unstability (عدم الاتزان والرسوخ فى السلوك المعتاد للإنسان) وفى دعاء الرسول الكريم عليه أفضل صلاة وتسليم :

يامقلب القلوب ثبت قلبى على دينك .

ومفهوم القلب أيضاً فى كتاب الله العزيز يتوافق مع خصائص كل من النفس الأمارة بالسوء ، والنفس المطمئنة .

فمفهوم القلب بمعنى النفس الأمارة بالسوء ، ورد فى وصف قلوب المجرمين الذى يتسم سلوكهم بعدم تقبل النصح بل اشمأزت قلوبهم عند ذكر الله إذ أنهم لايؤمنون بالآخرة ، وحيث يتمادون فى الغى والضلال والكبر والشر والجحود والعناد .

كما إن القلب الذى يأمر بالنفس سوء ، من سماته الطبع والختم والقفل والعمى .

وعلى العكس من ذلك وصف القلوب فى الذكر الحيكم بمفهوم النفس المطمئنة .

﴿ألا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾

(سورة الرعد – آية ٢٨)

ومن مفاهيم القلب مايدل أيضاً على أنه مركز العواطف والاتجاهات والمشاعر والأحاسيس فمن أوصاف القلب :

مايلقى فيه من رعب – ماتبلغه القلوب من الحناجر – قسوة القلوب – حسرة القلوب – غيظ القلوب .

كما يُفهم من القلب فى آيات الله البينات إلى العقل والتفقه والتعقل . هذا بالإضافة إلى الناحية الانفعالية عند الإنسان ، حيث يوصف القلب بشدة الانفعال ومايصاحبه من اضطرابات عضوية ، أو جمود الإنفعال وتصلبه Rigidness ، وحيث وصف القلب فى شدة جمود إنفعاله بالطبع والقفل والختم .

٤– مفهوم العقل :

المتتبع لما ورد فى الآيات القرآنية الدالة على العقل يتبين له أن القرآن الحكيم يصنف العقل كقوة مدركة فى الإنسان ، فهو من خلق الله سبحانه وتعالى ، وهو منحة للإنسان دون سائر المخلوقات ؛ ليمكنه من تحمل التبعات والمسئوليات والتصرف فى الأعمال والعقل هو الذى يوجه الضمير ، والضمير هو الذى يحدث

الالتزام عند الإنسان الفرد ليتبع الصراط المستقيم والطريق السوى الذى لاعوجاج فيه .

وعلى طرف آخر يُصبح عدم تحكيم وتوظيف العقل فى سلوك الإنسان ، سبيلاً إلى الغواية والضلال ، بل يصبح موجهاً للانحراف والجنوح الذى يباعد بين الإنسان الفرد واتباع الصراط المستقيم ، ويجعله من خلال سلوكه لغير السوى (لغير العاقل) يصنف فى مصاف المذنبين الخاطئين .

تلخيص :

* لم ينظر علماء المسلمين إلى «النفس الإنسانية» على أنها كيان مستقل أو جوهر قائم بذاته ، وإنما كانت نظرتهم على أنها مجموعة الظواهر والحالات النفسية والخواطر التى فى خبرة الإنسان .

* أوسع الألفاظ وروداً فى الذكر الحكيم هى «النفس» ، والتى تدل على كيان الإنسان بصفته كائناً حياً ، ولايختص بالدلالة على التفكير أو الفهم ، ويلى ذلك لفظة «القلب» التى تدل على العنصر الواعى والعاطفى فى الإنسان .

* «والروح» تمثل حقيقة مجردة ذات أصل آلهى ، وتتصل بالإنسان على نحو خاص يميزه عن سائر المخلوقات . «والعقل» فى الذكر الحكيم يمثل حقيقة فعل العقل وليس لفظة القلب ، وفعل العقل يدل على الفهم والتفكير .

* تتعدد الدلالات اللفظية لمكونات النفس الإنسانية فى الذكر الحكيم حيث وردت :

– لفظة النفس فى ٢٩٥ آية من آيات القرآن الحكيم .

– ولفظة القلب فى ١٣٢ آية من آيات القرآن الحكيم .

– ولفظة الروح فى ٢٢ آية من آيات القرآن الحكيم .

– ولفظة العقل فى ٤٩ آية من آيات القرآن الحكيم .

* مفهوم النفس أوسع المفاهيم النفسية الإنسانية وهى تمثل الكل المركب من الجسد والروح ، والتى يطلق عليها فى علم النفس «الذات» أو ماتعرف «بالانا» ويصف القرآن الكريم النفس بنظرة العمومية والشمولية .

* فى تقسيم الجهاز النفسى فى علم النفس المعاصر ، نجد أن النفس الآمرة بالسوء تقابل اللاشعور ، والنفس المطمئنة تقابل الشعور ، والنفس اللوامة تقابل الانا العليا .

* مفهوم الروح فى القرآن الكريم متميز عن النفس ، وهى تمثل الجانب المعنوى وخاصة الأخلاقى ، وحيث تسمو بالذات وتضبط السلوك وترتفع بقدر النفس . وأشار علماء الغرب إلى وجود الروح وأبديتها ، ومن أمثالهم «هوجو» ، «وجوتة» . كما أشار علماء المسلمين إلى آراء متعددة عن الروح ، ومن أمثالهم «ابن حزم» و«الغزالى» «وابن القيم الجوزية» .

* مفهوم القلب يشير إلى أنه يحدث فى سلوك الإنسان الضبط والربط والالتزام . وإما يحدث السلوك المضطرب والمنحرف ، كما أنه يدل على تقلب النفس وعدم الاستقرار ، كما أن مفهوم القلب فى كتاب الله العزيز يتوافق مع خصائص كل من النفس الأمارة بالسوء ، والنفس المطمئنة .

* مفهوم العقل فى القرآن الكريم يشير إلى أنه قوة مدركة فى الإنسان فهو من خلق الله سبحانه وتعالى . والعقل هو الذى يوجه الضمير ، كما أن عدم تحكيم وتوظيف العقل يؤدى إلى الانحراف والجنوح والغواية والضلال .

تعقيب :

* القرآن الكريم الذى لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وهو قول الحق تبارك وتعالى الهادى إلى سواء السبيل ، يحوى تفاصيل دقيقة وعديدة للأصول النفسية التى يصدر عنها سلوك الإنسان ، وحيث يجد القارئ البحث عن النفس ... أصلها .... مصيرها ... وأحوالها التى تدفع المرء إلى المعيشة فى هذه الحياة الدنيا مثل الدافع إلى طلب الطعام والولد والمال والزينة ، كما أنه يحوى صوراً شتى من خلجات النفس والانفعالات والعواطف كالغضب والغيرة والحسد والوساوس ، هذا بالإضافة إلى أنه دستور للأخلاق وتنظيم الحياة الاجتماعية وضبط العلاقات والسمو بالسلوك الإنسانى ، فهو كتاب الله الذى يهدى الناس إلى سواء السبيل .

* وكتاب الله الذى نزل بالحق أوضح النظرة الشاملة المتكاملة للنفس الإنسانية والتى تتشكل من النفس ... القلب ... الروح ... العقل .

وتفسير علماء المسلمين للنفس الإنسانية قائم على أساس بيان أحولها ونظمها ومصيرها من حيث مكوناتها من الظواهر والحالات النفسية والخواطر التى فى خبرة الإنسان ، أى إنه ينظر إلى الإنسان ككل فلا انفصال بين الجسد والروح ، ولابين القلب والعقل . وعلم النفس فى وضعه الحاضر ، لايدرس «النفس» كما يفهم من منطوق «علم النفس» ، وإنما يهتم بالدرجة الأولى بالكيان الإنسانى المتمثل فى البناء الإنسانى ككل ، وبنائه الشخصى المركب ، الذى يقوم بأداء أنشطة نفسية معقدة ، تتداخل فيها عمليات ووظائف ومؤثرات متعددة من شأنها تحدد خصائص السلوك الإنسانى . وعلم النفس فى وضعه الحاضر ، يهتم بالسلوك الظاهر والذى يمكن ملاحظته من خارج ، ويتمثل هذا الاهتمام بالدرجة الأولى فى التفاسير المختلفة التى قامت بتنظير السلوك الإنسانى تحت ماسبق الإشارة إليه بما يعرف بمدارس علم النفس .

* والإنسان فى المنظور الإسلامى كيان متكامل ، يجب ألا ننظر إليه من ناحية سلوكه الظاهر ، ونلغى مافى باطنه من مشاعر وخواطر وخلجات ، بحيث يمكن إذا صور «شعوره» فإنه يحلل باطنه ويميز بين دوافعه واتجاهاته وعواطفه . كما أن فى هذا مايدل على أن الإنسان يحس بذاته وكيانه وحريته واختيار مايتوافق معه .

* والمكونات النفسية الإنسانية فى القرآن الكريم تؤكد الترابط الكلى المركب من الجسد والروح من جانب ، والعقل والقلب من جانب آخر ، ومايميز الإنسان عن سائر المخلوقات بما فيها الحيوان ، الذى هو من اهتمام الدراسات النفسية المعاصرة ، بغية تعميق المعرفة الخاصة بالسلوك الإنسانى ، هو أن الإنسان فى القرآن الكريم يتميز بالروح ، دون سائر المخلوقات ، ومن شأن هذه الروح التى هى من وحى الله تعالى وقدرته ، أن تضبط سلوك الإنسان وترتفع بقدر نفسه ، وتجعله يعلو على الماديات الحسية المتمثلة فى مساوئ الشهوات ومايصاحبها من ماديات ، بل إنها أيضاً تقلل من المسافات الاجتماعية بين الأفراد فى المجتمع الواحد ، حيث تشعر الإنسان الفرد بقيمته الفردية والجماعة الإنسانية بكيانها ووجودها .

والغريب أن بعض علماء الغرب ، نادوا بوجود الروح وأبديتها ، وحيث أشاروا إلى وجودها فى صورة حقيقية منفصلة عن الجسد ، وأن لها خصائص لم تكتشف بعد ، وأنها تستمر فى الحياة بعد فناء الجسم المادى ، وبذلك أنطقهم الله تعالى كلمة الحق وإن كانوا لايدينون بدين الحق .

* جانب آخر يهتم به الإسلام فى توصيف المكونات النفسية الإنسانية ، وهو جانب القلب الذى يمثل صمام الأمان ومفتاح رقابة السلوك الإنسانى فى حال الضبط والربط والالتزام ، كما أنه مركز العواطف والاتجاهات والمشاعر والأحاسيس ، إضافة إلى مايوصف به من سمات العقل والتفقه .

* والعقل كقوة مدركة فى الإنسان يُعتبر أيضاً من المكونات النفسية الإنسانية ، وهو منحة الله لبنى الإنسان المصطفين على سائر المخلوقات ، الجديرين بالمسئولية والخلافة ، وتحمل التبعات والمسئوليات والتصرف فى الأعمال .

بل إن العقل يُمثل الرقيب الذى يوجه الضمير والذى يُحدث الالتزام فى السلوك، كما أنه عند عدم تفقه العقل - كما أشار القرآن - تحدث الاضطرابات والإختلالات الخلقية التى من شأنها أن تباعد بين الإنسان الفرد واتباع الصراط المستقيم ، وحيث تجر عليه الصراعات والويلات التى تضره وغيره من أفراد المجتمع ، وعندئذ يصبح الإنسان كالأنعام التى لاتفقه ولاتعى :

﴿ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴾

(سورة الفرقان - آية ٤٤)

﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا ﴾

(سورة الأعراف - آية ١٧٩)

﴿ فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾

(سورة الحج - آية ٤٦)

* هذا بالإضافة إلى أن النفس الإنسانية فُطرت من ضعف ، لكن الله سبحانه وتعالى زودها بمقومات التقوى التى تسمو بالسلوك الإنسانى ، وترتفع به إلى درجات أعلى . ويتعارض هذا مع نظرية التحليل النفسى لمبتدعها «فرويد» ، والذى يؤكد أن النفس فطرت على الشهوات ، المتمثلة فى الجنس والعدوان - وأن الارتفاع فوق الغرائز وضبط الشهوات والتدين والتمسك بالقيم أمور مكتسبة ضد الفطرة .

وفى مقابلة النفس الواردة فى الذكر الحكيم بالواقع الذى يُفسره علم النفس المعاصر ، نجد أن النفس الأمارة بالسوء تمثل النفس الشهوية الأنانية العدوانية .

كما أن النفس اللوامة هى التى تحاسب صاحبها وتراجعه وتحاول العودة به إلى الحق والاستغفار وإلى الطريق المستقيم . وأن النفس المطمئنة هى أعلى مراتب النفس أو حسبما أشار الإمام الغزالى أن سلوكها يطلق عليه السلوك الملائكى .

وهذا التنظيم فى النفس الإنسانية فى الذكر الحكيم يُخالف كلية نظرية فرويد خاصة فى «الأنا العليا» فى جوانب الشخصية ، والتى تشتمل القيم والمعتقدات الدينية والمثل العليا ، وحيث أشار إلى أن هذه المشتملات تسبب العديد من العقد النفسية نتيجة إعاقة الدوافع الفطرية وإصابة الإنسان بالإحباط ، وفى هذا مايخالف النزعة الدينية الفطرية عند الإنسان وعلاقته بخالقه ؛ فالانحراف عن الدين والمثل والقيم هو انحراف - فى الواقع - عن الفطرة السليمة متمثلاً فى الدين الإسلامى الحنيف ، والتى فطر الله سبحانه وتعالى الناس عليها .

تمـــــارين

١- حاول علماء المسلمين تفسير «النفس الإنسانية» على أنها مجموعة الظواهر والحالات النفسية والخواطر التى فى خبرة الإنسانية ؟ وضح .

٢ - مفهوم «النفس» فى الذكر الحكيم أوسع المفاهيم النفسية الإنسانية . وضح.

٣ - هناك تقارب فى مفاهيم النفس فى القرآن الكريم ، مع مايُعرف بتقسيم الجهاز النفسى فى علم النفس المعاصر . وضح .

٤- أشار علماء المسلمين إلى آراء متعددة عن مفهوم «الروح» ؟ وضح .

٥ - يتوافق مفهوم القلب فى كتاب الله العزيز مع خصائص كل من النفس المطمئنة والنفس الأمارة بالسوء ؟ وضح .

٦- هل هناك علاقة بين مفهوم العقل والضمير ؟ وضح .

الفصل الثالث

المفهوم الإسلامى وأحوال النفس والقلب

المحتوى :

* **تمهيد**
* **أحوال النفس**

– النفس المطمئنة . – النفس اللوامة .

– النفس الأمارة . – النفس الزكية .

– النفس الوسواسة (الحوازية) . – النفس الظالمة .

– النفس المجاهدة . – النفس الملهمة .

– النفس الراضية . – النفس المرضية .

– النفس الصديقية أو النفس الكاملة .

* **أحوال القلب :**

– القلب السليم (الصحيح) .

– القلب المريض (السقيم) .

– القلب الميت (القاسى) .

* **المفهوم الإسلامى لوحدة النفس**

– وحدة النفس عند الإمام الغزالى .

* **رأى علم النفس المعاصر فى وحدة النفس .**
* **وحدة السلوك الإنسانى فى الإسلام .**
* **تلخيص**
* **تعقيب**
* **تمارين**

الفصل الثالث

المفهوم الإسلامي وأحوال النفس والقلب

تمهـــيد :

بين الحق تبارك وتعالى فى كتابه العزيز أحوال النفس أى الخصائص والسمات لأنواع شتى من النفس الإنسانية . كما ورد أيضاً مايدل على أحوال القلب، حيث فصلت أحوال القلوب فمنها مايصح ومنها مايمرض ومنها مايموت .

ويعنينا فى هذا الفصل إيضاح أحوال النفس وأحوال القلب ، ومايتقابل من التفسير الإسلامى لأحوال النفس والقلب ، مع مايقابل ذلك من الأنماط البشرية فى علم النفس المعاصر .

هذا بالإضافة إلى أن هناك تقابلاً بين أحوال النفس وأحوال القلب فى المفهوم الإسلامى سنذكرها فى مواضعها .

أحوال النفس :

فى إيجاز سريع قبل أن نوضح أحوال النفس فى الذكر الحكيم وخصائص كل منهما ، نعرض فيما يلى أحوال النفس فى الجدول التالى وفق مانراه فى هذا الشأن:

م	الحالة	المسمى	ابرز الخصائص والسمات
١	الطمأنينة	النفس المطمئنة	الشعور بالأمن والطمأنينة والسكينة .
٢	اللوم	النفس اللوامة	اللوم والتأنيب والزجر للمؤمن والغافل .
٣	الأمر بالسوء	النفس الأمارة	التسلط والعدوان والتفكير المضطرب.

م	الحالة	المسمى	ابرز الخصائص والسمات
٤	الزكية	النفس الزكية	المتزنة السامية التى تعرف قيمة الذات .
٥	الوسوسة	النفس الوسواسة (الحوازية)	وساوس مرضية نفسية من شأنها إحداث أنماط سلوكية رتيبة مرضية.
٦	الظالمة	النفس الظالمة	العدوانية على الغير من موقع تصور ضعف الآخرين .
٧	المجاهدة	النفس المجاهدة	الدفاع عن الذات وعن الحق إياً كانت جوانبه .
٨	الملهمة	النفس الملهمة	الصدق الدائم فى التعامل والتعبد لله تعالى .
٩	الراضية	النفس الراضية	الالتزام والابتعاد عن المعاصى أو الشهوات أو الجنوح .
١٠	المرضية	النفس المرضية	الرضا بما قسم الله وخشيته فى كل مقام ومقال .
١١	الكاملة	النفس الصديقية	تعبد الله حق العبادة الكاملة وهى تتمتع بكامل الأخلاق .

(جدول ١) : يوضح أحوال ومسميات النفس وإبراز خصائصها وسماتها.

وفيما يلى إيضاح الخصائص وسمات أحوال النفس :

١- النفس المطمئنة :

هى ماتتمثل فى شخصيات المصطفين والأخيار من النبيين والصديقين . وهى النفس التى تستشعر الأمن والاطمئنان مع خالقها فهى : ترضى بقضاء الله ... تقنع بعطائه ... وتؤمن بلقائه . وفى رأى ابن القيم (فى كتابه «الروح»)(٢٣) أنه يمكن أن تكون هناك النفس المطمئنة عن طريق سلوك المجاهد لمن وفقه الله لذلك .

والطمأنينة فى نظره عبارة عن اطمئنان واقتناع النفس بالمعرفة الحقة بالله وأسمائه وصفاته فتطمئن :

- وتؤمن وتقتنع اقتناعاً كاملاً بما أخبر به سبحانه وتعالى عن ذاته المقدسة.
- وبما أخبر به من أمور الغيب وأحوال الآخرة .
- وبما أخبر به النبى صلى الله عليه وسلم عن ربه .
- وتستجيب لكل ما أمرت به من ضروب الطاعة .
- وما نهيت عنه من ضروب المعصية .
- وتمتثل للأوامر الإلهية وسنة النبى امتثالاً كاملاً .
- وتبتعد عن النواهى والمعاصى ولاتقدم عليها إرادة ولاهوى ولاتقليداً .

* وفى رأى الإمام «ابن القيم» أن علامات هذه النفس :

- أن يطمئن صاحبها من قلق المعصية إلى سكون التوبة .
- أن يجد فى قلبه لذة الطاعة والأنس بها والإقبال عليها .

* وفى رأيه أيضاً أن مباشرة روح الطمأنينة تتم عندما تطمئن النفس :

- من الشك إلى اليقين .
- ومن الجهل إلى العلم .
- ومن الغفلة إلى الذكر .
- ومن الخيانة إلى التوبة .

- ومن الرياء إلى الإخلاص .
- ومن الكذب إلى الصدق .
- ومن العجز إلى الكسل .
- ومن صولة العجب إلى ذل الإخبات .
- ومن التيه إلى التواضع .
- ومن الفتور إلى العمل .

* وعندئذ يُباشر الإنسان روح الطمأنينة . من هذا يتبين أن النفس المطمئنة هى التى تتسم بخصائص تتمثل فى :

- الخشوع والرضى والأمن من الخوف .
- عدم الانسياق وراء ماديات وزخارف الحياة أو أعراض زائلة .
- لاتغضب إلا للحق .
- لاتفرح على ماهو آت ولاتحزن على مايفوتها ؛ أى تعيش الحياة كما هى فى أفراحها أو أتراحها ، وترضى بحالها دون ضجر أو ملل .
- تترفق بالآخرين ولاتختال وتمشى على الأرض هوناً .
- لاتحسد الناس على ما آتاهم الله من فضله .

أى بمعنى أشمل التعقل والتدبر وحسن التصرف فى كل سلوك ، من شأنه الخضوع والامتثال لأوامر الله ونواهيه وسنة نبيه المباركة ، إمتثالاً يدل على اقتناع تام بما يؤديه الفرد من ضروب شتى فى أدائه للعبادات وفى تعامله وسلوكه مع الناس من حوله .

ومن وجهة نظر علم النفس المعاصر ، فإن هذه السمات إذا توافرت فى الفرد فإنه يكون خالياً من الاضطرابات والأمراض النفسية مثل القلق والاكتئاب والهوس والمخاوف المرضية .

كما أن النفس المطمئنة لاتعرف السخط ؛ إذ إنها راضية دائماً بحكم الله وقضائه .

٢- النفس اللوامة :

أقسم الله تعالى بالنفس اللوامة ، فقال :

﴿ لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ. وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴾

(سورة القيامة – آية ١-٢)

وتفسر النفس اللوامة بعدة تفسيرات ، منها النفس لغير المستقرة المضطربة التى لاتثبت على حال واحدة ، وفى هذه الحالة تكون اللوامة من التلوم بمعنى التردد ، فالنفس كثيرة التقلب والتلون ، حيث تتغير النفس من التذكر والنسيان والغفلة والقبول والإعراض والتلطف والسخف والحب والبغض ، والفرح والترح ، والرضى والسخط ، والطاعة والمعصية .

ويقول «ابن القيم» إن اللفظة مأخوذة من اللوم ، وهو التأنيب والزجر . واللوم نوعان فى رأى ابن القيم :

لوم المؤمن التقى واللوم عنده لوم على التقصير فى الطاعة أو الغفلة عن ذكر الله والإقدام على المعاصى . ولوم الفاجر الغافل ، ويكون على التقصير فى طلب الدنيا وانتهاز الفرص والندم على فوات الحظ والأهواء .

وهو اللوم الشائع اليوم الذى يسبب كثيراً من الاضطرابات النفسية وسوء التوافق نتيجة القلق والانطواء والاكتئاب والتوتر .

والنفس اللوامة المؤمنة تحمى صاحبها من هذه الأمراض ، وترتفع به إلى الطمأنينة ، والتى من شأنها الشفاء من الكثير من الاضطرابات النفسية ، كما أن النفس عندما ينتابها اللوم تنتابها أيضاً الحسرة ، حيث تستشعر الذنب وتسعى لرأب الصدع والعودة إلى سلوكها القويم ، وعندئذ يقل التوتر الذى حدث لها .

٣ – النفس الأمارة :

وهى التى تدفع صاحبها وتثير انفعاله إلى الشر ، وتخصه على فعله .

والنفس الأمارة تشير إلى أن الشر يكمن فى النفس ولايُعد شيئاً خارجاً عنها، كما أشار البعض إلى الطبيعة الخيرة مثل «سقراط» الذى قال بأن الشر غير إرادى فى الإنسان ، وادعى أن الشر نتاج الجهل وعدم التقدير ، ومدعياً بأن المعرفة هى الفضيلة ، وأن من يعرف الشر لايمكن أن يفعل ، وهذا يخالف الواقع ، كما يخالف

الخبر الصحيح عن الله تعالى . ويخالف ذلك أيضاً ما نادى به الفلاسفة المحدثون بأن النفس محايدة بطبيعتها ، فهى ليست خيرة ولاشريرة ، وأنها تتشكل حسب التربية وظروف البيئة . ويتوافق ذلك مع اتجاه المدارس النفسية الاجتماعية المعاصرة ، والتى تشير إلى أهمية ودور البيئة الاجتماعية فى تشكيل البناء الشخصى للإنسان . (٢٤)

إن الإسلام يُقرر أن الإنسان ليس شريراً بطبيعته ، وإنما يعنى أن الشر والخير معاً من طبيعة نفس الإنسان مصداقاً لقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا . فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾

(سورة الشمس آيات – ٧-٨)

وسمات النفس الأمارة بالسوء ، تتمثل فى الميل إلى الشر والعدوان ، والتفكير المضطرب الذى يحفز صاحبه إلى ارتكاب المعاصى والآثام ، وتغويه بالابتعاد عن طريق الهداية والاستقامة .

وعندما نقارن بين سمات هذه النفس مايقابلها من تفسير فى بناء جوانب الشخصية فى علم النفس المعاصر (٢٥) ، نجد أنها تتماثل مع أحد مكونات اللاشعور والمعروف باسم «الهو» أو «الهى» وهو الجانب الذى يحوى الأفكار التسلطية والميول العدوانية ، والدوافع اللاشعورية والتخيلات الخرقاء .

فمنطقة «الهو» مليئة بالاضطرابات التى تحاول الظهور دائماً عندما تتاح لها الفرصة ، وإن كانت توجد مكبوتة Repressed عن طريق «الضمير» ، أو مايسمى فى علم النفس المعاصر «الانا العليا» ، والذى يكسب الإنسان إنسانيته ويجعله أكثر انضباطاً مع بيئته الاجتماعية .

ونود أن نضيف أن النفس الأمارة بالسوء التى وردت فى الذكر الحكيم ، ليست قاصرة على عامة الناس ، بل عاشها وخبرها بعض الأنبياء مثل «يوسف» عليه السلام عندما نادى كما جاء فى الذكر الحكيم :

﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي ﴾

(سورة يوسف – آية ٥٣)

٤- النفس الزكية :

وهى الطاهرة النقية وهى التى تسمو بنفسها وتعرف حق قدرها ، وفقاً لأبعادها التى وضعها الخالق سبحانه وتعالى لها . فتزكية الشىء أى تطهيره وفق ماجاء فى قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لأَهَبَ لَكِ غُلامًا زَكِيًّا ﴾

(سورة مريم - آية ١٩)

٥- النفس الوسواسة (الحوازية) :

وهى التى يوسوس لها الشيطان بالشر ، فتصبح لاهية عابثة ، تتبع أهواءها وتفعل ماتشاء من سلوك يتنافى والحياة الاجتماعية .

والوساوس من الأمراض النفسية التى تستحوذ على الإنسان (الحوازية) ، ومن شأنها أن تحفز الفرد وتدفعه إلى أنماط سلوكية رتيبة بصورة مرضية ، قد لايوجد مايبررها من الناحية العقلية ، ومن شأن هذه الوساوس أن تحصر سلوك الفرد فى دائرة ضيقة ، مما يجعل فكرة معينة أو رأى قد يكون فى غير مصلحة صاحبه ، يستبد به ويوجهه وجهة الهلاك والضياع ، وهذا مادعى إلى وصف هذه الحالة «الحواز» أو الحصر [٢٦] Compulsive obsissive neurosis .

مثل هذا الفرد تنتابه (النواب) اضطرابات عصبية ، وقد تتسلط عليه هذه الوساوس والمخاوف لمراحل زمنية طويلة ، حيث تتسلط عليه أفكار ووساوس مهلكة . وقد ورد فى الذكر الحكيم مايشير إلى ذلك :

﴿ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ ﴾

(سورة المجادلة - آية ١٩)

٦- النفس الظالمة :

وهى التى تميل إلى العدوان على الآخرين ، فتظلم نفسها وتظلم الناس من حولها ، ظناً منها بضعف وهوان الناس من حولها ، فى حق أنفسهم أو التفريط فى حقوقهم وعدم معرفتهم بقدر ذواتهم .

والنفس الظالمة من خصائصها ظُلم نفسها بنفسها لأن سمة الظلم من أسس تكوينها . فالظلم هو إحدى خصائصها ، وهو المحفز وراء سلوكها . والظلم شيمة

كل نفس ضعيفة ، بل قد يظلم الإنسان ذاته عندما يستبق الخيرات ولايظلم غيره مصداقاً لقول الحق تبارك وتعالى .

﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ ﴾

(سورة فاطر – آية ٣٢)

ومن حيث إن الظلم من سمات البشر ، فإن الشاعر يقول : ومن لم يظلم الناس يظلم .

٧- النفس المجاهدة :

من خصائصها الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . وقد جاء الإسلام يدعو إلى الجهاد بالنفس لإعلاء كلمة الله :

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾

(سورة آل عمران – آية ١١٠)

والجهاد من شأنه كف الأذى عن الذات وعن الآخرين ، وهو الوسيلة لصد الشر ومنعه ، سواء كان ذلك نابعاً من النفس أو من فرد آخر ؛ لذلك عندما يكون الخير والشر متلازمين فى سلوك الأفراد ، وإذا كان الإسلام هو دعوة الحق والخير ، فإن النفس المجاهدة لاتهدأ أبداً ، لأنها نفس تستمر فى ثورتها على الفساد وفى عراك دائم بين الخير والشر . والرسول عليه أفضل صلاة وتسليم يقول : «**الجهاد ماضٍ إلى يوم القيامة**»

والنفس المجاهدة من سماتها أنها لاتخشى فى الحق لومة لائم ، وهى تُحب الخير والحق وتمقت الحقد والفساد فى الأرض ، وهى تحرص على الدار الآخرة خيراً من حرصها على الدار الفانية ، وتسعى لأن توهب لها حياة المتقين يوم البعث ، ولاتأبه للحياة الدنيا فى إدبارها أو إقبالها فهى نفس مجاهدة .

٨- النفس الملهمة :

من سمات هذه النفس الصدق فى تعاملها وتعبدها مع الله تعالى ، حيث تجاهد بصفة دائمة فى التمسك بالعقيدة والتعامل وإتباع القيم العليا من الإحسان والبر والفضيلة ، وبذلك فهى نفس منضبطة طائعة مطيعة لله ، تنشد الخير ولاتدعو ولاتتبع الهوى والشر ، وتقبل على كل ماهو خير ، ومن ثم فهى تلهم

بالصالح من الأعمال ، بغية أن تصل إلى الدرجات العلى بنعمة الله وفضله وهدايته وحتى تصبح فى مصاف النفس الملهمة .

٩- النفس الراضية :

إذا باعدت النفس بينها وبين الشيطان وحجبت عن ذاتها وساوسه ، أنزل الله تعالى عليها السكينة مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ ﴾
(سورة الفتح - آية ٤)

١٠- النفس المرضية :

النفس الراضية من سماتها الأساسية الرضا بما قسم الله والتوجه دائماً إلى الله فهى مطمئنة تخشى الله فى كل مقام ومقال . فإذا وصلت إلى ذلك رضى الله عنها وأصبحت مرادة لله سبحانه وتعالى محببة إليه ، ولذلك توصف بأنها نفس مرضية .

١١- النفس الكاملة (الصديقية) :

وهى النفس التى تعبد الله حق العبادة الكاملة ، تتوكل عليه سبحانه وتعالى، وترضى بما قسم الله لها من خير أو غيره ، وتجاهد فى عمل البر والتراحم ، وترضى لما يمنحها الله من ضر أو نفع . وهى النفس الحبيبة إلى الله لتمتعها بكامل الأخلاق ، وهى ترقى إلى مراتب المؤمنين ، ولذلك يصدق عليها تسميتها بالنفس الصديقية ؛ إذ إنها تتقارب مع نفوس الأولياء الصالحين .

.... هذا مايتعلق بأحوال النفس .. فما أحوال القلب فى الذكر الحكيم ؟

أحوال القلب :

فى الدلالة اللفظية لمعنى «القلب» التى سبق إيضاحها ، تبين اختلاف معانى القلب وفق ورودها فى الذكر الحكيم .

ولقد تحدث القرآن الكريم ، وورد فى السنة عن أحوال النفس وأحوال القلب . ويتبين من مفاهيم كل من النفس والقلب ، أن أحوال القلب تعد من أحوال النفس ، وأحوال النفس تعد من أحوال القلب ، بمعنى أن كلاهما يوضح الأحاسيس الداخلية للإنسان ، حيث إن هذه الأحاسيس لها أبعاد مترامية قد يصعب على الإنسان نفسه إدراكها والوصول إليها .

وقد تناول القرآن الكريم أحوال النفس ، التى سبق الإشارة إليها ، كما أوضح أيضاً أحوال القلب وهى :

القلب الصحيح أو السليم – والقلب السقيم أو المريض والقلب الميت .

ثم فصل القرآن أحوال هذه القلوب وفصل مايصح به القلب ومايمرض به وما يموت به .

والقلوب الثلاثة هى أحوال ثلاثة للقلب الواحد ، وليست قلوباً ثلاثة منفصلة، وحيث تحدث القرآن الكريم أيضاً عن نفوس متعددة هى نفس واحدة لها أحوال متعددة سبق الإشارة إليها ، كما سنعرض أيضاً وحدتها فيما بعد .

ويُمكن القول بأن أحوال القلوب التالية تقابل أحوال النفس التى سبق الإشارة إليها . (٢٧)

وفيما يلى ما يوضح التقابل بين أحوال القلوب وأحوال النفس والتى فى نظرنا يمكن جدولتها كالتالى :

أحوال القلوب	ما يقابلها من أحوال النفس	التفسير
١ – القلب السليم	النفس المطمئنة	النفس المطمئنة هى نتاج سلامة القلب وخلوه من المرض والقسوة .
٢ – القلب المريض	النفس اللوامة	وهى النفس التى تلوم صاحبها على سلوكه الخاطئ ومعاصيه أو تلومه على تفريطه وانحرافه فى الدنيا . وهى نفس مريضة يصارعها الخير والشر وقد يغلبها الشر وتستسلم له ، وتسمى عندئذ مريضة .
٣– القلب الميت	النفس الأمارة بالسوء	وهى نتاج موت القلب (الموت المعنوى وليس العضوى) .

(جدول ٢) : أحوال القلوب ومايقابلها من أحوال النفس .

وفيما يلى خصائص وسمات القلوب كما وردت فى كتاب الله العزيز نلخصها ، وفق مانراه فى الجدول التالى :

القلب	الوصف	الآيات الدالة فى كتاب الله العزيز
السليم (الصحيح)	أ- سلامة وصحة القلب.	﴿ يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ. إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ (سورة الشعراء - ٨٨/٨٩).
	ب- الطمأنينة وهى من سمات النفس السوية والتى من علاماتها الصحة والسلامة .	﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ (سورة الرعد - آية ٢٨)
	جـ- «الإنابة» وهى الرجوع إلى الله والخشية منه .	﴿ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ﴾ (سورة ق - آية ٣٣)
	د- «الإخبات» أى الخضوع لله والتذلل له .	﴿ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ ﴾ (سورة الحج - آية ٥٤)
	هـ- «الخشوع» .	﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ ﴾ (سورة الحديد - آية ١٦)
	و- «التقوى» وهى الالتزام بشعائر الله.	﴿ ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴾ (سورة الحج - آية ٣٢)
	ز- «الرأفة والرحمة» .	﴿ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً ﴾ (سورة الحديد - آية ٢٧)
	ح- «اللين» .	﴿ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ (سورة الزمر - آية ٢٣)

القلب	الوصف	الآيات الدالة فى كتاب الله العزيز
المريض (السقيم)	أ- «النفاق» وهو مرض «القلوب الأكبر» .	﴿ إِذْ يَقُولُ الْمُنافِقُونَ والَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ (سورة الأنفال - اية ٤٩)
	ب- «الكذب والخداع» .	﴿ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ (سورة الفتح - ١١)
	ج- «الحقد والضغينة» .	﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ ﴾(سورة محمد-اية٢٩)
الميت (القاسى)	أ - «القسوة»	﴿ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ (سورة الزمر - آية ٢٢)
	ب- «التحجر»	﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ (سورة البقرة - آية ٧٤)
	جـ- عليها «أكنة» أى مغطاة	﴿ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ ﴾ (سورة الأنعام - آية ٢٥)
	د- «الغفلة» وهى اتباع الهوى	﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ﴾ (سورة الكهف - آية ٢٨)
	هـ- «العمى»	﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ (سورة الحج - آية ٤٦)

القلب	الوصف	الآيات الدالة فى كتاب الله العزيز
	و- «لاتعقل»	﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا ﴾ (سورة الحج - آية ٤٦)
	ز- «لاتفقه»	﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا ﴾ (سورة الأعراف - آية ١٧٩)

(جدول ٣) : خصائص وسمات القلوب كما وردت فى الذكر الحكيم.

هذا وقد أشار «ابن القيم» فى كتابه إغاثة اللهفان (٢٨) أن القلب وغيره من سائر أعضاء الإنسان يراد منه أن يكون :

- صحيحاً سليماً لا آفة به .
- يتأتى منه ماهُيئ له وخلق من أجله .
- خروجه عن الاستقامة أما لييسه وقساوته وعدم التأتى لما يراد منه كاليد الشلاء ، واللسان الأخرس ، والأنف الأخشم والعين التى لاتبصر شيئاً .

ويكون ذلك إما بمرض وآفة فيه تمنعه من كمال هذه الأفعال ووقوعها على السداد .

.... هذه هى أحوال النفس وأحوال القلب ، ونوضح فيما يلى المفهوم الإسلامى لوحدة النفس ، كما نوضح أيضاً أحوال النفس والقلب وعلاقتهما بسلوك الإنسان وسعيه وكسبه .

المفهوم الإسلامى لوحدة النفس :

قبل أن نوضح وحدة النفس وتكاملها فى الإسلام ، نعرض فيما يلى استعراضاً لما يعرف «بتعدد الأنفس» ، وحتى نعرف كيف نظر الإسلام إلى أن النفس واحدة وليست متعددة .

فى متابعة تاريخ الفلسفة اليونانية نجد تقسيم النفس (٢٩) يتبع التنظيم الذى يمكن جدولته كالآتى فى نظرنا :

الفكر والرأى	تقسيم النفس
الوثنية الهندية والوثنية الإغريقية البابلية	نادى الفكر الوثنى الهندى والإغريقى البابلى بما يُعرف بتناسخ الأرواح بمعنى وجود النفس الخالدة والنفس الشريرة: أ - **النفس الخالدة** : وهى من سمات الرجل الصالح وحيث تخلد نفسه بعد إنحلال المركب إلى الكوكب الذى هبط منه، حيث تمضى هناك حياة سعيدة شبيهة بحياة الكواكب. ب- **النفس الشريرة** : تُولد ثانية امرأة (المرأة فى رأيهم مخلوق شرير وفق ما نادت به الكنيسة الغربية بمذاهبها المختلفة) فإن أصرت على شقاوتها ولدت ثالثة حيواناً شبيهاً بخطيئتها وبحيث لاتتخلص من آلامها . ولاتعود إلى حالتها الأولى حتى يتغلب العقل على الشهوة وتصعد السلم فترجع رجلاً صالحاً .
«أفلاطون»	أ- **النفس الآلهية الخالدة** : ومكانها الرأس . ب- **النفس الانفعالية** : وهى غضبية شهوية تحس اللذة والألم والخوف والإقدام والشهوة والرجاء وتوجد بأعلى الصدر ، ولاتدنس النفس الخالدة المستقرة فى الرأس . جـ- **النفس الثالثة** : الغذائية ومكانها أسفل الحاجز .
«أرسطو»	أ- **النفس النامية** : وهى مشتركة بين الأجسام الحية جميعاً فهى موجودة فى النبات دون الحس والعقل ، ولايوجد الحس والعقل بدونها فى الحيوان الأعجم والإنسان ، ولها وظيفتان للنمو والتولد . ب- **النفس الحاسة** : وهى حاسة بالقوة لا بالفعل . كما أن العضو التى تحس به حاس بالفعل لا بالقوة ، والقوة الحاسة ليست مادية .

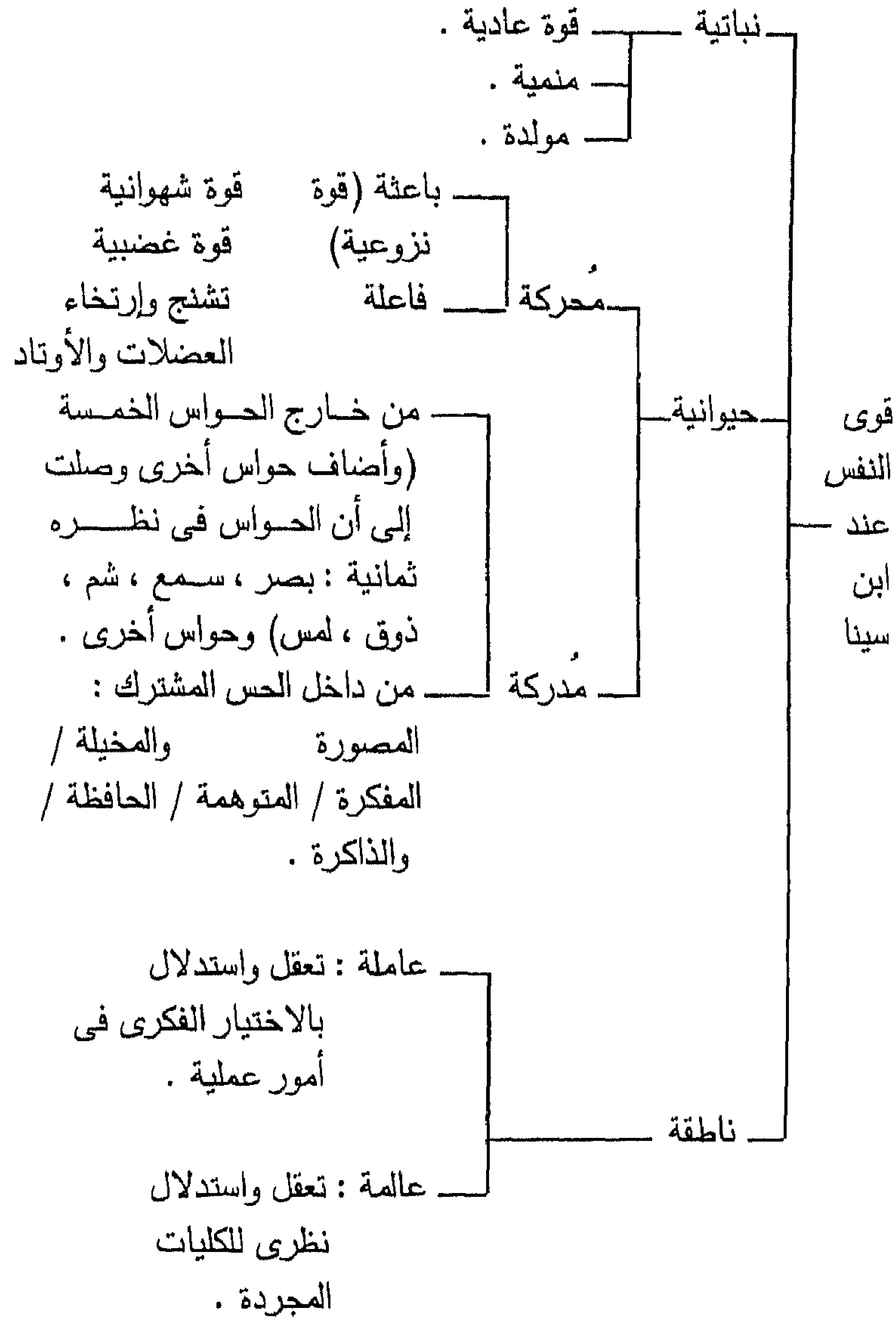
الفكر والرأى	تقسيم النفس
	جـ- **النفس الناطقة** : وهى العقل الذى يدرك الصورة الكلية أى الماهية ، بعكس الحس الذى يدرك الصورة الجزئية : والعقل قوة صرفة كالحس غير أنه أمعن من الحس فى معنى القوة ؛ إذ إنه يدرك ماهيات الأشياء جميعاً فى حين أن الحس لايدرك سوى المحسوسات من حيث هى كذلك . والعقل مفارق أى ليس له عضو يعقل من خلاله . والعقل : **نظرى** : وهو الذى يدرك الماهيات مباشرة . **عملى** : وهو الذى يدرك الجزئيات المتحققة فيها الماهيات.

(جدول ٤) : أفكار وآراء الوثنية البابلية والهندية والإغريقية فى تقسيم النفس .

والواقع أن الإنسان عرف النفس Psyche كمقابل للجسم ، وأعتقد أنها الروح Soul التى تكمل البدن .[٣٠]

ولم يكن الأمر فقط أن «بضدها تتمايز الأشياء» فقد فُسرت «النفس» تارة بأنها : النفس أو الشهيق الذى يستنشقه الإنسان ، أو اللهيب الذى يسرى فى باطنه Inner flameوفسرت «الروح» بغير معناها الدينى على أنها مبدأ الحياة Anima الذى به نعيش .

وعلى أساس من هذا التصور فطرت الوثنية الهندية والبابلية والأغريقية ماسبق إيضاحه من تقسيم للنفس . وقد تأثرت الفلسفة الإسلامية بهذا التقسيم ، وحيث نعرض آراء كل من «ابن سينا» «والإمام الغزالى» فيما يعرف بقوى النفس رغم كونهما يناديان «بوحدة النفس» .



(شكل ٧) : أقسام النفس عند ابن سينا .

والواقع أن «ابن سينا رغم تقسيمه لقوى النفس المشار إليها ، إلا أنه ذكر أن تعدد القوى فى النفس يحتاج إلى قوة موحدة تجمع ما بينها ، لأنه إذا كانت كل قوة مستقلة بذاتها ، فإننا لانستطيع أن ، نردها إلى ذات واحدة .... مختلف

الحالات والإدراكات والإحساسات التى تمر بها . والقوة الموحدة هى النفس ذاتها ، ومنها تتوزع مختلف القوى لتقوم كل قوة بالوظيفة التى اختصت بها . (٣١)

وحدة النفس عند "الإمام الغزالى" :

يتوافق رأى الإمام الغزالى مع رأى «ابن سينا» فيما يُعرف بوحدة النفس ، وقد اعتمد الإمام الغزالى فى آرائه على أدلة نسوقها كالآتى حسب تصوره : (٣٢)

١- ما أشار به من أن مبدأ الأعمال الإنسانية واحد لاينقسم ، لأن الأفعال تتناقض إذا كانت النفس متجزئة ، والجسم بالنسبة للنفس كالثوب بالنسبة للبدن ، كما أن الجسم يُحرك الثوب بواسطة أعضائه ، فكذلك تفعل النفس بالبدن .

٢- قوله بتعدد الوظائف وتدرجها ، وأن كلاً منها يخدم الأخرى فى كيان منسجم مترابط .

فيقول الغزالى فى كتابه «معرج السالكين» (٣٣) إذا تغيرت الأسماء فلأن قوى النفس كثيرة ، والنفس فى ذاتها واحدة ، وإنما ترجع التسمية إلى الآلة كقولنا: سمع وبصر وشم وذوق ولمس ... إلخ . والنفس هى التى تدرك من دون هؤلاء .

وجميع القوى ترجع إلى هذا الأصل الواحد الذى هو النفس ، فالحركة - كما يقول الغزالى - لاتتم دون الإدراك ، ولذلك يتصل فعل بعضها بالبعض ، فمهما حصل الإدراك انبعثت الشهوة ، حتى يتولد منها الحركة إما إلى الطلب وإما إلى الهرب ، والذى يجمع بينهما هو النفس .

٣- مايورده الإمام الغزالى من الأمثلة الكثيرة التى يشبه فيها النفس بالوالى أو الملك فى المدينة ، فمثل الأعضاء فى هذه المدينة كمثل القوى النفسية ، يأتمرون بأمر واحد ويعتبرون جميعاً رعية وجنوداً . وفى رأى «الزبيدى» فى كتابه اتحاف السادة المتقين فى شرح أحياء العلوم الدين «للغزالى» ، مؤيداً رأى الغزالى فى وحدة النفس قوله :

ذكر الله تعالى النفس بثلاثة ألفاظ ، وهى نفس واحدة ، ولها صفات متغايرة ، فالسكينة مزيد الإيمان وبها تحصل الطمأنينة ويرتقى القلب إلى مقام الروح وتعرج النفس إلى مقام القلب ، وفى ذلك طمأنينتها فهى إذاً النفس المطمئنة ، وإذا انزعجت عن مقار جبلاتها متطلعة إلى مقار الطمأنينة فهى اللوامة ، فإذا كانت فى محلها لايغشاها نور المعرفة والعلم فهى الإمارة بالسوء .

رأى علم النفس المعاصر فى وحدة النفس :

ينقض علم النفس المعاصر ماسبق أن نادى به الفلاسفة من وجود نفوس ثلاثة ، وإن كان أساس الرفض من جانب علم النفس لايتفق فى مضمونه مع ماينادى به الإسلام .

والمعروف أن التجريب والملاحظة الموضوعية الخاصة بالسلوك الإنسانى فى علم النفس المعاصر ، أوضحت إن كل نشاط يقوم به الإنسان فى بيئته ويمثل سلوكاً حركياً أو حسياً أو عقلياً أو انفعالياً أو اجتماعياً ، يقوم به الإنسان بطريقة كلية، أى يقوم به فى صورة وحدة متكاملة Integrated unit.

لذلك فإن علم النفس المعاصر (٣٤) عند اهتمامه بدراسة السلوك يشير إلى وحدة السلوك عند الإنسان : «فالإنسان يمثل وحدة جسمية نفسية متكاملة لاتتجزأ ، إن تأثر جانب منها أو اضطرب تأثرت له الوحدة كلها أو اضطربت» .

فيما يتعلق بالبحث عن النفس فى علم النفس المعاصر ، فإن المعاصرين من علماء النفس ، يرون أن الفلسفة هى التى تبحث عن أصل النفس وماهيتها ... حقيقتها ... وغايتها ... ومصيرها ، وهذا من اختصاص الفلسفة وليس من اختصاص العلم (٣٥) فمن حيث أن :

العلوم البيولوجية غاياتها البحث فى نشأة وتكوين الكائنات الحية ، والنمو والتطور والنشاط ، وبذلك فإن علوم الأحياء لاتبحث فى ماهية الحياة .

والعلوم الفيزيائية حقيقتها البحث فى خصائص المواد والمظاهر الطبيعية للطاقة كالضوء والصوت والكهرباء والمغناطيسية ، وبذلك فإن هذه العلوم لاتبحث فى ماهية الطاقة أو المادة .

كذلك فإن علم النفس المعاصر لايبحث فى النفس . بل يبحث فى السلوك ، وتسميته علم النفس وليس علم السلوك هى تسمية لصقت به من الماضى ولازالت عالقة به حتى اليوم .

هذا بالإضافة إلى أن اهتمامات علم النفس المعاصر ، تبتعد كلية عن البحوث الروحية كتحضير ومخاطبة الموتى ، أو التخاطر Telepathy (التلباثى أى روح التخاطر عن بعد) وهى ماتمثل انتقال الخواطر والأفكار من فرد إلى آخر ، أو الإدراك والتفكير فى إحداث واقعية بعيدة عن الجانب المكانى للإنسان وبغير وساطة الحواس .

من هذا رغم أن علم النفس المعاصر تعددت ميادينه النظرية والتطبيقية وخضعت مباحثه على أسس علمية تجريبية ، إلا أن فهمه للنفس الإنسانية يغاير كنه النفس الإنسانية فى القرآن الكريم والسنة .

وحدة السلوك الإنسانى فى الإسلام :

يُقر الإسلام أن البناء الإنسانى كُل لايتجزأ ... جسد وروح ، ولكل من هذين العنصرين وجود متميز ، رغم أن للروح نوعاً من النشاط الخاص الذى تستقل به عن الجسم .

ومن حيث إن الروح والجسم فى حالة اتصال دائم طالما أن الإنسان يسعى فى مناكب الأرض ، ويتم ذلك فى صورة نشاط وسلوك دائب ، ويمكن التعرف على هذا النشاط أو السلوك الداخلى والخارجى ، فإن معنى ذلك أن ماينادى به علم النفس المعاصر ... من أن النشاط الإنسانى يصدر عن الإنسان بأسره وبكليته ، أى من حيث هو وحدة وكل ... لايتعارض مع ما ينادى به الإسلام .

إلا أنه يتعين علينا أن ندرك أن نظرة الإسلام نظرة شمولية قائمة على أن سلوك الإنسان يمثل المسئولية التى تقع على الإنسان كوحدة نفسية مشكلة من جسد وروح باعتبارهما نفساً واحدة .

وعن «ابن القيم» فى كتابه «الروح» ... أن الروح والجسد يختصمان بين يدى الرب عز وجل يوم القيامة . وكل منهما يلقى المسئولية على الآخر فعن ابن عباس رضى الله عنه : ماتزال الخصومة بين الناس يوم القيامة حتى يخاصم الروح الجسد فتقول الروح يارب إنما كنت روحاً منك جعلتنى فى هذا الجسد فلاذنب لى . ويقول الجسد يارب كنت جسداً خلقتنى ودخل فى هذا الروح مثل النار ، فيه كنت أقوم وبه كنت أقعد وبه أذهب وبه أجيء لاذنب لى . (٣٦)

ومانفهمه من هذا أن وحدة النفس فى الإسلام تمثل وحدة السلوك المتكامل للإنسان ، وأنه لاكيان لجسد الإنسان دون الروح ، كما أن الروح لاتستقل عن الجسد ، إلا عندما يفنى الجسم عندما يأذن الله بذلك فى الدار الفانية ، وحيث تصعد الروح إلى بارئها مفارقة الجسد ، ثم تعود إلى الجسد يوم البعث الأكبر لتأخذ نصيبها العادل من حساب الدار الباقية .

أما عن سعى الإنسان ووحدة السلوك فى المفهوم الإسلامى ، فإن الإسلام أوضح بأن أحوال القلوب مرتبطة بسلوك الإنسان وكسبه وعمله ، فعمل الإنسان وسعيه له تأثير مباشر على القلب ، وكلما كان القلب صحيحاً سليماً ، استقام سلوك الإنسان ، وكلما كان القلب مريضاً فإن مرضه مرجعه السلوك اللاسوى الذى يمنع أفعال الإنسان ووقوعها على السداد .

تلخيص :

* أحوال النفس الإنسانية الواردة فى الذكر الحكيم هى النفس : المطمئنة – اللوامة – الأمارة بالسوء – الزكية – الوسواسة (الحوازية) – الظالمة – المجاهدة –الملهمة – الراضية والمرضية والكاملة ، وأكثر الأحوال المشار إليها وروداً فى كتاب الله هى المطمئنة – اللوامة – والأمارة بالسوء .

* النفس المطمئنة تتمثل فى شخصيات المصطفين والأخيار من النبيين والصديقين وفى سلوك المجاهد الذى يوفقه الله لذلك . وهى فى سلوكها يظهر التعقل والتدبر وحسن التصرف ، وهذا من نتاج الخضوع والامتثال لأوامر الله ونواهيه وسنة نبيه المباركة ، وهى نفس لاتعرف السخط وترضى بحكم الله وقضائه .

* والنفس اللوامة إما أن تتمثل فى خصائص المؤمن التقى حيث تلومه على التقصير فى الطاعة والالتزام والغفلة عن ذكر الله والأقدام على المعاصى . وإما أن تكون فى سمات الفاجر الغافل وحيث يتسم السلوك بالتقصير وانتهاز الفرص والندم على فوات الحظ والأهواء .

واللوم من شأنه أن يحدث الاضطرابات النفسية ، والنفس اللوامة المؤمنة من خصائصها أنها تحمى صاحبها من هذه الأمراض .

* والنفس الأمارة بالسوء هى التى تدفع صاحبها وتثير إنفعالاته ليسلك إلى طريق الشر ، وتحفزه وتحضه على فعله .

والإسلام يرى أن النفس الإنسانية محايدة فهى ليست شريرة أو خيرة ، وتتأثر بالتربية وظروف البيئة .

* والنفس الزكية وهى الطاهرة العفيفة النقية التى تسمو بالذات ، وتعرف حق قدرها وفق ماحباها الله تعالى من أبعاد طيبة نقية .

* والنفس الوسواسة (الحوازية) وهى التى يوسوس لها الشيطان بالشر فتصير لاهية عابثة تتبع الهوى والشهوات ، وتفعل ماتشاء من سلوك مضطرب غير مقبول اجتماعياً . وقد تتسلط الوساوس والمخاوف لمراحل زمنية طويلة ؛ وحيث تؤدى إلى هلاك الإنسان .

* والنفس الظالمة وهى العدوانية فى حق ذاتها وفى حق الآخرين . وهى لاتعرف قدر وطاقات نفسها فتظن بهوان الناس وضعفهم ، فتظلم نفسها لضعفها وهوانها، وتظلم الناس من حولها .

* والنفس المجاهدة وهى التى تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، وهى تكف الأذى عن نفسها وعن الآخرين وهى تحب الخير والحق وتمقت الحقد والفساد.

* والنفس الملهمة وهى التى تصل إلى الدرجات العلى بنعمة الله وفضله وهدايته حتى تصبح ملهمة بصالح الأعمال .

* والنفس الراضية وهى التى تباعد بينها وبين الشيطان ، وتحجب عن ذاتها وساوسه .

* والنفس المرضية وهى التى تطمئن وتخشى الله فى كل مقام ومقال فتصبح مرادة لله تعالى محببة إليه .

* والنفس الكاملة (الصديقية) وهى التى تعبد الله حق العبادة ، وترقى إلى مراتب المؤمنين وهى تتقارب مع نفوس الأولياء الصالحين .

* وأحوال القلب تعد من أحوال النفس والعكس صحيح ، فالقلب والنفس كلاهما يوضح الأحاسيس الداخلية للإنسان ، وهى أحوال أبعادها متباعدة يصعب إدراكها والوصول إليها من قبل الفرد ذاته .

* وأحوال القلوب هى : القلب الصحيح أو السليم ، وهو يقابل النفس المطمئنة فى سلوكها . والقلب السقيم أو المريض وهو يقابل أحوال النفس اللوامة والقلب الميت وهو يقابل النفس الأمارة بالسوء .

* فيما يتعلق بوحدة النفس فى المفهوم الإسلامى ، هناك مايُعرف بتعدد الأنفس حسبما ورد فى الفكر الوثنى الهندى والإغريقى البابلى ، وحيث نادوا بتناسخ الأرواح ووجود النفس الخالدة والنفس الشريرة . كما أن الفلاسفة الإغريق قسموا النفس إلى خالدة وانفعالية وغذائية أو نامية أو حاسة أو ناطقة .

* تأثرت الفلسفة الإسلامية بالتصورات الخاصة بتعدد الأنفس ، فأشار ابن سينا والإمام الغزالى إلى مايعرف بقوى النفس ، رغم مانادى به كل منهما من وحدة النفس .

* علم النفس المعاصر رغم تعدد ميادينه النظرية والتطبيقية وخضوع مباحثه على أسس علمية تجريبية ، فإن فهمه للنفس الإنسانية يغاير كنه النفس الإنسانية فى القرآن الكريم والسنة .

* يُقر الإسلام أن البناء الإنسانى كُل لايتجزأ فالجسد لاينفصل عن الروح ، وكل منهما له وجود متميز ، رغم أن الروح لها نوع من النشاط الخاص الذى تستقل به عن الجسم ، ومن حيث إن الروح والجسم فى حالة اتصال دائم ، وهناك النشاط والسلوك الداخلى والخارجى . فإن النشاط الإنسانى يصدر عن الإنسان بأسره وبكليته أى من حيث هو وحدة وكل ويتوافق ، هذا مع ماينادى به علم النفس المعاصر ، الذى يشير إلى أن النشاط الإنسانى يصدر فى صورة وحدة كلية .

* نظرة الإسلام اشمل من نظرة علم النفس المعاصر فى أنها نظرة شمولية تقوم على أن سلوك الإنسان يتماشى مع المسئولية الملقاة على عاتق الإنسان ، الأمر الذى يجعل منه وحدة نفسية بنائها الجسد والروح ، باعتبارهما كياناً واحداً ونفساً واحدة ، كما أن العقل والقلب يؤكد هذه الوحدة أيضاً .

* أى إن وحدة النفس فى الإسلام تمثل وحدة السلوك المتكامل للإنسان ، كما أن وحدة السلوك فى الإسلام توضح أحوال القلب باعتبار أن أحوال القلب هى انعكاس لأحوال النفس ، فالقلب الصحيح فى النفس الصحيحة ، والمريض قلبه ، نفسه مريضة ومضطربة بعيدة عن السداد والصواب .

تعقيب :

* يقول الله تعالى فى محكم آياته : ﴿ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ ﴾ (سورة الإسراء – آية ٢٥) وفى هذا مايؤكد أن النفس الإنسانية لها أحوال تتباين وتختلف باختلاف الإنسان الفرد الذى سوى الله نفسه والهمها الفجور والتقوى .

فالنفس التى تستجيب لكل ما أمرها الله تعالى من ضروب الطاعة وما أخبرها النبى صلى الله عليه وسلم عن ربه من الامتثال الكامل والاقتناع التام بما أمر به الله ورسوله صلى الله عليه وسلم الكريم والتى تبتعد عن الفواحش والمعاصى وتباشر روح الطمأنينة ، إنما هى الشخصية المتكاملة التى لاتعرف السخط وترضى بمتاع الحياة قليلة أو كثيرة ، بحكم الله وقضائه ، وبذلك تتمتع بالصحة النفسية وبالتوافق النفسى والخلو من الاضطرابات والأمراض النفسية . وقد تعقدت سبل الحياة فى وقتنا المعاصر ، وجلبت المدنيات المعاصرة العديد من نمارق الحياة وزخارفها ، وأصبح الإنسان يلهث فى طلب المزيد من متاع الدنيا ناسياً ، أنه مفارقها لذلك قد يصعب وجود هذا النمط من البشر ، والذى يتمسك بعقيدته كالقابض على الجمر تماماً فى عصرنا الحالى .

* والنفس كالقلب الذى يتقلب .. وأحوال القلب هى انعكاس لأحوال النفس ، ولذلك تتقلب النفس وتتلون كما يتلون القلب ويتقلب . فينتاب النفس فى تقلبها التذكر .. والنسيان ، والقبول والإعراض والتلطف .. والسخف ، والفرح .. والترح، وسبحانه وتعالى مقلب القلوب والنفوس ، وفى هذا ما يجعل النفس تلوم وتزجر الذات وتؤنبها .

واللوم صنفان لوم المؤمن الذى يُحاسب النفس (محاسبة النفس) على تقصيرها ، وهو اللوم الذى نأمل فى اتسامه بين الناس جميعاً . وعلى النقيض من ذلك هناك لوم الغافل الفاسق ، الذى يتمنى ساعات اللهو وحيث يعاتب نفسه على فوات الفرص ، ويندم على أخذ حظه من متاع الدنيا وشهواتها ونزواتها .

* والنفس ألهمها الله تعالى فجورها وتقواها ، وهى بذلك محايدة ليست خيرة ولا شريرة ، ولكنها عندما تتسلط عليها الأفكار الخرقاء ويحفزها العدوان تضطرب فى فكرها وتبتعد عن طريق الهداية والاستقامة وترتكب المعاصى والآثام . وعندما ينضبط السلوك ويلتزم الفرد بتعاليم دينه يسمو ويعلو ؛ وحيث يكون ضميره رقيباً ومباعداً بينه وبين الأمر بالسوء .

* وقد تتطهر النفس وتسمو بصاحبها الذى يعرف قدره ، وعندئذ تكون من النفس الزكية المطهرة ، وقد تتدنى وتضعف وتفرط فى حق الناس وفى حق نفسها؛ لأنها نفس ضعيفة من سماتها الهوان ، فتظلم النفس من حولها ومن ثم فهى من أضعف الشخصيات فهى تظلم نفسها ولاتقتصد ولاتسبق بالخير .

* وجهاد النفس يمثل العلو والسمو فى سلوك الإنسان ، وحيث تتعارك النفس فى صراعها مع الفساد ، وبين الخير والشر ، فهى تحب الخير والحق وتمقت الحقد والفساد ، أى إنها تتمسك بالعادات السلوكية الإيجابية الفعالة ، ولاتلين أو تضعف فى إدبار أو إقبال الحياة .

* والقلب فى الإسلام هو العنصر الفعال الواع العاطفى ، وهو يُقابل الضمير فى التفسير النفسى المعاصر ، بحيث إما أن يتسم سلوك الإنسان عند صفاء قلبه بالاطمئنان ، وإما أن يتسم سلوكه بالفظاظة والقسوة والتحجر عندما يورد القلب الإنسان إلى موارد الضلال والغواية .

* وعلينا أن نفهم أن أحوال النفس تساير دائماً أحوال القلب فى المفهوم الإسلامى ، وحيث إن كلاً منهما يمثل الأحاسيس الداخلية والمشاعر الإنسانية التى قد يصعب إدراكها من الإنسان الفرد ذاته .

والقلوب رغم كونها ثلاثة فى أحوالها : صحيح أو مستقيم أو مبت ، إلا أنه لايُفهم من ذلك أنها متعددة ، بل إن هذه الأحوال إنما هى سمات القلب الواحد ، وليست لثلاث قلوب منفصلة ، مثلها فى ذلك مثل النفوس المتعددة بتعدد أحوالها ، وهى أساسها نفس واحدة .

* لقد نظر الإسلام على أن النفس واحدة . والله تعالى يقول : ﴿مَا خَلْقُكُمْ ولا بَعْثُكُمْ إلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ (سورة لقمان – آية ٢٨) ، لذلك ليس هناك تعدد الأنفس فى الإسلام ، رغم مانادت به الفلسفات السحيقة قبل ظهور الإسلام ، ورغم ماتأثر به الفكر الفلسفى الإسلامى من تقسيم النفس إلى «قوى النفس» رغم المناداة بوحدة النفس .

* وماينادى به علم النفس المعاصر من تكامل السلوك ووحدته ، وأن النشاط الإنسانى يصدر عن الإنسان بأسره وكليته ، أى من حيث هو وحدة وكل ، فإن فى هذا ما لايتعارض مع ماينادى به الإسلام عن التفسير المتكامل والوحدة فى السلوك الإنسانى .

لكنه يتعين علينا أن نوضح الاختلاف الجوهرى بين وحدة السلوك فى علم النفس المعاصر وفى المنظور الإسلامى . فنظرة الإسلام نظرة شاملة متكاملة بسلوك الإنسان الذى يمثل المسئولية التى تقع على الإنسان كوحدة نفسية أساسها الجسد والروح واعتبارهما نفساً واحدة ، بينما علم النفس المعاصر ابتعد كلية عن الجانب الروحى ودوره فى سلوك الإنسان .

* كما أنه يتعين علينا أن نوضح أن المفهوم الإسلامى لوحدة السلوك المتكامل للإنسان ، القائمة على اتصال الجسد بالروح فى الحياة الدنيا ، يفاد منه أن وحدة النفس ترتبط أيضاً بالقلب ودوره فى السلوك الإنسانى ، وحيث تكون النفس عند توحدها مع القلب الصحيح السليم توجه سلوك الإنسان إلى الاستقامة ، بينما فى حال قلب المريض يضطرب السلوك ويبتعد الإنسان عن جادة الصواب . وبذلك فإن دور القلب فى المفهوم الإسلامى يقوم على اتصاف السلوك بالسوية أو اللاسوية .

تمـــارين :

١ – أكثر أحوال النفس وروداً فى كتاب الله العزيز هى النفس : المطمئنة – اللوامة – الأمارة بالسوء ؟ اشرح .

٢ – أحوال القلب متباعدة يصعب إدراكها والوصول إليها من قبل الفرد ذاته؟ وضح .

٣ – تأثر الفلاسفة المسلمين بما يُعرف «بتعدد الأنفس» ؟ وضح .

٤ – يُغاير مفهوم النفس الإنسانية والبناء الإنسانى فى الذكر الحكيم مايُفسر فى علم النفس المعاصر من نظرته إلى النشاط الإنسانى ؟ وضح .

٥ – تمثل نظرة الإسلام إلى سلوك الإنسان نظرة شمولية تؤكد وحدة النفس والسلوك المتكامل للإنسان ؟ وضح .

الفصل الرابع

مدخل لدراسة التفسير الإسلامى للسلوك الإنسانى

المحتوى :

* تمهيد
* الدراسات النفسية ومساهمات علماء المسلمين .
* التفسير الإسلامى للسلوك الإنسانى .
* تلخيص .
* تعقيب .
* تمارين .

الفصل الرابع

مدخل لدراسة التفسير الإسلامي للسلوك الإنساني

تمهـــيد :

اهتم علماء المسلمين بتحديد خصائص ومكونات النفس الإنسانية ، ومايتعلق بها من جوانب متعددة ، من حيث علاقتها بالذات وبالجماعة . كما حاول علماء المسلمين البحث عن أصل الإنسان ، وعن غاية وجوده ، وعن تكوينه وخصائصه وعن مسئوليته ، وعن سعيه فى مناكب الأرض وعن مصيره ، وعن علاقته مع الجماعة التى يعيشٍ بينها حسب وضعه فى البناء الاجتماعى ، وعن تأثيره وتأثره بالآخرين وهو مايعرف فى علم النفس المعاصر بدنيامية الجماعة ،.

كما بحث علماء المسلمين عن النية (القصد) فى سلوك الإنسان ، واهتموا أيضاً بالجانب الأخلاقى اهتماماً يغاير عما هو قائم فى الدراسات الإنسانية المعاصرة . كما اهتم علماء المسلمين بالسلوك الدينى الذى نظروا إليه نظرة أخلاقية ، وأثر ذلك على فعالية هذا السلوك .

كما تطرق البعض منِهم إلى مظاهر تعبير الفرد عن شخصيته وتفرده عن غيره ، وهو مايتوافق مع مايعرف فى علم النفس المعاصر بالفروق الفردية .

وكمدخل لدراسة التفسير الإسلامى للسلوك الإنسانى ، نتناول فى الفصل الرابع نماذج عن مساهمات علماء المسلمين فى تفسير السلوك ، كما نوضح كيف عالج علماء المسلمين أنواع السلوك والنشاط النفسى للإنسان .

الدراسات النفسية ومساهمات علماء المسلمين :

يتضمن التراث الإسلامى فى مجال الدراسات النفسية دوراً لم يكشف عن الكثير منه حتى الآن (٣٧) ، الأمر الذى يحتاج إلى جهود مكثفة للإعلام عن هذه الدراسات ، حيث إنها تنطوى على قيمة كبرى من الناحية العلمية وإبراز التقارب أو التباعد بين هذه الدراسات و الدراسات النفسية المعاصرة .

وقد أثرت دراسات «ابن سينا» «والإمام الغزالى» «والفارابى» وغيرهم تأثيراً

كبيراً على علماء الغرب . ولابن سينا قصيدة طويلة فى النفس ، وارتباطها بالبدن ودراسات كثيرة فى هذا الميدان ، مما كان له تأثير كبير على دراسات فلاسفة الغرب وفى مقدمتهم «ديكارت» . وكان لابن سينا دراسات هامة فى مجال الإدراك الحسى والعلاج النفسى والتخيل والإنفعالات .. إلخ . وهى دراسات ترجمت إلى اللغة اللاتينية واللغات الأوربية الحديثة . وقد عالج ابن سينا مايعرف فى علم النفس المعاصر بالإدراك الحسى ، ووضح كيف يستطيع العقل إدراك الكليات ، وأوضح أن الإدراك مراتب ، أدناها الإدراك الحسى ، وهو انتقال صورة الشيء الخارجى إلى الذهن ، ولكن الشيء الخارجى مركب من مادة وصورة ، وما ينتقل إلى الذهن هو الصورة دون المادة .

ويلعب الخيال عند ابن سينا دوراً هاماً فى عملية الإدراك الحسى ؛ حيث إنه هو الذى يفصل الصورة عن المادة وعن طريقه يمكن الوصول إلى الكليات ، أى أننا نستعين بالخيال للارتفاع من الجزئيات المدركة إلى الكليات المتعلقة .

ولم يقتصر ابن سينا على معالجة الإدراك الحسى والتخيل ، ولكنه عالج موضوعاً هاماً من موضوعات علم النفس المعاصر ، وهو الانفعالات مثل الضحك والتعجب والبكاء والخجل وأسماها الأحوال النفسية وهى خصائص للنفس دون البدن .

وقد عالج ابن سينا موضوعاً من أحدث موضوعات علم النفس ، وهو موضوع الأمراض النفسية الجسمية (النفسجسمية أو ماتعرف بالسيكوسوماتية) Psychosomatic وهى الأمراض الجسمية التى ترجع أسبابها إلى أصول نفسية ، وورد فى كتابه «القانون» العوامل التى تشفى المريض بالعشق ، وذكر فيه تجارب كثيرة قام بها لعلاج بعض المصابين بالأمراض النفسية .

ويذكر الطبيب «ابن العباس المجوسى» (المتوفى سنة ٣٨٤هجرية) فى كتاب له بعنوان «كامل الصناعة الطبية» بعض النصائح التى تقى الإنسان شر الأمراض النفسية والجسمية على السواء منها ... بعد الإنسان عن الغم ، وألا يستعمل الغضب، وألا يكثر من الهم والفكر ، وألا يستعمل الحسد ، فإن ذلك كله مما يغير مزاج البدن ويعينه على إنهاكه وضعف الحرارة الغريزية .

ومن كان مزاجه حاداً فإن هذه الأعراض تولد الحميات الرديئة بمنزلة قرحة أو السل ومايجرى هذا المجرى .

ولهذا من رأيه أن يتجنب الإنسان الأعراض النفسية كلها ، وأن يلهم نفسه الفرح والسرور ، فإنه يقوى الحرارة الغريزية ويحركها إلى ظاهر البدن ويزيد من النشاط ويقوى النفس .

وقد عالج «أبونصر الفارابى» فى دراسته «آراء أهل المدينة الفاضلة» السمات النفسية والاجتماعية التى يجب أن تتوافر للقائد أو رئيس المدينة ، كما عالج أحد الموضوعات الهامة فى علم النفس الاجتماعى ، وهو موضوع الأسس النفسية لتماسك الجماعة ، وأهمية التفاعل الاجتماعى فى المجتمع الإنسانى .(٣٨)

وتعتبر دراسات «الإمام الغزالى» (المتوفى سنة ٥٠٥ هجرية) فى كتابه إحياء علوم الدين – بموضوع السلوك وضروبه المختلفة ، حيث تحدث عن كل ضرب من السلوك موضحاً دوافعه ، ثم أوضح الغزالى كيف نسمو بالسلوك فى ضوء نور اليقين ومعرفة الله سبحانه وتعالى .

وقد أبان الغزالى أن السلوك الإنسانى ليس آلياً بل حيوياً غرضياً وميز بين السلوك الطبيعى والسلوك الضرورى والسلوك العقلى . وتناول الغزالى الكثير من الموضوعات الخاصة بعلم النفس المعاصر مثل الدوافع الفطرية المكتسبة والعادات وأساليب تكوينها وأنواعها والانفعالات وآثارها والإدراك الحسى والتخيل والذاكرة .

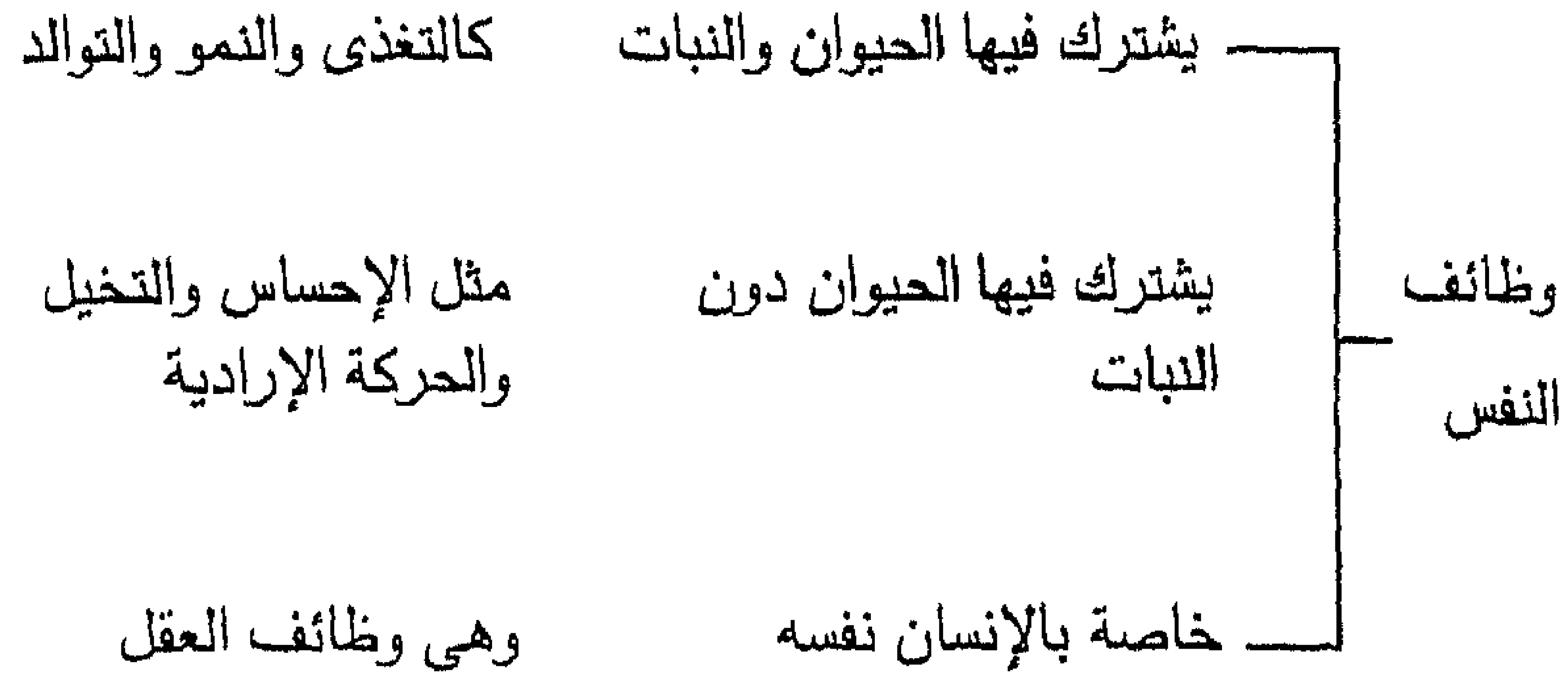
والواقع أن علماء المسلمين عالجوا بدقة وبعمق عديد من الموضوعات التى تحتل أهمية كبيرة فى علم النفس المعاصر .

التفسير الإسلامى للسلوك الإنسانى :

قام علماء المسلمين بتفسير السلوك الإنسانى تحت مايُعرف بالنشاط النفسى، حيث تأثر الفلاسفة من علماء المسلمين بما يعرف بالوقائع النفسية وتصنيفها ، وتصنيف الظواهر النفسية المختلفة ، حيث يدخل كل نوع من الظواهر تحت نوع معين .

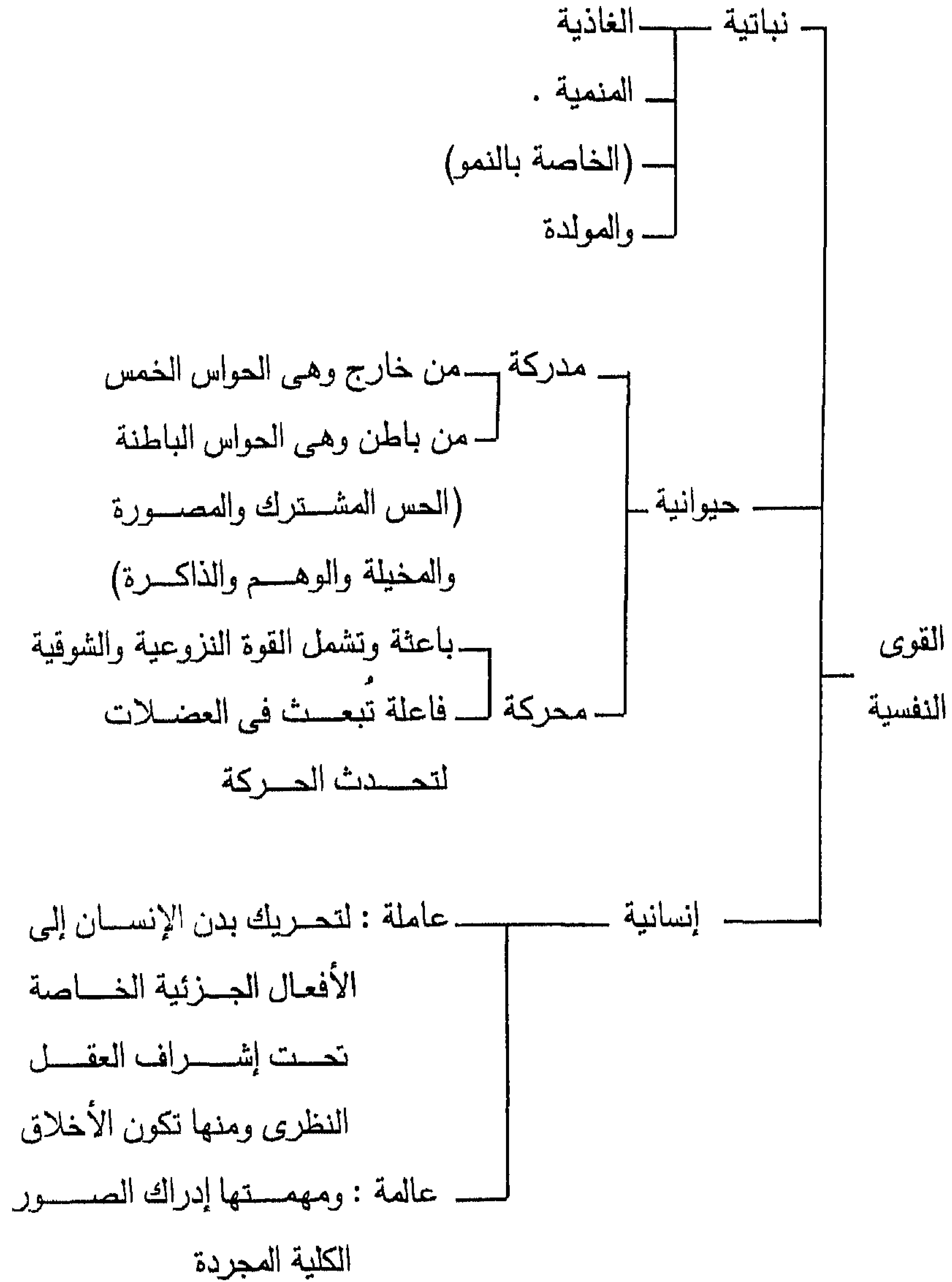
فإذا أخذنا مثلاً «الإمام الغزالى» نجد أنه كان يميل إلى دراسة الظواهر أو الحالات النفسية منفردة (٣٩) أى جوانب النشاط النفسى ، كما أنه لم يتقيد كثيراً بأن يقرر لكل حادثة قوة نفسية تبعث على حدوثها على صورة معينة ، وأصبحت نظرته إلى النفس البشرية على أساس تحليلى ، أو على أنها مجموعة من الظواهر النفسية .

إلا أن الأساس النظرى للقوى بقى ملازماً لمفهوم النفس ، حيث أشار بأن وظائف النفس تقسم إلى :



ووراء كل وظيفة من هذه الوظائف قوة خاصة تسمى نفساً ، وهى على الترتيب : نباتية – حيوانية – وإنسانية .

وفيما يلى تنظيم القوى النفسى فى رأى الإمام الغزالى :



شكل (٨) : لقوى النفس للإمام الغزالى عن المادة وهى على مراتب متعددة. وهذا التصنيف يتفق مع «ابن سينا» فى الإدراك الحسى حيث :

١- يعتبر الوظائف البيولوجية وظائف نفسية ، وحيث يجارى بذلك ماسبقه من الفلاسفة الإغريق والمسلمين .

٢- يعتبر القوى النفسية مصدراً للوظائف ، وحيث يُجارى أيضاً ماسبقه من الأقدمين .(٤٠)

ويضيف الغزالى ما أسماه «جنود القلب» وحيث يكون أثرهم على النشاط النفسى صادراً عن وحدة لاتتفكك . وفى كتابه الأحياء أخذ ينظر إلى «الفعالية النفسية» على أنها مجموعة من الوقائع ، وقد صنفها على هذا الأساس .

وقد صنف الإمام الغزالى فعالية النفس إلى الجوانب التالية :

١- الحياة النزوعية المتمثلة بالدوافع والعادات والإرادة .

٢ - الحياة الوجدانية التى تتضمن الانفعالات والعواطف .

٣- الحياة الإدراكية بنوعيها الحسى والعقلى .

كما اهتم «الغزالى» بالحياة الوجدانية عن غيره ممن سبقوه ، حيث اهتم بالعاطفة التى تتمثل بالارتياح أو ضده ، واللذة أو الألم ، والغضب أو السرور .

كما اهتم الغزالى أيضاً بالإدراك العقلى والحسى .

فيما يتعلق بدراسة الحياة النفسية عامة ، وبين السلوك الدينى خاصة عند الغزالى ، نجد أن الإمام الغزالى لم يدرس التدين والسلوك والانفعال الدينى على أنها حقائق متميزة ذات كيان منفرد ، وإنما تناول دراسة السلوك عامة .

والدين فى رأى الإمام الغزالى يُطلق على الانفعالات والعواطف العامة التى تتبلور حول موضوعات الدين ، وإن كانت تنفصل عن المواضيع النفسية العامة . والسلوك الدينى فى نظره يتم بالصورة نفسها التى يتم بها أى سلوك آخر .

وأوضح «الإمام الغزالى» الفرق بين ثلاثة أنواع من السلوك :

١- **الفعل الطبيعى** : وهو فى نظره مجرد التغيير الميكانيكى ، وقد شبهه كانخراق الماء إذا وقف الإنسان عليه بجسمه .

٢- **الفعل الاضطرارى أو الضرورى** : وهو التغيير البيولوجى والآلى وذلك كالتنفس، وهو يعطى الفعل أحياناً الصفة الإرادية ولكنه ينزعها عنه ، فيبين أنه فى الواقع ليس إلا سلوكاً آلياً لاإرادة ولاعقل فيه .

٣- السلوك العقلى الإرادى : كالكتابة والمشى والنطق .

ويشرح الإمام الغزالى الفرق بين نوعى الفعل الاضطرارى والإرادى بمثل مايتوافق مع الفرق بين هذين النوعين من الأفعال فى علم النفس المعاصر .

ومن شروط السلوك الإرادى العقلى فى نظر الغزالى أنه لابد أن تتوافر فيه :

١- **القدرة** : أو مايُعبر عنه بالمعنى المودع فى العضلات ، أى الاستعداد الجسمى .

٢- **الإرادة** : التى تبعث القدرة إلى العمل وتتمثل فى إرادة جذب النفع أو الأذى .

٣- **العلم** : الذى يجب أن يجزم ويحكم ، والذى إذا تردد بقيت الإرادة ، والقدرة مترددين .

ويشير الغزالى إلى مثل هذه الشروط فى كتابه إحياء علوم الدين ، عند حديثه عن سلوك الكتابة ، فيبين أن اليد تعمل بالقدرة ، وأن القدرة تعمل بالإرادة ، والإرادة تنبعث بالعلم .

ويُكرر الشروط نفسها فى مكان آخر من الإحياء يبدو فيها عناصر السلوك التى تتألف من : علم يدفعه ميل قوى وقدرة على ذلك فيتم تنفيذ العمل .

والواقع أن تفسير السلوك فى نظر الغزالى يوضح اهتمامه بالجانبين الإدراكى والنزوعى أكثر من الجانب الوجدانى ، رغم إهتمامه أيضاً بهذا الجانب عند علاجه لأدواء النفس (أى أمراض النفس) ، فالرياء فى نظر الغزالى : لابد لدفعه من ثلاثة أمور : «المعرفة والكراهة والإباء» .

وبصفة عامة يمكن أن نعرض بإيجاز ، أفكار الغزالى عن السلوك فيما يلى:

١- أن للسلوك دوافع وبواعث وغايات وأهدافاً .

٢- أن الدوافع ذاتية (داخلية) تنبع من ذات الإنسان ، ولكنها تستثار بمثيرات خارجية كرؤية مايثير النظر ، أو بمثيرات داخلية تتعلق بالحاجات الجسدية والميول الطبيعية : مثل الجوع والميل الجنسى والخوف من الله والمحبة وغير ذلك .

ويُعبر الغزالى عن ذلك كله بلغته الخاصة حين يقول «إن مداخل الإثار (المثيرات) المتجددة فى كل قلب إما من :

الظاهـــر : عن طريق الحواس الخمس .

أو الباطن : عن طريق الخيال والشهوة والغضب والأخلاق المركبة من مزاج الإنسان .

أو القلب : فى التغير والتأثير دائماً من هذه الأسباب . أما البواعث والمثيرات فإنها فى رأيه تتحول إلى معان يتمثلها الذهن ، وقد أطلق عليه الخواطر .

٣- أن الإنسان يجد نفسه تجاه الدوافع مدفوعاً للقيام بسلوك معين .

٤- يتضمن السلوك عند الإنسان :

* الشعور بالحاجة مع انفعال معين .

* وإدراك عقلى للموقف .

ويصحب هذا كله نشاط من نوع خاص لاينفصل عن الشعور والانفعال وإدراك الموقف .

٥- أن الحياة النفسية عمل دينامى يتأثر بالفاعل (التفاعل) المستمر بين الأهداف أو الدوافع وبين السلوك . ويعبر الغزالى عن ذلك بأن كل فعل يتألف من عمل «القلب واللسان والجوارح» .

٦- أن السلوك الفردى يختلف باختلاف العوامل الوراثية والاكتسابية (المكتسبة) . ونشاط النفس عند «الغزالى» أو صفاتها ليست منفصلة عنها «وهيئاتها لاتتماثل ولو تماثلت لاشتبه علينا زيد بعمرو» (٤١)

٧- أن السلوك الإنسانى على مستويين :

- مستوى يقترب فيه الإنسان من بقية الكائنات الحية ، ويتميز هذا المستوى بتحكم الدوافع والعوامل الإندفاعية .

- مستوى يحقق فيه الإنسان مثله العليا ويقترب فيه من المعانى الربانية والسلوك الملائكى ، ويتميز هذا السلوك بتحكم الإرادة وسيطرة العقل .

تلخيـــص :

* قام علماء المسلمين منذ مايقرب من ألف عام وأكثر بجهود طيبة فى تحديد خصائص ومكونات النفس الإنسانية فى علاقاتها بالذات وبالجماعة ، وحاولوا جهدهم فى البحث عن مكنون الإنسان وغاياته من الوجود ، وخصائصه ومسئولياته وسعيه وسلوكه ومصيره ، وعلاقته فى الوسط الاجتماعى الذى يعيش وتفاعله الاجتماعى وتأثره وتأثيره فى الآخرين ، وبذلك كان لهم السبق فى ميادين عديدة خاصة بالتفسير الإسلامى للسلوك الإنسانى .

* واهتم البعض منهم بالسلوك الأخلاقى والسلوك الدينى ، وتطرق البعض منهم إلى مايعرف فى وقتنا المعاصر بالفروق الفردية ، حيث أشار البعض منهم ضمن مؤلفات إلى تعبير الفرد عن ذاته وتفرده عن غيره .

* وهناك التراث الإسلامى فى مجال الدراسات النفسية الذى تركه الفارابى والإمام الغزالى وابن سينا وابن القيم الجوزية وأبى الفرج الجوزى وابن تيمية وغيرهم فى مجالات متعددة تشمل ميادين فى علم النفس فى مظاهر عديدة للسلوك منها الجانب النزوعى والوجدانى والإدراكى والحسى .

* ضمن مساهمات «ابن سينا» مايُعرف بالأحوال النفسية ، والأمراض النفسية الجسمية وهى الأمراض الجسمية التى تتسبب من أحوال نفسية ، وهى تقابل مايعرف فى علم النفس الكلينكى المعاصر بالأمراض النفسجسمية (سيكوسوماتيك) .

* كما كان للطبيب العربى «المجوسى» دوره فيما يُعرف بالأعراض النفسية الخاصة بالأمراض النفسية والجسمية .

* ساهم «الفارابى» فى دراسات على مستوى طيب فيما يتعلق بالأسس النفسية للتماسك الاجتماعى وأهمية التفاعل الإجتماعى فى المجتمع الإنسانى وحيث تعتبر آراؤه فى «أهل المدينة الفاضلة» آراء متقدمة ، فيما يندرج حالياً فى الدراسات النفسية المعاصرة تحت «علم النفس الاجتماعى» .

* فيما يتعلق بمساهمات الإمام الغزالى ، فقد تمثلت فى ثروة علمية روحية دينية ، وحيث تجاوزت مساهماته أكثر من سبعين مؤلفاً فى حقبة زمنية وجيزة حيث ولد فى ٤٥٠ هجرية وتوفى فى ٥٠٥ هجرية ، وحيث ساهم فى كتابه «إحياء

علوم الدين» فى إيضاح عديد من جوانب وضروب السلوك الإنسانى .

* يفسر علماء المسلمين السلوك الإنسانى تحت مايُعرف بالنشاط النفسى والوقائع النفسية وتصنيفها ، وتصنيف الظواهر النفسية .

* ضمن تفسيرات علماء المسلمين ما أشار إليه الإمام الغزلى من وظائف النفس على أنها : نباتية – حيوانية – وإنسانية . ومايقابلها أيضاً من قوى نفسية مماثلة ، وهذا التصنيف يتوافق مع تصنيف «ابن سينا» .

* فيما يتعلق بفعالية النفس أو ماتُعرف فى الوقت المعاصر بمظاهر السلوك، فقد قسمها «الغزالى» منذ أكثر من تسعمائة سنة إلى مايتوافق وحد كبير مع التقسيم المعاصر لأنواع السلوك النزوعى والوجدانى والإدراكى .

* تتميز دراسات الإمام الغزالى أيضاً بالاهتمام بالسلوك الدينى والتدين ، ودور الانفعالات والعواطف فى الجانب الدينى للسلوك .

* فرق الغزالى بين أنواع السلوك : الطبيعى – والاضطرارى أو الضرورى والعقلى والإرادى . وفيما يتعلق بالسلوك العقلى أشار إلى أهمية توافر كل من القدرة والإرادة والعلم فى هذا الجانب من السلوك .

* وفى آراء الإمام الغزالى عن السلوك مايتوافق مع بعض خصائص السلوك فى علم النفس المعاصر فى جوانب متعددة ، نذكر منها على سبيل المثال وجود دوافع وبواعث وغايات وأهداف للسلوك ، وأشار إلى مثيرات السلوك ، ومايتضمنه السلوك من شعور وإدراك وإنفعال وإلى دينامية السلوك وفاعلياته ، وأن السلوك الفردى يتأثر نتيجة العوامل الوراثية والاكتسابية ، والتى نطلق عليها الآن العوامل البيئية .

كما فرق بين مستويات السلوك من حيث تحكم الدوافع واقتراب المستوى الإنسانى من الكائنات الأخرى ، والسلوك الذى تحكمه الإرادة وسيطرة العمل وحيث يحقق فيه الإنسان المثل العليا ، والذى أطلق عليه الغزالى السلوك الملائكى.

تعقيب :

* علم النفس المعاصر يعود إلى مؤسسه ديكارت (١٦٥٠م) ، وحيث انفصل علم النفس آنئذ عن الفلسفة ، وبدأ فى استخدام المنهج العلمى ، وامتدت الدراسات النفسية منذ هذا الوقت حتى الآن ، وأضيفت فى ساحة العلم عديد من الميادين النظرية والتطبيقية فى حقول علم النفس . إلا أنه علينا أن نذكر أن علماء المسلمين كانت لهم مساهمات عديدة فى جوانب كثيرة للنشاط النفسى الإنسانى ، منها مايتقابل مع النتاج المعاصر ، ومنها مايتعارض مع أفكار لازالت فى غرابتها تزدحم بها ثقافتنا المعاصرة فى ميادين كثيرة فى العلوم الإنسانية بصفة عامة . ولقد حاول علماء المسلمين البحث عن كنه الإنسان وغايته ووجوده ، وخصائصه وسماته ، وعلاقته مع ذاته ومع الآخرين ، وأشاروا منذ أمد بعيد إلى مايعرف حالياً بدينامية الجماعة .

* ولقد عالج علماء المسلمين بدقة وعمق عديداً من الموضوعات التى تحتل أهمية كبيرة فى علم النفس المعاصر . ومنهم من اتجه إلى العلاج النفسى ، وآخرون اتجهوا إلى مقومات الصحة النفسية تحت ماعرفوه بشفاء القلوب ، ومنهم من اتجه إلى تحليل السلوك الإنسانى ، فى ضروبه المختلفة ، وتحدث عن كل ضرب موضحاً دوافعه ، وكيف يمكن للإنسان أن يسمو بسلوكه فى ضوء اليقين والإيمان الكامل بالله ، وأن الالتزام الأخلاقى أساس فى سوية السلوك .

ولقد تشعبت الدراسات النفسية عند علماء المسلمين إلى دراسة التنظيم العقلى والظواهر أو الحالات النفسية ، التى تمثل جوانب النشاط النفسى فى علم النفس المعاصر ، كما كانت لهم مساهمتهم فى الدوافع الفطرية والمكتسبة والعادات وأساليب تكوينها وأنواعها والانفعالات وآثارها والإدراك الحسى ، وجوانب أخرى فى السلوك العقلى .

* وأن من أهم مساهمات علماء المسلمين وهو مايغاير الدراسات النفسية المعاصرة اهتمامهم بالسلوك الدينى ، والنظرة إليه نظرة أخلاقية وفعالية هذا السلوك .

* وقد يظن البعض أن الطابع النظرى الفلسفى أو العقلى هو الذى كان يغلب على الدراسات من نتاج علماء المسلمين عن النفس الإنسانية والسلوك الإنسانى .

والواقع أن نتاج علماء المسلمين تميز بالوضعية والموضوعية عندما تعرضوا للبحث عن نشاط النفس وأحوالها ، والبعض الآخر عندما قلد من سبقه من فلاسفة الإغريق أو غيرهم كانت تنقصه الموضوعية ، عندما أبدى أراءه حول النفس الإنسانية .

لذلك نجد بعض علماء المسلمين كالغزالى سلك طريق الفلاسفة ، عندما درس النفس الإنسانية كجوهر ، ثم أضاف فى دراساته الكشف والتجربة للتعرف على وجود النفس وحقيقتها ومايتعلق بماهيتها عموماً .

والمتتبع لكيفية دراسة النفس عند الإمام الغزالى نجد أنه استخدم المناهج التالية :

* بالنسبة لدراسة أعمال النفس ، استخدم أساليب جديدة تقوم على شيء من الموضوعية النسبية والتأمل الباطنى ، وملاحظة سلوك الآخرين وتحليله ، وتحليل الظواهر النفسية المختلفة .

ففى منهج التأمل الباطنى ، ذكر أن النفس كماهية تُدرك من داخل الإنسان لا من خارجه ، وعن طريق التجربة الذاتية يتأمل الإنسان مايعانيه ومايشعر به من أحاسيس . وفى رأيه أن التجربة الذاتية تمد فى آفاق الحياة وتزيدها خصباً وغنى .

كما أن من رأيه أيضاً أن عملية مجاهدة النفس ورياضتها ومعرفة عيوبها تعتمد على التأمل الباطنى لتعرف أحوال النفس . (٤٢)

فيما يتعلق بمنهجه فى ملاحظة سلوك الناس ، فقد أشار إلى استخدامه لهذه الطريقة عند ملاحظته للمنحرفين من الأفراد .

* أما عن منهج التحليل النفسى فليس أحد ممن سبقه إستخدم هذا المنهج فى :

تحليل السلوك الفرد للإنسان ، وتحليل الوظائف النفسية . وقد أفاض الغزالى فى تفصيله للمعانى الباطنة أثناء الصلاة ، باعتبار أن السلوك الإنسانى يتمثل فى حضور القلب والفهم والتعظيم والهيبة والرجاء .

وأشار إلى العلاج النفسى (الدواء النفسى الناجح فى رأيه) فى تحقيق هذه المعانى من حضور للقلب ودفع للخواطر . (٤٣)

* وفى الأسلوب التحليلى أيضاً ميز بين أنواع الخواطر ، وتفصيل خواطر الرياء وكيف تدفع . كما أوضح كيف يتم الصراع النفسى عندما تتصارع بواعث الشهوات مع بواعث المثل العليا ، وكيف أنها قد تتساوى فى القوة وقد تختلف ، وإيضاحه لكيفية تغلب أحدها على الآخر . (٤٤)

كما أنه أيضاً أشار إلى مايُعرف بهامش الشعور ، ومايكون فيه من خواطر وأفكار. (٤٥)

وإن ماورد فيما يتعلق بمنهج ونتاج الإمام الغزالى يمثل الفكر الإسلامى منذ مايقرب من ألف عام فى عديد من معرفة النفس الإنسانية وحقيقتها وماهيتها والمناهج التى استخدمت فى الدراسات النفسية عند علماء المسلمين ، والتى اتسمت أيضاً بالطابع التجريبى ناهيك عما أضافه ابن سينا والفارابى والكندى وابن تيمية وغيرهم ، حيث كان لابن سينا آراء علمية وعملية فى الجوانب والأنشطة التحليلية للسلوك الإنسانى وآرائه فى العلاج النفسى ، وحيث برع فى العلوم الطبية فى عصره وآراء الفارابى وابن مسكويه وابن خلدون فى التطبيع الاجتماعى والتنشئة الاجتماعية .

* وبعد ألم يأن للعلماء والعاملين فى ميادين الدراسات النفسية فى وقتنا المعاصر فى العالم العربى بصفة خاصة والعالم الإسلامى بصفة عامة ، فى نشر الثروة العلمية للقادة من علماء المسلمين ، خاصة وأن نتاجهم ظهر أثناء العصور المظلمة فى القرون الوسطى وماقبلها ، وكان لما وصلوا إليه من فكر وإبتكار وإبداع منافذ للعديد من علماء أوروبا وغيرهم استقوا منها معارفهم ودراساتهم فى الطب والجراحة والفلك والتربية وغيرها من المعارف الإنسانية .

وإن المتتبع لما قام به علماء المسلمين يرى فى مواضع عديدة أوجه الإتفاق بين ما أشار إليه علماء المسلمين من قرون مضت ، ومابدأ به ومنه علماء الغرب أمثال ديكارت وغيره ، إضافة إلى أن مباحثهم امتدت إلى الجانب التجريبى والنظرى أو الفلسفى على حد سواء ، فى ميادين الدراسات النفسية خاصة والدراسات الإنسانية عامة ، وغيرها من الميادين العلمية والإنسانية .

تمـــارين :

١- وضح أهم جهود علماء المسلمين فى الكشف عن خصائص ومكونات النفس الإنسانية ؟

٢- ما أبرز اهتمامات «ابن سينا» فى مجال الدراسات النفسية ؟

٣- تعتبر مساهمات الإمام الغزالى ثروة علمية روحية دينية بين التراث الإسلامى الخاص بتفسير السلوك الإنسانى ؟ وضح .

٤- يتوافق ما أشار إليه الغزالى فيما عُرف «بفاعلية النفس» مع التقسيم المعاصر لأنواع السلوك ؟ وضح .

٥- تتقارب آراء الإمام الغزالى عن السلوك مع بعض خصائص السلوك فى علم النفس المعاصر ؟ اذكر الجوانب المتمثلة فى ذلك .

الباب الثانى

التفسير الإسلامى لأنشطة وجوانب السلوك الإنسانى واثارها على الحياة النفسية

الباب الثانى

التفسير الإسلامى لأنشطة وجوانب السلوك الإنسانى وآثارها على الحياة النفسية

تمهـــيد :

يتمثل السلوك الإنسانى فى أنماط متعددة ، منها أنشطة تتمثل فى :

- الجانب النزوعى والذى يشتمل على الدوافع كمحركات للسلوك والعادات السلوكية والسلوك الاختيارى (الإرادى) .
- الجانب الانفعالى الوجدانى والذى يشتمل على الانفعالات والعواطف والاتجاهات والقيم .
- الجانب الحركى الإجرائى والمتمثل فى الأنشطة الحركية والعضلية .
- الجانب الإدراكى المعرفى ، والذى يشتمل على الأنشطة العقلية المعرفية.

وفى الباب الثانى سنعرض النواحى المختلفة التى تتشكل منها أنماط الجوانب النزوعية والانفعالية والوجدانية والإدراكية المعرفية ، وحيث نقوم بإيضاح مساهمات الدراسات النفسية المعاصرة فى مكونات هذه الجوانب المختلفة ، مع إبراز دور علماء النفس المعاصرين فى هذه الجوانب ، دون الدخول فى تفاصيل كثيرة ، حيث نتفق أن الدارس المتخصص فى العلوم النفسية ، من المسلم به أنه سبق له الإلمام بدرجة كافية بهذه الجوانب المختلفة ، عند دراسته لعديد من مقررات علم النفس ، التى تناولت هذه الجوانب من أكثر من منظور .

كما نعرض أيضاً مساهمات علماء المسلمين من الفلاسفة والسلف الصالح والمعاصرين وآرائهم حول الجوانب المختلفة التى يتشكل منها السلوك الإنسانى ، لنتبين مدى تقارب أو تباعد أو تنافر التفسير المعاصر للدراسات النفسية القائمة مع التفسير الإسلامى . ونقصد بالتنافر ماقد يتعارض من أفكار ومقولات وتفسيرات من نتاج الدراسات النفسية المعاصرة للسلوك الإنسانى ، مع شرائع الدين الإسلامى الحنيف .

ويشتمل الباب الثانى للتفسير الإسلامى للسلوك الإنسانى وآثاره على الحياة النفسيةعلى الفصول التالية :

الفصل الخامس : التفسير الإسلامى للدافعية للسلوك الإنسانى .

الفصل السادس : التفسير الإسلامى للعادات السلوكية .

الفصل السابع : التفسير الإسلامى للجانب الإرادى (الاختيارى) للسلوك .

الفصل الثامن : التفسير الإسلامى للانفعالات .

الفصل التاسع : التفسير الإسلامى للعواطف والاتجاهات .

الفصل العاشر : التفسير الإسلامى للجانب الحسى والإدراكى فى السلوك .

الفصل الحادى عشر : التفسير الإسلامى للجانب العقلى المعرفى والذكاء فى السلوك.

الفصل الثانى عشر : آراء علماء المسلمين فى التعلم.

الفصل الخامس

التفسير الإسلامى للدافعية للسلوك الإنسانى

المحـــــتوى :

* **تمهيد**
* **تطوير مفهوم الدافعية فى علم النفس المعاصر .**
  - الغرائز .
  - الحاجات .
  - الحاجة (الدافع) إلى الانجاز .
  - الدوافع .
* **التفسير الإسلامى للدافعية :**
  - أهمية الدوافع .
  - معنى الفطرة (فى الدافعية) عند الإمام الغزالى .
  - بواعث السلوك للدافعية .
  - قوة الدافعية وترتيب ظهورها وأهميتها .
  - تصنيف الدوافع عند الإمام الغزالى .
  - نماذج من الدوافع الأساسية عند الإمام الغزالى .
  - تعديل الدوافع والإعلاء فى نظر الغزالى .
  - الإسلام وتعديل وتوجيه الدوافع .
  - كيفية تنظيم الإسلام للدوافع .
* **تخليص**
* **تعقيب**
* **تمارين**

التفسير الإسلامى للدافعية للسلوك الإنسانى

تمهيد :

من المعروف فى الدراسات النفسية أنه يمكن السيطرة على السلوك وتوجيهه عندما يتم التعرف على الحاجات والدوافع والميول التى تؤثر على السلوك الإنسانى، والتى يمكن تفسيرها على أساس أنها متغيرات متعددة مركبة دينامية ، تتجمع وتتآلف وتتغير على نحو مستمر .

ودراسة السلوك الفردى للإنسان والتنبؤ به ، يمكن أن يتم عند التعرف على:

- الموقف الخارجى المحيط بالفرد وخصائص هذا الموقف .
- التكوين الحيوى والعصبى لهذا الفرد .
- جانب الخبرات المختلفة التى تعرض لها الفرد فى مراحل حياته ومدى التشابه بين المواقف الحاضرة وسابق الخبرات .
- الدافعية فى الموقف الراهن أى الحاجات والدوافع التى تحرك سلوكه .

لذلك تمثل الدافعية عاملاً هاماً حيوياً فى تحديد سلوك الإنسان ، إذ إنها عبارة عن عملية استثارة السلوك وتنشيطه وتوجيهه نحو الهدف ؛ حيث إن هناك مايعرف بالوظيفة التوجيهية للدافعية ، والتى تتمثل فى أن النشاط الإنسانى الواعى، هو نشاط موجه نحو هدف معين .

لذلك فإن فهم الدور الذى تلعبه الدافعية فى السلوك ، وكيفية الاستفادة من هذا الدور ، تمكن من توجيه السلوك ، وتقلل عند الفرد من حدوث المشاكل التى تعترض حياته اليومية ، وتخفف من إحساسه بالإرهاق والتعب والملل الذى قد ينتابه ، بل تعينه على الإحساس بأهمية مايقوم بإرادته من أفعال .

ويستخدم مفهوم الدافعية لتفسير التباين فى السلوك فى الفرد من وقت لآخر

أو من عمل لآخر ، أو للتباين القائم بين شخصين فى عمل من الأعمال ، رغم التشابه الذى قد يكون فى ظروفهما أو تساوى قدراتهما . هذا ويمكن للدافعية أن تخدم غرضين فى الوقت نفسه :

- أن تكون هدفاً فى حد ذاتها .
- أو وسيلة لتحقيق أهداف أخرى .

وحتى يمكن فهم الدافعية علينا أن نفهم تطور الدافعية فى علم النفس المعاصر ، والذى ظهر فيما يعرف – الغرائز Instincts – الحاجات Needs – الدوافع Motives ثم نعرض بعد ذلك التفسير الإسلامى للدافعية .

تطور مفهوم الدافعية في علم النفس المعاصر .

تطور مفهوم الدافعية عند علماء النفس المعاصرين ، وفق التفسيرات التالية:

*** الغـرائز :**

يرى وليم مكدوجل McDougal أن الغرائز هى المحركات الأولى للسلوك. والغريزة فى رأيه عبارة عن استعداد فطرى نفسى يحمل الكائن الحى على الانتباه إلى مثيرات معينة يدركها إدراكاً حسياً ويشعر بانفعال خاص عند إدراكها ، وعلى العمل أخيراً أو الشعور بدافع العمل فى شكل سلوك معين تجاه هذا الشىء . لذلك فمظاهر العريزة : مظهر معرفى ، مظهر انفعالى ، مظهر عملى نزوعى . كما تصنف الغرائز إلى (فى رأى مكدوجل) :

فـردية : مثل غريزة البحث عن الطعام وانفعالها الجوع ، وغريزة التملك وانفعالها لذة التملك ... الخ .

جماعية : مثل الغريزة الجنسية وانفعالها الشهوة ، وغريزة الوالدية وانفعالها الحنو وغريزة السيطرة وانفعالها الزهو ... الخ .

كما فسر «فرويد» Freud (٤٦) الدافعية على أساس الغريزة .

والغريزة عنده تمثل قوة نفترض وجودها وراء التوترات المتأصلة فى حاجات الكائن العضوى (حاجات الهو) ، وهى تمثل مطالب الجسم من الحياة النفسية . ومصدر الغريزة هو حالة التوتر داخل الجسم ، وهدفها القضاء على هذا التوتر ، وموضعها هو الأداة التى تحقق الإشباع أو توصل إليه .

ويشير فرويد بوجود غريزة الحياة (٤٧) Eros أو غريزة الحب أو القوى البناءة فى النفس ، وتهدف البقاء ، ويدخل فى إطارها غرائز حفظ الذات وحفظ النوع وحب الذات ويقابلها غريزة الموت Thanatos أو غريزة الهدم أو القوى الهدامة التدميرية فى النفس وتهدف الفناء .

ويوجد صراع دائم بين هاتين الغريزتين الأساسيتين . والسلوك حسب هذه الآراء هو مزيج متوافق أو متعارض من غرائز الحياة وغرائز الموت ، ويؤدى هذا المزيج إلى اضطرابات فى السلوك .

ويميز فرويد بين غرائز «الانا» والغريزة الجنسية ، فغرائز «الأنا» هى القوة المعارضة للنزعات الجنسية ، وهى التى تعمل على حفظ «الانا» .

ويرى «فرويد» أن الغريزة الجنسية تلعب دوراً هاماً فى حياة الفرد ، وقد لاحظ أن المشكلات الجنسية تكمن وراء الكثير من الاضطرابات النفسية ، واعتقد «فرويد» أن النشاط البشرى ينبع من دافع غريزى جنسى فى طبيعته ، وهو الطاقة الجنسية أو ما أسماه اللبيدو Libido الذى يدل على المظاهر الديناميـة للغريزة الجنسية .

وقد أكد «فرويد» الكثير من العوامل الإجتماعية التى أرجعها إلى دوافع غريزية . فالاضطرابات العاطفية ترجع فى رأيه إلى الغريزة الجنسية ، والإبداع يرجع إلى إعلاء الغريزة الجنسية ، والعدوان والحرب يرجعان إلى غريزة الموت وقد عارض آراءه هذه فيما بعد فريق تلاميذه ، وأوضحوا تفسيراته .

*** الحاجات :**

الحاجات العضوية فى الإنسان ، نظراً لكونها حاجات حيوية تفقد قسماً من مكوناتها وتتناقص ، الأمر الذى يحتاج إلى تعويضها لإعادة التوازن إليها عما فقدته من تناول الطعام والشراب ، وينتج عن عملية التعويض فضلات لابد من إخراجها . لذا تنشأ الحاجة إلى إخراج الفضلات ، وحين تتعب الحاجات الحيوية لابد لها من الراحة . ثم أنه من اللازم لحفظ بقاء العضوية الابتعاد عن كل مايضر منها . كما أن العضوية ميالة إلى تخليد جنسها لذا لابد من القيام بنشاط جنسى معين .

وهكذا يتبين أن الحاجات المختلفة لهذه العضوية التى يشعر بها الإنسان عند اختلال التوازن فى الوظائف العضوية أو فى الحياة النفسية ، تدفعها إلى أعمال إيجابية كالطعام والشراب والجنس ، أو أعمال سلبية كاجتناب كل مايضر بالعضوية. لذا نقسم الحاجات إلى :

- **الحاجات الفسيولوجية** Physiological needs (العضوية) .

- **الحاجات النفسية** Psychological needs. (الاجتماعية) . والحاجات الفسيولوجية هى أول مايؤخذ فى سلم الحاجات الإنسانية الأساسية ، ويؤكد وجودها النزعة إلى التوازن التى تتميز بها الدوافع وتشمل هذه الحاجات : الجوع والعطش والحاجة إلى النوم والراحة والحاجة الجنسية . وكثيراً مايقال إن فطرة الإنسان نحو الحياة كثيراً ماتتميز بتأثير عدم اكتفاء حاجاته الفسيولوجية ، فإذا لم تشبع هذه الحاجات إشباعاً كافياً ، فإنها كثيراً ماتظهر لديه عديمة الأهمية.

والدليل على هذا أننا نجد الذى لم يذق طعم الجوع ، لايعير كثيراً من الاهتمام فى حديثه عن الجماعة وعلاقة الأفراد فيما بينهم ، وخاصة المساكين الذين هم موضوع الحرمان ، ولايعنيه مايصاب به الفقراء من أفراد الجماعة ، إلا إذا كان قد ربى تربية إسلامية وجرب معنى الجوع أثناء الصيام .

والحاجات النفسية تمثل الطلبات والظروف التى يحتاجها الإنسان كى يكتمل توازنه ونضجه النفسى ، لتنمو شخصية وتتكامل . وأهمها :

- حاجات الأمن والسلامة .
- حاجات المحبة والانتماء .
- حاجات الاحترام .
- الحاجة إلى الإنجاز .
- حاجات إثبات الذات وتأكيدها
- حاجات المعرفة .

من ناحية إشباع الحاجات تأتى فى المرتبة الأولى الحاجات العضوية فالحرمان منها يؤذى الإنسان نفسياً واجتماعياً ، والحرمان من الحاجات النفسية يعوق النمو النفسى . ولذلك يسعى الإنسان إلى إشباع حاجاته الفسيولوجية (العضوية) ، فإذا أشبعها تهيأ لإشباع حاجاته النفسية والاجتماعية .

وتأتى الحاجة إلى الأمن فى مقدمة الحاجات النفسية والاجتماعية لأن الإنسان لايحب ولايشعر بأنه محبوب ، ولايعتمد على نفسه ، ولايشعر بالإنتماء ، ولايقبل على العلم إلا إذا شعر بالأمن والطمأنينة . فالحاجة إلى الأمن سيدة جميع

الحاجات النفسية والاجتماعية وان كان هناك تحفظ حول الدافع أو الحاجة إلى الإنجاز Achievement Motivation (n Ach)، إذا أشبعها الإنسان ، تهيأ لإشباع بقية حاجاته .(٤٨)

الحاجه (الدافع) الانجاز

رأينا عرض هذا الجانب بشيء من التفصيل ، بحيث يتناول هذا الجانب عرضاً للإنجاز واللعب وتطور هذا الدافع ، والمكونات الداخلية لسلوك الكبار ، ونظريات فى الدافع للإنجاز ، لاستشفاف مفهوم الدافع للإنجاز وتعريفاته كما انتهى اليها علم النفس المعاصر

١- الإنجـــاز والسلوك:

يتكون الحكم أو التقويم لمعظم سلوكنا ؛ نتيجة لتميزنا ببعض الصفات أو نتيجة لأدائنا الرائع لبعض الأعمال . ولايرضينا أن يكون أداؤنا مجرد أداء ، ولكننا نسعى للوصول إلى مستويات أعلى من الإتقان والإنجاز فى هذه الأعمال . ومن وجهة علم النفس المعاصر .. فإن الموسيقى مثله مثل الرياض أو الحرفى ، يقوم بالتمرين المستمر لكى يحقق المستوى المثالى فى الأداء . ومن الحوافز التى تدفع الفرد لتحقيق المستوى اللائق الحافز الاجتماعى ، مثل : المركز الأدبى ، وتقدير وإعجاب الآخرين . ومن الملاحظ أن هذا الإعجاب يصدر من أناس يقدرون ، وقد يحاولون الوصول إلى هذا المستوى . ويكون اعتراف هؤلاء الناس وإعجابهم بالذين حققوا نجاحاً دليلاً على تقدير المجتمع لهذا النجاح . وإلى جانب العوامل الاجتماعية ، هناك حوافز أخرى مادية ومالية .

وعلى كل فإذا كانت عوامل التقدير الخارجية غير متوافرة ، فإنه من الجدير بالذكر أن الإنسان يستطيع أن يحقق الرضا أو الإشباع عند نجاحه فى أداء بعض الأعمال ، دون النظر إلى الحوافز أو النتائج الخارجية . والقلة هى التى ترضى بالفشل أو بتحقيق مستوى متواضع من النجاح ، بل إننا نحاول باستمرار تحقيق أرقى المستويات فى الأداء .

ويكون الفخر بالنجاح هو الحافز الداخلى للسلوك . وعندما نذكر الفخر ، فإننا نشير إلى الرضا والإشباع ، الذى يحس به الفرد عندما يحقق إمكاناته ويصل إلى مستويات أرقى من الأداء ، سواء أكان هذا الأداء يتمثل فى تسلق جبل ، أو كتابة مقطوعة شعرية ، أم اكتشاف علمى عظيم . ومن الطبيعى أن التمادى فى

الإحساس بالفخر قد ينقلب إلى الغرور والتعالى . هذا الشعور الذى تكلم عنه الأدباء القدامى من الأغريق وحذروا منه ؛ لأنه قد يؤدى إلى سقوط الإنسان . وعليه .. فإن استعمالنا لكلمة الفخر هنا يقتصر على شعور الفرد بالرضا والإشباع ، الذى يصاحب الأداء الناجح للأعمال ، التى تتميز بالمنافسة أو التحدى .

وعلى الرغم من أن تحقيق الهدف فى حد ذاته يعتبر مجزياً للإنسان من الداخل ، إلا أن ذلك لايكون ظاهراً باستمرار ؛ لأن الإنجاز الناجح يستتبعه عادة الجزاء الخارجى ، مثل : التقبل الاجتماعى أو المكافأة المادية . وحتى لو لم تكن هذه المكافآت الخارجية من الدوافع الأولية ، التى تقود الفرد للمغامرة فى تحقيق شىء ما ، إلا أنها تكون نتائج تستتبع بالضرورة الإنجاز الناجح وتؤثر فى الدوافع اللاحقة .

لنأخذ مثلاً الدافع للدراسة الأكاديمية ، فإننا نود أن نفكر فى الدارس كإنسان، مشغول بالبحث والتفكير الذهنى لوجود رغبة داخلية عنده فى حل مشكلة ما . ولنفترض أن هناك مشكلة صعبة تتحدى هذا الدارس ، وسنفترض أيضاً أن الدافع عند هذا الدارس هو مجرد روعة التفكير فى هذه المشكلة . وأن الدارس – فى هذه الحالة – يكون متأثراً ببريق الشهرة والثناء عليه ، بالإضافة إلى رغبته فى المعرفة . كذلك الحال بالنسبة للطالب الذى يكون مشغولاً ومهتماً بالدرجة التى سيحصل عليها ، ربما أكثر من اهتمامه بالتحدى الفكرى نفسه . وبعض الطلاب يعترفون صراحة أن الدرجة هى كل مايسعون إليه ، وأنهم يعملون بالقدر الذى تتطلبه الدرجات المطلوبة .

وعليه فمن الصعب أن نختبر وجهة النظر ، التى تقول إن بعض أنواع السلوك تؤدى نتيجة لدوافع داخلية فقط . وقد يكون أفضل مكان نبحث فيه عن السلوك الإنسانى ، الذى لايتأثر بأى مؤثرات خارجية هو الطفل الصغير ... هذا التحليل يعطينا بعض الأمثلة الواضحة للدوافع الداخلية الكامنة لتطور وإجادة المهارات الجديدة .

ونجد أن الطفل يصر على بعض الأعمال البسيطة ، مثل : تسلق السلم أو استعمال الملعقة . وعلى الرغم من تعدد مرات الإحباط والفشل ، إلا أنه عادة مايثابر حتى يحقق مستويات أفضل من الإجادة ، وتكون هذه المحاولات عادة مصحوبة بالكثير من الصياح والبكاء ، ولكن هذا كله يهون عندما يتحقق النجاح .

وحتى لو لم يقدم الوالدان أى تشجيع أو إحساس بالرضا ، وكثير من الآباء لايقدمون هذا ، إلا أن الطفل يستمر فى محاولاته للتغلب على الصعاب التى تواجهه حتى يتكيف مع بيئته .

٢- سلوك اللعب وتطور الدافع للإنجاز :

إن للعب مظاهر منها الداخلية ومنها الخارجية ، يمكن تفصيلها فيما يلى كما يراها كثرة من أصحاب علم النفس المعاصر .

أ - المظاهر الداخلية للعب :

يمكن اعتبار دوافع جميع أنواع اللعب داخلية . وبينما تنطوى كلمة العمل على معنى المجهود الجاد المنتج ، فإن كلمة اللعب تحمل معنى النشاط غير المنتج وغير المجدى . وترجع هذه التفرقة أساساً إلى أن أوجه النشاط التى تعتبر عمل تتضمن الجزاء الخارجى مثل المال ، أما أوجه النشاط التى تعتبر لعباً لاتتضمن مثل هذا الجزاء . ولايمكن الحكم على أى نشاط بأنه عمل أو لعب ، دون النظر إلى الهدف منه : أهو نشاط للنشاط نفسه أم أن له مكافأة ما ؟ وهكذا فإن السلوك نفسه كالغناء أو لعب الكرة يمكن اعتباره لعباً إذا كان يؤدى للتسلية ، ولكنه يعتبر عملاً ، إذا كان هناك مرتب يدفع مقابل هذا الأداء .

وهناك وجهة نظر خاصة باللعب تؤكد دوره فى إتقان بعض الأعمال ؛ فالطفل الذى يلعب باللعب الميكانيكية يحقق مهارات ميكانيكية ملحوظة ؛ مما يكون ذا فائدة فى تمكنه من مجاراة متطلبات البيئة والطفل الذى يتعلم الكلام يلعب بالأصوات فى أثناء تحقيقه لمستويات أفضل من المقدرة اللغوية . وبالعكس فإن الكثير من أنماط العمل تتضمن حافزاً داخلياً تافهاً ، أو لاتتضمن أى حافز على الإطلاق ، وتؤدى فقط إلى أن هناك جزاءً خارجياً مثل المال ؛ فاللعب إذاً ليس عديم القيمة أو هو سلوك تافه ، ولكنه يعتبر سلوكاً ضرورياً وأساسياً لنمو الطفل ويمكن اعتباره ، مرحلة تحضيرية لدور الكبار . ومثال ذلك بعض أنواع اللعب التى يقلد فيها الأطفال الكبار ، ويبدو أن الخيال أو الوهم الذى يعيش فيه الطفل يمارس فيه نمواً عاطفياً وإدراكياً . ومن خلال اللعب يتعلم الطفل الكثير عن الحقيقة أو الواقع من النواحى الحسية والاجتماعية والخلقية ، وكذلك يفيد اللعب الطفل بإعطائه الفرص لكى يتعرف ويتعامل مع الانفعالات مثل الخوف والقلق والإحباط.

ومن أبرز خصائص اللعب التى لاحظها المشرفون على الأطفال التكرار .

وعلى الرغم من أن كلا من فرويد وبياجيه اعتبر أن التكرار ظاهرة مهمة من مظاهر اللعب ، إلا أنهما اختلفا في التفسير النظرى فى بعض النواحى ؛ فبالنسبة لبياچيه كاد ينظر إلى التكرار على أنه مثال يشير إلى أن التدريب يؤدى إلى الإتقان ؛ فهو إذاً الوسيلة التى يستطيع عن طريقها الطفل أن يكون مفاهيم جديدة وأنماط استجابة . وقد يبدو أن درجة التكرار التى يؤديها الأطفال حتى يتقنوا مهارات جديدة مبالغ فيها ، وذلك بالنسبة للشخص البالغ الذى يراقبهم ، ولكن هذه المبالغة فى التعلم مبالغة ظاهرية ، كما أنها ضرورية لتأكد استيعاب التطورات الجديدة فى معلومات الطفل .

أما فرويد .. فإنه يؤكد أكثر النتائج الانفعالية لما سماه بالتكرار الاضطرارى؛ فالتكرار الذى يؤدى إلى التغلب على مشكلة هو وسيلة لخفض القلق والتوتر . كذلك ، يشعر الإنسان بالسعادة نتيجة لتكرار سلوك ناجح ومتقن ، كما يحدث عند أداء المتطلبات الدينية والشعائر . وعلى الرغم من تأكيد نواحٍ مختلفة ، إلا أن كلا من بياجيه وفرويد أدركا أهمية طبيعة التكرار فى اللعب ؛ حيث إنها تمكن الطفل من الإتقان والتمكن . وهذا لايعنى أن الطفل يدرك الفوائد المستقبلة للعب ؛ فبالنسبة للطفل يعتبر اللعب نشاطاً يمارسه لذاته . واللعب مسل ومشوق لهذا الطفل ؛ لأنه نشاط يستطيع أن يتقنه .

ومن أبرز النتائج التى يصل إليها الطفل أثناء لعبه ، هى إدراكه أنه يستطيع أن يلعب دور العامل المؤثر أو المسبب لبعض النتائج . وهذا الاكتشاف بتطور إدراكه ينتج الربط المتكرر بين بعض استجابات الطفل وبين نتائجها فيكوّن الطفل توقعات عن المستقبل ، ويتعلم أن سلوكه يمكن أن يكون سبباً لنتائج معينة . ولهذا يعتقد الطفل أنه يستطيع أن يؤثر فى البيئة ، ويتحكم فيها ولو بنسبة محدودة .

ويتطور خبرات الطفل بخصوص المسببات عندما يكون فى منتصف العام الأول من عمره ، نستطيع أن نتكلم عن التعمد فى سلوك الطفل ؛ فحيث إنه يستطيع أن يتوقع نتائج معينة لسلوكه ، فإنه يتعمد اختيار سلوك ما لأنه يعرف ما ستكون عليه النتائج . وعلى الرغم من أن آراء بياجيه عن تطور مفهوم السبب والتعمد هى آراء نظرية ، إلا أنها تشير إلى الدور المهم الذى تلعبه مناشط اللعب . مثال ذلك أن الطفل عندما يلعب بلعبه ، فقد يتعلم أن حركة ذراعيه هى التى تحرك اللعبة ، ففى البداية قد لايصدق مثل هذا الطفل مقدرته هو ، وقد يحاول أن يجرب الفكرة بأن يمدّ يده ، ويهز اللعبة لكى يتأكد من قوته . وعلى الرغم من أن

هذا الوصف نظرياً، إلا أنه يوضح لنا الطريقة التى يستطيع بها الطفل أن يكون إدراكه لمقدرته على التأثير فى البيئة .

ب – المظاهر الخارجية للعب :

وعلى الرغم من أن لعب الطفل الوليد لايكون متأثراً أو خاضعاً لأى حافز خارجى ، إلا أنه فى النصف الثانى من عامه الأول الذى يبدأ فى تكوين ارتباطا اجتماعية ، مظهراً تأثير تقبل أو عدم تقبل الآخرين على دوافع هذا الطفل لأداء المناشط المختلفة . حتى الطفل الرضيع ، يتعلم بسرعة أن يفعل الأشياء التى ترضى الكبار وتجعلهم يبتسمون أو يضحكون . ويتقدم سن الطفل ، يدرك أن اهتمام المجتمع لايقتصر على قدرة الفرد على الأداء ، ولكن على مدى إجادته وإتقانه بالنسبة للأفراد الآخرين . فعندما كان طفلاً ، كان يكفى أن يتعلم كيف يمشى أو يجرى أو يتكلم ، ولكن عندما يتقدم فى السن يعتبر الآخرون – كالآباء مثلاً – أن هذه الأشياء عادية . أما إحساسهم بالفخر ، فيتولد فقط عندما تكون مهارات الطفل متميزة وتفوق مهارات أقرانه ؛ فالموقف ليس هو ما إذا كان الطفل يستطيع أى يجرى أم لا ، بل مقدرته على أن يجرى أسرع من الجميع .

والمسألة ليست هل يستطيع أن يقرأ أم لا ، بل هى مقدرته فى أن يحصل على أعلى الدرجات فى اختبار القراءة . ومعنى ذلك أن تقويم النجاح قد انتقل من مقياس مجرد إلى مقاييس نسبية ، يقارن فيها أداء الفرد بأداء الآخرين من أترابه ؛ فالنجاح الأكبر يتضمن المنافسة مع الآخرين ، أكثر من الوصول إلى مستوى أفضل من مستوى نفس الفرد فى أدائه السابق ، أو الوصول إلى مستوى محدد من الأداء .

ولقد أصبح التفوق فى المنافسة العامل الأول فى كثير من مجالات الحياة ، مثل : العمل ، والرياضة ، والدراسة . وفى حين أن الطفل الصغير يثنى عليه إذا ما استطاع أن يدخل القطع المستديرة والمربعة فى مكانها الصحيح فى العلبة ، إلا أن الطفل الأكبر لايثنى عليه ، إلا إذا استطاع أن يتم هذا العمل أسرع من الآخرين . والطفل الأكبر من ذلك يتعلم الألعاب ، التى تتضمن المنافسة ، ويكون فيها الفائز والخاسر . والصبى بالذات يشجع على الاشتراك فى أنواع الرياضة ، التى تهتم بالفوز وليس باللعب للتسلية فقط ؛ فاللعب إذاً يتأثر بالحوافز الخارجية من ثواب وعقاب ، لدرجة أن الفوز أصبح أكثر أهمية من الرياضة نفسها .

٣- المكونات الداخلية والخارجية لسلوك الكبار :

لما كان معظم سلوك الإنسان يتأثر بحوافز أو مكافآت داخلية وخارجية ، فمن الصعب إذاً – إن لم يكن من المستحيل – أن ندرس تأثير كل نوع من الدوافع على حدة ، فيما عدا الدوافع لدى الطفل الرضيع .

وعلى كل ، فهناك بحث مهم تجاوزت خطته ثلاثين عاماً ، وقام به دافيد ماكليلاند وجون اتكنسون ومعاونوهما ؛ لدراسة الدوافع الداخلية لحب المخاطرة والإنجاز . ويشعر هؤلاء الباحثون أن الدوافع الخارجية لها قدر ضئيل من تجاربهم المعملية على العوامل المؤثرة فى الإنجاز ، فى المواقف التى تتطلب سلوكاً يتميز بالمخاطرة . وإلى جانب العوامل الشخصية التى تتضمنها تلك المواقف ، فإنهم يأخذون فى الاعتبار أيضاً جوانب العمل نفسه ، التى تتضمن دوافع داخلية . فعامل مثل صعوبة العمل – مثلاً – يعتبر سبباً مهماً من أسباب الدوافع للإنجاز ، والوصول إلى مستوى معين من الأداء . وباستعمال اصطلاح «الدافع الداخلى» لايقصد العلماء المعاصرين نوعية جوانب العمل ، بل يقصدون مستوى أو مدى الحافز المرتبط بالعمل كأحد أركان صعوبة العمل المتوقعة . ويفترض أن الحافز والصعوبة العمل ، بل يقصدون مستوى أو مدى الحافز المرتبط بالعمل كأحد أركان صعوبة العمل المتوقعة . ويفترض أن الحافز والصعوبة مرتبطان ارتباطاً مباشراً ؛ لدرجة أنه كلما كان الحافز أقوى كان العمل أصعب .

وسيقتصر اهتمامنا فى هذا العرض على نوع الإنجاز ، الذى يتأكد فى الدراسات المعملية المعاصرة ؛ حيث لاتوجد حوافز خارجية ، مثل : الراتب أو الترقية أو أى فوائد مادية . وعلى كل ، فحتى فى حالة الدراسات المعملية بالنسبة لدافع الإنجاز ، فإنه ليس من الممكن أن نستبعد نهائياً وجود بعض الدوافع الخارجية ، مثل : التقبل الاجتماعى ، أو على الأقل الرغبة فى التعاون مع تعليمات الباحث . وكذلك قد يكون هناك أمل أو توقع كمكافأة ، إذا قام الشخص بأداء العمل المطلوب منه بدقة ، دون انتظار لأى حوافز خارجية ، وهذا الأمل قد يؤثر على الأداء الناجح . وبمجرد الوصول إلى مستوى جديد فى الأداء ، لايقنع الفرد ويستريح بعد ذلك ، بل بمجرد أن تتاح له الفرصة .. فإنه يحاول أن يتحدى المستويات الأعلى ، ويصل إليها ولايكتفى بمجرد التكرار ؛ لأن أداء العمل بطريقة روتينية يصبح مملاً ، ولايعطى الإحساس بالرضا ، بينما تعتبر التحديات الجديدة منبعاً للإثارة لكثير من الأفراد .

ومن الطبيعى أن يكون هناك عامل المخاطرة فى كل عمل جديد أصعب من السابق ، والحل الأكثر أمناً وراحة هو أن يزاول الإنسان العمل الذى حاوله قبلاً ونجح فيه . ولكن هذا الاتجاه يهيىء الفرصة لإثارة محاولة تحقيق أهداف جديدة، وكذلك فإن تجنب المخاطرة يحمى الفرد من التعرض للفشل والحرج الذى يصاحب عدم النجاح . وعليه .. فإن عدم التأكد من النتائج يعتبر العامل الأول بالنسبة لمواقف المخاطرة ، وهو العامل الذى يؤثر على قرار الفرد فى اتخاذ الطريق الآمن أو المخاطرة .

ولقد تحدث روبرت هوايت white عن مفهوم الكفاءة ، الذى يهمنا الآن لأنه يشير إلى وجود دافع أساسى ومركزى للسلوك ، يمد الكائن بالمقدرة على التفاعل مع متطلبات البيئة المحيطة به . وعليه فمفهوم الكفاءة يشير إلى أن السلوك تكمن وراءه حوافز ؛ لتنمية وكذا لتكوين عدة أنماط سلوكية ، تمكن الفرد من التفاعل بنجاح مع الأحداث البيئية التى تواجهه .

ويعتبر دافع الكفاءة من الدوافع الداخلية للكائن ، ولايحتاج إلى حوافز خارجية أو مكافآت ، فحب الاستطلاع عند الكائن الصغير لايتعلم . ومفهوم الكفاءة هنا هو على العكس تماماً من مفهوم الضعف والاستسلام ، ويمكن اعتبار هذين المفهومين حدين أقصيين لبعد واحد ، وهذا البعد يعكس مدى تحكم الفرد فى البيئة المحيطة به .

٤- نظريات فى الدافع للإنجاز :

نعرض فى هذا المكان نظريات معاصرة فى الدافع للإنجاز ، هى نظريات : اتكنسون – ماكليلاند Atkinson - McClelland ، وفينر weiner ، وكيوكلا Kukla ، ورينور وروبن Raynor - Rubin ، وأخيراً الاتجاه الجديد لقياس دافع الإنجاز .

أ- نظرية اتكنسون – ماكليلاند :

إن نظرية الدافع للإنجاز التى كونها اتكنسون وماكليلاند هى نموذج تحليلى، يحاول أن يعدد العوامل التى تسهم فى المناشط الناجمة أو السلوك الناتج . وبالنسبة لاتكنسون ؛ فهناك عاملان خاصان بالفرد ، وعاملان آخران يخصان العمل الذى سيؤدى . وتعتبر هذه العوامل الأربعة معاً بمثابة المحددات الرئيسية لمخاطرة الإنجاز فى عمل ما . والعاملان الخاصان بالفرد ، هما الدافع إلى النجاح والانجاز والخوف من الفشل . ويفترض أنهما يتميزان بالثبات والبقاء مدة طويلة .

وتقاس الخاصية الأولى بالاستعانة باختبار (التات) ، والممثل فى مجموعة من الصور الغامضة ، التى تشمل شخصاً أو أكثر ، وتستعمل لقياس الدافع للإنجاز عند الفرد ، ويطلب من الشخص تأليف قصة تصف ماذا يحدث فى كل صورة من هذا الاختبار ، مفترضاً أن الأوهام والقصص الخيالية ، تمدنا بمعلومات أوضح عن حاجات الفرد، وأكثر من أى اتجاه آخر مباشر . وحيث إن الأسئلة المباشرة يحددها عدم شعور الفرد بالحاجة أو تهيئه من الأداء بها ، إلا أن الوسائل التى تعتمد على الخيال تسمح للانفعالات اللاشعورية والحاجات الكامنة للتعبير عن نفسها بوضوح ، ويقنن محتوى القصص للتعبير عن تصور النجاح أو الأساليب ، التى تعكس محاولات الفرد للمجازفة .

أما الخاصية الثانية – أى الخوف من الفشل – فتقاس بمقياس يستعمل فيه الورق والقلم ، ويعرف باختبار استفتاء القلق ، وهو يقيس القلق حول التقديم فى مواقف مثل اختبارات نصف العام .

ولقد وجهت العناية الفائقة لنوعين من الأفراد ، هؤلاء الذين تمتعوا بنسبة عالية فى بعد ونسبة ضئيلة فى البعد الآخر . وأحد هذه الأنواع تتمتع بنسبة عالية من الدافع إلى الإنجاز ، ونسبة ضئيلة من القلق والخوف من الفشل . ولقد افترض أن هؤلاء الأفراد لديهم دافع قوى ؛ لتحقق الإنجاز (M_s) فى الوقت الذى يتمتعون فيه بدافع بسيط لتجنب الفشل (M_{af}) . أما نقيض هذه النوعية ، فهو الشخص الذى عنده مستوى منخفض من (M_s) ومستوى مرتفع من (M_{af}) .... هؤلاء الأفراد تسيطر عليهم المخاوف والقلق ، بينما النوع الآخر لديه دافع النجاح بشكل قوى .

ولقد ركز بعض علماء النفس المعاصرين على دراسة دافع الإنجاز عند هذين النوعين المتناقضين من الأفراد ؛ لأن الذين يملكون الخاصتين بالمقدار نفسه تكون لديهم صفات متناقضة ؛ حيث إن (M_s) و (M_{af}) يعمل كل منهما ضد الآخر. والأفراد الذين لديهم مستوى مرتفع من (n Ach) ؛ أى الحاجة إلى الإنجاز، كان من المنتظر أن يبدو نشاطاً متوجاً بالنجاح ؛ لأن شعورهم بالقلق أو الخوف من الفشل كان ضئيلاً نسبياً . أما الأفراد ذو الحاجة البسيطة للإنجاز ، كان من المتوقف ألا يشاركوا – ولو بقدر ضئيل – فى المناشط التى تؤدى إلى النجاح ، وذلك بسبب نقص الشعور بالحاجة إلى الإنجاز ، وازدياد الشعور بالقلق والخوف والفشل .

وبالإضافة إلى هذين العاملين الخاصين بالشخصية ، هناك متغيران خاصان بالموقف أو العمل يجب أخذهما فى الاعتبار .. احتمال نجاح العمل (P_s) ،

وهو يشير إلى أن صعوبة العمل هى أحد المحددات للقيام بالمجازفة . وكان من الممكن تحديد هذا التوقع بواسطة قدرات الفرد نفسه ، ولكن المنهج الذى استخدم فى الاختبارات التجريبية قلل من هذا المؤثر .

أما العامل الثانى الخاص بالعمل ، والذى يؤثر فى الأداء فهو حافز العمل للنجاح (I_s) ، ويشير إلى الاهتمام والشغف الذى يحمله العمل نفسه ، ويلاحظ أن (I_s) يشير إلى العوامل الدافعة لتحقيق عمل صعب ، وليس لمحتوى العمل ، الذى يمكن اعتباره حافزاً من حوافز العمل الداخلية تهمله النظرية .

وفى نظرية اتكنسون (I_s) عرف بالنسبة لصعوبة العمل . وحتى نكون أكثر دقة .. فإن (I_s) افترض ارتفاع مستواه ، عندما ارتفع مستوى صعوبة العمل . وعندما كان العمل سهلاً ، كان (I_s) منخفضاً . وقال اتكنسون إن الأعمال الصعبة جدّاً تتضمن حافزاً قوياً ؛ حيث يعتبرها الإنسان تحقيقاً لنجاح . هذا النجاح ، فشل فى تحقيقه الكثيرون من قبل . أما العمل السهل جداً فيتضمن حافزاً ضعيفاً ؛ لأن الشعور بالرضا يكون ضئيلاً ، إذا نجح الفرد فى أداء عمل يستطيع أى شخص آخر أداءه . كذلك هناك مجازفة الشعور بالحرج والخجل ، إذا حدث وفشل الشخص فى هذا العمل السهل .

ولقد قدم اتكنسون معادلات دقيقة ، تلخص العلاقة بين العوامل السابق شرحها للميل إلى إحراز النجاح . ويشير كل من الميل إلى إحراز النجاح (I_s) واتجاه تجنب الفشل (T_{af}) إلى احتمال فرضى . وكل عامل له ثلاثة محددات : أحدهما خاص بطبيعة الفرد ، واثنان يختصان بالعمل . والعامل (T_s) هو محصلة هذه العوامل الثلاث ($P_s \times I_s \times M_s$) ، وعليه .. فإن أى عمل يؤدى إلى أعلى تفاعل بين هذه العوامل الثلاثة ، يكون هو العمل الذى يهيىء أكبر فرصة للنجاح (الميل إلى إحراز النجاح) .

وهناك ثلاثة عوامل تحدد (T_{af}) وهو الاتجاه لعدم المجازفة لتحقيق النجاح (الميل لتجنب الفشل) ، والمعادلة التى تربط العوامل الثلاثة هى :

$$(T_{af} = M_{af} \times P_f \times I_f)$$

ويحدد تفاعل هذه العوامل الاتجاه الشامل لتجنب الفشل .

وبعد ذلك يربط اتكنسون بين هذه الاحتمالات المتضادة (T_s , T_{af}) ؛ ليستخلص التوقع النهائى ، الذى يعتمد على فروق النتائج بين (T_s , T_{af}) ، فإذا كان الميل إلى إحراز النجاح ، يفوق الميل لتجنب الفشل ؛ أى أن ($T_s > T_{af}$) ..

تكون النتيجة أننا نجازف للحصول على النجاح . ولكن إذا كان العكس هو الذى يحدث $(T_s < T_{af})$ ، فلن نلاحظ السلوك الموجه للنجاح . ويضيف اتكنسون أنه عندما يكون $(M_s > M_{af})$ ؛ أى إن الميل للنجاح أكبر من الميل لتجنب الفشل ، يكون هناك تفضيل للأعمال المتوسطة الصعوبة ، وليس من الغريب أن الأشخاص الذين يهدفون النجاح يتجنبون الأعمال البسيطة – ولكنه يبدو من الغريب أنهم أيضاً لايحاولون أن يقوموا بالأعمال الصعبة جداً .

وتفسير ذلك هو أن هؤلاء الأشخاص ، الذين يتميزون بنسبة عالية من الدافع إلى الإنجاز هم أشخاص واقعيون . وعلى الرغم من أنهم يودون أن ينجحوا فى الأعمال البالغة الصعوبة ، إلا أنهم يدركون أن هذا غير محتمل . وحيث أن النجاح مرغوب فيه .. فإنهم يدركون أنه من المفضل أن يختاروا الأعمال التى يكون النجاح فيها أكثر احتمالاً ، وهكذا يتجنبون الأعمال البالغة الصعوبة .

وعلى النقيض من هذا ، عندما يفوق الميل إلى تجنب الفشل الميل إلى النجاح ، يكون الموقف على العكس تماماً ، بمعنى أنهم يتجنبون الأعمال المتوسطة الصعوبة، ويختارون الأعمال البسيطة جداً أو الصعبة جداً . وهنا أيضاً لايصعب أن نفسر لماذا يختار الشخص الذى يخشى الفشل العمل البسيط جداً ، ولكن لماذا يختار العمل الصعب جداً ؟ ويقول اتكنسون أنه على الرغم من أن احتمال الفشل قائم ، إلا أنه فشل مؤكد ولذلك فالقلق الذى يصاحبه أقل : لأنك إذا عرفت بالتأكيد أنك سوف تخسير ، فلن تحلق بآمالك .

وإذا كان هناك شيء لايحتمله الشخص الذى لديه حاجة ضئيلة من الإنجاز فهو عدم التأكد . وهذا العامل نفسه هو المسئول عن تجنب الأعمال المتوسطة الصعوبة من جانب الشخص نفسه ؛ لأن هذه الأعمال تتضمن نسبة عالية من عدم التأكد ؛ فهى فرصة تحقق نجاح أو فشل بنسبة ٥٠ ٪ ، ولهذا فالموقف يثير الكثير من القلق .

وانطلاقاً من أن النجاح يتبعه الشعور بالفخر ، والفشل يستتبعه الإحساس بالخيبة، نعرض للعلاقات الرياضية محددة بثلاثة مكونات متوازية تحدثنا عنها فيما سبق ، وهى :

– استعداد أو دافع ثابت نسبياً لتحقيق النجاح) (دافع قوى لتحقيق النجاح)(M_s) ، ودافع ثابت نسبياً لتجنب الفشل (دافع تجنب الفشل (M_{af}) .

– احتمال نجاح العمل (توقع النجاح) (P_s) ، واحتمال فشل العمل (توقع

الفشل P_f)، وبحيث إن $P_s + P_f =$ ١) .

- جاذبية أو قيمة الحافز (الخارجى) للنجاح (حافز العمل للنجاح) (I_s) وقيمة الحافز السالب للفشل ($-If$)

بحيث إن $(I_f + P_s = 1)$

، $(I_f = -P_s)$

ومن هذا فإن ناتج المتغيرات الثلاثة مضروب فى حالة الاقتراب من النجاح (اتجاه النجاح) .

$$T_s = M_s \times P_s \times I_s \qquad (1)$$

وكذلك فإن ناتج المتغيرات الثلاثة مضروبة فى حالة الابتعاد عن الفشل (اتجاه تجنب الفشل)

$$T_{af} = M_{af} \times P_f \times - I_f \qquad (2)$$

من (١) ، (٢) بالطرح يعطى ناتج الدافع للإنجاز .

$$= M_s \times P_s \times I_s + M_{af} \times P_f \times I_s$$

$$= M_s \times P_s (1 - P_s) + M_{af} \times 1 - P_s) \times - P_s$$

$$= P_s (1 - P_s) (M_s - M_{af})$$

ومما تجدر ملاحظته أن هناك قدراً كبيراً من الاتفاق بين مفهوم الاحتمالات الذاتية ، كما استخدمه اتكنسون ومفهوم التوقع لدى تولمان . إن مايطلق عليه تولمان أصلاً توقع الهدف ، وينظر إليه على أنه معرفة تهدى الفرد مبكراً وتقوم على الخبرة السابقة ، وظهرت الآن الاحتمالات الذاتية لتحقيق الهدف لدى اتكنسون .

أما الشق الأول الذى يسلم بوجود استعداد ثابت دائماً عند الفرد ($M_s - M_{af}$) ، ويحدد مستوى إنجازه على طول الخط فى جميع الأعمال ، واذا كان الانجاز يرتبط بالعمل ويرتبط بالمنافسة ، فإن القرآن الكريم سبق كل هؤلاء الى لفظ العمل فيما لايقل عن [٣٧٢] موضع بالاضافة إلى آيات أخرى عن التنافس ، وهكذا يرتبط الانجاز بالعمل ، ويرتبط كلاهما بخلافة الانسان فى الأرض.

يقول تعالى : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلائِفَ فِي الأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ (يونس : ١٤) .

وترتبط المنافسة بالعمل والانجاز . يقول تعالى ﴿ خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴾ (المطففين : ٢٦) .

وارتبط مبدأ الاثابة والعقاب فى ضمير الانسان بالعمل والاتجاز واتقانه .

يقول تعال : ﴿ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزَىٰ إِلاَّ مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (غافر : ٤٠) تتشابه فى التوقع والقيمة .

ب- نظرية فينر weiner لإعادة تحليل دافع الإنجاز :

فى نظرية اتكنسون وماكليلاند ، نجدهما يستعملان مرادفات مثل التوقع والقيمة كمتغيرات متداخلة . وهذا الاتجاه لايحاول أن يقوم طبيعة المناهج ، التى يتضمنها دافع الإنجاز تقويماً مباشراً ، فسلوك الإنجاز هو خاصية لمظاهر محددة موضوعياً ، مثل : صعوبة العمل ، وحافز العمل ، إلى جانب مستوى حاجة الفرد نفسه للإنجاز .

ولقد قدم فينر weiner وأقرانه (فريز Friese ، كيوكلا kukla ، ريد Reed، رست Rest ، روزنيوم Rosenbum) نظرية الخواص Attribution Theory ؛ لإعادة تحليل النتائج الرئيسية التى تنبأت بها نظرية ماكليلاند واتكنسون . وهذه النظرية تهتم بالمنهج ، الذى به يحلل الأفراد أسباب السلوك ، ويقترح فينر أن التقدير والتفهم الذى يبديه الفرد عندما يوكل إليه القيام بعمل ما ، يحدد مدى استعداده للقيام بهذا العمل .

ووفقاً لهذه النظرية ، يمكن تقسيم خواص الإنجاز إلى بعدين مستقلين : مدى تحكم الفرد فى العمل داخلياً أو خارجياً ، ويعتبر هذا التحكم نوعاً من أنواع الخواص التى ترتبط بأى عمل ؛ فإذا كنا نعتقد أن المقدرة أو المجهود مطلوبين أو ضروريين .. فإن الخاصية هنا تكون داخلية ، أما إذا كنا نعتقد أن كل مايتضمن العمل هو صعوبة العمل نفسه أو الحظ ، فإن الخاصية هنا تكون خارجية .

أما العوامل المسببة لأى عمل ، فهى أيضاً تختلف فى بعد الثبات ؛ فالقدرة تتميز بالثبات إلى حد ما ، بينما يتذبذب المجهود ، على الرغم من أن هذين العاملين يعتبران من العوامل الداخلية . وبالنسبة للأسباب الخارجية للأداء ، فإن

مستوى صعوبة العمل يعتبر ثابتاً ، فى حين أن عوامل الصدفة متغيرة إلى حد كبير .

ولقد لخص فينر وأقرانه هذه النتائج بأن الأجزاء التى يقوم بعملها أشخاص يختلفون فى مستوى دافع الإنجاز عندهم ، هذه الأجزاء لاتكون متشابهة . وقالوا إن هذه الاختلافات فى العمل تجعل الأفراد ذوى الحاجات العالية والمنخفضة للإنجاز يختلفون فى سلوكهم فى مواقف الإنجاز . وعلى سبيل المثال ، لماذا يميل أصحاب الدافع القوى للإنجاز ؛ لتناول مواقف أو فرص الإنجاز ، فى حين يتجنبها أصحاب الدافع الضعيف للإنجاز ؟وهناك تفسير واحد محتمل ، وهو الاتجاه القوى عند أصحاب الدافع القوى للانجاز؛ لإرجاع الإنجاز إلى عوامل داخلية ، مثل : المجهود أو المقدرة .

ولمواجهة القصور ، كما سيتضح فيما بعد لدى نظرية ماكليلاند – اتكنسون ، وضع فينر النظرية السابقة ، مدخلاً تكوينات سببية ، فضلاً عن عاملى التوقع والقيمة لدى نظرية اتكنسون ، والتى سلمت بها نظرية فينر أيضاً ، وانتهت على أن ردود الأفعال للفشل تعتمد على مستوى الدافع للإنجاز عند الفرد ، فعندما يكون هذا الدافع مرتفعاً عند الفرد ، يزداد مستوى الأداء عند الفشل ، ويتدهور مستوى الأداء فى حالة انخفاض الدافع . وقد أعزى ذلك إلى اختلاف إدراك الفرد لأسباب الفشل أو النجاح الشخصى ، مفترضاً أن من يتميز بدافع مرتفع للإنجاز يعزى فشله ويرجعه للافتقار للجهد ، ومن يتميز بدافع منخفض يرجع فشله إلى افتقاره للقدرة .

إن هذه التفسيرات الإدراكية تتوسط العلاقات المستنتجة بين مستوى الدافع للإنجاز ، ومايتبع الفشل من نشاط للأداء أو تعطيل له . هذا فضلاً عن إبراز فينر لأهمية الطموح والمثابرة على بذل الجهد ، كمتغيرات أساسية للدافع للانجاز .

ويبدو أن فينر قد حالفه الحظ بصياغته الجديدة لنظرية الدافع للإنجاز ، بواسطة مصطلحات معرفية ونمائية ، مفترضاً ثلاثة أبعاد تقويمية توجه الحكم الخلقى على الإنجاز ، وهى : الجهد ، والقدرة ، والعائد . فالطفل يكون حكمه على الإنجاز متأثراً بالنتيجة ، والعائد كشىء عيانى ، وذلك بصرف النظر عن الجهد والقدرة اللتين تكمنان وراء ذلك ، وبتقدم الطفل فى السن ، يأخذ فى اعتباره الجهد ثم القدرة حتى يصل الطفل إلى اثنتى عشرة سنة ، بعدها يعود للنكوص إلى العيانية عند حكمه التقويمى على الإنجاز ، غير معترف إلا بالعائد ، تاركاً الجهد والقدرة على الحسبان . وذلك كما تبين من دراسته على الأطفال الأمريكيين .

جـ- نظرية كيوكلا Kukla :

وقد فسرت الأداء بطريقة مختلفة إلى حد ما عن نظرية اتكنسون ، فقد ساوت ناتج الدافع للإنجاز بمفهوم القدرة المدركة . فعندما تدرك سهولة العمل ، فإن الأفراد الذين يتميزون بارتفاع ناتج دافعهم ؛ أى الذين يعتقدون أن قدراتهم عالية نسبياً ، سوف يقررون بذلهم جهداً بسيطاً لضمان النجاح . ولكن من يتميزون بانخفاض ناتج دافعهم إلى الإنجاز ؛ أى الذين يعتقدون أن قدراتهم دون المستوى ، يتوقع لهم بذل جهد أكبر من النجاح . وحينما تكون القدرة متكافئة عند المجموعتين ، فإن منخفضى الإنجاز سوف يؤدون أفضل من مرتفعى الإنجاز ، حينما يدركون العمل على أنه سهل ، وعلى هذا فالنظرية تتنبأ بأن من يتمتع بدافع مرتفع سوف يكون أداؤه أفضل ممن يتميز بناتج إنجاز منخفض ، ذلك حينما يدرك العمل على أنه صعب ، ولكن أقل ، عند مايدرك العمل على أنه سهل .

وعلى هذا .. فمن الواضح أن نظريتى كيوكلا وفينر قد أوضحتا أثر النتائج والصعوبة الموضوعية وخبرات النجاح والفشل على العمل ، فضلاً عن أن نظرية فينر لايمكن تطبيقها على الموقف التجريبى ، الذى يختلف فيه إدراك الأفراد لصعوبة العمل وخبرات النجاح والفشل . وبذا فإن كيوكلا أوضحت بجلاء أثر القدرة وإدراك صعوبة العمل ، ومايتبع ذلك من المثابرة على البذل والتحمل من أجل الحصول على النجاح ؛ باعتبارهما من مظاهر تكوين الدافع للإنجاز .

د- نظرية رينور وروبن Reynor - Rubin :

تهتم هذه النظرية بالتوجه المستقبلى ، الذى يشترط فيه لأداء المرحلة التالية نجاحاً فى المرحلة السابقة . وتحت هذا الشرط ، يكون أداء ذوى الدافع العالى للإنجاز أفضل من ذوى الدافع المنخفض ، وقد يحدث العكس إذا لم يتضمن الأداء تتابعاً . وتعتبر هذه النظرية صياغة جديدة لفلسفة اتكنسون ، مظهرة مايميز ذوى الدافع العالى من نظرة مستقبلية ، تحمل فى طياتها طموحاً ، ومثابرة ، وتفاؤلاً ، وقدراً للنفس .

هـ - ملامح الاتجاه الجديد (الأحدث) لقياس دافع الإنجاز :

نبدأ فى هذا المكان بعرض الاتجاهات الجديدة فى مجال دافع الإنجاز ، وهو الاتجاه الذى يبتعد عن النظريات السابقة .

يجب أن نذكر أن فاينستين weinstien وجه نقداً شديداً ، عقب صياغة اتكنسون الأخيرة لنظرية الإنجاز ، من خلال نتائج عن إحصائه لجميع الدراسات ،

التى أجريت عن هذا التكوين والمقاييس التى استخدمت فيها ، وأوضح أنها تفتقر للثبات والاتساق الداخلى والصدق ، كما تتميز بضعف الارتباطات الداخلية فيما بينها ؛ خصوصاً الإسقاطية منها ، واستنتج أن نموذج أتكنسون لم يصمد للفحص الأمبريقى ؛ مما قد يتطلب مراجعة هذه النظرية ، وأن مقاييس الإنجاز ينبغى أن تعتمد فى بنائها على أسس نظرية أخرى .

وقد بدا الاتفاق فى هذا الرأى من نتائج مهرابيا Mehrabian ، وميتشيل Mitchell . وقد كان من الواجب ظهور فلسفة جديدة فى قياس هذا الدافع ، بدت ملامحها قبل توجيه مثل أوجه القصور السابقة .

فقد قدم موللو استفتاءً جديداً لقياس الدافعية ، عن طريق الاختبار الاجبارى، ويتكون هذا الاستفتاء من تسع وخمسين بنداً ، لكل منها أربع استجابات مرتبطة به ، وماعلى المفحوص إلا أن يرتبها من حيث ارتباطها بهذا البند .

ووضع لين Lynn استبياناً لقياس الدافع للإنجاز ، وذلك مستعيناً بالتحليل العاملى . وكان هذا الاستبيان مكوناً من ثلاثة وستين ، بنداً اختيرت منها ثمانية بنود فقط ، فى ضوء نتائج التحليل العاملى .

وقام هيرمانز Hermans ببناء مقياس للدافع إلى الإنجاز ، مبتعداً فى ذلك عن نظرية اتكنسون وماكليلاند ، بعد حصر جميع المظاهر المتعلقة بهذا التكوين ، وانتقاء الأكثر شيوعاً منها على أساس ما أكدته الدراسات السابقة .

وقدم سميث Smith استبياناً جديداً لقياس دافع الإنجاز باستخدام طريقة ليكرت فى تصميم الاستبيان ، واشتمل هذا الاستبيان على مائة وثلاث مفردات . ومن خلال تجربة على عينة مكونة من تسعة وثمانين فرداً ، انتقى منها عشرة بنود فقط استخدمت فى قياس الدافع إلى الإنجاز ، وقد توصل سميث لمعاملات صدق وثبات عالية ، بالنسبة لتلك الأداة الجديدة .

وقام قشقوش بتصميم أول أداة عربية لقياس دافع الإنجاز ، استند فيها على المفاهيم السابقة حول الدافع إلى الإنجاز ، واشتق عبارات لهذه الأداة وصلت إلى اثنتين وثلاثين ، بعد عرضها على ثلاثة من المحكمين ، وتمتعت هذه الأداة بمعامل صدق وثبات عال .

وقدم دوجلاس جاكسون ، وصدر الدين أحمد هبى .Jackson et. al على النمط نفسه ، نتائج أظهرت أن الدافع إلى الإنجاز يمكن اعتباره ، نتيجة لستة عوامل أولية مستقلة . إن هذه العوامل تعتبر نموذجاً متعدد الأبعاد لتكوين الإنجاز ،

ويميز بين مكونات الإنجاز المختلفة عند الفرد الواحد . وهى بمثابة تنظيم لمكونات تتفاعل فيما بينها ، بحيث لايكون لعامل معين أولوية أو سيطرة على بقية المكونات . ومن ثم يمكن أن يتكافأ فردان فى مكون واحد ، ولكن هذا ليس معناه تكافوءهما فى بقية المكونات ، أو أن مستوى إنجازهما متساوٍ فى العمل الواحد ؛ الأمر الذى يمكن أن يفسر تباين السلوك الإنجازى للفرد الواحد من موقف إلى آخر.

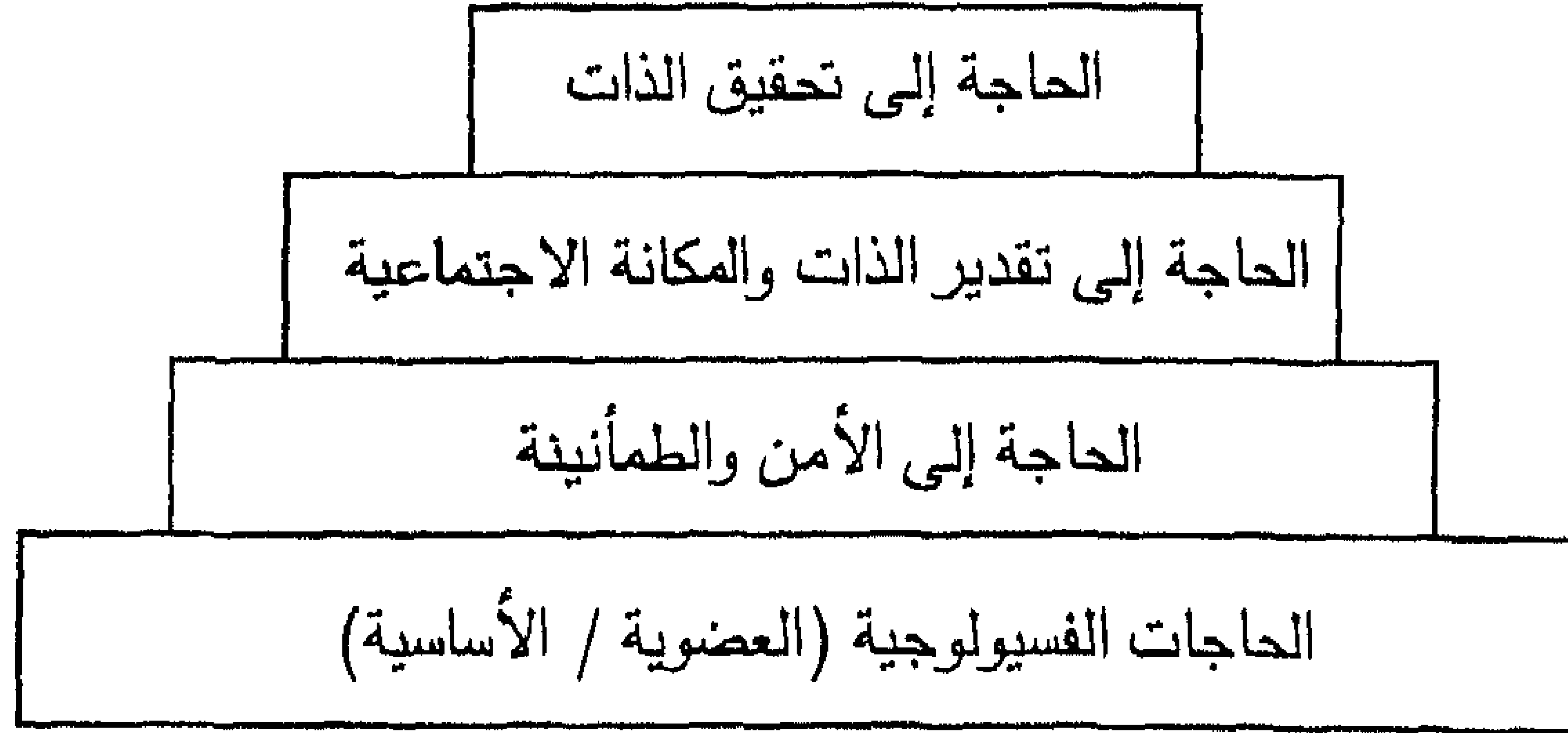
ولقد توصل جاكسون ورفاقه إلى هذه النتيجة ، يعد تحليل نظرى لمعنى الإنجاز، منتهين إلى ستة عوامل ، يظهر خلالها هذا التكوين الكلى ، وهو الدافع إلى الإنجاز ، وهى : المكانة بين الأنداد ، والمكانة بين الخبراء ، والتملك ، والإنجاز بمعنى الاستقلال ، والتنافسية ، والاهتمام بالامتياز ، وباستخدام أكثر من طريقة فى التحليل العاملى على نتائج أداء مائة وخمسة وخمسين طالباً من طلبة وطالبات الجامعة . بينت نتائج الإدارة وجود ستة عوامل مستقلة من الدرجة الأولى ، وثلاثة عوامل مركبة من الدرجة الثانية . وفى كل تحليل من التحليلات لم يظهر نهائياً وجود عامل عام ، يجرى بين هذه المكونات .

وقام محمود عبدالقادر – مستفيداً من الاتجاه لجاكسون ورفاقه – بإعداد مقياس كلى ، مكون من ثلاثة مقاييس فرعية ، هى : مقياس المستوى العام للطموح ، ومقياس التحمل ، ومقياس المثابرة مكوناً مقياساً كلياً ، عدد عباراته ثمان وثلاثين عبارة لقياس الدافع إلى الإنجاز ، وقد أظهرت نتائج بحثه تمتع هذا المقياس بدرجة عالية من الصدق والثبات . وقام زكريا الشربينى مستفيداً من اتجاه جاكسون ورفاقه بالتوصل إلى ١١ مقياساً فرعياً ، تقيس الدافع إلى الإنجاز . وأسفر التحليل العاملى لهذه المقاييس عن عامل وحيد ، وتوصل إلى أن الحاجة إلى الإنجاز ، هى تكوين فرضى أحادى العامل فى مرحلة الطفولة المتأخرة .

لقد كان ذلك بخصوص سلوك الانجاز والدافع إلى الانجاز أو الحاجة إلى الانجاز كأحد الحاجات النفسية والاجتماعية للبشر.

ويرجع إلى (ماسلو Maslow ١٩٧٢ (٤٩) تصنيف حاجات الإنسان وترتيبها فى تدرج هرمى حسب أهميتها للصحة الجسمية والنفسية ، وحسب رأيه فى قاعدة الهرم الحاجات الفسيولوجية (العضوية أو الأساسية) ، والتى يعتبر إشباعها أساس حياة الإنسان ، ثم يأتى بعدها الحاجة إلى الأمن التى يعتبر إشباعها أساس الحياة النفسية والاجتماعية ، تليها الحاجة إلى الانتماء والصحية والدين والحب المتبادل ، فالحاجة إلى الإنجاز والإعتماد على النفس وحب الاستطلاع والتقدير من الآخرين،

ثم يأتى فى قمة الهرم إلى تحقيق الذات . وفيما يلى الترتيب الهرمى للحاجات وفق تصور «ماسلو» :



شكل (٩) : الترتيب الهرمى للحاجات وفق تصور «ماسلو» .

كما أن هانسيل Hansell ١٩٧٦ (٥٠) وضع نموذجاً آخر لتحديد الحاجات الإنسانية ، مع الأخذ في الإعتبار علاقة الإنسان بالبيئة الاجتماعية المحيطة ، وقد وضع نظرية فيما بعد تعرف بالأنساق أو النماذج للإشباعات الخاصة بالحاجات المتعددة عند الإنسان ، ومن هذه النماذج مايأتى :

١ - أهمية إشباع الحاجات الحيوية كالمأكل والمشرب والأكسجين ، وهى حاجات مشتركة بين جميع الأفراد ، وإن كانت درجة الإشباع تختلف من فرد إلى آخر والحرمان ، الناتج عن عدم إشباع هذه الحاجات يمثل درجة كبيرة من الإحباط تساير مدى أهمية هذه الحاجات .

٢ - مساعدة الإنسان للتعرف على ذاته ؛ لكى يكتشف قدراته الحقيقية ويحدد مستوى طموحه ، ويخطط لمستقبله العلمى .

٣ - يجب إشباع الحاجة إلى التواجد مع الآخرين ، والتفاعل معهم ، وخاصة من يتفقون معه فى الميول والرغبات .

٤ - إشباع الحاجة إلى الانتماء إلى جماعات فى المجتمع يشعر الفرد من خلالها لشخصيته ، وفى الوقت نفسه يشعر بأنه ينتمى إلى الآخرين ، وهم أيضاً يتقلبونه كعضو فى الجماعة ، ويشعر من خلال ذلك بالتماسك والقوة من خلال المواقف التى تمر بها الجماعة .

٥ – إتاحة الفرصة أمام الإنسان للقيام ببعض الأدوار ، التى من شأنها أن تشعره بتحقيق الذات أو الإنجاز ، وتؤدى فى النهاية إلى التوافق النفسى .

٦ – توفير الدعم المادى أو الإشباع الاقتصادى ، الذى من شأنه أن يُشعر الفرد ، بتحقيق رغباته المادية ، والاستقلال النسبى اقتصادياً .

٧ – تعويد الفرد اتخاذ القرارات من خلال الخبرات والمواقف التى تمر به .

ومن الواضح مما سبق أن الترتيب الهرمى للحاجات الإنسانية عند «ماسلو» يبدأ بالحاجات الفسيولوجية ويصعد حتى الحاجات النفسية والاجتماعية ، التى تحقق التوافق الإيجابى مع الحياة الاجتماعية ، أى تحقق الذات وتمتع الفرد بالصحة النفسية .

كما أن الترتيب التصاعدى للحاجات عند «هانسيل» يبدأ بالحاجات الأساسية، ويتدرج إلى الشعور بالانتماء أو النجاح والإنجاز حتى تحقق للفرد الأهداف التى يبغى الوصول إليها فى الحياة . والواقع أن هناك علاقة هامة بين مختلف الحاجات لدى الإنسان وبين مراحل الحياة المختلفة التى يمر بها .(٥١)

* الدوافـــع :

تقف الدوافع وراء السلوك . فالجوع دافع من حيث مايقوم به الفرد من سلوك معين لبلوغ غرض معين . والدافع هو المحرك والموجه للطاقة أو الحاجة وحيث يكون السلوك الذى يظهر يتم لإشباع الحاجة أو إرضاء الطاقة .

وفى علم النفس المعاصر يستخدم المصطلح «الدوافع» بدلاً من الغرائز (٥٢) وتعرف الدوافع بأنها حالات أو حاجات فسيلوجية أو نفسية تكون كامنة فى الفرد ، وتجعله ينزع إلى السلوك فى اتجاه معين لإشباع الحاجات .

وتشترك الدوافع المتعددة التى تظهر وراء سلوك الإنسان فى :

النزعة .. الدينامية .. غرضية الدوافع .. إنها محركات السلوك .. شعورية ولاشعورية . ومن حيث إن الدوافع تعتبر محركات (محفزات) السلوك ، فإن وظائفها تتمثل فى :

١ – أنها تمد السلوك بالطاقة وتكون المحرك الأول له ؛ فالجوع يدفع العضوية نحو العمل بغية تلبية ندائه . ولايفعل الجوع ذلك فحسب بل إنه كثيراً مايوجه كل

العضوية هذه الوجهة بالذات مستغلاً كل قواها وقدراتها . وتختلف الدوافع من هذه الجهة بمقدار قوتها النسبية أو بمبلغ درجة الحاجة لها ، أى تتوقف على درجة الحرمان الذى تُعانى منه العضوية .

٢- من وظائف الدوافع أنها تختار السلوك المناسب ، فإن كان هناك سلوك تم تعلمه سابقاً ، وساعدت الدوافع على اختياره دون غيره ، وإن لم يكن هناك سلوك متعلم ساعدت العضوية على أن تتجه إلى اختيار عدد من المحاولات السلوكية الأخرى ، أملاً فى أن يكون واحداً منها هو الذى يرضى الدافع ويشبع الحاجة .

٣- الوظيفة الثالثة للدوافع وهى استمرار قوة الدافع إلى أن يتم تحقيق الغرض ، أو ينتهى إلى موقف دفاعى من نوع من الأنواع .

من ناحية تقسيم الدوافع ، فإنها تقسم إلى :

دوافع أولية (عضوية) ... ودوافع ثانوية (مكتسبة معنوية) .

١- الدوافع الأولية (العضوية أو الفطرية) :

وتُعرف بالأساسية وهى التى تتوقف على إشباعها حياة الفرد وبقاء الجنس أو النوع . كالدافع إلى الطعام (لإشباع الجوع) والدافع إلى الشراب (لإشباع العطش) والدافع الغريزى عند الأم (الأمومة) والدافع الجنسى (نحو الجنس الآخر) . وكلها يتوقف عليها بقاء النوع أو الجنس .

من صفات الدوافع الأولية أن لها إفرازات أو تغيرات خاصة حسب نوع الدافع ، فهناك الإفرازات المنوية للدافع الجنسى ، وإفراز اللبن فى الدافع الغريزى للأمومة ، بالإضافة إلى التغيرات العضوية والإفرازات المصاحبة لدوافع الجوع والعطش .

من الصفات الأخرى للدوافع الأولية أن جميع أفراد الجنس يتشابهون فى سلوكهم من حيث إشباع وتحقيق هذه الدوافع ، كإشباع الجوع مثلاً بتناول الطعام .

٢- الدوافع الثانوية (المكتسبة أو المعنوية)

ومن خصائصها :

- أنه لايتوقف على إشباعها حياة الفرد لإبقاء النوع .

- ليس لها مايقابلها من إفرادات غددية أو تغيرات عضوية فى الكائن الحى

كالحاجة إلى الأمن والحاجة إلى التفوق والتحصيل وحب الإجتماع وحب الإستطلاع .

– يختلف أفراد الجنس الواحد فى السلوك لتحقيق الدوافعية الثانوية . أما عن طرائق تعديل الدافعية فى نظر علم النفس المعاصر ، فإنها تتم بطرق متعددة منها (٥٣) :

١– التعديل الإدراكى . ٢– التعديل النزوعى .

٣– التعديل بالإعلاء والإبدال . ٤– التعديل بواسطة العاطفة السائدة .

ومايعنينا فى هذه الطرائق العاطفة السائدة Master sentiment أو ماتُعرف بالعاطفة المسيطرة ، وهى الاستعداد النفسى للتأثر والتفكير والانفعال بموضوع معين ، بحيث يصبح هذا الموضوع المعين محور الحياة ، وحيث تسخر الدوافع والقوى النفسية لإشباع هذه العاطفة بزيادة التضحية والانفعال والعمل من أجل هذا الموضوع ، فى كل موقف من مواقف الحياة .

.... وفى عرضنا السابق للدافعية فى علم النفس المعاصر ، علينا أن نوضح كيف قام علماء المسلمين بتفسير الدافعية وأثرها على الحياة النفسية .

التفسير الإسلامى للدافعية :

يُعتبر «الإمام الغزالى» من أئمة الإسلام الذين أفاضوا فى تفسير الدوافع . لذلك نعرض آراءه كمثال لمساهمات الفلاسفة (٥٤) من علماء المسلمين فى الدافعية وآثرها على الحياة النفسية .

وتتمثل آراؤه فيما يلى :

أهمية الدوافع :

يُدخل الإمام الغزالى الدوافع مع الميول ، ولذلك نلاحظ أنه عندما يتناول موضوع الدوافع يتحدث أيضاً عن الميول .

وتتمثل أهمية الدوافع عند الإمام الغزالى فى :

١– أن طبيعة الإنسان لاتخلو من مجموعة من الدوافع والميول .

فكل إنسان لايخلو فى مبدأ خلقه من اتباع الشهوات أصلاً . وليست الشهوة عند الغزالى إلا ميلاً ، ويقول فى ذلك : «أن يكون لك ميل إلى مايوافقك يسمى شهوة» .

٢- لايعمل الفكر دون باعث من دافع أو ميل .

٣- لاتنجزم الإرادة دون ميل أو دافع . «فكلما كان هذا الميل قوياً أوجب جزم الإرادة وانتهاض القدرة» .

معنى الفطرة (فى الدافعية) عند الإمام الغزالى :

تأخذ الفطرة عند الغزالى مفاهيم متعددة ، قد تبدو متعارضة ، فهو أحياناً يقصد بها :

١- التصديق بالربوبية بمعنى أن يولد الإنسان وهو بالفطرة مقيد بالرغبة لمعرفة الله . وهو المعنى الذى يقصده الفقهاء حين يعرفون الإسلام بأنه دين الفطرة، وذلك بتفسير الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو يمجسانه أو ينصرانه» .

٢- يُقصد بالفطرة أيضاً قبول الخير والشر وخلو القلب من كل نقش (أى أمراض القلوب والتى سنعرضها فيما بعد) .

٣- كما يُقصد بالفطرة الاعتدال ، لأنه الغالب على أهل المزاج . ومهما كان القصد ، فإن هذه الأقوال لاتناقض قول الغزالى بأن فى النفس مجموعة من الميول والدوافع الفطرية والمكتسبة ، مهما كان الحكم القيمى عليها .(٥٥)

الدافعية والنشاط النفسى :

الدافع عند الإمام الغزالى هو كل مايدفع إلى النشاط النفسى أو السلوك مهما كان نوعه حركياً أو ذهنياً . وإذا كان الغالب على الدافع أن يكون غير مشعور به فإن شعرنا به كان رغبة ، وإذا قوى واستقر بتأثير التجارب الانفعالية كان عاطفة .

ومن هذا يتبين أن الغزالى يستعمل فى الغالب الدافع بالمعنى الشعورى . وتبدو العواطف من دوافع السلوك الهامة عنده .

وفى رأيه أن الدافع يبقى فى حالة كمون مالم يستثار . كما أنه لابد أن يرتبط بميل ، فمن رأيه «أن الطفل لو رغب بشهوة الجنس لايشعر بالرغبة فيها لانعدام الميل» .

بواعث السلوك للدافعية :

فى رأى الغزالى أن بواعث السلوك ومثيراته على نوعين :

١- مثيرات خارجية : مثل شدة الشهوة ومايتبعها من كثرة الأكل ، ومداخل هذه المثيرات هى الحواس الخمسة .

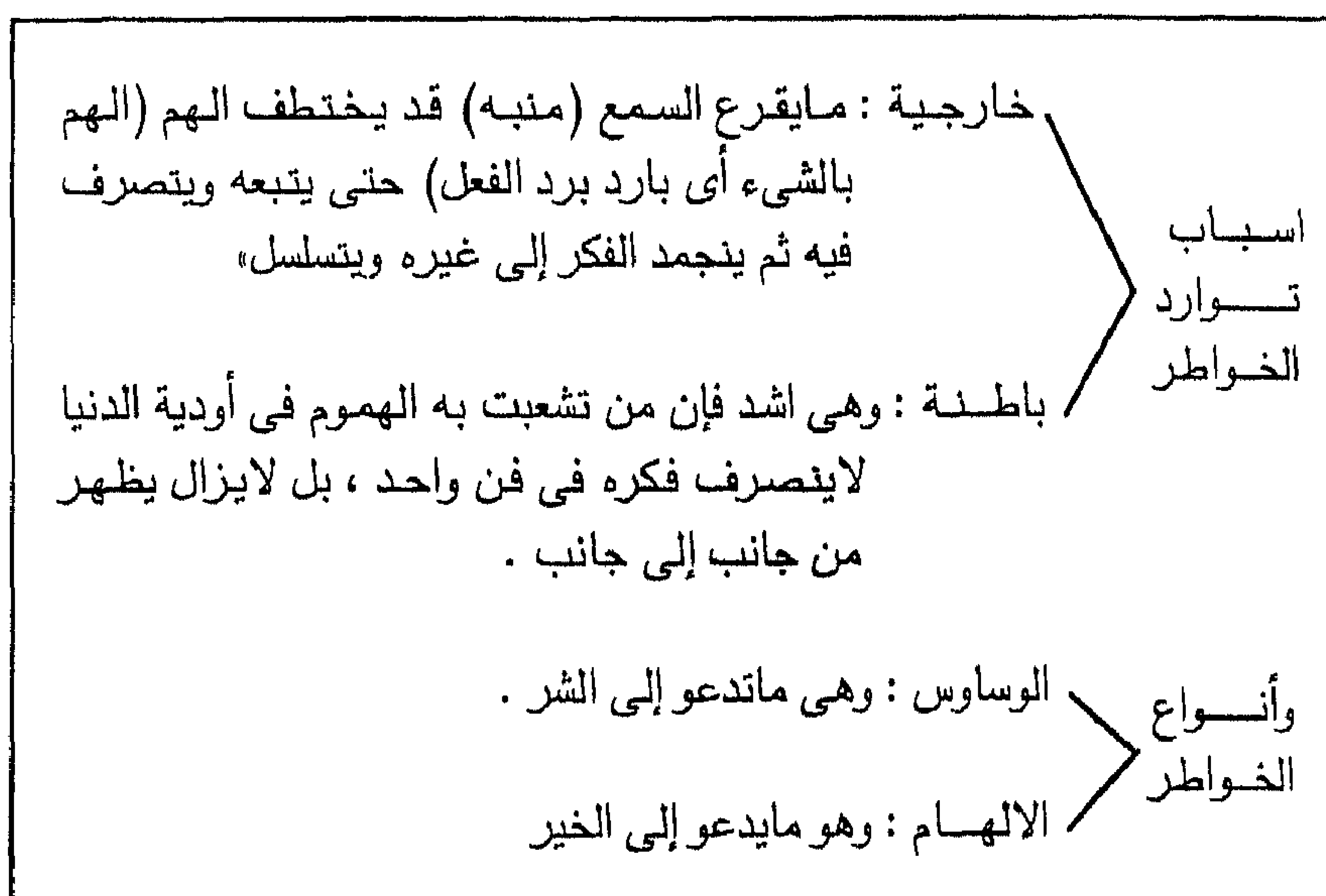
٢ – **بواعث داخلية** : أطلق عليها «الخواطر» وحركاتها ، «والخيالات» الحاصلة التى
تبقى فى النفس ، إذ ينتقل الخيال من شىء إلى شىء ،
وبحسب إنتقال الخيال ينتقل القلب من حال إلى حال .

والخواطر أو البواعث الداخلية لها أهمية فى نظر الغزالى ، إذ إنها فى رأيه محركات الإرادات .

وفى رأيه أن النية والعزم والإرادة تتم بعد ظهور الذى فى النية بالبال (وقد أسماه المنوى بالبال – أى الذى وراءه نية فى الخاطر) ومن ثم مبدأ الأفعال فى الخواطر ، ثم الخاطر يحرك الرغبة ، والرغبة تحرك العزم .

ويُعرف الغزالى الخواطر (٥٦) «بأنها مايحصل فى القلب من الأفكار والأذكار» .

وأسباب توارد الخواطر فى رأيه :



شكل (١٠) : أسباب توارد الخواطر وأنواعها فى رأى الغزالى .

هذا وللغزالى تحليل دقيق للمثيرات والبواعث المختلفة ، لايتسع المجال لسردها . وهى إن دلت فإنما تدل على خبرته الواسعة فى تحديد مداخل النشاط النفسى . كما تجدر الإشارة إلى أن الغزالى يميز بين الدوافع والاستعدادات الجسمية

التي أطلق عليها القدرة ، فقد يشتهي الإنسان الشيء أو تتوافر الدوافع لديه ، ولكن ليس لديه القدرة لتحقيقه . والغزالي لايفصل هذا الموضوع ، لأنه يعتبره من الأمور المتعلقة بالدراسات التشريحية للإنسان ، وهذا مايتوافق مع نظرة علم النفس المعاصر ، حيث يعتبر الاستعداد لدى الفرد من أسس إمكانية إشباع الدافعية .

قوة الدافعية وترتيب ظهورها وأهميتها :

ترتبط شدة الدوافع عند الغزالي بتطور ظهورها ؛ فالميل إلى الطعام يظهر أولاً ثم تظهر بقية الميول والدوافع . (٥٧)

وقد أشار إلى ذلك أيضاً «ابن سينا» «ومسكويه» والفلاسفة عامة ؛ وقد بين الغزالي ذلك في كتابه المعارج (٥٨) فقال : «أما القوة الشهوية ففيها أيضاً مضرة ومنفعة . وهي أصعب إصلاحاً من سائر القوى فهي أقدم القوى وجوداً في الإنسان وأشدها به تشبثاً ، وأكثرها منه تمكناً ، فإنها تولد معه ، وتوجد فيه وفي الحيوان الذي هو جنسه ، بل في النبات الذي هو كجنس جنسه ، ثم توجد فيه قوة الحمية ، ثم أخيراً توجد فيه قوة الفكر والنطق والتمييز» .

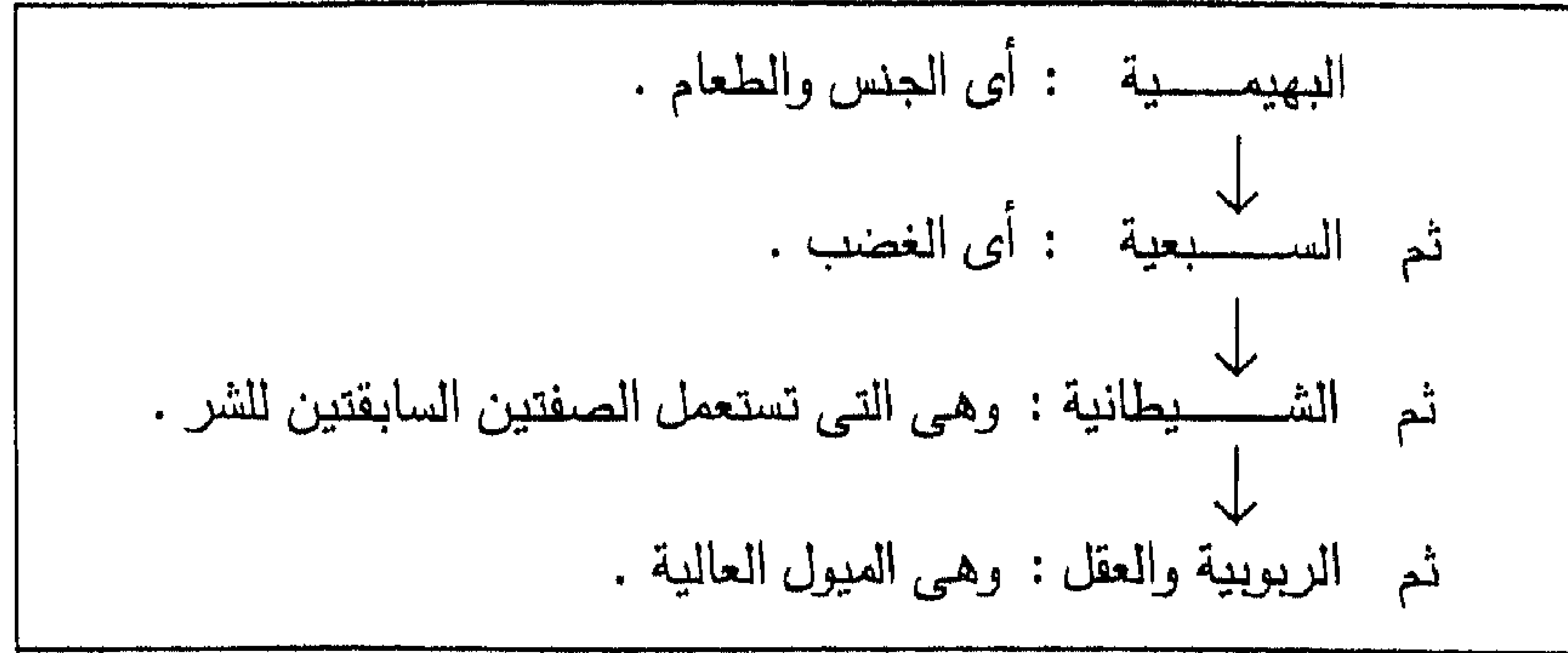
أي إنه في سلوك الإنسان في رأي الغزالي تتسلسل القوى كالآتي :

القوة الشهوية ... ثم قوة الحمية ... ثم قوة الفكر والنطق والتمييز .

وقال مثل ذلك في كتابه «ميزان العمل» : «قوة الشهوة – يُقصد بها ميول الطعام والجنس – وهي أقوى لأنها أقدم القوى وجوداً ، وأشدها تشبثاً والتصاقاً بالإنسان ، فهي توجد في أول الأمر» .

... كما أشار إلى هذا الترتيب في كتابه «إحياء علوم الدين» «فالإرادة والعلم يظهران عند الإنسان بعد البلوغ ، أما الشهوة والغضب والحواس الظاهرة والباطنة فإنها موجودة في حق الصبر . وفي مكان آخر من الإحياء ، حيث يقول «أما الإنسان فإنه خلق ابتداء في الصبا ناقصاً مثل البهيمة ، لم يخلق فيه إلا شهوة الغذاء الذي هو محتاج إليه ، ثم تظهر شهوة اللعب والزينة ، ثم شهوة النكاح على الترتيب ، ثم يظهر فيه مميزاً عن البهائم العقل والإرادة والقدرة على دفع الشهوات» .

وفي كتابه «الأربعين» (٥٩) تتسلسل الصفات الموجودة في النفس أي الميول والدوافع على النحو التالي :



شكل (١١) : تسلسل الميول والدوافع (الصفات الموجودة فى النفس) فى رأى الغزالى .

ولئن أكد الغزالى أهمية الدوافع الفطرية ، فإن الدوافع المكتسبة لاتقل أهمية عن ذلك ، وهو يشير إلى ذلك فى كتابه «إحياء علوم الدين» فيقول : «مهما أحب الإنسان شهوة البطن والفرج وأنس بهما ، أحب الدنيا ولم يتمكن منها إلا بالمال والجاه ، وإذا طلب المال والجاه حدث فيه الكبر والعجب والرياسة ، وإذا ظهر ذلك لم تسمح له نفسه بترك الدنيا رأساً ، وتمسك بما فيه الرياسة وغلب عليه الغرور» .

ويبدو أن المحور الذى تدور حوله دوافع الإنسان العادى هو حب البقاء ، وكلما إقترب الدافع من هذه الحاجة ، كان أشد ضرورة وأكثر إلحاحاً . وهو يشرح ذلك فيقول : «ولذلك كان أغلب أحوال النفس الشر والشهوة والجماع ، على إعتبار أنها أصلح للحياة ، وارتبط بهما حب المال وشتى الميول الأخرى» .

كما يقول فى موضع آخر : «وكانت شهوة البطن والفرج أهم ميول الدنيا» باعتبار أنهما الأصلح والألصق ببقاء الحياة ، وكل ماسواهما فهو تبع لهما .

وإذا كنا نمثل ترتيب الشهوات فى نظر الإمام الغزالى ، فإنه يمكن ترتيبها فى التنظيم الهرمى الآتى وفقاً لتصوره فى ترتيب الشهوات ، وحيث يمكن ذلك فى نظرنا كالآتى :

شهوة الرياسة : ويغلب عليها الغرور
شهوة المال : تكون لطلب الجاه ويصحبها الكبر والعجب
شهوة الفرج : أغلب الشهوات وأعصاها على العقل وتؤمن بقاء الجنس
شهوة البطن : أهم ميول الدنيا وتؤمن البقاء الفردى للإنسان

شكل (١٢) : ترتيب الشهوات فى نظر الإمام الغزالى .

ومن رأى الغزالى أن الميل إلى الطعام هو الذى يؤمن البقاء الفردى للانسان، كما أن الميل الجنسى يؤمن بقاء النسل ، ويرتبط بهذين الميلين بقية الدوافع كالحاجة إلى التقدير والاحترام وتحقيق الذات .

ويشير الغزالى إلى غلبة الميل الجنسى على الطعام أحياناً كقوله : «وهى .. أى شهوة الجنس .. أغلب الشهوات على الإنسان وأعصاها على العقل» ، وهو لايقصد بقوة الميل هنا شدة القرب من حب البقاء ، وإنما يعنى قوة الإحساس باللذة» .

وهو يؤكد أن الميل إلى الطعام لصلته الوثيقة بحب البقاء ، يُعتبر أساس الميول والدوافع والانفعالات المتصلة بالحياة (٦٠) الإنسانى الدنيوية ، ولذلك يقول: «أعظم المهلكات لابن آدم شهوة البطن فيها خرج آدم عليه السلم وحواء من دار القرار إلى دار الذل والافتقار ، إذ نهيا عن الشجرة فغلبتهما شهواتهما حتى أكلا منها فبدت لهما سوأتهما . والبطن على التحقيق ينبوع الشهوات ومنبت الأدواء والآفات» .

ويظهر لنا واضحاً أن الميول لاتُقصد لذاتها ، وإنما تُقصد لغيرها أى لتحقيق البقاء ، فالميل إلى التملك ، والميل إلى الاجتماع ، وكذلك بقية الشهوات الدنيوية ، إنما يشتغل القلب بها ، لبقاء المركب الذى هو البدن (والشهوة هنا بالقصد بها الميل أو الدافع عندما يشتد) .

هذا وقد أفاض الإمام الغزالى فى موضوعات عدة تختص بالدوافع كمحركات السلوك . ومن هذه الموضوعات :

تصنيف الدوافع عند الإمام الغزالى :

صنف الغزالى الدوافع على أساس :

- طبيعة الإنسان الخلقية .

- حُب البقاء .
- الغرض والمقصد .

تصنيف الدوافع وفق آراء الغزالى		
	الطبيعة الخُلقية للإنسان	- ميول بهيمية كالشدة والحرص على قضاء الشهوة . - ميول سبعية (غضبية) : مثل العداوة والبغضاء. وتتولد عنها استعدادات وصفات أخلاقية مثل الغضب والتهجم على الناس بالقوة. - ميول شيطانية : وتتكون من اجتماع الغضب مع الشهوة . - ميول ربوبية : نزوع الإنسان إلى الاتصاف بصفات الألوهية .
	حُب البقاء	- ميول فردية : يقوم عليها البقاء ، كالميل إلى الطعام والجنس ويتفرع منها ميول التملك وحب الدنيا والجاه . - ميول اجتماعية : تتصل بالعائلة أو المجتمع العشيرى والأصدقاء . - ميول عالية : كحب الخير والميول الدينية والجمالية .
	الغرض والقصد	- دوافع (بواعث) الدين : تبعث على الطاعات والحياة الصالحة . - دوافع (بواعث) الهوى : وهى النفس الأمارة التى تشمل الشهوة والغضب .

شكل (١٣) : تصنيف الدوافع وفق آراء الإمام الغزالى .

نماذج من الدوافع الأساسية عند الإمام الغزالي :

أفاض الإمام الغزالى فى إيضاح عدة نماذج من الدوافع الأساسية (فى نظره) ، ومن هذه الدوافع :

١- **الميل إلى الطعام** : والذى يعتبره أساس جميع الدوافع المتعلقة بالحياة . بل إنه فى نظره أساس المهلكات والمعاصى . وحتى لايخرج عن «حد الاعتدال» كتب الغزالى بحوثاً مستفيضة فى ذلك . وعلاج هذا الميل يقوم على أساس القناعة النفسية والتدرج لعدة أمور ، منها : فضيلة الجوع وذم الشبع – فوائد الجوع وآفات الشبع .

٢- **الميل الجنسى** : فى نظره أن أعظم الشهوات عند الإنسان شهوة النساء (أى الميل نحو الجنس الآخر من النساء) وله تفسيرات عديدة فى ذلك وفى نظره أن هذا الميل له وظائف : دينية – أخلاقية – دنيوية .

٣- **الميل إلى الإستعلاء والسيطرة** : ويظهر ذلك عندما يُحب الإنسان نفسه فى موقف يشعر فيه بالقوة .

ولهذا الميل مظاهر منها : الميل إلى الرئاسة ، وحُب الجاه والغلبة والعُجب والكبرياء والرياء .

٤- **الميل إلى الإجتماع** : وهو مايُعرف بالغريزة الاجتماعية ، ومظهره ميل الإنسان إلى بنى جنسه . ومن شواهده الإستهواء والمشاركة الوجدانية والميل إلى التقليد .

ويعتبر الغزالى هذا الميل ضرورياً فى الطبع الإنسانى .

تعديل الدوافع والإعلاء فى نظر الغزالى :

من المعروف فى علم النفس المعاصر ، أن الكثير من الدوافع لايتم إشباعها لمؤثرات عديدة فسيولوجية مادية أو اجتماعية أو أخلاقية .

وهناك وسائل لتعديل الدوافع عند عدم إشباعها ، منها : الكبت – النكوص – الإبدال – الإعلاء – العاطفة السائدة .

بالنسبة للإمام الغزالى ، فإنه يرى عدم كبت الشهوات والدوافع ، وإنما يمكن تعديلها وإعلائها ، إذ إنها فى نظره وسيلة لارتقاء الإنسان أو سبباً فى

ضياعه .

وفى نظره أن الدوافع إذا استحكمت يرتبط بعضها مع بعض وتتآزر كلها لتحطيم الإنسان ؛ إذ تتبع شهوة الطعام شهوة الجنس وشدة الرغبة فى الجاه والمال وغير ذلك من ضروب المنافسات والمحاسدات .(٦١)

وحيث إن روح الإسلام تميل إلى تحقيق التوازن وتكره التطرف ، فقد دفع الإسلام الرهبانية ورفضها رفضاً تاماً ، والغزالى فى هذا المجال استفاض فى تعديل الدوافع وإعلائها .

وفى رأيه أن بواعث الدين ، يمكن أن تقف أمام بواعث الهوى ، والتى تمثل عنصر الجموح فى سلوك الإنسان . هذا بالإضافة إلى أن من آرائه أنه يمكن علاج الدوافع بتقوية بواعث الدين وإضعاف بواعث الهوى .

الإسلام وتعديل وتوجيه الدوافع :

بعد عرضنا للتفسير الإسلامى للدافعية ، نوضح بصفة عامة ... بغرض إكمال هذا الموضوع ... كيفية تنظيم الإسلام للدوافع وتعديلها وتوجيهها .

والواقع أن الإسلام لم يترك الدوافع الإنسانية دون تهذيب ولم يحاول إماتتها وكسر شوكتها ، بل جمعها تحت لواء عاطفة كريمة هى التدين والخضوع لله، والاستسلام له .(٦٢)

والقصد بذلك هو تنظيم جميع تصرفات المسلم وسلوكه ، وإخضاع دوافعه لمحبة الله واتباع أوامره وترك نواهيه .

فالدين الإسلامى يقوم على إرضاء النزعات الإنسانية ، ويجمع بينها ويوجهها إلى الخير والتسامى ، فيوجه الدافع الجنسى إلى إرضاء الله وحفظ الأنساب والأعراض وإنجاب النسل الصالح ، وتحقيق السكينة والمودة والرحمة بين الزوجين .

كما يوجه حُب المال وجمعه إلى ضرورة إنفاق قسم منه على الفقراء ، لينعم المجتمع بخيرات الضمان الاجتماعى ، وينفق الباقى على أولاده وأهله ليكون له فى ذلك ثوابهم وأجرهم . وعلى هذا تقاس بقية النزعات كحب الاجتماع الذى يجمع كلمة الأمة على الخير ، وحب الاطلاع الذى يرويه الإسلام بطلب العلم .

وبصفة عامة فإن أسلوب الإسلام هو تجميع الدوافع الإنسانية والطاقات كلها

وتوجيهها وجهة إسلامية صادقة . ولاشك أن وجود فكرة أو عقيدة واضحة شاغلة لذهن الفرد بحيث توجه جهوده لتحقيقها أمرٍ يترتب عنه أرقى أنواع التكامل الخلقى الذى من شأنه إثراء النفس ، وفى هذا مايمكن الذات من التمسك بالعقيدة والقدرة على تنظيم جميع الشؤون للحياة الفردية والاجتماعية والإنسانية ، مع القدرة على فهم واستيعاب مشكلات الكون الكبرى من حياة وموت وبعث ونشوء . وفى هذا مايجعل المجتمع متناسقاً متكاملاً.

والسؤال الذى يمكن طرحه فى كيفية تنظيم الإسلام للدوافع وتعديلها هو ... ما العوامل المساعدة فى ذلك ؟

كيفية تنظيم الإسلام للدوافع :

سبق الإشارة إلى أن من طرائق تعديل الدوافع مايُعرف فى علم النفس المعاصر بالعاطفة السائدة .

وقد نظم الإسلام الدوافع تحت لواء عاطفة سائدة سامية ، تختص بتعلق قلوب وأفئدة المسلمين والمؤمنين بالله عز وجل خالق الكون . وهذه العاطفة من الاتساع بحيث أنها تضم كل الدوافع الإنسانية ، وكل الاعتبارات المعنوية والمادية والفردية والاجتماعية ، بحيث أنها تستغل كل نشاط المسلم لغايتها السامية ، بل إنها تطالب المسلم بمجهود مثمر ويقظة دائمة .

ولذلك نجد أنه من أهم أغراض العقيدة إيقاظ نشاط المؤمن وتحفيز همته وشحذ مواهبه للنهوض بواقعه وواقع أمته للرجوع إلى الله تعالى واستهداف رضاه فى كل شيء يقوم بعمله المؤمن . يؤيد ذلك ماجاء فى قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

(سورة الأنعام – آية ١٦٢)

ثم إن الإسلام جعل بهذه العقيدة الجامعة لشتات قوى النفس الإنسانية شخصية متماسكة قوية لاتعرف التردد ، ولاتقع فى شيء من الصراع الداخلى ، والنزاع النفسى . فكان من أغراض هذه العقيدة تقوية شخصية المسلم وربط قلبه بالله ، وجعل ثقته بخالق السموات والأرض دون سواه .

أما عن كيف تكون العقيدة الإسلامية والعاطفة السامية الإلهية هى العاطفة التى يجب أن تكون السائدة عند النشء ؟

فإنه لابد لتكوين العاطفة من تكرار وانفعال وتركيز وإيقاظ دوافع معينة لتنتظم تحت لواء هذه العاطفة ، لتنميتها بطريقتها المثالية الواعية الهادفة ، ولتجعل منها معنى سامياً . ولكى تصبح العاطفة السائدة عقيدة يؤمن بها الإنسان ويقنع بها الآخرين ، لابد من تكوينها عن طريق إيقاظ العوامل الفعلية لتأييدها ، إضافة إلى تأييدها بالتطبيق العملى القائم على العمل بأركان الإسلام وتعاليمه ، فالعبادات والتأدب بآداب الإسلام ، وتوجيه السلوك هو الذى يثبت العقيدة ، ويجعل الصلة بالخالق عز وجل قوية متينة ويقوى العاطفة نحوه ، ويجعلنا محبين خاشعين له .

وينتج من ذلك نتائج فى الحياة يمكن أن تتخذ الطابع التطبيقى حيث :

١ - ضرورة تكرار المعانى وإثارة العواطف السامية فى جميع المواقف الحياتية .

٢ - ضرورة عدم الاكتفاء بالاقتناع العقلى ولابالسرد العلمى الجاف الخالى من العاطفة ، فلابد من إثارة الانفعالات : فالله جل جلاله يأمر بالخوف ويمدح الخائف من الله سبحانه تعالى :

﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾

(سورة السجدة - آية ١٦)

٣- ضرورة إيضاح كيف يصف الله سبحانه وتعالى لنا رحمته ومحبته وثوابه وجنته ، وكيف يصف الرسول الكريم فرحة الله تعالى بتوبة عبده المؤمن .

لذلك يجب ألاتخلو الدروس فى المدارس ودور العلم من تذكير الصغار والكبار وإيقاظ محبتهم وتهذيب دوافعهم ، وتنبيه هذه العواطف والانفعالات الدافعة المرغبة . وهناك آيات وأحاديث تثير فى النفس انفعالات الانقياد والخشوع والطاعة والعبودية .

ولعل لنا فى رسول الله صلى الله عليه وسلم الأسوة الحسنة والقدوة الطيبة المباركة وأسلوبه التربوى فى التنشئة وفى الدعوة إلى الإصلاح .

فلقد وجد الرسول المصطفى عليه أفضل صلاة وتسليم ، أن سراقة بن مالك يشتهى المال ، فاستغل عنده هذا الدافع الفطرى ، وبين له ماسيصل إليه الإسلام من مجد وغنى ووعده بأنه سيضع فى معصميه سوارى كسرى .

ومضت السنوات وناداه عمر بن الخطاب ... «أين سراقة بن مالك ؟ ليحقق

نبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فألبسه سوارى كسرى . لكن تحول حب سراقة للمال إلى حب الله خالق المال ومصرفه فى أيدى العباد .

.... وبعد أفلا يكون عندنا إيمان وأمل ، كأمل الرسول صلى الله عليه وسلم، وحكمة تربوية كحكمته ، وتصديق كتصديق الصحابة ، ودأب كدأبهم على الدعوة إلى الله ؟ .

تلخـــيص :

* تمثل الدافعية عاملاً هاماً حيوياً فى تحديد سلوك الإنسان ، وهى عبارة عن عملية استثارة السلوك وتنشيطه وتوجيهه نحو الهدف ، أى نحو الوظيفة التوجيهيه للدافعية .

* تطور مفهوم الدافعية فى علم النفس المعاصر فى صورة : الغرائز – الحاجات – الدوافع .

* يعتبر «مكدوجل» من أوائل من فسروا الدافعية بالغرائز ، وهى فى رأيه تمثل استعداداً فطرياً نفسياً يتبعه انتباه الكائن إلى مثيرات معينة يدركها ، ويشعر بانفعال تجاهها ، وفى هذا مايولد الشعور بدافع العمل والسلوك .

كما فسر «فرويد» الدافعية على أساس الغريزة ، وأشار إلى غريزة الحياة وغريزة الموت ، وميز بين غرائز «الأنا» وبين الغريزة الجنسية ، «فالأنا» فى رأيه هى التى تعارض النزعات الجنسية . وأشار إلى أن المشكلات الجنسية تكمن وراء الاضطرابات النفسية ، وأن هناك مايعرف بالطاقة الجنسية كمظهر دينامى للغريزة الجنسية . وفى نظره أن الاضطرابات العاطفية مرجعها الغريزة الجنسية ، والإبداع يرجع إلى الغريزة الجنسية ، والعدوان يرجع إلى غريزة الموت .

* الحاجات إما أن تكون عضوية حيوية تفقد جزءاً من مكوناتها وتتناقص ، الأمر الذى يحتاج إلى تعويضها لإعادة التوازن . وإما أن تكون حاجات نفسية تمثل متطلبات وظروفاً يحتاجها الإنسان كى يكتمل توازنه ونضجه النفسى ويعتبر «ماسلو» من المصنفين الأوائل للحاجات النفسية والاجتماعية .

* الدوافع تستخدم الآن بدلاً من الغرائز فى تفسير الجانب النزوعى للسلوك، وهى حالات أو حاجات فسيولوجية أو نفسية كامنة فى الفرد ، تجعله ينزع إلى السلوك فى اتجاه معين لإشباع الحاجات .

* فى تعديل الدافعية فى علم النفس المعاصر يتم التعديل بطرق ، منها : الإدراكى – النزوعى – الإعلاء والإبدال – العاطفة السائدة .

* فى التفسير الإسلامى للدافعية نجد أن طبيعة الإنسان لاتخلو من الدوافع والميول، وأن الفكر لايعمل دون باعث أو دافع ، كما أن الإرادة لاتنجزم دون دافع أو ميل .

* اختلف مفهوم الفطرة (فى الدافعية) عند الإمام الغزالى ، كما أشار إلى أن الدافع يبقى فى حالة كمون مالم يستثار .

* فى بواعث السلوك نجد أن هناك مثيرات خارجية وداخلية ، والأخيرة أطلق عليها الخواطر أو الخيالات ، وهى بواعث داخلية تمثل محركات الإرادات . كما أن النية والعزم والإرادة تتم بعد ظهور الذى فى النية بالبال .

* فيما يتعلق بالقوة الدافعية وترتيب ظهورها ، إشار إلى أن سلوك الإنسان يتسلسل فى القوى الشهوية ثم قوة الحمية ثم قوة الفكر والمنطق والتمييز . كما أن تسلسل الصفات الموجودة فى النفس ، والتى تعرف بالميول والدوافع تكون على النحو التالى : البهيمية ثم السبعية ثم الشيطانية ثم الربوبية والعقل .

وأشار أيضاً إلى ترتيب الشهوات ، حيث تبدأ بشهوة البطن ثم شهوة الفرج وشهوة المال وشهوة الرياسة ، كما أنه يشير إلى غلبة الميل الجنسى على الطعام .

* وفى تصنيف الدوافع عند الإمام الغزالى ، أشار إلى أنها تصنف على أساس الطبيعة الخلقية للإنسان ، وحب البقاء ، والغرض والمقصد .

* الدوافع الأساسية عند الإمام الغزالى ، تترتب فى نماذج تتمثل فى الميل إلى الطعام – الميل الجنسى – الميل إلى الاستعلاء والسيطرة – الميل إلى الإجتماع.

* فى تعديل الدوافع والإعلاء فى نظر الغزالى ، يرى عدم كبت الشهوات ويشير إلى تعديلها وإعلائها بغية ارتقاء الإنسان وألا تكون سبباً فى ضياعه .

* لم يترك الإسلام الدوافع الإنسانية دون تهذيب ، كما أنه لم يحاول إماتتها وكسر شوكتها ، بل جمعها تحت لواء عاطفة كريمة هى التدين والخضوع لله والاستسلام له . ولتكوين هذه العاطفة السامية لابد من تكرار وانفعال وتركيز وإيقاظ دوافع معينة تنتظم تحت لواء هذه العاطفة ، كما أن هناك طابعاً تطبيقياً لكيفية تنمية هذه العاطفة السامية السائدة ، التى تهذب الدوافع وتنبه العواطف والانفعالات الدافعة المرغوبة .

تعقيب :

* عرفنا أن الوظيفة التوجيهية للدافعية تشير إلى أن النشاط الإنسانى الذى يتمثل فى السلوك الواع ، هو نشاط موجه نحو هدف معين . لذلك فإن فهم الدافعية فى السلوك ، يمكن من توجيه السلوك ، ويقلل عند الفرد من حدوث المشاكل التى تعترض الفرد فى حياته اليومية . وقد بالغ «فرويد» فى نظريته الخاصة بالتحليل النفسى ، حيث أشار إلى وجود صراع بين غريزتى الحياة أى القوة البناءة فى النفس ، وغريزة الموت التى تمثل فى رأيه القوى الهدامة التدميرية فى النفس .

وأكد وأصر على أن الغريزة الجنسية تلعب دوراً هاماً فى حياة الفرد ؛ بل إن كثيراً من الاضطرابات النفسية مرجعه المشكلات الجنسية ، بل إن الاضطرابات العاطفية ترجع إلى الغريزة الجنسية ، والإبداع يرجع إلى إعلاء الغريزة الجنسية ، والعدوان يرجع إلى غريزة الموت .

* والواقع إن الإنسان فى سلوكه فى المفهوم الإسلامى لايخلو فى مبدأ خلقه من إتباع الشهوات ، أى إن اتباع الهوى وتغليب الجانب الشهوى والميل إلى البهيمية فى السلوك المتمثلة فى الجنس والطعام يعد خروجاً عن الطبيعة الإنسانية لميولها العالية المتصلة بالربوبية ، والعقل هو الذى يزود الإنسان بالقدرة على دفع الشهوات .

وإذا كانت شهوة البطن والفرج – حسبما أشار الإمام الغزالى – تعتبر أهم ميول الدنيا ، فإن الإسلام ينظم هذه الشهوات فى آداب الطعام وآداب النكاح ، وحيث يدعو الإسلام إلى قضاء الشهوة دون شره وحرص ، وبما أحل الله ، والالتزام بحد الاعتدال .

* ورغم أن «سيجموند فرويد» قاد مدرسة التحليل النفسى ، وسار على نهجه عديد من تلاميذه ، ولازالت آراؤه يهتم بها نفر ليسوا بالقليل حتى وقتنا المعاصر ، إلا أن الكثير ممن مجدوا أفكاره وتتلمذوا على يديه أمثال «الفريد ادلر» «وكارل يونج» «وكارل هورن» «وإيريك فروم» وغيرهم ضحدوا فكره ولم تعجبهم آراءه ، وانشقوا على غلوائه منادين بأنه ليس بالجنس وحده يعيش الإنسان .

وفى رأى «إيريك فروم» E. Fromm أن الإنسان يسعى للعثور على معنى الحياة التى يعانى فيها من الوحدة ، ويمثل ذلك حاجة أساسية لازمة لحياة الإنسان (٦٣) وأن الإنسان الفرد (فى نظر «فروم») إما فرد يتفاعل مع أفراد آخرين ،

تفاعلاً اجتماعياً أساسه المحبة والخير ، والتكامل والتعاون ، ومن ثم تتحقق ذاته ويكون مع الآخرين من حوله مجتمعاً فاضلاً طيباً . وإما يخفق طبقاً لحريته الفردية – وحيث لايتعاون مع أفراد مجتمعه ، وعندئذ يعود إلى الوراء ، ويسخر نفسه للمهانة والضياع ، وبالتالى تكون حياته فى مجتمع أساسه العدوانية وعدم الاستقرار من جانبه ، ومايترتب على ذلك من عزله عن الحياة الاجتماعية ورفضه ومعاقبته عند خروجه عن الضوابط الاجتماعية .

* ينظر الإسلام أيضاً إلى أنه عند استحكام الدوافع وارتباطها ببعضها وتآزرها ، فإنها تحطم الإنسان خاصة عند تجمع ضروب المنافسات والمحاسدات . والإسلام يميل إلى تحقيق التوازن ويكره التطرف ، ويلغى مبدأ الرهبانية . وهناك الوسائل العديدة التى عن طريقها يتم تعديل الدافعية ، إلا أن الإسلام فى اختياره أنجح الوسائل فإنه يستغل نشاط المسلم لغايات سامية ، ويوقظ لديه الاعتبارات المعنوية والمادية والفردية والاجتماعية ، بغية بناء شخصية متماسكة قوية ، لاتعانى الصراع والنزاع النفسى ، فتدرك الرباط القوى بينها وبين خالقها الذى يعلم خائنة الأعين وماتخفى الصدور ، فتسمو بسلوكها ، نتيجة لتنمية المثالية الواعية الهادفة ، وتكوين العاطفة السامية التى توجه الدافعية لصالح الفرد وصالح الجماعة . أليس الصيام جهاداً للنفس وكبح جماح شهوات الجسد والجوع وتهذيب الروح ، أليس الهدف منه تجديد لطاقات الإنسان والسعى نحو مرضاة الله والخشوع له ، وليكون من وراء ذلك نماء لأبناء الأمة . وأليس حفظ الفرج يجعل الفرد فى قربة من قربات الله ، وحيث يكون ملتزماً ومسؤلاً بما أمر الله به من صون الأعراض وحفظ الأنساب ، ومن لم يستطع الباءة فليتزوج ، حتى لايعتدى على حرمات ، ويتجنب الآثام ويسمو بسلوكه إلى مرتبة الإيمان والخشوع لله والإحساس والشعور بالمسئولية تجاه ذاته وتجاه الآخرين .

* وفى توافق الإنسان فى حياته ، قد تكون هناك عوائق للتوافق تتمثل فى عوائق جسمية أو نفسية أو مادية أو اقتصادية أو اجتماعية ، ويترتب على ذلك أنه قد يقوم الإنسان – في حال عدم إشباع حاجاته – بإبعاد الرغبات الخاصة بهذه الحاجات ونسيانها ، ويسمى ذلك فى علم النفس المعاصر الكبت Repression ويتم ذلك بطريقة لاإرادية .

وقد يتم إبعاد الرغبات بطريقة إرادية ، ويسمى ذلك القمع Supression ويعتبر الكبت سلوكاً غير ناضج فى الهروب من هذه الرغبات ، فى حين يعتبر

القمع سلوكاً ناضجاً ، يأتيه الإنسان ببصيرة ووعى وإرادة بهدف تنظيم وترتيب حاجاته ، والسيطرة على رغباته وشهواته .

والإسلام ينادى بأن كل إنسان مُكلف بقمع الحاجات غير الصحية ، التى قد تنشأ عنده ، وطرد الأفكار الآثمة التى قد تراوده بتأثير النفس الأمارة ووسوسة الشيطان ، وله فى قمع هذه الحاجات وطرد هذه الأفكار الثواب من الله .

قال تعالى :

﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ . فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴾

(سورة النازعات – آية ٤٠-٤١)

ونهى النفس هنا عن الهوى ، القصد به قمع الشهوات غير الصحية التى حرمها الله ، والسيطرة على الشهوات الصحية وإشباعها من حلال . (٦٤)

* والإسلام ينهى عن الرهبانية التى ابتدعوها ومارعوها حق رعايتها . وفى ذات الوقت ينهى عن الإسراف والتبذير .

﴿ وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ ﴾

(سورة الإسراء آية ٢٩)

ولذلك يجب ألايحرم الإنسان نفسه من متاع الدنيا ، تزهداً أو تقرباً من الله، فإن الله تعالى لايرضى لعباده الإفراط أو التفريط .

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبى صلى الله عليه وسلم ، يسألون عن عبادة النبى صلى الله عليه وسلم ، فلما أخبروا كأنهم تقالُوها ، فقالوا : وأين نحن من النبى صلى الله عليه وسلم ؟ قد غفر الله له ماتقدم من ذنبه وماتأخر . قال أحدهم : أما أنا فإنى أصلى الليل أبداً . وقال آخر : أنا أصوم الدهر ولاأفطر . وقال آخر : أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً . فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أنتم الذين قلتم كذا وكذا ؟ أما والله إنى لأخشاكم لله وأتقاكم له ، لكنى أصوم وأفطر ، وأصلى وأرقد ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتى فليس منى . (أخرجه البخارى ومسلم فى صحيحهما) . (٦٥)

والقصد من ذلك أن الرسول عليه أفضل صلاة وتسليم ، يؤكد أنه من ترك طريق الرسول عليه أفضل صلاة وتسليم وأخذ بطريق غيره فليس منى (أى من

الرسول) ، ولمح بذلك إلى طريق الرهبانية التى نهى عنها الإسلام . وطريقة النبى عليه أفضل صلاة وتسليم الحنيفية السمحة أنه يفطر ليتقوى على الصوم وينام ليتقوى على القيام ، ويتزوج لكسر الشهوة وإعفاف النسل وتكثير النسل . وهكذا تكون الحياة فيما يتعلق بتنظيم الحاجات الأساسية وإشباعها ، بما يحقق التوافق فى حياة الإنسان .

تمـــــارين :

١- وضح التطور الذى وصل إليه مفهوم «الدافعية» للسلوك الإنسانى فى علم النفس المعاصر .

٢- كيف يُفسر علم النفس المعاصر تعديل «الدافعية» ؟

٣- ما التفسير الإسلامى للدافعية للسلوك الإنسانى ؟

٤- ما مثيرات السلوك فى نظر الإسلام ؟

٥- أشار علماء المسلمين إلى مايُعرف بالقوة الدافعية ، والتى تؤثر على ترتيب وتسلسل الشهوات عند الإنسان ؟ وضح .

٦- كيف نظم الإسلام الدوافع الإنسانية بغية ارتقاء الإنسان ؟

الفصل السادس

التفسير الإسلامى للعادات السلوكية

المحتوى :

* تمهيد
* العادات السلوكية فى علم النفس المعاصر .
* أنواع العادات :
  - العادات الانفعالية .
  - العادات الفكرية .
  - العادات والمهارات الحركية .
  - العادات الخلقية والاتجاهات .
* وسائل التخلص من العادات السلبية .
* آراء علماء المسلمين فى العادت السلوكية .
  - العادات وصلتها بالأخلاق .
  - التفسير الإسلامى لاكتساب العادات .
  - التفسير الإسلامى لأنماط العادات .
  - التفسير الإسلامى لآثار العادات .
  - الرأى الإسلامى لتعديل العادات .
* تلخيص .
* تعقيب .
* تمارين .

التفسير الإسلامى للعادات السلوكية

تمهيد :

من الجوانب النزوعية الأخرى فى النشاط النفسى للإنسان ، العادات Habits ، وهى تمثل جانباً هاماً فى السلوك ، لارتباطها بالعواطف والاتجاهات والقيم . وحيث تعتبر العادات متعلمة من البيئة التى يعيش فيها الفرد .

وكما عالج علم النفس المعاصر ، موضوع العادات السلوكية ، فإن علماء المسلمين أمكنهم أيضاً تفسير العادات السلوكية وكيفية إطفاء العادات السيئة أى التخلص منها .

العادات السلوكية في علم النفس المعاصر :

يُطلق لفظ «عادة» على أى نوع من أنواع السلوك المكتسب . ويعتبر بعض العلماء أن الشخصية هى مجموع «عادات السلوك» ، إذ إن جميع الصفات الهامة للشخصية من ميول أو اتجاهات عقلية ، يمكن إرجاعها إلى العادات المتصلة ببعضها .

ويرى البعض حصر معنى العادة فى نطاق ضيق ، بحيث تقتصر على التصرفات الحركية أو الجسمية المكتسبة ، والتى تكون مجموعة من التصرفات ، بحيث إذا حدثت إحداها ترتب على ذلك حدوث بقية المجموعة بسهولة ودون وعى كبير .

كما يرى البعض أن العادة عبارة عن مجموعة من الأفعال التى يتم تكونها بالتكرار والإقتران والترابط ، والتى يمكن أن تكون ثابتة لحد ما ، بحيث يمكن حدوثها بالطريقة نفسها عند وجود مايثيرها ، وحيث يقرب من هذا مفهوم العادات مع مفهوم التقاليد Traditions ، وحيث تكون العادات عبارة عن أنماط معينة من السلوك اتفق أفراد المجتمع بشكل عام على الإتيان بها ، كلما تكرر وضع هؤلاء الأفراد فى مواقف معينة ذات مثيرات محددة ، وهى تكتسب قوة لربطها

بالاتجاهات والعواطف الجماعية للمجتمع .

وتعتمد العادات فى تكوينها على قوانين التعلم المختلفة ، ويؤثر الأباء والأمهات على الطفل فى تنشئته الأولى فى تكوين العادات . ولذلك كانت السنوات الأولى للطفل أساساً لتكوين الصفات الخلقية ، التى تشكل طابع شخصيته فى المستقبل ، والتى تمثل فى الواقع عادات سلوكية تتصل بمواقف معينة .

لذلك فى علم النفس المعاصر يمكن إعتبار العادة نمطاً من السلوك الذى تستثيره مواقف معينة بأسلوب آلى ، حيث يتم اكتساب العادة عن طريق التعلم . وبذلك فإن تكوين العادة عبارة عن استعداد مكتسب بالتعلم ، يجعل الفرد يقوم ببعض الأعمال بمجهود بسيط ودون جهد فى الفكر أو حصر الانتباه .

هذا وقد يتم اكتساب العادة من محاولة واحدة فقط ، أو من عدة محاولات متكررة .

أنــواع العـــادات :

من المعروف أن هناك العادات الضارة والعادات الصالحة ، ومن الممكن أن تكون العادة أداة نافعة للإنسان ، أو أن تكون أداة ضارة له . ويتوقف ذلك على نوع العادات التى نعنى بتكوينها فى الشخصية أثناء مراحل النمو المختلفة ، وعلى طريقة تكوين العادة . ويعتمد ذلك على الأساليب التربوية التى تتبع فى تنشئة الشخصية .

والعادات الصالحة تجعل الشخص محبوباً من غيره ، فاحترام حقوق الغير ومراعاة النظافة والنظام من العادات التى نرغب فيها جميعاً . فى حين أن عدم النظام ومحاولة تخطى الآخرين عند وجود نظام معين ، وعدم الاهتمام بالنظافة من العادات المكروهة التى تجعل الشخص موضع كراهية الآخرين ، وتنفر الآخرين من الشخص الذى يؤديها .

ومن الواضح أن العمل على التخلص من هذه العادات ، يساعد على شعور الشخص بالرضا عن نفسه ، والارتياح فى علاقاته بغيره مما يؤدى إلى زيادة تكامل الشخصية .

وفيما يلى عرض موجز عن كيفية تكوين العادات وأساليب التخلص منها بما يُعرف بإطفاء العادة Inhibition.

العادات الانفعالية :

أساسها التعلم الشرطى . فمثلاً المعلم الذى يُهدد تلميذه بالضرب لحفظ مادة معينة ، يخلق عند هذا التلميذ عادة الخوف من هذه المادة ، واحتمال تعميم الخوف والكراهية لهذه المادة قد ينتقل إلى مواد أخرى .

وخطورة تعلم العادات السلبية الانفعالية نحو علم معين ، لاتكمن فقط فى خلق المشاكل للتلميذ فى ذلك العلم بالذات ، بل إن الأمر قد يتعدى هذا العلم إلى علوم أخرى ، أوْ حتى إلى البيئة المدرسية بأكملها . وقد ثبت أن الاضطرابات الكلامية وأهمها التهتهة هى من العادات التى ترتبط بانفعال الخوف والقلق اللذين يحدثان من إحساس الطفل بأن هناك من ينتقده ، ويقف له بالمرصاد إذا أخطأ فى الكلام .

العادات الفكرية :

قد يهمل إكساب الأبناء العادات الفكرية فى العملية التعليمية . وأخطر الأساليب التى يتبعها الأباء والمربيون ، التركيز على الاستظهار والحفظ دون فهم . ومن المفروظ أن يكون التعلم قائماً على اكتساب المعارف والعادات الفرية والخلقية والمهارات ، التى تمكن الطالب من ممارسة الحياة العملية بعد التخرج .

العادات والمهارات الحركية :

يتم اكتسابها عن طريق التمرين والتدرج فى تدعيم الإستجابات الأكثر قرباً من المهارة التى يتطلع المرء لإتقانها ؛ أى إن المهارات والعادات الحركية يتعلمها الإنسان ، ثم يتدرج فى اكتسابها حتى يصل إلى مستوى الأداء المطلوب عن طريق الأسلوب التدريجى .

العادات الخُلقية والاتجاهات :

يكون اكتسابها فى مرحلة الطفولة ، بحيث تصبح جزءاً ثابتاً من التكوين النفسى للفرد فى فترات عمرهِ فيما بعد . وللتنشئة الأولى فى البيت والمدرسة دور خطير فى ذلك . والعادات الخلقية والاتجاهات تكتسب من تأثير التدعيم الإيجابى أو السلبى الذى يأتى من الآباء والمعلمين والأقران ، كما أن عامل القدوة من أكثر المدعمات فى تكوين هذه العادات .

هذا ويمكن ترسيخ العادات الخُلقية الحميدة والاتجاهات السليمة فى الأطفال بتحفيز حماسهم وتشجيعهم ، حتى ترتبط هذه العادات بالانفعالات والعواطف الجماعية لدى الطلاب .

ومن الأهمية إبراز دور التربية الإسلامية فى المجتمع الإسلامى عند تكوين هذه العادات .

وسائل التخلص من العادات السلبية :

فى علم النفس المعاصر ، هناك الاهتمام بالتخلص من العادات السيئة (السلبية) . ويتم ذلك بدراسة الظروف التى أدت إلى تدعيم Inforcement وتثبيت هذه العادة ، حتى يحدث لها مايعرف بانطفاء Inhibition العادة وحتى يبطل تكرارها .

وهناك وسائل أخرى بربط المواقف التى تؤدى إلى ظهور العادة السيئة بعادات أخرى مضادة تماماً للعادة التى يراد التخلص منها . وقد يلجأ المربى أو المعلم إلى وسيلة العقاب لإبطال العادات السيئة . ومن الناحية التربوية يجب عدم إستخدام العقاب فى إبطال العادات السيئة ، لأنه فى كثير من الأحيان لاينجح العقاب فى القضاء على العادة ، بل ينجح فى الكف المؤقت .

وإذا اضطر المربى لاستخدام العقاب ، فليكن ذلك بالطرق التى تأتى بأفضل النتائج ، فلا يؤخر العقاب ويكون بقدر مناسب بالنسبة للعادة التى يقوم بها الفرد الذى يتم عقابه .

.... إذاً ما دور علماء المسلمين فى تفسير العادات السلوكية ، بعد قيامنا بعرض موجز لموضوع العادات السلوكية فى علم النفس المعاصر ؟

الواقع أنه ممن أفاضوا فى تفسير «العادات» الإمام «أبوحامد الغزالى» حيث قام بتخصيص مايوازى ربعاً كاملاً من كتاب الأحياء بعنوان العادات ، وحيث نظر إلى العادات على أن كثيراً من فضائل ورذائل الإنسان إنما هى مجرد عادات .

وفى عرضنا لموضوع العادات عند علماء المسلمين ، سنعرض بعض آرائهم بصفة عامة ، وعن «الإمام الغزالى» بصفة خاصة .(٦٦)

آراء علماء المسلمين في العادات السلوكية :

* العادة عند ابن سينا :

فى رأيه أنها تكرار فعل الشيء الواحد مراراً كثيرة زماناً طويلاً فى أوقات متقاربة .

* العادة عند ابن مسكويه :

يُعرفها ابن مسكويه بأنها حالة للنفس داعية لها إلى أفعالها من غير فكر ولاروية .(٦٧)

* العادة عند الإمام الغزالى :

مفهوم العادة عند الغزالى أنها حالة أو صفة نفسية تظهر فى القلب ، ويفيض أثرها على الجوارح ، وتتطلب القيام بعمل ، أو يصدر عنها أعمال دون تكلف أو روية أو فكر . وتبدأ بتكلف الأفعال الصادرة عنها ابتداءً لتصير طبعاً انتهاء .

ويظهر هذا المفهوم شاملاً لعناصر العادة المختلفة من تكرار ، وفترات زمنية واكتساب ، ومن كونها تساعد بدورها على اكتساب المهارات المختلفة ، كما تشكل دافعاً من دوافع السلوك (الجانب النزوعى) وإن كانت تتم بصورة آلية .

العادات وصلتها بالأخلاق :

لايغالى الغزالى كما غالى البعض حين جعلوا حياة الإنسان برمتها لها شكل محدد ، لاتزيد عن كونها مجموعة من العادات العملية والانفعالية والنظرية انتظمت فى نمط خاص لخيرنا وسعادتنا ، وأنها لذلك هى التى تحملنا إلى مصيرنا المحتوم أياً كان هذا المصير .

ويستخدم الغزالى العادة كوسيلة من وسائل التربية ، فيُحول الخير إلى عادات تقوم بها النفس بغير جهد أو مقاومة . وفى الوقت نفسه يحول دون الآلية ، وذلك بطريق التذكير الدائم بالهدف المقصود من العادة ، وعن طريق الربط بين القلب البشرى وبين الله سبحانه وتعالى ، ربطاً تسرى فيه العاطفة السامية ، والإشعاعة النيرة فلاترين عليه الظلمات . وهو يرى أن الأخلاق «تكييف النفس وردها إلى مارسمته الشريعة وخطه رجال المكاشفة من علماء المسلمين ، ومن سبقهم من الأنبياء والصديقين والشهداء» .(٦٨) ويؤكد الغزالى أهمية العادة ، عند

نظره إلى الأخلاق ورأيه فى أنها تعتمد على أساسين :

- فطـــرى : يتعلق بالجود الإلهى أو الطبع .

- مكتسب : عن طريق العادات المختلفة .

كما يتفق الغزالى فى رأيه فى اكتساب الأخلاق عن طريق العادة مع أكثر فلاسفة الإسلام .

وفى رأيه أن العادة تقوم على أساس قابلية الكائن الحى . ويمكن أن تعودالحيوانات بعض العادات ، ولكنه يفرق بين تربية العادة عند الإنسان ، وتربيتها عند الحيوان . فالعادات عند الحيوانات لاتخرج عن كونها حركية بحتة . بينما يمتاز الإنسان عن الحيوان بوجود العقل (والذى وصفه بالعقل العملى ، الذى يشرف على الحياة الانفعالية والعاطفية والنزوعية) ، وبذلك يتهيئ للإنسان اكتساب عادات أرقى ، كما يتوفر له تكامل شخصيته ، وتكوين العادات ذات الهدف الأخلاقى .

التفسير الإسلامي لإكتساب العادات :

أشار الإمام الغزالى فى مفهوم العادة أنها تمر بمرحلتين : (٦٩)

أ - مرحلة تكلف الأفعال :

ب - مرحلة ثبات الأفعال ، على اعتبار أنها صفة أو حالة نفسية دافعة لأداء سلوك على نحو معين .

وعلم النفس المعاصر يسير إلى أن العادة تمر أيضاً بدورين :

أ - الدور الذى نطلق عليه اسم تكوين العادة ، وفيه تتصف الأعمال التى يقوم بها الفرد بالتحسن المستمر ، إذ نجد فى كل تمرين جديد تقدماً معنياً . ويستمر هذا التقدم إلى أن تكون فى الفرد تلقائية وعفوية ، فيؤدى العمل العادى بشكل آلى دون أن يراجع شعوره أو تفكيره الواعى .

ب- الدور الذى يتوقف العمل فيه عن التقدم ، وحيث يصل إلى نوع من الثبات ، بحيث يكون تحسنه جزئياً وطفيفاً إلى حد بعيد .

والتكوين الكامل للعادة يبدو حين تجد فى نفسك ميلاً وشوقاً إلى ممارستها كما تلذ أثناء فعلها ، فتصبح بدورها دافعاً للقيام بالعمل كبقية الدوافع والبواعث .

ويشرح الغزالى ذلك بقوله «إن هذا الكمال لايتم مالم تواظب عليها مواظبة من يشتاق إلى الأفعال الجميلة وينعم بها » .

ومن أجل الوصول إلى هذه النتيجة يشير إلى مجموعة من الأسباب المساعدة على تكوين العادة .

وتمثل الدوافع الفطرية عند علم النفس المعاصر ، أثراً هاماً فى البيئة التى تكتسب فيها العادة . ولايختلف ذلك عما ينادى به الغزالى فى هذا الموضوع ، إذ إنه يرى ضرورة وجود هذه الميول دائماً . لذلك فهو يقول :

«إذا كانت النفس بالعادة تستلذ الباطل وتميل إليه وإلى المقابح فكيف لاتستلذ الحق لو ردت إليه مدة والتزمت المواظبة عليه» .

وحيث يكون الميل ضعيفاً فإن «الغزالى» يدعو إلى إشارة الوجدان ، وإيجاد الرغبة فى العمل والتعود ، عن طريق مايذكره من فضائل ذلك . ثم يحول الرغبة إلى عمل واقعى له صورة محددة واضحة السمات ، فيلتقى الظاهر والباطن ويتكافئان رغبة وسلوكاً ، وذلك يخلق الباعث والميل إلى العمل واكتساب العادة .

وعلم النفس المعاصر ، يُعتبر عنصر التكرار عاملاً أساسياً فى بناء العادة ، عندما يرافقه من إزالة الحركات العشوائية واكتساب الدقة بتركيز الانتباه والقدرة على الوصول إلى السهولة والسرعة ، ومرونة الجهاز العصبى .

وأعطى «الغزالى» هذا العامل الأهمية نفسها سواء كانت العادة المكتسبة حركية أو عقلية أو خلقية ، لأن التكرار هو الذى يساعد الإنسان على أن يصدر فعله بشكل آلى ودون فكر أو تدبر .

التفسير الإسلامى لأنماط العادات :

ترى المدرسة السلوكية فى علم النفس المعاصر ، اقتصار العادة على تعلم الحركات ، فيخرج الإدراك والوجدان من نطاق العادة ، إذ تصبح العادة ظاهرة حركية وعضلية . وتفسر آنذاك بأن تكرار الحركة يجعل العضلات المتصلة بهذه الحركات أكثر قبولاً لتأديتها .

بينما يشير «الغزالى» إلى شمول العادة للأفعال العقلية والوجدانية ، وبذلك تضم جميع مظاهر الحياة النفسية (الإدراك والوجدان والنزوع) وهو يرى أن العادات :

١- إما حركية .. تتعلق بحركات الجسد ، ويسيطر عليها المظهر النزوعى مثل عادة الكتابة ، ويدخل تحتها مايتعلق بعادات الطعام والملبس واللعب .

٢- أو عقلية تتمثل بميل النفس إلى سلوك نظام ثابت فى بعض نواحى الإنتاج العقلى .

٣- أو وجدانية تتصل بالعواطف المختلفة التى يُربى عليها الإنسان حين توصله إلى الحقيقة والفضيلة والجمال .

٤- أو أخلاقية لأن الأخلاق تتم بالاعتبار والاكتساب لتربية الفضائل الخلقية .

ويرى الغزالى كون العادات تعتمد فى اكتسابها على الحوافز الغريزية والميول المختلفة ، لأن العادة لاتخلق ميلاً جديداً ، بل تشكل الميول الموجودة بأشكال مختلفة .

ولذلك يرى الغزالى أن العادة تمثل أنواعاً من العادات الخلقية ، كما أنه يعمد دائماً إلى إصدار أحكاماً بالقيم على كل نوع من أنواع العادات ، فلايقتصر على عادات معينة ، بل يذكر عادات مثل : الزهد ... والصبر ... والاعتدال ... والشجاعة ... وعفة النفس .

كما أنه يحكم على بعض العادات بالجمال والحُسن ، لأنها تقوم على أخلاق الخير ، وعلى غيرها بالسوء والقبح لاتصالها بأخلاق الشر .

التفسير الإسلامى لآثار العادات :

من أهم آثار العادات عند الغزالى أنها :

١- تساعد على تكامل الشخصية بتكوين مجموعة من العادات الحسنة كالصدق والمحبة والعطف والتفكير السديد ، بحيث يكون من الصعب على الإنسان التخلى عنها لتأكدها بالمواظبة .

وفى رأيه أن الإنسان إذا تعود أن ينشغل عن دواعى شهواته فترة ، قل إندفاعه فى تيارها دون أن يشعر بكبت أو حرمان ، وإذا تعود أن يكون دائماً

عبداً لشهواته الهابطة فلن يجد دافعاً للارتفاع حتى لو وجد الطاقة اللازمة لذلك .

٢- توفر قسطاً كبيراً من الجهد البشرى ، فيخف على الإنسان ماكان مستثقلاً عليه من الخير لينطلق هذا الجهد فى ميادين جديدة من العمل والإنتاج والإبداع .

٣- توفر العادة للعمل السهولة والسرعة والدقة ، لأنها تتم بشكل آلى لاشعور فيه .

الرأى الإسلامى لتعديل العادات :

يرى الغزالى أن الآثار التى قد تبدو فوائد للتعود ، قد تصبح فى حد ذاتها مضاراً . ولهذا فإن العادة على عظم مهمتها فى الحياة قد تنقلب إلى عنصر معوق معطل إذا فقدت كل مافيها من وعى . وأصبحت عملاً آلياً لاتلتفت إليه النفس ، ولاينفعل له القلب . إنها عند ذلك تصبح طبيعة ثانية كما يقول «الجاحظ» ، أو طبيعة خاصة كما يقول «الغزالى» . ويصبح من الصعب حينئذ التخلص من تحكمها ، لأنها خلقت فى النفس حاجة أو ميلاً إلى التكرار ، وهى حينذاك تقضى فى النفس عجائب غريبة .

وفى الرأى الإسلامى أن العادة فى هذه الحالة ... طبع متحكم ... من الصعب التخلص منه . ويزداد الخطر حين تكون العادة المتحكمة ضارة فيجمد الإنسان عليها ، ويفقد من الطاقة ماكان يمكن أن يوجهه إلى الخير ، وتحقيق تكامل شخصيته . وعندئذ يصعب على الفرد الإقلاع عن هذه العادات السيئة ، كما يصعب على المرء التصرف فى الأمور ، وسرعة التكيف مع البيئة ، ويصير صلب الرأى من غير حكمة ، كما يخطئ فى الحكم الأخلاقى ، لأنه يحكم على الناس بحسب ماتعوده ويمنعه ذلك من تبصر الحقيقة .

وعادات من هذا النوع قد تجعل الباطل مستلذاً ، لأن النفس بالعادة تستلذ الباطل وتميل إليه .

وتشتد الخطورة حين تستحكم العادة فى المجتمع عموماً ، فتنقلب إلى تقليد أعمى ، يوجه الفرد والمجتمع كله وجهة لايحكمها العقل ، بقدر مايحكمها شبح الماضى والتاريخ والتقاليد . ولهذا كان الغزالى حرباً على التعصب والتقليد .

غير أن الرأى الإسلامى وفق ما أشار إليه الغزالى ، لايخشى خطر استحكام العادة لو أنه كان هناك الاهتمام بالأمور التالية :

١ - تربية الأطفال على العادات الحسنة تربية صالحة .

٢ - محاولة الاستعاضة عن العادات السيئة بالعادات الحسنة .

٣ - مراعاة أن تكون العادات المكتسبة متفقة مع المُثل العليا ، وإيقاظ مافى النفس من إيمان وشرف للوقوف أمام العادات السيئة . والعادة إذا استحكمت فإن من الضرورى علاجها ويكون ذلك بالقطع الفاصل ، أو التدرج البطئ حسب وسائل المجاهدة والتربية .

من هذا نرى أن الرأى الإسلامى يهتم بالعادة ، ويعتمد عليها فى تعديل السلوك وفى تصعيد الدوافع ، وتحسين الخلق . كما أن العادة مع الإرادة تكون الوسيلة التنفيذية المباشرة لأداء تلك المهمة .

..... إذاً ما التفسير الإسلامى للإرادة والجانب الإرادى (الاختيارى) فى السلوك ؟

هذا مانتناوله بالتفسير فى الفصل السابع .

تلخيص :

* العادات السلوكية تمثل جانباً هاماً فى السلوك الإنسانى ، لارتباطها بالعواطف والاتجاهات والقيم ، وهى متعلمة ومكتسبة من البيئة .

* يعتبر بعض العلماء أن الشخصية هى مجموع عادات السلوك ، بينما يشير البعض إلى اقتصارها على السلوك الحركى أو الجسمى المكتسب ، ويرى البعض أنها مجموعة الأفعال التى تحدث من التكرار والاقتران والترابط .

* من العادات ماهو ضار ومنها ماهو صالح ، والعادات الصالحة تجعل الفرد محبوباً من الآخرين ، فى حين أن العادات الضارة تسبب كراهية الآخرين .

* من العادات : الانفعالية ... الفكرية ... المهارات الحركية ... الخلقية والإتجاهات .

* التخلص من العادات السيئة السلبية ... يتم بما يُعرف بالتدعيم الذى سبب ثبوت العادة ، حتى يتم إحداث مايعرف بالانطفاء وحتى يبطل تكرار العادة .

* ساهم علماء المسلمين «ابن سينا» «وابن مسكويه» والإمام الغزالى فى تفسير العادات .

* فى رأى الغزالى أن العادة حالة أو صفة نفسية تظهر فى القلب ، ويفيض آثرها على الجوارح وتتطلب القيام بعمل ، وقد يكون العمل دون تكلف أو روية أو فكر ، وهى تشكل دافعاً من دوافع السلوك .

* فى رأى «الإمام الغزالى» إن العادات متصلة بالأخلاق وهى تتصل بأساسين : فطرى يتعلق بالجود الإلهى أو الطبع ، ومكتسب عن طريق العادات المختلفة .

* يتم إكتساب العادات عن طريق تكلف الأفعال ، ثم ثبات الأفعال فى علم النفس المعاصر يشير إلى أن تكوين العادة يتم عن طريق التحسن المستمر ، ويستمر التقدم إلى أن تحدث العادة تلقائية وعفوية . وكلما حدث التقدم يحدث نوع من الثبات .

ويؤيد الغزالى أن الكمال (فى تكوين العادة) لايتم مالم تواظب عليه (أى الفرد) مواظبة من يشتاق إلى الأفعال الجميلة وينعم بها .

* يشير الإسلام إلى أن العادات تشمل الأفعال ، العقلية والوجدانية ولذلك فهى إما

حركية أو عقلية أو وجدانية أو أخلاقية .

* بالنسبة لآثار العادات فى نظر الإسلام ، فإنها تُساعد على تكامل الشخصية بتكوين العادات الحسنة كالصدق والمحبة ، كما أنها توفر قسطاً كبيراً من الجهد البشرى ، وفى الوقت ذاته توفر للعمل السهولة والسرعة والدقة .

* فيما يتعلق بتعديل العادات فى الإسلام فإن العادة رغم عظم أهميتها فقد تنقلب إلى عنصر معوق معطل ، إذا فقدت كل مافيها من وعى ، وأصبحت عملاً آلياً لاتلتفت إليه النفس ، ولاينفعل له «القلب» . وعندئذ تصبح طبيعة ثانية ، أو طبيعة خاصة ، ويصعب حينئذ التخلص من تحكمها ، حيث تقضى فى النفس عجائب غريبة ، وحيث تصبح طبعاً متحكماً . وخطر استحكام العادات الضارة يمكن علاجها بالقطع الفاصل أو التدرج البطئ حسب وسائل المجاهدة والتربية، إضافة إلى أمور يجب مراعاتها بأن ننشئ الأطفال على العادات الحسنة ، وأن نستعيض عن العادات السيئة بالحسنة ، وأن تكون العادات المكتسبة متفقة مع المثل العليا .

تعقيب :

* فى نظر الإسلام أن العادات تحفز السلوك ، وهى ذات صلة بالجانب الخلقى عند الإنسان ، وهى تكتسب أو تكون من الجود الإلهى وبطبيعة الحال القصد من النوع الخاص بالطبع أو الجود الإلهى ، هى العادات الحسنة الإيجابية التى يوافق عليها المجتمع وتجعل الفرد مقبولاً من الآخرين .

* وكمال تكوين العادة فى الرأى الإسلامى ، ينتج من الممارسة والمواظبة كما أن أنماط العادات فى المفهوم الإسلامى لايختلف عن مثيلاتها فى علم النفس المعاصر ، حيث أشير إلى وجود عادات تتمثل فى أفعال عقلية ووجدانية وأخلاقية .

* وتتكامل الشخصية فى التفسير الإسلامى للعادات ، عندما تكون العادات حسنة ، حيث إن هذه العادات من شأنها أن تقرب بين الإنسان وغيره . ولذلك يجب تدريب الأطفال على العادات الحسنة حتى تثبت لديهم .

* والواقع أن تكامل الشخصية عن الإنسان ، قائم على توحد اتجاه النزعات الفطرية عند الإنسان مع المكتسبة والتى تدخل العادات السلوكية فيها ، دون وجود تغير أو تناقض بين هذه النزعات .

* ويؤكد التفسير الإسلامى أهمية استخدام العادة كوسيلة من وسائل التربية، وحيث يمكن أن يحول الخير إلى عادات سلوكية يتم أداؤها بغير جهد أو مقاومة .

* ومن المعروف أن بعض الأفراد يُصبح أسير عادات سيئة تستحكم فى حياته بالقدر الذى قد يصيبه من جراء أدائها الضرر الكثير . وللإسلام رأيه فى ذلك ، فإن العلاج إما أن يكون بالقطع الفاصل ، وقد يكون فى هذا القطع بطبيعة الحال مالايحتمله الفرد من تغيير كامل للسلوك ، وقد يكون هناك الرفض أو عدم القبول أو عدم الاحتمال ، إذ إن مثل هذه الشخصية التى تستحكم فيها العادات السيئة ، تكون من الضعف والهوان بحيث يصبح تعديل سلوكها فجأة ودون تدرج أمراً ليس بالإمكان .

* وهناك رأى آخر يعالج استحكام العادة بالتدرج البطئ حسب وسائل المجاهدة والتربية . وهذا الرأى الأخير أقرب إلى طبيعة البشر ، وخاصة فى العادات التى تشتد خطورتها على الفرد أو فى المجتمع عموماً ، وحيث تنقلب العادة إلى تقليد

أعمى يمارسه الفرد والمجتمع ، نتيجة التعصب والتقليد . والتعصب من شأنه أن يغلق على الإنسان منافذ الفكر واتباع الحق والتمسك بالخلق والدين . وقد يكون التعصب سبباً وراء انقسام المجتمع إلى طوائف وشيع وجماعات عنصرية تشيع بينها الاتجاهات العنصرية السالبة أو المضادة والعادات السلوكية التى يكون من وراء التمسك بها الفرقة والتفكك .

* ومن الناس من يشترى الضلالة بالهدى ، ويتمسك بالدنايا ولايحيد عنها، رغم ماقد يوجه إليه من نصح بالإقلاع عن عاداته السيئة ، ولكنه يصم آذانه ، ويتبع هواه ، ويضل السبيل ، إذ يفقد الإيمان ويشقى ويقسو قلبه ، ويكون كالحجارة أو أشد قسوة ، وصدق قول الحق :

﴿ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾

(سورة الرعد آية ٣٣)

وقوله تعالى :

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾

(سورة البقرة آية ١٦ ، ١٧٥)

* وإن كانت آراء بعض علماء المسلمين أشارت إلى أن الإقلاع عن العادات السيئة يمكن أن يتم بالقطع الفاصل ، وقد أشرنا إلى ذلك من قبل ، فقد يكون فى هذا إكراه وعنف ، وقد يتبعه عناد وعصيان ، إذ إن طبيعة الإنسان أنه قد لايقبل فجأة أسلوب المخالفة فيما اكتسبه من عادات سلوكية أصبحت تمثل نمطاً سائداً فى سلوكه الدائب ، أو أن هذه الوسيلة التى تتبع فى تغيير العادات السيئة تعرف أيضاً بأسلوب اتخاذ الضد .

* والإسلام وسيلته ، فى التوبة والإقلاع عن اتباع الباطل بأداء العادات السيئة ، يقوم على الإيمان الصادق من قبل الفرد ، والعزيمة الجادة . والتغيير النفسى للفرد أو الجماعة فى المجتمع الإسلامى لما فيه صلاح حال الفرد والجماعة، والذى يتم بالدعوة والإرشاد عن طريق :

أ - التأكيد على الجانب السلبى من السلوك وإيضاح العادات السيئة وأضرارها على الفرد والجماعة ، ومايصاحبها من خلل واضطراب نتيجة للجهل والبعد عن جادة الصواب .

ب- تدعيم هذا الإيضاح عن طريق التذكير المتكرر وتنوع الأساليب المقنعة، حتى تتضح مخاطر العادات والتقاليد غير المرغوب فيها ، وحتى يفهم الفرد والجماعة مافيها من أخطار وأخطاء .

جـ- يأتى بعد ذلك دور النهى والإقناع بالإقلاع عن هذه العادات السيئة ، والترغيب فى العادات الحسنة ، والجزاء المتوقع فى الحياة الدنيا وفى حساب الآخرة . وبيان السلوك الذى يليق بالمستوى الإنسانى والمكانة اللائقة به .

د- أن يكون الإقناع أيضاً قائماً على أن الله تعالى يقبل التوبة من الذنوب جميعاً إلا أن يشرك به ، وأن الالتزام والضبط يجب أن يكون قائماً على اقتناع تام، وأنه من ينكث فإنما ينكث على نفسه ، ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً ؛ أى من نقض مابايع الله عليه من طاعة فإنما يعود ضرر نكثه عليه ، فقد حرم على نفسه الثواب وألزم ذاته العقاب بنقضه العهد والميثاق ، الذى عاهد به ربه. بينما من وفّى بعهده فسيعطيه ويجزيه الله ثواباً جزيلاً .

* ومن الواضح أن الإقناع والجدال فى الإسلام يكون بالتى هى أحسن ، حتى لاينفر ضعاف القلوب من الموعظة الحسنة والدعوة والإرشاد إلى الصلاح .

تمـــارين :

١ – يعتبر بعض العلماء أن الشخصية هى مجموع عادات السلوك ؟ وضح .

٢ – كيف نتخلص من العادات السيئة ؟

٣ – أفاض الإمام الغزالى فى تفسير العادات وخاصة فى اتصالها بالأخلاق؟ وضح .

٤ – لاتقتصر العادات فى المفهوم الإسلامى على الجانب الحركى فقط ؟ وضح .

٥ – ما الرأى الإسلامى فى تعديل العادات السيئة ؟

الفصل السابع

التفسير الإسلامى للجانب الإرادى (الإختيارى) فى السلوك الإنسانى

المحـــــتوى :

* تمهيد
* المفهوم اللغوى للإرادة .
* المفهوم النفسى للإرادة فى علم النفس المعاصر
  - الفرق بين الإنسان والحيوان فى العمل الإرادى .
* مفهوم الإرادة عند فلاسفة الإسلام .
  - آراء الفارابى عن الإرادة .
  - تفسير الإرادة عند ابن سينا .
  - التوسط فى المفهوم الإسلامى للإرادة .
* التفسير الإسلامى للعمل الإرادى .
* مرحلة العزم من العمل الإرادى .
* المفهوم الإسلامى لأهمية الإرادة .
* تلخيص .
* تعقيب .
* تمارين .

الفصل السابع

التفسير الإسلامى للجانب الإرادى (الإختيارى) فى السلوك الإنسانى

تمهـــيد :

سبق الإشارة إلى أن الجانب النزوعى فى سلوك الإنسان يشتمل على الدوافع كمحركات للسلوك والعادات والسلوك الإرادى .

وفى هذا الفصل نعرض الجانب الإرادى (الاختيارى) فى السلوك . ويُميز علم النفس المعاصر بين أنماط متعددة من السلوك عند الكائنات بصفة عامة وعند الإنسان بصفة خاصة .

فهناك الأفعال القسرية الاضطرارية أو مايُعرف بالتغيرات الطبيعية ، والتى تخضع لقوانين الطبيعة ، كقوة انجذاب شىء إلى الأرض عندما يسقط من مكان مرتفع . وهناك ردود الأفعال الانعكاسية الآلية كسحب اليد عندما توخز بجسم مدبب .

وليس فى هذين النمطين جانب إرادى من قبل الكائن الحى أو الإنسان حيث ينعدم عنصر الاختيار .

وهناك أيضاً الأفعال الإرادية الاختيارية التى تتم من أرقى الكائنات وفى مقدمتها الإنسان ، حيث يحدث السلوك بعد إحساس وإدراك وتبصر وتدبر وتفكير . وفى هذا النمط من الأفعال يكون عنصر الاختيار قائماً ، ويتحمل الإنسان الفرد نتائج ومسئوليات عمله .

هذا وقد أشارت مؤلفات علماء المسلمين إلى الأنواع والأنماط المختلفة من هذه الأفعال ، حيث أشاروا إلى أنها تضم كل مظاهر الأفعال النفسية من إدراك ووجدان وحركة ونزوع .

كما أشار البعض من علماء المسلمين فى تحديدها إلى أنها تضم الفهم والميل والإرادة والعزم والتنفيذ .

وقبل أن نعرض آراء علماء المسلمين فى الجانب الإرادى فى السلوك ، نوضح المفهوم اللغوى للإرادة ، ومفهوم الإرادة فى علم النفس المعاصر .

المفهوم اللغوى للإرادة :

الإرادة من ناحية اللغة (التهانوى - كشاف اصطلاحات الفنون) هى نزوع النفس وميلها إلى الفعل ، بحيث يحملها عليه .

والنزوع بمعنى الاشتياق والرغبة ، والميل يعنى المحبة والإنتماء . ويقال أيضاً للقوة التى هى مبدأ النزوع . أى القوة المحركة .

وقد عرفها البيضاوى فى كتاب التهاونى فقال : إنها ترجيح أحد مقدورين على الآخر ، وتخصيصه بوجه دون وجه ، أو بمعنى يوجب هذا الترجيح ، وهى أهم من الاختيار .

المفهوم النفسى للإرادة فى علم النفس المعاصر :

الإرادة (Will (Volition أو المشيئة أو الاختيار ، فى نظر علم النفس المعاصر ، عبارة عن العملية النفسية التى تهدف تكييف الاستجابة المؤجلة لصراع قائم بين مجموعتين من الميول ، وذلك بترجيح الميول التى تبدو أسمى فى نظر الفرد .

أو هى الميل إلى العمل أو الدافع النفسى ، الذى يدفع إلى السلوك سلبياً كان أم إيجابياً . وليس الدافع هنا فطرياً ، إنما هو دافع إرادى تتمثل فيه مظاهر الإدراك والنزوع والوجدان .

ويقسم علم النفس المعاصر العمل الإرادى إلى :

١- الجانب الشعورى الخاص بالشعور بالغرض أو الباعث .

٢- الجانب العقلى والذى يحدث فيه التمثل والتأنى والتروى ، وحيث يتبع ذلك العزم والتصميم على أداء عمل معين .

٣- الجانب العملى (الإجرائى) أى التمرس الخاص بالتنفيذ وأداء العمل الإرادى .

وفى هذه الجوانب الثلاث نجد :

أن الشعور بالغرض أو الباعث ، مرجعه أن العمل الإرادى لابد فيه من شعور بالهدف المقصود من السلوك ، لأن العمل الإرادى سلوك شعورى .

وأما التروى فلان الإنسان قد يجد أمامه عدداً من الوسائل لتحقيق مايخطر فى ذهنه ، وهو مضطر إلى التروى فى كل هذه المسالك ، حتى يعرف الأصلح منها والأوفق لتحقيق الغرض المطلوب .

وأما العزم والتصميم فهو الاستقرار على رأى من الآراء والتصميم عليه وعدم الرجوع عنه .

ولابد من التنفيذ لتصديق الإرادة ، واختبار مدى ثبات العزم عليها . وتتمثل فى هذه الخطوات فى قوى النفس الإدراكية والوجدانية والنزوعية .

الفرق بين الإنسان والحيوان فى العمل الإرادى :

حيث يُعتبر الإنسان أرقى الكائنات ، فإن الإرادة والاختيار من أخص مميزات أفعال وسلوك الإنسان .

فمن مميزات الإنسان أنه يؤدى أعمالاً إرادية ، كما يؤدى أعمالاً آلية وأخرى اندفاعية تعمل بوحى من غرائزه . بينما أعمال الحيوان كلها من النوع الغريزى ، إذ إنه لايملك إرادة الكف ، حيث لايستطيع أن يفكر فى الأمر حتى يختار بين أنواع السلوك ، أى ليس فى طاقاته عنصر الإرادة والاختيار كما عند الإنسان .

وقد ميز بعض علماء المسلمين بين نوعين من الإرادة :

١- نوع يشارك به الإنسان الحيوان وهو إرادة الشهوة .

٢- نوع يختص به الإنسان وهو الإرادة .

وفى رأى الغزالى أن الإرادة «تكون نتيجة إدراك غاية الأمر وطريق الصلاح فيه ، وانبعاث الشوق بعد عجز إلى جهة المصلحة ، وتعاطى أسبابها ، والإرادة لها » .

مفهوم الإرادة عند فلاسفة الإسلام :

تأثر فلاسفة الإسلام الذين قاموا بتفسير السلوك البشرى بالفكر الإغريقى.(٧٠)

ويعتمد مفهوم الإرادة عند فلاسفة الإسلام على نظرية «أرسطو» فى النفس ، حيث أشار إلى أن العقل يتميز بأمرين هما :

الإدراك والإرادة . وأطلق على الإرادة اسم الشهوة العقلية . وفيما يلى آراء كل من «الفارابى» «وابن سينا» عن الإرادة .

آراء الفارابى عن الإرادة :

الإرادة عند الفارابى تتكون من اجتماع القوة النزوعية والعقل الإنسانى ، فالإرادة نزوع إلى ماتم إدراكه ، إما بالحس وإما بالتخيل وإما بالقوة الناطقة . وحكمه فيه أن يؤخذ أو يترك . وفى رأيه أن الإرادة تمتاز بأنها من مميزات العمل الإنسانى ، وتتصف بالخلقية (الجانب الخلقى فى السلوك) ، لأنها تقوم على اختيار الجميل والنافع . (٧١)

تفسير الإرادة عند *"ابن سينا"* :

الإرادة عند «ابن سينا» قوة من القوى المحركة ، تتلقى أوامرها من القوة النظرية . (٧٢)

ومن أقواله : «إذا أردنا شيئاً فإننا نتصور ذلك الشيء – إما ظنياً أو تخيلياً أو علمياً – نتصور الشيء موافقاً . والموافق هو أن يكون حسناً نافعاً ، ثم يتبع هذا التصور والاعتقاد شوق إليه وإلى تحصيله ، فإذا قوى الشوق والاجتماع حركت القوة التى فى العضلات الآلية ، إلى تحصيله . ولهذا السبب تكون أفعالنا تابعة للغرض» .

ومن الواضح أن مفهوم «ابن سينا» عن الإرادة يتفق لحد ما مع آراء علم النفس المعاصر ، والتى تشير إلى أن الإرادة تمثل مجموعة من الوظائف النفسية تعمل متآزرة لتحقيق استجابة رأى الفرد .

كما يُبرز «ابن سينا» عنصر تصور الهدف فى العمل الإرادى ويسميه الغرض ، ثم عنصر اتخاذ القرار أو العزم أو النية ، ويعبر عنه بالشوق . وأخيراً يرى أن مرحلة التنفيذ تحصل من قوة الشوق التى تحرك القوى الموجودة فى العضلات إلى التنفيذ أو التحصيل . كما يؤكد أهمية فكرة الغرض أو الهدف فى أفعال الإنسان ، بينما فى أفعال الحيوان ، فإن الغريزة هى التى توجه سلوك الحيوان. وفى هذا يقول : «ولهذا السبب تكون أفعالنا تابعة للغرض» .

ثم يوضح بعد ذلك أن الإرادة لاتكون فى التصور لأنه لاغرض يمكن تحصيله فى التصور ، وبين الغرض قد يكون قد الفعل نفسه أو تابعاً له .

التوسط فى المفهوم الإسلامى للإرادة :

إستفاد الإمام الغزالى من عدة اتجاهات فى تعريف الإرادة . فالمعنى الصوفى للإرادة فى نظره ، يتمثل فى السلوك إلى طريق الله ، والمريد هو السالك فى الطريق .(٧٣)

والمعنى النفسى والأخلاقى للإرادة فى نظر الغزالى هى «انبعاث القلب إلى مايراه موافقاً للغرض إما فى الحال أو فى المال . أو هى ماينبعث عن المعرفة ، ويسخر بالقدرة . أو بمعنى آخر هى الباعث المحرك للأعضاء بمقتضى حكم العقل.

وقد حاول الغزالى أن يوفق بين المعنى الصوفى والمعنى النفسى للإرادة ، ولكنه بقى على القول بالمعنى الصوفى لها .

وتعتمد الإرادة بالمعنى الصوفى عنده على المعرفة والشعور بالغرض . حيث يقول فى ذلك «فمن شاهد الآخرة بقلبه مشاهدة يقينية ، أصبح بالضرورة مريداً حرث الآخرة مشتاقاً إليها» .

والإرادة بالمعنى النفسى والأخلاقى تكون نتيجة لتعاون قوتين :

١ - القوة المحركة الحيوانية التى تصدر عنها إرادة الشهوة ، ويكون النزوع بحسبها إلى الطلب أو الهرب حسبما يكون الأمر ملائماً للكائن الحى أو غير ملائم له .(٧٤)

٢ - القوة العملية وهى مايتميز بها الإنسان ، وتبدو قوة ومعنى للنفس ومبدأ لحركة بدن الإنسان إلى الأفعال المختصة بالفكر والروية على ماتقتضيه القوة العالمة النظرية ؛ ذلك لأن جميع أعمال الإنسان لاتصح إلا بقدرة وإرادة وعلم . والعلم يهيج (يثير) الإرادة ، والإرادة باعثة للقدرة ، والقدرة خادمة للإرادة .

من هذا يتبين أن مفهوم الإرادة عند الغزالى لايختلف كثيراً عن مفهوم علم النفس المعاصر ، الذى يرى أن الإرادة هى العملية النفسية التى ترمى إلى تكييف استجابة ، كان الصراع القائم بين مجموعتين من الميول قد أدى إلى إرجائها ، وذلك بترجيح الميول التى تبدو أسمى فى نظر الشخص .

أو بتعبير آخر هى الميل إلى العمل أو الدافع النفسى الذى يدفع الفرد إلى العمل سلبياً كان أم إيجابياً ، علماً بأن الدافع هنا ليس فطرياً أو عادياً ، وإنما هو

دافع إرادى تتمثل فيه مظاهر الإدراك والنزوع والوجدان .

التفسير الإسلامي للعمل الإرادي :

يتضمن العمل الإرادى فى المفهوم الإسلامى للسلوك على :(٧٥)

- وجود الغرض (الباعث على العمل) .
- الشعور به .
- العمل الإرادى .

ويرى الغزالى أنه لابد من وجود (الغرض الباعث على العمل) والشعور به . فالمحرك الأول للإرادة هو الغرض المطلوب وهو الباعث . وكلما كان الشعور بالغرض واضحاً ، والباعث قوياً كان ذلك مؤثراً على انجزام الإرادة .

فمهما قوى الباعث أوجب ذلك جزم الإرادة وانتهاض القدرة . ولم يستطع العبد (الفرد) مخالفة الباعث القوى الذى لاتردد فيه . ولاتنتهض الإرادة من مكانها مالم يأت إليها العلم أو الباعث . وقد يكون هذا الغرض أو الباعث من نتائج الحس أو التخيل أو التفكير . ويجب أن يكون الباعث أو الغرض مرتبطاً بميل أو مصلحة أو حاجة ، ولابد أيضاً من الشعور بذلك الميل حتى تنبعث الإرادة .

فيما يتعلق بالجانب العقلى (التروى) فى العمل الإرادى ، فإن الغزالى أشار إلى التفكير والعقل وتمحيص البواعث المختلفة ، والمسالك المتعددة التى تبدو أمام الإنسان ، ومدى انطباق السلوك الذى سيقوم به على تحقيق الغرض المطلوب .

كما يبدو ذلك أيضاً من تأكيد الغزالى على تعارض الميول أو اتساقها أحياناً، وعلى وجوب التفكير والروية وتحكيم العقل فيها . لذلك يرى الغزالى أن العلم شرط جزم الإرادة ، وإن لم يكن سبباً لإيجادها .

والروية أو الاختيار ضرورية لتمييز العمل الإرادى عن العمل الاندفاعى الشهوى ، وتبدو الروية فى الفترة الواقعة بين إثارة الميل إلى عمل ما ، العزم على تنفيذ ما أدت إليه الروية ،.

أما العزم وهو المرحلة الأساسية فى الإرادة ، والذى يُعبر عنه الغزالى بالإرادة أحياناً ، فإنه فى رأيه يبدو فى الاستقرار عند رأى معين ، وعقد النية على تنفيذه والتصميم على ذلك ، وعدم التراجع عنه . ولابد أن يكون العزم صادقاً ،

أى لايكون فيه مجال لميل آخر أو ضعف أو تردد . ويكون ذلك بعد استعراض كافة الآراء وأبعاد كافة الميول أو العوارض أو العلائق المخالفة ، وفى نظره أن أهم العلائق هى علائق القلب .

أما المرحلة الأخيرة من العمل الإرادى ، فهى التنفيذ أو العمل أو السلوك .

والتنفيذ إما أن يكون سلبياً أو إيجابياً . ويكون سلبياً بترك عمل من الأعمال، ويتم هذا الترك بعد العلم والعزم .

وهذه المرحلة قليلة الأهمية بالنسبة للتفسيرات المعاصرة فى علم النفس ، لأنها تواجه الواقع بكل مشاقه ، ولذلك يعتبرها الغزالى دليل العزم على الإرادة . فيقول : ولابد من الوفاء بالعزم لأنه قد تصادفه أمور صارمة وهيجان الشهوة» .

مرحلة العزم من العمل الإرادى :

تميل بعض التفسيرات النفسية إلى تغليب الجانب العقلى على الإرادة ، لأن الإرادة فى نظرهم أحكام عقلية أو عملية انتخاب بين أحكام ، والعمل ... أفكار وسلوك والإرادة بينهما .

ويميل بعض علماء النفس إلى تغليب الجانب العاطفى والانفعالى ، لأن الإرادة لديهم نتيجة مجموعة من الميول المتنازعة ، حتى يتغلب أحدهما على الأخرى .

ومظهر الإرادة الأولى على هذا الأساس هو الكف أو المنع ، والعمل الإرادى يبدو سابقاً على الفكرة أو الحكم ، ويكون الحكم محدداً بالإرادة .

بالنسبة للتفسير الإسلامى ... يرى الغزالى ترجيح الاتجاه العقلى فى تفسير الإرادة ، لأنها عنده الصفة المتوسطة بين القدرة والعلم . إلا أنه لاينكر الجانب العاطفى والانفعالى ، لأن كل عمل إرادى هو نتيجة صراع مجموعة من الميول والخواطر والإلهامات والوساوس والأفكار .

من هذا نتبين أن آراء الغزالى حول مشكلة الإرادة تماثل إلى حد كبير مفهوم الإرادة فى وقتنا المعاصر حيث :

١ – أن الإرادة لاوجود لها دون الميول والرغبات .

٢ – أن العمل لايكون إلا بعد امتحان الدوافع والميول .

بل إن أى باعث إلى العمل إنما يظهر غالباً مع مجموعة من الميول والبواعث .

٣ - قد تتصارع البواعث ، وقد يتسق بعضها مع بعض .

٤- أن الصراع لايقتصر على الميول ، بل يشمل جميع البواعث بما فيها الأفكار والخواطر .

٥ - لايقتصر أثر هذه الميول والبواعث المتصارعة على الإرادة فى مرحلة العزم فقط ، ولكنها قد تستمر حتى مرحلة التنفيذ ، أو الجزم على القيام بالعمل على الأقل .

من هذا يتبين أن الإرادة فى التفسير الإسلامى للسلوك ، تتمثل عند الإمام الغزالى «القدرة» أو بما يسميه «القوة الفاعلة» ، ذلك لأن الإرادة تشتمل على النواحى التالية :

١- الناحية الحيوية ومايُصاحب الإرادة من تكيفات عضوية وعضلية .

٢- الناحية النفسية وما تؤديه الدوافع والميول من دور فى تنشيط الإرادة .

٣- الناحية الاجتماعية ودور البواعث المكتسبة فى الإرادة .

لذلك إذا لم تجتمع القدرة أو النشاط الحيوى مع النشاط النفسى ، فإن الإرادة لاتتم ؛ لأن الذات لاتستطيع أن تعمل ماليس فى طاقاتها أو طبيعتها أو جبلتها ، ولأن القدرة والعزم قد يتفقان على التنفيذ وقد لايتفقان .

وهذا ما انتبه إليه «الغزالى» حيث ربط بين الإرادة والقدرة ، ففى رأيه «أن القدرة لاتتحرك إلا بالإرادة ، والإرادة لاتتم إلا بالقدرة . وكم يريد الإنسان شيئاً ولايقدر عليه ، كالمريض الذى يريد الشيء ولكنه لايستطيعه لانعدام القدرة» .

المفهوم الإسلامى لأهمية الإرادة :

الجانب الأخير فى موضوع الإرادة يوضح أهمية الإرادة فى المفهوم الإسلامى .

فالإرادة فى رأى الغزالى أنها تشكل الفارق الحاسم بين الإنسان والحيوان . فالحيوان لايضبط نوازعه ، بينما يمكن للإنسان أن يفعل ذلك عن طريق الإرادة المتحكمة فى مشاعره وأعماله ، بل إنه لايبدو إنساناً مالم يضبط نوازعه وينظم شهواته .

وتأكيد الغزالى لأهمية الإرادة لاينكر الحتمية والجبرية فى سلوك الإنسان ، خلافاً لما فعل البعض حين جعل غريزة ما ، كالغريزة الجنسية ، منبعاً لأعمال الإنسان تتحكم فيه ، ولايستطيع إلا أن يتقيد بحكمها .

وبما أن عنصر الاختيار فى حدود الطاقة الإنسانية متوفر ، فإن الإرادة شرط المسئولية والجزاء . ومحور الارتكاز فى الشخصية ، ولا أهمية لعمل دون إرادة لأنها روح العمل وأساسه . (٧٦)

كما تتضح لنا أهمية الإرادة عندما ينظر الإمام الغزالى إليها كعالم نفسى أخلاقى ، ويقرر أنها نشاط الذات المتحركة العاملة وعنوان حياتها ، وأنها تجمع بهذا المعنى الوظائف النفسية ، بحيث تعمل متآزرة للرد على البواعث والأفكار المختلفة .

وبذلك تؤثر فى بناء الشخصية وتشكيلها ... فالإرادة .. هى التى تمثل حاضر الفرد بكل قواه الذهنية والجسمية والعملية ، على أساس أن الأفعال الإرادية تصبغ الشخصية بطابعها .

ولذلك ميز الغزالى بين ثلاثة أنماط من الشخصيات . (٧٧) ونمثل هذه الشخصيات كالآتى حسب تصور الغزالى وحسب مايمكن تنظيمه وجدولته كما يأتى :

نوع الأعمال الإرادية	النفس (نمط الشخصية)
١- تصطبغ الأعمال الإرادية بطابع التهور، وعدم القدرة على الضبط وسيطرة الاندفاعات الغريزية .	النفس الأمارة بالسوء
٢- تصطبغ الأعمال الإرادية بالضبط وتحكم الإرادة مع ارتباطها بالمثل العليا .	النفس المطمئنة
٣- تصطبغ الأعمال الإرادية بتردد العزيمة، وليس هناك طابع مميز للشخصية ، وبالتالى يصعب الحكم مباشرة على ردود الفرد الإرادية .	النفس اللوامة

جدول (٥) : تقسيم الغزالى لأنواع الأعمال الإرادية ومايقابلها من أنواع الأنفس (أنماط الشخصيات) فى رأى الغزالى .

وفى رأيه أن هذه الأنواع من الأعمال الإرادية تمثل أحكاماً خلقية ؛ لأن دراسة الفعل الإرادى تنطوى دائماً على أحكام تقويمية ولأن القيم الإجتماعية والدينية والخلقية من أهم معايير التمييز بين الناس والحكم على قيمة الأشخاص .

تلخـــيص :

* الجانب الإرادى (الاختيارى) فى السلوك هو أحد الجوانب النزوعية فى السلوك الإنسانى . وهذا الجانب يتم فى أرقى الكائنات حيث يحدث السلوك بعد إحساس وإدراك وتبصر وتدبر وتفكر . وأشار علماء المسلمين فى تحديدها أنها تضم الفهم والميل والإرادة والعزم والتنفيذ .

* ومن الناحية اللغوية ، الإرادة هى نزوع النفس وميلها إلى الفعل . ويدخل فى النزوع الاشتياق والرغبة ، والميل بمعنى المحبة والانتماء .

* والإرادة فى علم النفس المعاصر تمثل المشيئة أو الاختيار ، أو هى الميل إلى العمل أو الدافع النفسى للعمل سلبياً كان أم إيجابياً .

والإرادة فى علم النفس المعاصر لها جانب شعورى خاص بالغرض أو الباعث وجانب عقلى يحدث فيه التمهل والتأنى والتروى ، وحيث يتبع ذلك العزم والتصميم ، وجانب عملى إجرائى يمثل الممارسة الخاصة بتنفيذ وأداء العمل الإرادى .

* ميز علماء المسلمين بين نوعين من الإرادة نوع يشارك به الإنسان الحيوان وهو إرادة الشهوة ونوع يختص به الإنسان وهو الإرادة . وفى رأيهم أن العقل يميز بين أمرين الإدراك والإرادة ، والإرادة أسموها الشهوة العقلية .

* شارك «الفارابى» فى تفسير الإرادة بأنها نزوع إلى ماتم إدراكه ، إما بالحس وإما بالتخيل وإما بالقوة الناطقة .

* الإرادة فى نظر «ابن سينا» تمثل مجموعة من الوظائف النفسية تعمل متآزرة لتحقيق استجابة رأى الفرد ، كما يبرز «ابن سينا» عنصر تصور الهدف فى العمل الإرادى ويسميه الغرض ، ثم عنصر اتخاذ القرار أو العزم أو النية ، والتى أطلق عليها الشوق ، ثم يأتى بعد ذلك التنفيذ . كما أنه أكد أهمية فكرة الغرض أو الهدف فى أفعال الإنسان .

* هناك رأى وسط فى تعريف الإرادة فى الإسلام ، فالمعنى النفسى والأخلاقى للإرادة فى نظر «الغزالى» هى انبعاث القلب إلى الغرض فى الحال أو فى المال . (يقارب المعنى الصوفى للإرادة) وينبعث ذلك عن المعرفة ويسخر بالقدرة ، أو بمعنى آخر هى الباعث المحرك للأعضاء بمقتضى حكم العقل .

ومفهوم الإرادة عند الغزالى لايختلف عن مفهوم علم النفس المعاصر ، حيث إن الإرادة (فى نظره) تمثل عملية نفسية تهدف تكييف استجابة ، كان الصراع القائم بين مجموعتين من الميول قد أدى إلى أرجائها ، وذلك بترجيح الميول التى تبدو أسمى فى نظر الشخص .

والروية أى الاختيار ضرورية لتمييز العمل الإرادى . أما العزم وهو المرحلة الأساسية فى الإرادة ، فإنه يظهر فى الاستقرار عند رأى معين ، وعقد النية فى تنفيذه وعدم التراجع عنه .

والمرحلة الأخيرة وهى التنفيذ أو العمل أو السلوك إما أن تكون سلبية أو إيجابية .

* الواقع أن مفهوم الغزالى عن الجانب الإرادى فى سلوك الإنسان تماثل إلى حد كبير مفهوم الإرادة فى وقتنا المعاصر .

ويشير الغزالى إلى أن الإرادة تتمثل فى القدرة أو ما أسماه القوة الفاعلة وحيث تشمل نواحى : حيوية ونفسية واجتماعية . كما أنه ربط بين الإرادة والقدرة التى قد تنعدم عند بعض الأفراد .

* فيما يتعلق بأهمية الإرادة ، فإن الرأى الإسلامى فى نظر الغزالى أنها تشكل الفارق الحاسم بين الإنسان والحيوان ؛ حيث إن الحيوان لايضبط نوازعه ولايتحكم فى أعماله .

وتأكيد الغزالى لأهمية الإرادة لايُنكر الحتمية والجبرية ؛ إذ إن الإرادة عند الإنسان شرط المسئولية والجزاء ، ولا أهمية بدون إرادة ؛ لأنها روح العمل مأساسه . وهى ذات أهمية فى أنها نشاط الذات المتحركة العاملة وعنوان الحياة الإنسانية ، وهى تجمع الوظائف النفسية بحيث تعمل متآزرة للرد على البواعث والأفكار المختلفة .

* وفى بناء الشخصية الإنسانية تُمثل الإرادة حاضر الفرد بكل قواه الذهنية والجسمية والعملية ، على أساس أن الأفعال الإرادية تصبغ الشخصية بطابعها . وميز الغزالى بين أنماط من الشخصيات وفق أنواع الأعمال الإرادية ، حيث إن من رأيه أن الأنواع فى الأعمال الإرادية تمثل أحكاماً خلقية ، فالفعل الإرادى ينطوى على أحكام تقويمية . إذ إن القيم الاجتماعية والدينية والخلقية تمثل معايير التمييز والتفريق بين الناس والحكم على قيمة الأشخاص .

تعقيب :

* الإرادة فى السلوك الإنسانى تمثل المشيئة والاختيار ، وحيث يكون الجانب الشعورى عند الفرد يختص بباعث لسلوك معين ، وعندئذ يقف الفرد وقفة تمهل وتروى ، يتدبر الأمر ، ويفكر ويسترجع ذكريات أو مواقف ، ويحزم ويصمم على أداء ما ابتغى وحيث ينفذ ما أراد ، أو يتراجع عندما يدرك أن عمله فيه مايقلل من شأنه أمام خالقه ، فيميز العقل آنئذ بين الإدراك والإرادة ، ويتغلب العقل على شهوات النفس ، ويسلك الإنسان السلوك القويم .

* وقد تنعدم القدرة عند بعض الأفراد ، نتيجة لضعف أخلاقهم وضمائرهم. فالأعمال الإرادية من وجهة نظر الإسلام تمثل أحكاماً خلقية ، حيث يختلف الأفراد فى القدرة على اتباع معايير القيم الاجتماعية والدينية والخلقية ، وعندما يختل البناء الشخصى ، تنعدم القدرة فى اتباع المعايير التى أشير إليها وحيث تضعف طاقات الأفراد فى ضبط نوازعهم أو التحكم فى أعمالهم وتنظيم سلوكهم، وعندئذ يتمثل سلوكهم مع ماورد فى الذكر الحكيم :

﴿ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴾

(سورة الفرقان آية ٤٤)

* والقدرة عند الإنسان تتمثل فى النشاط الحيوى مع النشاط النفسى ، والذى عند تجمعها يتم تنفيذ الإرادة ؛ فالذات الإنسانية ليس فى طاقتها أن نعمل إلا وفق ما لديها من قدرة . والقدرة والعزم قد يتفقان على تنفيذ الإرادة ، وقد يتعارضان ، ولذلك فإن الإرادة يلزمها القدرة ، حيث لاتتم الإرادة إلا بالقدرة ، فقد يريد الإنسان شيئاً ولايقدر عليه ، كالطفل الذى يريد شيئاً مافوق طاقته ، ولايستطيع تحقيقه لانعدام القدرة لديه ؛ أى إن الاستعداد والقدرة من ضرورات تنفيذ الإرادة .

* ومن حيث يتفاوت الأفراد فى سماتهم الشخصية ، فإنهم بطبيعة الحال يتفاوتون فى الأفعال الإرادية ، وفى العزم على التنفيذ . فمن الناس ظالم لنفسه ، حيث تكون أفعاله الإرادية مضطربة تتسم بالتهور ، ويغلب فيها عدم الاتزان والضبط، ومثل هذا الفرد ينطبق عليه وصف النفس الأمارة بالسوء .

ومن الناس من يتسم سلوكه بالاتزان والضبط والربط وتحكم الإرادة ، مع ارتباطها بالقيم الدينية والخلقية والاجتماعية ، وحيث يحكم الإنسان نوازعه ، ويفكر ويدرك عواقب الأمور ، ويمتثل للمثل والقيم وهو بذلك نفسه مطمئنة .

ومن الناس من يقف موقف الحائر بتردد فى التصميم والتنفيذ وضعف العزيمة، وبذلك فإن شخصيته ليس لها طابع مميز ، وحيث يقدم ويحجم ولايستطيع الحكم المباشر على أفعاله الإرادية ، وهو بذلك ممن يوصف بالنفس اللوامة .

* إن الواقع الإسلامى عند النظر إلى الجانب الإرادى فى السلوك الإنسانى ، إنما ينظر إليه على أنها أحكام خلقية تنطوى على أحكام تقويمية للفعل الإرادى ، وحيث توجد الفروق الفردية بين الناس فيما يحكم أفعالهم من قيم دينية واجتماعية وخلقية .

* والإنسان السوى هو الذى يقتنع بالقرار الذى يصل إليه عندما لايتحقق له مايريد ؛ فالإرادة من مميزات العمل الإنسانى ، ويتمثل فيها الجانب الخلقى فى السلوك ، وحيث يختار الإنسان السوى النافع والمفيد ، ويتفحص المسالك المتعددة التى تبدو أمامه ، ليختار منها مافيه النفع لتحقيق الغرض المطلوب ، وحتى لايسلك مسالك العمل الاندفاعى الشهوى ، فيضل عن سواء السبيل .

تمـــارين :

١ - وضح مفهوم الإرادة فى علم النفس المعاصر .

٢- هناك نوعان من الإرادة فى نظر علماء المسلمين . وضح .

٣- وضح الرأى الوسط فى تعريف الإرادة فى الإسلام .

٤- يتوافق مفهوم الإرادة فى نظر بعض فلاسفة المسلمين مع المفهوم المعاصر للإرادة فى علم النفس المعاصر ؟ وضح .

٥- يؤكد الغزالى أهمية الجانب الإرادى فى سلوك الإنسان ؟ اشرح .

٦- تتفرد أنماط الشخصية فى نظر علماء المسلمين وفق أنواع الأعمال الإرادية ؟ وضح .

الفصل الثامن

التفسير الإسلامى للإنفعالات

المحـــــــتوى :

* تمهيد
* ماهية الانفعالات .
* المواقف والظروف التى تتم فيها الانفعالات .
* مظاهر الحالة الانفعالية .
* الخطوات التى تتم فيها الانفعالات .
* خصائص الانفعالات .
* وظائف الانفعالات .
* تفسير «ابن سينا» للانفعالات .
* آراء الغزالى فى الانفعالات .
* علاج الانفعال .
* تلخيص .
* تعقيب .
* تمارين .

الفصل الثامن

التفسير الإسلامي للإنفعالات

تمهيد :

تُعتبر الانفعالات جزءاً هاماً فى الحياة الوجدانية فى السلوك الإنسانى وترتبط الانفعالات بالسلوك المدفوع ، إذ إن الدوافع الأساسية المحركة لسلوك الإنسان تنطوى غالباً على شحنة انفعالية تقترن به .

فدافع المقاتلة مثلاً يصحبه انفعال الغضب ، ودافع الهرب يصحبه انفعال الخوف .

إلا أن التطابق بين الانفعال والدافع ، ليس بهذه الصورة البسيطة فى سلوكيات الحياة اليومية .

فالسلوك الانفعالى سلوك مدفوع بشدة وقوة ، حيث يتوقف نوع الانفعال وشدته على نوع العوامل الدافعية فى وقت معين .

والحياة الإنسانية لاتخلو من الانفعالات ، والتى تعد منشطة للحياة ، داعية إلى تنوعيها وتلوينها ، إذ دون الانفعالات تصبح الحياة رتيبة تضيق بها الذات .

وفى هذا الفصل نعرض جزءاً هاماً من الحياة الوجدانية يختص بدور الانفعالات وآثارها فى السلوك ، وآراء علماء المسلمين فى الانفعالات ، حيث نعرض آراء ابن سينا والإمام الغزالى وبن مسكويه .

وقبل أن نوضح مساهمات علماء المسلمين فى تفسير الانفعالات ، علينا أن نعرض فى عجالة مايتصل بجوانب الحياة الوجدانية الانفعالية عند الإنسان .

ماهية الإنفعالات :

تُعرف الانفعالات من الناحية النفسية بأنها محفزات للسلوك ، حيث إنها قوى محفزة تدفع بالفرد إلى ضروب معينة من السلوك المتنوع .

وقد تُعرف على أنها استجابة الفرد إلى مواقف ، قد لايستطيع فيها أداء

السلوك المرغوب فيه ، مثلما يحدث فى انفعال الخوف والغضب . ويرتبط الانفعال بإشباع حاجة أو رغبة أو عاطفة . فمن الانفعالات ماتكون صيغته إيجابية مريحة، ومنها ماتكون صيغته سلبية مؤلمة .

المواقف والظروف التي تتم فيها الانفعالات :

ما المواقف والظروف التى يحدث فيها الانفعال ؟ أشار جيلفورد Guilford ١٩٧١ (٧٨) إلى أن الانفعالات تحدث فى المواقف التالية :

١- ازدياد قوة وشدة الدافعية : فحيثما ازدادت الدافعية ، يزداد احتمال حدوث الاستجابة الانفعالية . وقد تكون الإستثارة الانفعالية الزائدة سبباً فى اختلال الاتزان الجسمى والعقلى والاجتماعى للفرد .

٢- إحباط الدوافع : حيث تكون هناك بواعث الانفعال فى المواقف الصعبة والتى تعيق إشباع الدافعية عند الفرد .

٣- استبعاد الدوافع : وحيث تكون الاستجابات الانفعالية للمثير الواحد تختلف باختلاف الأفراد حسب ظروفهم وثقافتهم وبيئتهم . فالفرد عند تحقيق أهدافه وإشباع حاجاته يستثار انفعالياً .

وفى حالات أخرى ينفعل عند غياب الدافعية وفقدان الأمل والرجاء .

مظاهر الحالة الإنفعالية :

يعتبر علماء النفس أن الانفعالات ليست حالات فسيولوجية ، بل تتأثر بالثقافة والتعليم ، ولذلك فإن مظاهر الحالة الانفعالية تتحدد ب : (٧٩)

١ - وجود موقف معين يفسره الفرد بطريقة خاصة وفقاً لخبراته السابقة .

٢ - حدوث استجابة داخلية يترتب عنها تغيرات فسيولوجية داخلية وعمليات عقلية .

٣ - حدوث استجابات جسمية خارجية تتأثر بالثقافة للتعبير عن الانفعال . مثل التعبير اللغوى ، أو التغير فى ملامح الوجه ، أو حركات جسمية معينة ، أو كل هذا السلوك مجتمعاً .

ويتداخل فى الانفعالات عند الإنسان عدة جوانب ، يتأثر بها سلوك الإنسان منها :

١- المثيرات البيئية والمنبهات التى تنشط الحوافز الانفعالية .

٢- ردود الأفعال الانفعالية التى يمكن ملاحظتها ومشاهدتها وقياسها بالطرق الموضوعية .

٣- إمكانية علاج الجوانب الانفعالية السلبية باعتبارها خبرات شعورية .

الخطوات التى تتم فيها الانفعالات :

تتم الانفعالات فى عدة خطوات متتابعة ، منها :

١ - المرحلة التعبيرية للانفعال : وحيث يمكن تفسير الموقف الانفعالى ، وإدراك مافيه من مثيرات .

٢ - مرحلة الإرجاع التمهيدية : والتى يتأهب فيها الفرد لنوعية الاستجابة التى سيقوم بأدائها .

٣ - مرحلة التحفز والتأهب والاستعداد الكلى لمواجهة الموقف .

٤ - مرحلة التأمل وحيث يحاول الفرد التمييز بين حالات الموقف الذى يكون فيه .

خصائص الانفعالات :

توصف الانفعالات - وفق ماسبق الإشارة إليه - على أنها دوافع للنشاط ، بل يُعبر عنها أحياناً بأنها النشاط ذاته . وهى فى هذا شأنها شأن الاستجابات الفطرية التى تؤدى إلى السلوك النمطى أى أنها محفزات للعمل والنشاط .

لذلك نجد أن خصائص الانفعالات تتمثل فى الآتى :

١ - مثيرات الانفعالات : تتم إثارة الانفعالات فى أعم الأحوال بمنبهات خارجية .

٢- التعبير الانفعالى : من خصائص الانفعالات أنها تتجه صوب المنبه الذى أثارها فى البيئة .

٣ - عوامل إثارة الانفعالات : تثار الانفعالات أحياناً بعوامل فسيولوجية ناشئة عن ذات الفرد كالإحساس بالجوع الشديد أو العطش ؛ أى إن الدوافع الفطرية تؤثر فى السلوك .

٤- ليس بالضرورة أن تكون هناك فى البيئة أشباه طبيعية يوجه إزائها التعبير الانفعالى .

٥- يحدث الانفعال بعد ملاحظة الأشياء المؤدية إلى الانفعال أى منبهات أو مثيرات الإنفعال ، وليس قبل حدوث الحالة الإنفعالية .

٦- تتميز الانفعالات بأن أكثر حالاتها تكون عابرة تحدث وتمر بسرعة .

وظائف الإنفعالات :

تعتبر الدوافع والانفعالات من المؤثرات الهامة المحددة للسلوك والبناء الشخصى للإنسان .

ومن مكونات الإنسان الطبيعية النفسية ميله إلى إبداء نوع من الانفعالات فى مواقف معينة . ومن الأمثلة على هذه الانفعالات «الخوف» «والغضب» «والسرور» . والعنصر السائد فى هذه الانفعالات خبرة الفرد الوجدانية أو الحسية .

وتستخدم الكلمة – الانفعال – عادة فى الحالات الوجدانية المتصلة بموضوع معين أو موقف معين . وتستعمل كلمة – الخاطر – عندما تكون العلاقة الرابطة بالموقف ضعيفة ليست ذات أثر .

والحالات أو الخواطر هى حالات وجدانية ، تكون امتداداً فى الزمن أكثر من الانفعالات . وهى فى ذات الوقت أقل ارتباطاً بالموقف أى بالشىء الخارجى ، وأقل اتصالاً بأى من دوافع السلوك .

ولعل التعبير – حالة وجدانية – أشمل فى دلالته لإبراز هذه الجوانب والحالات ، التى يلعب فيها الوجدان الدور الرئيسى .

والمدلولات الانفعالية المختلفة تطلق على الحالات الوجدانية ، التى تمر كخبرات فى مواقف إنفعالية عملية .

ولعل هذه المواقف الانفعالية فى شدتها وقوتها للمواقف التى تطرأ فيها فتثيرها أكثر مما تختلف هى فيما بينها .

ويطلق الاسم – الانفعالى – على تتابع الحالات الوجدانية التى تتباين فيما بينها أشد التباين ؛ إذ الانفعال عملية تطرأ فى زمن معين ، وليست حالة فجائية عابرة .

ويتبين من هذا أن دور الانفعال من السلوك ، يتمثل فى الشدة المضطردة فى السلوك المؤدى إلى توجيه متواتر إزاء هدف معين ، مع اختلاف الوسائل

المؤدية إلى هذا الهدف . فالإنسان الخائف مثلاً لايكتفى بإنتهاج وسائل عنيفة لتؤثر فى هربه من وجه الخطر ، وإنما يحاول طرائق جديدة فى السلوك لاتقل عنفاً عن سابقتها فى حالة إخفاق الوسائل الأولى لديه ، فهو يهرب ويتسلق ويزوغ حتى يزول الخطر .

لذلك فأهمية ووظيفة الانفعال ، هى أنه جزء من البناء التكوينى الفطرى ، الذى يؤدى إلى إنجاز ضرب من السلوك اللازم لقوام حياتنا اليومية .

هذا وعلينا التمييز بين الانفعالات والعواطف كالحب والكره ، وإن كان بعض علماء النفس ذكرهما على أنهما من الانفعالات ، ولكنهما يعدان فى علم النفس المعاصر من بين نظم الاستعدادات الانفعالية أو العواطف .

كما ينبغى أن نميز بين الانفعال والمشاعر ، فالمشاعر أو حالة نشدان اللذة ... اللذة – الألم .. إنما هو جانب من جوانب الانفعال ، ولكنه ليس مماثلاً للانفعال .

هذا بالإضافة إلى أن الانفعالات الفجة أو الغليظة ، كما جاء فى الذكر الحكيم ... «فظاً غليظ القلب» تصنف إلى :

١ – الانفعالات المختلفة فى درجة الشدة : مثل الهوى والذى يرد ذكره فى الإسلام – هوى النفس – وهذه الانفعالات ينبغى اقتصارها على تلك التى تبدو فيها درجة الحماس كالتهيج والانزعاج والغضب العادى والغضب الشديد ، والتهيج الشديد والثورة النفسية .

٢ – الجانب الثانى أو البعد الثانى وهو الاستمرار أو الفترة التى يستمر خلالها الإنفعال .

.... والآن يأتى دور كيف عالج علماء المسلمين الجانب الانفعالى فى سلوك الإنسان ، ونسوقها على سبيل المثال وليس على سبيل الحصر .

تفسير "ابن سينا للانفعالات" :

حاول «ابن سينا» عن طريق وصف بعض الظواهر الانفعالية – توضيح معنى الانفعالات كالغضب والفرح واللذة والفزع والحزن .

وعبر عن الحالات الانفعالية المذكورة بحركات الروح إلى خارج أو إلى داخل ، إما دفعة واحدة أو بصورة تدريجية .

وهو بتمييزه بين حالات الانفعال يقرر حقيقة هامة أوضحها علم النفس المعاصر ، وهى أن الحالة الانفعالية من شأنها إحداث تأثير وتغير فى الحالة النفسية من وضع الاستقرار إلى حالة عدم الاتزان ، إلا أنه ميز بين الحالات المختلفة الآتية للانفعالات :

١- انفعال الغضب : ويتصف بالحركة إلى الخارج ، أى أنه مقترن بالفعالية، التى ينشز عنها القتال والدفاع عن النفس بأفعال وحركات متنوعة .

٢- إنفعال الفزع والخوف : ويتصف بالحركة إلى الداخل ، ويقترن بتوقف الفعالية، وانقباض النفس والتمركز حول الذات .

٣- إنفعال اللذة : وهو يشبه الغضب من حيث إثارة الانفعالية والاتجاه نحو العمل ، وما من شأنه أن يزيد اللذة ويدعو إلى استمرارها بصورة تدريجية .

٤- انفعال الحزن : ويشبه الفزع من حيث فقدان الفعالية ، والاتجاه نحو الإستمرار فيه ، وذلك بصورة تدريجية .

وفى علم النفس المعاصر ، مايفيد أن بعض الكائنات إذا أصابها الخوف توقفت عن الحركة ، وكأن وضعها هذا تكيفاً غريزياً للتلاؤم مع الموقف الذى يواجهها وللدفاع عن نفسها واتقاء الخطر المتوقف .

وفيما يلى نص لابن سينا تحت عنوان : فى موجبات الحركات النفسانية .. حيث قال ابن سينا فى كتابه القانون فى الطب .(٨٠)

«جميع العوارض النفسانية يتبعها أو يصحبها حركات الروح إما إلى خارج وإما إلى داخل ... والحركة إلى خارج إما دفعة كما فى الغضب ، وإما تدريجياً كما فى اللذة وعند الفرح المعتدل . والحركة إلى داخل كما عند الفزع ، وإما أولاً فأولاً (أى بالتدريج) كما عند الحزن ، وقد ينفعل البدن عن هيئات نفسانية غير التى ذكرناها مثل التصورات النفسانية ، فإنها تثير أموراً طبيعية .

آراء الغزالى فى الانفعالات :

يرى الغزالى أن السلوك الإنسانى يصاحب بحالة من الارتياح أو عدم الارتياح أو من اللذة والألم . وقد اصطلح على تسمية هذه الحالة بالحياة الوجدانية. ويرى الغزالى أن هذا الشعور الوجدانى يرافق عدداً من المظاهر النفسية مثل قوله :

«إذ إن كل غريزة ركبت لأمور هو مقتضاها بالطبع ، فغريزة الغضب خلقت للتشفى والانتقام ، فلاجرم لذاتها الغلبة والانتقام ، وغريزة شهوة الطعام خلقت لتحصيل الالتذاذ ، فلاجرم لذاتها إلى نيله ولاتخلو غريزة من ألم أو لذة .(٨١)

والحالة الوجدانية ضرورية فى السلوك .. فى نظر علم النفس المعاصر .. وهى ترافق الحالات النفسية المختلفة عند الإنسان . وقد تشتد هذه الحالة الوجدانية بتأثير عوامل ومثيرات مختلفة فيكون من ذلك الانفعال . كما أنها قد تكون هادئة محددة الهدف ، توجه سلوك الإنسان فى اتجاهات معينة فيتولد عنها العواطف المختلفة .

بالنسبة للانفعال الغضبى بأنه «شعلة نار اقتبست من نار الله الموقدة التى تطلع على الأفئدة ، وإنها لمستكنة فى طى الفؤاد استكنان الحجر تحت الرماد» .

وقد تأثر الغزالى «بمسكويه» فى تعريفه للغضب حيث يُعرفه على أنه : «حركة للنفس يحدث لها غليان دم القلب للانتقام» .

أما الخوف فى نظر الغزالى فإنه احتراق القلب لانتظار مكروه فى الاستقبال . والسلوك الانفعالى يمتاز على ذلك بالحركة والاستعار والاضطراب .

وقد أشار الغزالى إلى تمييز بين الانفعالات العنيفة كالغضب والخوف ، والانفعالات الهادئة التى هى أقرب إلى العواطف كالرجاء والمحبة ، كما أنه ميز فى الانفعالات درجات مختلفة من القوة والضعف .

ويضع الغزالى فى تحديد عناصر السلوك الانفعالى ، من حيث تقسيم مكونات الاستجابة الشعورية والسلوكية فى علم النفس المعاصر إلى ماحدده الغزالى من المثير المسبب للإنفعال والاستجابة الناجمة .

علاج الانفعال :

أشار الغزالى إلى مايُعرف بعلاج الانفعال ، وهو ما يقابل فى علم النفس المعاصر بتعديل الانفعالات . وفى رأيه أن الانفعالات تعالج بالتربية معتمداً على أن إلغاء الانفعال كلية مخالف لطبيعة تكوين الإنسان وللضرورات التى خلقت من أجلها كل قوة من قواه . ويخطئ بناءً على ذلك من ظن أنه يمكن محو الغضب بالكلية مثلاً . «وأن الرياضة إليه تتوجه وإياه تقصد ، كما يخطئ من جهة أخرى

من يظن أن الآثار السيئة للانفعالات لايمكن أن تتعدل» .

وفيما يلى مثال عن كيفية علاج الغزالى لآثار النفس السيئة ، كنموذج للطريقة التى يعالج بها جميع الأدواء النفسية (الأمراض النفسية) ؛ فعلاج الغضب عند الغزالى يكون قبل وقوعه أو بعد وقوعه .

١ – فعلاجه قبل وقوعه يكون بالتعرف على أسبابه والقضاء عليه .

٢ – أما علاجه بعد وقوعه فإنه يقوم على مايُعبر عنه بمعجون العلم والعمل أو بمعنى آخر الاعتماد على الجانب التفكيرى والجانب النزوعى العملى فى الإنسان.

أما الاعتماد على الجانب التفكيرى والإدراكى ، فطريقته عند الغزالى أن يعمد الإنسان إلى عدة أمور ، منها :

١ – أن يفكر فى الأخبار الواردة فى كظم الغيظ والحلم والاحتمال ، فيرغب فى الثواب وينطفئ غضبه .

٢ – أن يخوف نفسه بعقاب الله .

٣ – أن يحذر نفسه عاقبة العداوة والانتقام .

٤ – أن يتفكر فى قبح صورته عند الغضب ، وفى مشابهة صاحبه للكلب الضارى ، والسبع العاوى ، ومشابهة الحليم بالأنبياء والأولياء والعلماء .

٥ – أن يفكر فى السبب الذى يدعوه إلى الانتقام فيهون من شأنه .

٦ – أن يعلم أن غضبه من جريان الشيء على ماوافق مراد الله ، لا على وفق مراده ، فكيف يقول أن مرادى أولى من مراد الله . (٨٢)

أما الاعتماد على الجانب النزوعى أو العملى فإنه يتضمن قولاً وفعلاً :

إما القول فإن تقول بلسانك أعوذ بالله من الشيطان .. إلى غير ذلك ، حتى تنصرف النفس عن الغضب ، ويتغير مجرى تيار الفكر .

فإن لم يزل مابك ذلك ، فاجلس إن كنت قائماً واضطجع إن كنت جالساً واقترب عن الأرض التى منها خلقت ، لتعرف بذلك نفسك ، وأطلب بالجلوس والاضطجاع السكون ، فإن سبب الغضب الحرارة وسبب الحرارة الحركة . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إن الغضب جمرة توقد فى القلب ، ألم ترى انتفاخ أوداجه وحمرة عينيه ، فإذا وجد أحدكم من ذلك شيئاً ، فإن كان قائماً

فليجلس وإن كان جالساً فليقم » .

وهذا مايسميه المحدثون فى علم النفس تغيير الحالة الجسمية الظاهرة ، وحيث إن حجتهم فى ذلك أن كل انفعال تصحبه حالات جسمانية ظاهرة وباطنة تلائمه ، وأن تغيير هذه الحالات قد يؤدى إلى ضعف الانفعال وإخماد ثورته .

وتغيير الحالة الظاهرية يدعو إليه الحديث الشريف المشار إليه آنفاً . أما تغيير الحالة الباطنية فالغرض منه تهدئة أجهزة الجسم الباطنية ، التى تكون فى حالة ثورة واضطراب عند الغضب .

ويستند الغزالى فى هذا المعنى بكلام رسول الله صلى الله عليه وسلم :

«فإن لم يزل ذلك فليتوضأ بالماء البارد أو يغتسل ، فإن النار لايُطفئها إلا الماء» .

تلخيص :

* تمثل الانفعالات جزءاً هاماً فى الحياة الوجدانية فى السلوك الإنسانى ، وترتبط الانفعالات بالدافعية إذ أن دوافع السلوك تتضمن جانباً انفعالياً .

* لاتخلو حياة الإنسان من انفعالات تنشط الحياة وتنوعها وتلونها . والانفعالات تعتبر محفزات للسلوك ، وعادة يرتبط الانفعال بإشباع حاجة أو رغبة أو عاطفة.

* هناك مواقف وظروف يتم فيها الانفعالات ، كما أن هناك مظاهر للحالات الانفعالية ، كما أن هناك خطوات يتم فيها الانفعال .

* من خصائص الانفعالات وجود مثيرات للانفعالات ، وهناك التعبير الإنفعالى وعوامل خاصة بإثارة الانفعالات .

* تعتبر الدوافع والانفعالات من المؤثرات الهامة المحددة للسلوك والبناء الشخصى للإنسان . والانفعالات تمثل الحالات الوجدانية المتصلة بموضوع معين أو موقف معين ، بينما الخاطر يمثل العلاقة أو الرابطة الضعيفة بالموقف . ودور الانفعالات من السلوك يمثل الشدة المضطردة فى السلوك المؤدى إلى توجيه متواتر إزاء هدف معين ، مع اختلاف الوسائل المؤدية إلى هذا الهدف .

* الانفعال يمثل جزءاً من البناء التكوينى الفطرى الذى يؤدى إلى سلوك ضرورى فى قوام الحياة الإنسانية .

* يجب التمييز بين الانفعالات والعواطف والانفعالات والمشاعر .

* بالنسبة للإنفعلات الفجة أو الغليظة فإنها تصنف على أساس الانفعالات المختلفة فى درجة الشدة مثل الهوى كما هو وارد فى التفسير الإسلامى . والجانب الآخر هو الاستمرار للانفعال .

* يُفسر ابن سينا الانفعالات كالغضب والفرح واللذة الفزع والحزن على أنها حالات حركات الروح إلى خارج أو داخل وإما دفعة واحدة أو بصورة تدريجية. وهى تحدث تغيراً فى الحالة النفسية .

* تفسير الإمام الغزالى على أساس الحياة الوجدانية ومايرافق الشعور الوجدانى من مظاهر نفسية ، وأهم الانفعالات فى رأيه انفعالى الخوف والغضب . كما ميز بين الانفعالات العنيفة والانفعالات الهادئة .

* تشير الدراسات النفسية المعاصرة إلى أن تعديل الانفعالات يمكن أن يتم عن طريق التربية .

في التفسير الإسلامى مايشير إلى أن محو الغضب بالكلية أمر خاطئ ، كما أن الآثار السيئة للانفعالات يمكن تعديلها .

* فى رأى الإمام الغزالى أن الغضب يُمكن علاجه قبل وقوعه أو بعد وقوعه ، وهناك جانب تفكيرى وجانب نزوعى عملى يمكن عن طريقه علاج إنفعال الغضب .

تعقيب :

* تبدو الانفعالات فى السلوك الإنسانى فى الشعور بالخوف أو الخجل أو الغضب أو الغيرة ، أو مايتصل بالخبرات النفسية الوجدانية .

ومن مثيرات الانفعالات إدراك الأشياء المادية المحيطة بالفرد أو علاقاته بالأفراد الآخرين ، أو بالمواقف المختلفة التى يمر بها .

وقد تؤثر هذه المثيرات المباشرة الواقعية فى عالم الصغار أكثر منها فى عالم الكبار ، حيث تصبح هذه المثيرات رمزية معنوية ، كالذكريات والخبرات الماضية التى يسترجعها الإنسان فى مخيلته فتثير مشاعره وانفعالاته ، أو عندما يقع بصره على مايقرأ من مثيرات لشجونه وعواطفه ، فيستجيب لهذه المثيرات المختلفة ، فيثور فى أعماق نفسه ، وتبدو مظاهر هذه الانفعالات على تعابير وجهه وفى سلوكه ونشاطه .

من هذا يتبين أن مثيرات الانفعالات قد تكون حسية ملموسة أو رمزية معنوية .

* وفى نمو الإنسان الذى خُلق من ضعف ثم من بعض ضعف قوة ثم من بعد قوة ضعفاً وشيبة ، نجد أن انفعالات الطفولة يغلب عليها الطابع الحسى حسب تدرج مراحل الطفولة حتى المراهقة ، وحيث يكون السلوك عشوائياً والاستجابة تجاه مثيرات الانفعالات عامة ، وتتمايز هذه الاستجابات وتتكامل عندما يصل الفرد إلى مرحلة الرشد . وفى مرحلة الرشد عند الأسوياء يحدث التمايز التام للانفعالات ، والاتزان والضبط الانفعالى . وعندما يتقدم العمر ، وتنحدر القوى النفسية للفرد فى مرحلة الشيخوخة يحدث الجمود والانهيار فى الجانب الانفعالى من سلوك الإنسان .

* ولم يوضح التفسير الإسلامى تدرج الانفعالات فى مراحل العمر ، لكنه ميز بين الانفعالات الفجة أو الغليظة أو العنيفة ، والانفعالات الهادئة ، كما أوضح مظاهر الانفعالات الخارجية أو الداخلية والتى يحدث تغيراً فى الحالة النفسية للفرد.

* ويتفاوت الناس فى انفعالاتهم ، فهناك الحليم وهناك الغضوب الذى يثور لأتفه الأسباب ، وهناك الحليم الذى يتقى شره عند الغضب . والغضب فى الإسلام لايكون إلا فى الحق الخاص بانتهاك الحرمات ، والرفق فى التعامل الإنسانى أمر واجب ، وإلا زاد التنافر بين الناس واضطربت الحياة الاجتماعية .

فعن جرير بن عبدالله رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

«من يُحرم الرفق يُحرم الخير كله»

رواه مسلم .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رجلاً قال للنبى صلى الله عليه وسلم: أوصنى . قال : «لاتغضب» فردد مراراً ، قال «لاتغضب»

رواه البخاري .

وكم من حماقات ترتكب عند الغضب ، ذلك لأن العقل يختل فى تفكيره، فكما قال الإمام الغزالى عند تشبيهه الانفعال الغضبى ، بأنه شعلة نار مستكنة فى طى الفؤاد ، استكنان الحجر تحت الرماد .

وعلاج الغضب كما أشار عليه رسول الإسلام محمد عليه أفضل صلاة وتسليم يكون بتغيير الحالة الجسمية الظاهرة والباطنة حتى يضعف الانفعال وتخمد الثورة .

ولكن الحلم سيد الأخلاق ، والقدوة الحسنة والتربية يمكن أن تعدل من السلوك الانفعالى ، ولايتم ذلك إلا بالتدريج ، ذلك لأن محو السلوك الغضبى دفعة واحدة أمر يخالف طبيعة التكوين النفسى عند الإنسان .

* ومن الخوف ماقد يصبح خوفاً مرضياً أو مايُعرف بالخواف أو الفوبيا Phobia ، وهو خوف دائم من موضوع (شخص أو شيء أو فعل أو موقف أو مكان) وهو عادة لايخيف ، وليس له أساس من الواقع ، ويصعب ضبطه أو التخلص منه أو السيطرة عليه ، والمريض يتملكه الخوف ويحكم سلوكه ويصاحبه القلق والعصابية والسلوك القهرى .

وهو خوف غير طبيعى ودائم متكرر ومتضخم مما لايخيف فى العادة ، ولايعرف المريض له سبباً . وقد يكون الخواف عاماً غير محدد ، وهمياً أو حسياً كالخوف المرضى من الموت أو العفاريت . ومن سمات المريض التطرف فى الأنانية والتمركز حول الذات والانطواء والتشاؤم والخجل والجبن .

* وقد يصبح الخوف المرضى وساوس ، وخاصة عندما يصل فقد الذات إلى درجة مبالغ فيها ، وقد يترتب عن ذلك اضطراب نفسى حاد ، قد يصل إلى درجة

إيذاء الفرد لنفسه ، وتتعدد وسائل الإيذاء من فرد إلى آخر .

* والخوف والغضب كلاهما يسببان عدم الشعور بالأمن ، بل إن عدم الشعور بالأمن من شأنه أن يكون سبباً فى ظهور انفعالى الخوف والغضب .

* ومن مثيرات الغضب عند الإنسان ... فى التفسير الإسلامى للسلوك الانفعالى ... والشيطان الذى يوسوس فى صدور الناس من الجنة والناس . والذى وصفه رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنه ثوران دم القلب وإرادة الإنتقام وفى حديث الرسول عليه أفضل صلاة وتسليم :

«الغضب يجمع الشر كله»

(رواه أحمد)

والغضب كانفعال له درجات الإفراط والتفريط والاعتدال . والغضب الشديد يعطل التفكير الواع والسلوك القويم وأقل الناس غضباً أعقلهم . والغضب كما أشار الغزالى غول العقل . (٨٣)

ودرجات الانفعال كالخوف مثلاً لها آثارها السلوكية السلبية أو الإيجابية . والإسلام يدعو دائماً إلى الاعتدال وليس الإفراط أو التفريط بأمور مرغوبة فى الانفعالات . ويمكن أن نوضح التفسير الإسلامى لدرجات انفعال الخوف .

فالغزالى يشير إلى أن الخوف من الله يجب ألا يكون فيه إفراط ، وينبه إلى أن من ظن أن الخوف كلما قوى كان أحمد أخطأ فى ذلك ، لأن الخوف الذى يجاوز حد الاعتدال يكون له أثر مثبط على السلوك ، حتى يخرج إلى اليأس والقنوط ، بل إنه يمنع من العمل ، وقد يخرج إلى المرضى والضعف ، وإلى الوله والدهشة ، وزوال العقل ، بل قد يخرج بالإنسان إلى الموت .

والتقصير أو التفريط يكون الخوف فيه لايترك أثراً لتعديل السلوك تعديلاً جوهرياً ، فتقتصر آثاره على بعض الاستجابات السريعة كالبكاء والدهشة ، حيث إنها سرعان ماتزول ، وهذا النوع يجرى مجرى رقة النساء ، ويخطر بالبال عند سماع آية من القرآن فتثير البكاء وتفيض الدموع . كما يحدث ذلك أيضاً عند مشاهدة سبب مفزع ، فإذا غاب ذلك عن الحس رجع القلب إلى الغفلة . ومثل هذا الخوف من الله تعالى ... ضعيف النفع ؛ إذ لايؤدى إلى تغيير جذرى فى السلوك.

والحد المعقول من الخوف من الله هو الذى يبعث على العمل ، وهو حد الإعتدال الذى يكون من نتائجه على السلوك والجوارح «أنه يكفها عن المعاصى ويقيدها بالطاعات تلافياً لما فرط ، واستعداداً للمستقبل . ولذلك قيل : ليس الخائف من يبكى ويمسح عينيه ، بل من يترك مايخاف أن يعاقب عليه» .

* وحيث يكون الاعتدال والالتزام والضبط فى الانفعالات . ومن حيث أن الانفعالات لها آثارها السلبية أو الإيجابية على السلوك ، فإن الإسلام ينادى بالاعتدال فى الانفعالات ، وحيث يمكن تجنب الآثار السلبية بقمع الشهوات وتكدير اللذات وبحصول الخشوع والذلة والاستكانة ومفارقة الكبر والحقد والحسد. واتباع مايؤدى إلى الآثار الإيجابية ، والتى تبدو فى الورع والتقوى والمجاهدة والعبادة والفكر والذكر . (٨٤)

* هذا ولعل أمثل سلوك وأعلى قدوة فى ضبط انفعال الغضب ، هو رسول الله صلى الله عليه أفضل صلاة وتسليم والذى وصفه الله تعالى :

﴿ ولَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾

(سورة آل عمران آية ١٥٩)

ولعل لنا فى الرسول الهادى الأمين صلوات الله عليه وسلم الأسوة الحسنة فى كيفية ضبط الانفعالات .

تمـــــارين :

١- تعتبر الانفعالات فى نظر علم النفس المعاصر ، أساساً هاماً فى الحياة الوجدانية عند الإنسان ، وتتأثر بالدافعية ؟ وضح .

٢- وضح الفرق بين الانفعالات والخواطر فى الحياة الوجدانية الإنسانية ؟

٣- كيف نميز بين أنواع الانفعالات فى السلوك الإنسانى ؟

٤- كيف فسر «ابن سينا» الانفعالات ودورها فى تغير الحالة النفسية عند الإنسان ؟

٥- يُعتبر الإمام الغزالى انفعالى الخوف والغضب أهم الانفعالات عند الإنسان ؟ وضح .

٦- كيف يُفسر علم النفس المعاصر تعديل الانفعالات ؟

٧- ما التفسير الإسلامى فى تعديل الآثار السيئة للانفعالات ؟

الفصل التاسع

التفسير الإسلامي للعواطف والاتجاهات

المحـــــتوى :

* تمهيد
* العواطف وعلم النفس المعاصر .
* الاتجاهات فى علم النفس المعاصر .
* القيم ودورها فى السلوك .
* التفسير الإسلامى للعواطف .
* التفسير الإسلامى عن صلة العواطف بالانفعالات .
* التصنيف الإسلامى للعواطف .
* تلخيص .
* تعقيب .
* تمارين .

تمهيد :

تصدر الانفعالات عند الإنسان فى صورة استجابات عضوية معقدة ، يؤثر فيها الجانب الوجدانى عند الإنسان الفرد .

والانفعالات فى شدتها يصاحبها تغيرات فسيولوجية متميزة من جانب الغدد الصماء والجهاز العصبى .

ومن الناحية البيولوجية تعتبر الانفعالات إستجابات لاستعدادات ، من شأنها أن تُحدث تكيف الفرد للظروف المتغيرة فى بيئته ، عندما يواجه موقفاً يؤثر فى ظهور الاستجابات الانفعالية .

من هذا يتبين أن الجوانب الوجدانية فى السلوك البشرى ترتبط بالاستعدادات الانفعالية لديه .

وتُعتبر العواطف والاتجاهات والقيم من الاستعدادات الانفعالية عند الإنسان، وتمثل جانباً هاماً فى الحياة الوجدانية عند الإنسان ، وهى ذات اتجاهات نزوعية مختلفة ترتبط بغرض معين ، وتهدف غاية معينة .

ونعرض فى هذا الفصل مايتصل بالعواطف والاتجاهات والقيم وتفسيرها فى علم النفس المعاصر ، ومايقابل ذلك من التفسير الإسلامى .

العواطف وعلم النفس المعاصر :

فى مفهوم العاطفة فى علم النفس المعاصر ، مايشير إلى أنها استعداد نفسى ناجم عن تركيز مجموعة من الانفعالات حول موضوع معين نتيجة لتكرار اتصال الفرد بهذا الموضوع .

ولذلك تعتبر العاطفة إستعداداً وجدانياً مركباً وتنظيماً مكتسباً لبعض الانفعالات نحو موقف معين ، تدفع صاحبها للقيام بسلوك خاص . (٨٥) ومعنى

ذلك أنه إذا تجمعت عدة انفعالات حول موضوع واحد ، فإنه ينتج عن ذلك عاطفة معينة تدفع الفرد للقيام بسلوك خاص تجاه هذا الموضوع .

وتصنف العواطف عادة إلى الأنماط التالية :

أ - من حيث النشأة :

- **عواطف إيجابية** : كالحب وانفعالها الحنو .
- **عواطف سلبية** : كالبغض والكراهية وانفعالها البغض والكره .

ب - من حيث الموضوع :

- **عواطف خاصة** : كحب شيء معين محدد أو حُب المثل العليا .
- **عواطف عامة** : نحو الجماعة كحب مجموعة من الناس .
- **عواطف مجردة معنوية** : مثل كره الشر .

كما تصنف العواطف أيضاً بحسب أبعاد شدتها ودرجة التأثر الانفعالى بالموقف الذى يثير الحالات الوجدانية .

وقد يتبادر التساؤل عما إذا كانت العواطف جملة تنظيمات شعورية تمثل الحياة الانفعالية ، أم أنها تنطوى على مظاهر لاشعورية . والواقع أن العواطف القوية فى حياة الإنسان تحتوى على الكبت ، والذى يتمثل فى صورة تناسى فكرة ما وأبعادها من حيز الشعور ؛ لعدم توافقها مع التزامات المعايير الأخلاقية والاجتماعية .

ويمثل نمو العواطف تنظيماً للحياة الوجدانية والنزوعية عند الفرد ، وبإنعدام العواطف تصبح الحياة الانفعالية للفرد ضرباً من ضروب الفوضى والتشوش .

وهناك مايُعرف بالعاطفة السائدة Master sentiment، وهى التى تسود العواطف الأخرى عند الفرد ، بل إنها تكشف وتساعد على التنبؤ بسلوك الفرد لأنها تسيطر على سلوكه .

وتعمل التربية الحديثة على تدعيم العواطف الإيجابية فى نفوس الأبناء الصغار ، لتكون هى السائدة مثل العاطفة الدينية وعاطفة حب الوطن .

وفيما يتعلق بالاتزان النفسى والعواطف ، فقد تكون للعواطف آثارها الحسنة وقد تكون لها آثارها الضارة . والعواطف القوية تؤثر على الفرد تأثيراً سيئاً ، فقد

تضر بالجسم والنفس والعقل . فمن ناحية آثارها الجسمية فقد تحدث القلق والأرق والتوتر الدائب .

ومن ناحية آثارها النفسية فقد تحدث الكبت الذى ينتج عنه الاضطرابات النفسية والانحرافات السلوكية ، والتى قد تحدث الجنوح والسلوك الإجرامى .

ومن الناحية العقلية فقد تحدث اضطرابات فى إصدار الأحكام السليمة ، أو الخلط بين الأحكام الموضوعية ، وماقد يصاحب ذلك من اختلالات فى العمليات العقلية الأخرى .

الاتجاهات فى علم النفس المعاصر :

يرى بعض علماء النفس أن الاتجاهات أوسع مدلولاً من العواطف ، ولكنها أكثر غموضاً مما تعنيه العواطف وتدل عليه .

ويرى آخرون أن الاتجاهات مرادفة للعواطف من حيث الدلالة ، فكلاهما يعتبر من مكونات بناء الشخصية . وهذا التفسير الأخير أكثر دقة وأقرب إلى الصواب .

وتمثل الاتجاهات العوامل المؤثرة فى مشاعر الفرد الوجدانية واستعداداته ؛ حيث تقوم بتوجيه سلوكه على نحو معين فى البيئة التى يعيش فيها . والقصد بالمشاعر الوجدانية مايتصل بأحاسيس الفرد ومايصاحب ذلك من سلوك .

وقد تكون الاتجاهات لأشياء مادية ملموسة قائمة فى البيئة نحو الاتجاه مثلاً لاستخدام المنتجات الوطنية بدلاً من الأجنبية ، أو تكون نحو أشياء مجردة معنوية كالاتجاه الموجب نحو فعل الخير .

والاتجاهات فى طبيعتها وظيفية ؛ بمعنى أنها قد تكون من الوجهة الانفعالية مصدر رضى للفرد ، ويركن إليها أحياناً لكونها تشبع حاجة سلوكية عند الفرد ، حيث يستطيع أن يعبر بسلوكه ونشاطه عما يساوره من اتجاهات سلباً أو إيجاباً .

وعلى هذا فيمكن القول بأن تكوين شخصية الفرد بوجه عام وطبيعة سلوكه وتصرفه ، ينتظم وفق نظام معين من القيم التى تستقطب حولها مجموعة من الاتجاهات ترتبط بتلك القيم .

كما يُعبر عن الاتجاهات أحياناً بأنها استعدادات انفعالية نشطة ، يتم اكتسابها وتعلمها بأساليب مختلفة ، منها :

١ – التقليد والمحاكاة .

٢ – تكرار ممارسة الخبرات السارة أو غير السارة .

٣ – أو قد تتكون الاتجاهات لدى الفرد وفق الارتباط الذى يحدث بين إقتران الخبرة بالموقف .

والاتجاهات تتضمن الإطار الاجتماعى العام ، الذى يتكون من مفاهيم الأدوار الإجتماعية والمعايير المتعارف عليها ، وأطر التنشئة الاجتماعية .

القيم ودورها فى السلوك :

يدل الاتجاه على شيء معين بغرض واحد فى آن واحد ، سواء فى ذلك الأشياء المجردة أو الملموسة المحسوسة .

أما نظم القيم فإنها تدل على توجيه الاهتمام توجيهاً خاصاً إزاء أصناف من الأشياء . وقد تكون هذه الأشياء محدودة ، وقد لاتكون محدودة زيادة فاتجاهات الفرد على هذا الأساس تنسلك فى تنظيم من مكونات القيم لديه .

وأهم مصادر القيم والإتجاهات من الناحية النفسية هى :

١– الدوافع الفطرية كاتجاه الطفل نحو والديه ، مدفوعاً بإشباع حاجاته إلى الطعام والحاجة إلى الأمن .

٢– تتكون القيم والاتجاهات من التدريب والتوجيه المقصود من قبل الكبار فى عملية التنشئة الاجتماعية .

٣– تنشأ القيم والاتجاهات عن طريق الإقتداء بالآخرين .

٤– تؤثر اتجاهات الراشدين ومالديهم من قيم فى سلوك الناشئين ، الذين يكونون قيماً واتجاهات مماثلة بالتقليد أو عن طريق الاستقصاء .

٥– قد يكتسب الفرد أحياناً قيماً واتجاهات سالبة بفعل ماقد يتعرض له من ضغوط أو تبعات .

٦– تكتسب القيم والاتجاهات أيضاً من الخبرات التى يمر بها الفرد . ومن الناحية الاجتماعية يجب تثبيت الجيد من القيم والاتجاهات ، والعمل على أبعاد الضار منها .

التفسير الإسلامى للعواطف :

اهتم فلاسفة الإسلام عامة بما يُعرف بالحياة الوجدانية ، ولكنهم لم يطلقوا عليها اسم العاطفة ، وغلب عليهم تسميتها «بالعشق والهوى والميل» ، حسب موضوع الوجدان واتجاهه .

وهم يجعلون هذا النوع من النشاط النفسى تابعاً للقوى النزوعية ، وتحت إشراف القوى العملية للعقل (٨٦) .

ومن فلاسفة الإسلام الذين فسروا الحياة العاطفية عند الإنسان ... الإمام الغزالى ، والذى تأثر بآراء الصوفيين ، وحيث قام الغزالى بشرح مجموعة من العواطف التى تنشأ فى ظل البواعث والميول الراقية والدنيا ، مثل حب الله والأخوة والحلم والرفق والحدق والحسد بفعل مجموعة من المواقف الجزئية المصحوبة بعدد من الحالات الوجدانية ، فتشكل مانسميه باسم «العاطفة» .

وفى نظره أن الإنسانية عاطفة تتجمع عند الإنسان حول أخيه الإنسان ، كما أن الدين فى نظره عاطفة مركزها فكرة الإنسان عن الله ، وتلك الفكرة التى تتجمع حولها انفعالات الحب والخوف ، وهكذا الأمر بالنسبة لجميع العواطف .

ولايختلف مفهوم الغزالى عن العاطفة عما هو معروف فى علم النفس المعاصر ، فعاطفة الأخوة التى هى نوع من حب الإنسان للإنسان على مستويات مختلفة . وهذه العاطفة مهما يكون مستواها ، تقوم على أساس من الميول الاجتماعية والعالية ، وتقترن بمجموعة من الحالات الوجدانية فى ظروف ومواقف مختلفة ، يجمعها الغزالى تحت عنوان حقوق الأخوة .

ويشير الغزالى إلى أن هذه العاطفة تكون نتيجة لحب يرتبط بمصالح دنيوية أو أخروية ، يشعر فيها الإنسان دائماً باستمرار المساهمة والمشاركة لأخيه فى السراء والضراء ، فى المال والحال مثل الفرح لنعمته والحزن لمرضه ، والشعور بالشفقة والرحمة بالنسبة له وحب الثناء عليه ، والغضب له حيث يذم ، والانشغال عليه حين غيابه وتمنى العافية له عندما يمرض ، والألم له إذا وقع له مكروه .

والميول تكون قاعدة العاطفة ، لأن العواطف تنمو تحت تأثير التفكير والتأمل والتجارب الانفعالية المختلفة . فعاطفة الحب نحو الله تعالى مكتسبة . وهكذا فإن الميل إلى الاجتماع يعتبر أساساً لعواطف الصداقة والأخوة ، كما تعتبر الميول الدينية منبعاً لعواطف محبة الله والأنس به والرضا والرجاء فيه .

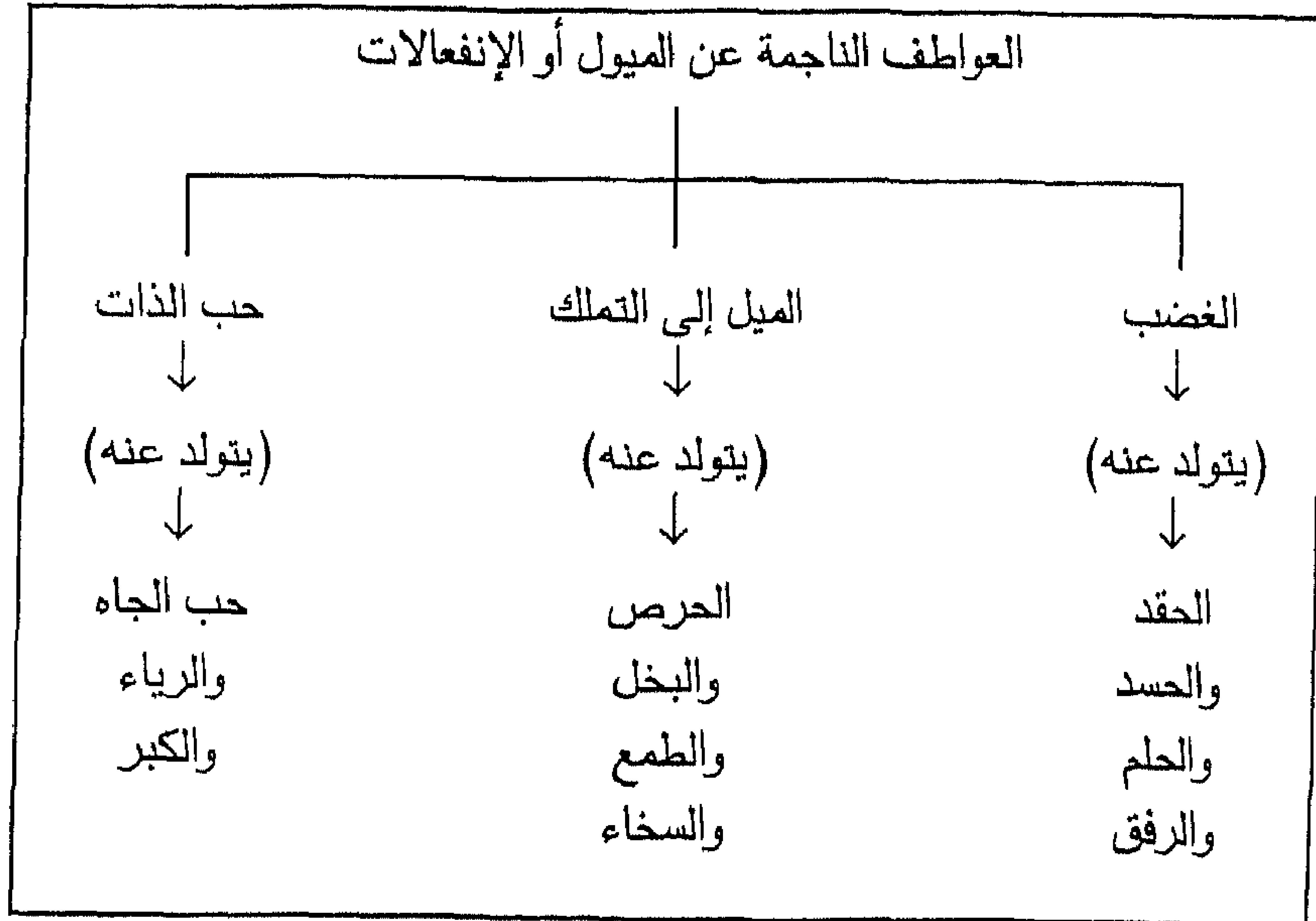
وفى رأى الغزالى أن :

١ - الغضب : يعتبر محوراً لعدد من العواطف كالحقد والحسد والحلم والرفق.

٢ - الميل إلى التملك : يعتبر محوراً لعدد من العواطف كالحرص والبخل والطمع والسخاء .

٣ - حب الذات : يعتبر محوراً لعدد من العواطف كحب الجاه والرياء والكبر.

ويمكن تمثيل ذلك كالآتى حسبما نراه فى تفسير الإمام الغزالى :



شكل (١٤) : العواطف الناجمة عن الميول أو الانفعالات فى رأى الإمام الغزالى .

وتستند العواطف كما هو الأمر بالنسبة لجميع الحالات الوجدانية على أساس من الحب والكراهية اللذين يتصلان باللذة والألم . فالطبع يميل إلى الشيء الملذ ومنه الحب وينفر عن المؤلم ويكرهه .

والعواطف الرئيسية هى عواطف الحب والكراهية ، وكل ماينشأ من عواطف أخرى فإنما يقوم عليها .

ومايساعد على تكوين العاطفة التكرار والتقليد . فالإنسان كما يقول الغزالى ليسمع فى الخطابة شجاعة على وخالد وغيرهما من الشجعان ، فيصادف فى قلبه

إعتزازاً وفرحاً وارتياحاً ضرورياً لمجرد لذة السماع فضلاً عن المشاهدة . ويورث ذلك حباً فى القلب .

ويتوافق فكر الغزالى مع فكر الصوفية من أن تهيئة البيئة الصالحة يؤدى إلى تكون العواطف ، وتتمثل هذه البيئة فى الأذكار والاجتماعات المختلفة ، إلى جانب مايعودون عليه أنفسهم من تفكير وتأمل وتجارب انفعالية مختلفة ؛ فالعاطفة تقوى بالمران والتجربة والصلة المتتابعة .

ولاينسى الغزالى أن يشير إلى عنصر المعرفة فى تكوين العاطفة لأنه لايحدث حب إلا بعد معرفة وإدراك . وهذا العنصر عنده من أهم أسباب تفاوت الناس فى الاستعداد لاكتساب العواطف ، وكلما زادت معرفة الإنسان بالموضع ازدادت العواطف التى تكون محوراً واضحاً ، كحب الله والعواطف الخلقية المختلفة إذ لايتصور عدم اقترانها بعامل المعرفة الهامة ، ولذلك كانت العواطف المختلفة من خاصية الحس المدرك ، فهى لاتوجد عند غير الإنسان .

والعواطف الثابتة تعطى الحياة الإنسانية وخاصة الوجدانية منها نظاماً واتساقاً نحو أهدافها بالذات . وعاطفة قوية كحب الله كافية لتحديد نشاط الفرد واتجاهه فى الحياة . وعناية الغزالى بالغة فى تكوين مجموعة من العواطف السامية كحب الله والأخوة فيه . وللغزالى آراء عن صلة العواطف بالانفعالات .

التفسير الإسلامي عن صلة العواطفة بالانفعالات :

يعتبر الانفعال تجربة عابرة فى الحياة الوجدانية عند الإنسان . بينما تمثل العاطفة نزعة تكتسب بالتدريج عن طريق التجارب الوجدانية . وبمعنى آخر يعتبر الانفعال استجابة معينة لموقف معين ، بينما العاطفة استعداد للقيام بنوع من الاستجابات ، وفقاً للحالة الشعورية الراهنة ولطبيعة الموقف الخارجى .

وفى الإسلام يعتبر الحقد مثلاً عاطفة أو عقدة ناشئة عن الغضب ، ولكنها تبدو أكثر تعقيداً من انفعال الغضب . وسبب ذلك كما يقول الغزالى ، ينشأ حين يكظم الإنسان غيظه لعجزه عن التشفى فى الحال ، ويرجع إلى الباطن ويحتقن فيه ، فيصير حقداً ، بأن يلزم قلبه الاشتغال به والنفرة عنه ، والبغض له . ويرافق هذ السلوك مجموعة من التأملات والتجارب الانفعالية من : تمن لزوال النعمة عن موضوع الغضب .... وسرور لمصيبته والحزن لنعمته .... والشماتة ببلائه .... والهجر .... والانقطاع .... والإعراض عنه .... والتكلم فيه بما لايسر ....

والاستهزاء .... والسخرية .... والإيذاء .

وعاطفة حب الله تنشأ أيضاً على هذا النحو اكتساباً بالتدريج ، وعلى فترة طويلة ومرافقة لعدة مظاهر انفعالية وتأملية مثل : صدق الرجاء فى مواعيد الله ... ومايتوقع المرء منه فى الآخرة من نعيم ... وما أسلف على الإنسان من آياد ... بالإضافة إلى خوفه من نقمته ... أو الخوف من عذابه .

وهكذا تبدو العواطف متميزة على الانفعالات ؛ لأن تنظيمها مع الدوافع حول محور معين سواء كان ذلك شخصاً أو موضوعاً مجرداً ، مثال ذلك تكون محبة الله حول محور (العزة والجلالة) وهو الله تعالى .(٨٧)

التصنيف الإسلامى للعواطف :

أرقى العواطف فى نظر الغزالى تتمثل فى :

- محبة الحق وتتعلق بالإدراك .
- محبة الخير وتقوم على النزوع .
- محبة الجمال وتستند على الوجدان .

ويضيف الغزالى إلى «العواطف» أساس اللذة والألم من حيث إنهما حسيان أو معنويات . فالعواطف الراقية تتبع اللذائذ المعنوية ومايدرك عن طريق نور البصيرة ، بينما يتبع النوع الثانى اللذائذ الحسية ومايدرك بواسطة الحواس .

ويمكن ملاحظة اختلاف هذين المستويين حتى فى العاطفة الواحدة عندما نستعرض عاطفة الحب عند الغزالى فهى تنشأ عن عوامل مختلفة من :

- حب الإنسان لذاته .
- أو حبه لمن أحسن إليه .
- أو حبه لما هو جميل فى ذاته .
- أو تنشأ عن تجاذب فطرى طبقاً لما جاء فى الحديث :

«الأرواح جنود مجندة ماتعارف منها أئتلف وماتناكر منها اختلف» ؛ ولأن شبيه الشىء منجذب إليه كانجذاب الصغير إلى الصغير ، والكبير إلى الكبير .

ويُميز الغزالى فى عاطفة الحب بين نوعين أساسيين :

١ – أن تحب إنساناً أو موضوعاً بذاته . ومعنى ذلك أن تلتذ برؤيته ومشاهدة أخلاقه . وكل لذيذ محبوب ، واللذة تتبع الاستحسان ، والاستحسان يتبع الملاءمة والمناسبة والموافقة بين الطباع ، والاستحسان يكون للظاهر أو الباطن، ويدخل فى هذا النوع عاطفة حب المال ولايدخل فيه الحب لله .

٢ – أن يكون الحب لغاية ، ويميز الغزالى بين الغايات الدنيوية والآخروية والمتعلقة بالله . فالحب لغاية دنيوية يكون وسيلة إلى محبوب غيره ، والوسيلة إلى محبوب محبوبه . ومايحب لغيره كان ذلك الغير هو المحبوب بالحقيقة . ويدخل تحت هذا النوع حب المال كوسيلة للحصول على متاع الدنيا . وأما تعلق الحب بحظ أخروى ، فيكون كمن يحب شيخه ليصل إلى العلم وتحسين العمل والفوز بالآخرة .

أما الحب فى الله فيكون لا لينال منه علماً أو عملاً أو أى شيء آخر . ولكن مثل هذه العاطفة تنتقل إلى ماسواه ، إذ المحب يحب كل مايتعلق بالمحبوب أو مايناسبه . ومثل هذا الحب يقوم أيضاً على وجود علاقة أو مناسبة خفية بين الإنسان والله ، لأن الإنسان فى الأساس يتصل بالله بروحه .

ومن هذا يتبين أن آراء الإمام الغزالى فيما يتعلق بتصنيف العواطف ، تتفق لحد ما مع موضوع الاتجاهات فى علم النفس المعاصر ، من حيث كون الفرد له إتجاهات نحو أشياء معنوية .

تلخيص :

* الجوانب الوجدانية فى السلوك البشرى ترتبط بالاستعدادات الانفعالية لديه ، والعواطف والاتجاهات والقيم تعد من الاستعدادات عند الإنسان .

* العواطف فى تفسير علم النفس المعاصر تمثل استعداداً وجدانياً مركباً وتنظيماً مكتسباً لبعض الانفعالات ، وتصنف الانفعالات من حيث النشأة والموضوع ودرجة الشدة .

* العاطفة السائدة هى التى تسود العواطف ، وتكشف وتساعد على التنبؤ بسلوك الفرد .

* العواطف قد تكون آثارها حسنة أو ضارة بالنسبة للاتزان النفسى .

* الاتجاهات فى علم النفس المعاصر أوسع مدلولاً من العواطف ، ولكنها أكثر غموضاً مما تعنيه العواطف ، وهى أيضاً تمثل مشاعر الفرد الوجدانية واستعدادتها . كما أن الاتجاهات من وظائفها أنها قد تكون مصدر رضى الفرد ، وهى تكتسب بالتعلم .

* القيم تتصل بالاتجاهات . ونظم القيم تدل على توجيه الاهتمام توجيهاً خاصاً ، واتجاهات الفرد تنسلك فى تنظيم قيمى (من مكونات القيم) لديه . ومن الناحية النفسية هناك مصادر لتكون القيم والاتجاهات .

* فى التفسير الإسلامى للعواطف ، أطلق علماء المسلمين على العواطف ، مسميات العشق والهوى والميل حسب موضوع الوجدان واتجاهه ، وهو يتبع القوى النزوعية فى السلوك وتقع تحت القوى العملية للعقل .

* تأثر الإمام الغزالى بالفكر الصوفى والعاطفة لديه لايختلف مفهومها عن مفهوم العاطفة فى علم النفس المعاصر . والعاطفة فى نظر الغزالى نتيجة حب يرتبط بمصالح دنيوية أو آخروية .

* فى نظر الغزالى أن الميول تكون قاعدة العاطفة ، لأن العواطف تنمو تحت تأثير التفكير والتأمل والتجارب الانفعالية المختلفة .

* فى رأى الغزالى أن العواطف الناجمة عن الميول أو الانفعالات تتمثل فى الغضب / الميل إلى التملك / حب الذات ، كما أن أساس العواطف الحب والكراهية اللذين يتصلان باللذة والألم .

* مايساعد على تكوين العاطفة التكرار والتقليد ، كما أن عنصر المعرفة هام فى تكوين العاطفة .

* يُفسر الإسلام الانفعال على أنه تجربة عابرة فى الحياة الوجدانية ، بينما تمثل العاطفة نزعة تكتسب بالتدريج عن طريق التجارب الوجدانية .

* الحقد – فى نظر الإسلام – يمثل عاطفة أو عقدة ناشئة عن الغضب ، كما أن عاطفة حب الله تنشأ بالاكتساب والتدريج وعلى فترة طويلة ومرافقة عدة مظاهر انفعالية وتأملية .

* أرقى العواطف فى نظر الغزالى : محبة الحق ومحبة الخير ومحبة الجمال.

* وعاطفة الحب فى نظر الإمام الغزالى تنشأ عن عوامل مختلفة منها حب الإنسان لذاته أو حبه لمن أحسن إيه ، أو حبه لما هو جميل فى ذاته أو نتيجة تجاذب فطرى .

* آراء الإمام الغزالى فيما يتعلق بتصنيف العواطف تتفق لحد ما مع موضوع الاتجاهات فى علم النفس المعاصر ، من حيث كون الفرد له اتجاهات نحو أشياء معنوية .

تعقــيب :

* فى التنظيم الانفعالى للإنسان ، تتجمع المثيرات الانفعالية حول موضوع معين فى البيئة المحيطة بالفرد ، حسب نوع الخبرات ، وينتج عن ذلك مايعرف بتكوين العادات الانفعالية أو العواطف .

لذلك فالعاطفة تمثل تنظيماً مركباً من عدة انفعالات حول موضوع معين صاحبه خبرات سارة أو غير سارة . وبذلك يمكن أن نصف العاطفة على أنها مزاجية ... مكتسبة .... خاصة .

فهى مزاجية لأنها تتكون عن طريق تنظيم الدوافع الأولية حول موضوع معين .

وهى مكتسبة لأنها نتيجة تفاعل الإنسان مع البيئة الخارجية أو نتيجة سلوكه فى مجال معين .

وهى خاصة لأنها لاتدخل فى جميع أساليب النشاط الإنفعالى ، بل فى جزء منه يتعلق بموضوع العاطفة .

* والنشاط الانفعالى الصادر عن العاطفة لايستثار ، إلا إذا وجد الموقف الذى يتعلق بموضوع العاطفة أو مايستدعيه . وإذا لم يوجد الموقف فإن النشاط الانفعالى المتصل بالعاطفة يعتبر سلوكاً كامناً يحتاج لمثير معين ينشطه أو يستدعيه .

* فيما يتعلق بالاتجاهات التى هى أيضاً تتصل بالتنظيم الإنفعالى فى السلوك الإنسانى ، فإنها تمثل مجموعة من إستجابات القبول أو الرفض التى تتعلق بموضوع معين وهى من دوافع السلوك الإنسانى ، إذ إنها تحفز الفرد على العمل بطريقة معينة فى موقف معين . واكتساب الدوافع المكتسبة الخاصة والاتجاهات عادة تكون نحو أشياء معنوية .

* فى تفسير العلماء المسلمين للعواطف ، أطلقوا عليها مسميات الميل والهوى والعشق حسب موضوع الوجدان واتجاهه ، واتفق علماء المسلمين أيضاً على أنها حوافز للسلوك .

* ومن حيث يكون الميل أو الهوى ، فإن العواطف تكون نتيجة حب أو عشق أو تعلق بأمور خاصة بالحياة الدنيوية أو الحياة الآخرة .

* وعنصر المعرفة هام فى تكوين العاطفة ، والمعرفة تقوم على الممارسة المتكررة والتقليد ، ولذلك فإن الرأى الإسلامى الذى يشير إلى أن المعرفة هامة فى تكوين العاطفة يتوافق مع ما أشير إليه فى هذا الصدد ؛ حيث إن المعرفة تؤدى إلى تكوين العاطفة التى تكتسب بالتدريج نتيجة المواقف والتجارب الوجدانية .

* وهناك العواطف التى تنجم عن الميول أو الانفعالات فى التفسير الإسلامى ، فالغضب ينشأ عنه الحقد والحسد أو الحلم أو الرفق ، والميل إلى التملك يتولد عنه الحرص والطمع والبخل أو السخاء ، وحب الذات يتولد عنه حب الجاه والرياء والكبر . وهكذا فسر علماء المسلمين أنماطاً متعددة من السلوك الإنسانى فى الجانب الانفعالى ، والمتمثل فى الكثير من مظاهر السلوك الفردى والجماعى فى الحياة .

* وهذه العواطف التى أشير إليها ، أشير إلى أحداث كثيرة منها فى الذكر الحكيم ، فالغيرة التى تكون من الحقد ، قد تؤدى بالفرد إلى كره غريمه وتدفعه أحياناً إلى إيذائه ، وحيث تقترن الغيرة ومايتبعها من حقد بالسلوك العدوانى .

وعادة مايتخذ السلوك العدوانى مسلكاً معيناً تجاه شخص معين ، فإذا أخفق الفرد فى اتباع هذا السلوك ، ارتد على أعقابه واتخذ لنفسه سلوكاً آخر لينتقم من الشخص الذى هو غريمه . ولقد بدأ السلوك العدوانى نتيجة الغيرة والحقد والحسد بين بنى آدم عليه السلام بين قابيل وهابيل .

كما صور القرآن انفعال الغيرة وآثارها من الحقد والضغينة فى قصة يوسف عليه السلام ، وغيرة أخوته منه إلى المدى الذى أرادوا قتله ، وحيث تناجوا فيما بينهم :

﴿ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴾

(سورة يوسف – آية ٩)

والذكر الحيكم نوه أيضاً إلى الحسد الذى هو أيضاً من إنفعال الغضب فى سورة الفلق :

﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾

(سورة الفلق آية ٥)

* إن أرقى العواطف فى نظر الإسلام هى محبة الحق ومحبة الخير ومحبة الجمال، ومحبة وطاعة خالق هذا كله ، فالحب فى الله وطاعة الله ورسوله ، واتباع الحق هى من أجل النعم على الإنسان حيث تضفى عليه مشاعر وأحاسيس السكينة والطمأنينة وراحة النفس . بل إنها تسمو بتقدير الذات ، بحيث يشعر الإنسان بإفاضة ورضى الله تعالى فى أقواله وأفعاله ، ذلك لأنه من تعلق قلبه ومن أحب الله تعالى أحب كل ماحوله ومايتعلق به .

* والعشق فى نظر الإسلام يمثل مايُعرف بالميل السائد عند الإنسان ، وليس بالضرورة أن يعشق الإنسان الجنس الآخر ، بل إن هذا العشق ظهر فى التفسير الإسلامى للسلوك الإنسانى ، على أنه يؤثر فى انتقال العواطف من موضوع إلى آخر ، ومن مرحلة عمرية فى حياة الإنسان إلى مراحل أخرى ، وأساس ذلك التلازم والتشابه بين الميول .

فإذا أحب الإنسان المال ، تحول ذلك من كونه ضرورة وأساساً لتحقيق متاع الحياة الدنيا ، إلى أن يصبح المال يحب لذاته ، وعندئذ يزداد الميل إلى التملك ، وهذا الميل من شأنه أن يحول حب المال لذاته إلى عاطفة البخل والشح والحرص ، ويترتب عن ذلك أن تصبح هذه العاطفة من العواطف السائدة التى تحكم كل سلوك يتعلق بالمال والحرص عليه من قبل هذا الإنسان .

* وإن قوة العاطفة وشدتها تتغلب على الشخصية وتلونها بحيث تصبح – كما ذكرنا – هى العاطفة السائدة ، والتى يترتب عنها أن تغدو أهم محاور الأحاسيس الوجدانية للفرد ، وحيث كما يقول الإمام الغزالى فى وصفه لذلك تستغرق الهم والقلب فحب المال قد يسيطر على قلوب البعض ، ويسيطر على كل سلوك يختص بهؤلاء البعض . وعاطفة حب الله قد تصبغ شخصية الإنسان، بحيث تصبح محور تفكيره ومصدر أحكامه ولاتتحمل أن يكون إلى جانبها عاطفة أخرى .

وبذلك فإن سيطرة حب الله على سلوك الإنسان ، وكمال هذا الحب ، يكون بأن يحب المرء الله بكل قلبه ، فإذا التفت قلبه إلى غير التعلق الكامل بالله، فزاوية من قلبه تكون مشغولة بغير الحق تبارك وتعالى ، وبقدر مايشغل بغير الله ينقص منه حب الله ، وهنا يبدأ التفريط فى أسمى العواطف .

* والعواطف تكتسب بالتدريج ، ولاتكون من تجارب عابرة كما الحال فى الانفعال. فالعواطف لاتكون نتيجة استجابة معينة لموقف عابر ، بل يرافقها سلوك متكرر لمجموعة من المشاعر والتأملات والتجارب ، وعلى فترة طويلة ترافق عدة مظاهر انفعالية حتى تتكون العواطف .

وعاطفة حب الله باعتبارها أسمى عاطفة فى التفسير الإسلامى ، تكتسب بالتدريج ، وعلى فترة طويلة ، ويرافقها سلوك انفعالى وتأمل عقلى ومشاعر وجدانية مثل نعم الله التى لاتعد ولاتحصى ، والتبصر فى قدرة الله ، وفيما وعد به من نعيم فى الدار الآخرة ، وفى صدق الوعد والرجاء ، وفى تسخير الأرض والسماء والأنعام لصالح الإنسان ، إضافة إلى إدراك وتدبر وخوف من نقمته أو الخوف منه لذاته . وهكذا يميز الإسلام العواطف عن الانفعالات العابرة التى تبدو فى مظاهر سلوكية عديدة فى الحياة اليومية .

* وأعتى مافى عواطف الإنسان تلك ، التى تجعل الإنسان فى اضطراب دائم وعدم استقرار فى اليقظة والمنام ، وهى العواطف التى يمكن أن نطلق عليها اللاإجتماعية أو غير الإنسانية ، والتى تمثل الجانب السلبى فى الحياة العاطفية للإنسان ، والتى نضرب منها مثلاً الحقد ، والذى ينشأ تدريجياً أيضاً من انفعال الغضب . والحقد من العواطف السالبة ، وهو مرجعه كظم الغيظ وعدم التسامح والعفو عن الآخرين .

قد ورد فى كتاب الله «والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس» . ولكن ليس كل إنسان قادر عند انفعاله وغضبه أن يكظم غيظه ، أو يخرج مافى ذاته من إضغان فى الموقف الذى يثير غضبه ، أو يتشفى فى الحال . ونتيجة لذلك يكظم غيظه فى اللاشعور ، ويحتقن فيه ويتحول إلى حقد وكراهية ، وكلما ورد فى خاطره الموقف أو الشخص الذى سبب له ذلك ، أو يلتقى بالفرد ذاته ، يبدأ عقله فى الشطط وينفر من هذا الفرد .

وقد يصل الحقد إلى تمن زوال الصحة أو النعمة ، والابتهاج للأحداث المؤلمة ، للغير وقد يحزن لسروره أو تمتعه بالخير ، ويشمت فى مصائبه وابتلائه . وقد ينقطع عن التعامل معه ، ويعرض عنه ، ولايلقى السلام عليه إذا مر به ، ويغتابه بالباطل ، ويستهزأ بقدراته ، ويسخر من قوله أو فعله . وقد تصل ذروة الحقد والبغضاء إلى درجة إيقاع الأذى بالآخرين . وقد أشار القرآن عن كل هذا بأنه شر وإبتلاء ... «ومن شر حاسد إذا حسد» .

تمـــارين :

١ – تؤثر الإستعدادات الانفعالية عند الإنسان فى حياته الوجدانية ؟ وضح.

٢ – حدد المفهوم العام للعواطف فى التفسير النفسى المعاصر ؟

٣ – ما دور العاطفة السائدة فى السلوك الإنسانى ؟

٤ – يختلف مدلول الاتجاهات والقيم فى علم النفس المعاصر عن مدلول العواطف ؟ اشرح .

٥ – كيف فسر علماء المسلمين العواطف من حيث :

أ – قاعدة العاطفة .

ب – اتصالها بالميول أو الانفعالات .

جـ – دور التقليد والتكرار فى تكوين العاطفة .

٦ – ما أرقى العواطف فى التفسير الإسلامى ؟

الفصل العاشر

التفسير الإسلامى للجانب الحسى الإدراكى في السلوك الإنسانى

المحتوى :

* تمهيد
* طبيعة الإحساس
* الإحساس والإدراك
* الإحساس والإدراك عند علماء المسلمين
* الإحساس عند «ابن سينا»
* الحواس عند «ابن سينا»
  - السمع
  - البصر
  - الشم
  - الذوق
  - اللمس
* الإحساسات المشتركة
* التمييز بين موضوعات الحواس المختلفة
* الإدراك الحسى عند «ابن سينا»
* الإدراك وسيلة إلى المعرفة عند «ابن سينا»
* تلخيص
* تعقيب
* تمارين.

التفسير الإسلامي للجانب الحسى الإدراكى في السلوك الإنساني

تمهيد :

الإحساس Sensation هو وسيلة الإنسان إلى الفكر والمعرفة ، وعن طريقه يُدرك الإنسان ماحوله ويشعر مايحيط به فى بيئته من محتويات .

ويتم تأثير الإحساس عن طريق الحواس الخمس المعروفة :

البصر – السمع – الشم – اللمس – الذوق

هذا بالإضافة إلى الإحساس بالحركة .

ويعنينا فى موضوع الإحساس وأفعال الحواس ، أن نوضح دورها فى السلوك حسب مفهومنا فى علم النفس المعاصر ، كما نوضح أيضاً ماتناوله علماء المسلمين بالنسبة للجانب الحسى فى حياة الإنسان ، وارتباطه أيضاً بإحدى الوظائف العقلية الهامة التى تناولها علماء المسلمين وهى «الإدراك» .

طبيعة الإحساس :

تهتم الدراسات النفسية المعاصرة بمعرفة طبيعة الإحساس ومراحلها وفقاً لوظائفها ، من حيث أن الإحساس له دوره الهام فى عمليات ووظائف عقلية منها: الإدراك والانتباه والتفكير ... وغير ذلك من العمليات العقلية التى تؤثر فى سلوك الإنسان .

والواقع إن أولى الخطوات الخاصة بالتعرف على مكونات البيئة ، هى الإحساس ، والإحساس هو أساس الفكر والمعرفة . فعن طريقه يعى الإنسان ماحوله ويشعر بما يحيط به .

لذلك نهتم فى دراسة السلوك «بالإحساس» حيث يمثل الطريقة التى تؤثر فيها محتويات البيئة فى شعور الإنسان .

وتلعب الحواس الخمسة : البصر ، السمع ، الشم ، اللمس ، الذوق ، إضافة إلى الإحساس بالحركة دوراً هاماً فى نقل مؤثرات البيئة .

فعندما يُعرض شيء أمام الفرد ، فإنه ينبه حاسة البصر وهى العين عن طريق الأشعة الصادرة عن ذلك الشيء ، والتى تقع على العين ، فيحدث تنبيه عن طريقه يصبح المنبه الذى يقع أثره على العين يستثير تيارات عصبية تنتقل خلال مسالك الأعصاب الموردة أو المستقبلة فى كرة العين التى توصل هذا التيار إلى الدماغ ؛ مما يؤدى إلى عدم وجود فجوة بين الجانبين الجسدى والنفسى ، بحيث يتم الالتقاء بين النفس والجسد ، ونتيجة هذا الالتقاء هو الشعور بالإحساس . وعلى هذه الصورة يتم السمع واللمس والشم والذوق .

ويحدث أحياناً أن ينتج عن المنبه الواحد عدة إحساسات مختلفة ، إذ يمكن أن تسمع صوت الطير المغرد وتراه إذا كان قريباً ، كما تتأثر إحساساتنا بالأشياء المحيطة بنا عن طريق خبراتنا الماضية بها . (٨٨)

والإحساس التام لايتسنى للطفل إلا عندما يرى شيئاً أو يتحسس شيئاً لأول مرة ، ولم تسبق له معرفة به من قبل . لكنه عندما ينبهه ذلك الشيء للمرة الثانية فإن إحساسه حينئذ يتأثر كثيراً بماضى خبرته به فلايعود إحساسه تماماً نقياً كما كان أول مرة .

وعندما تتعاقب الخبرات لايلتفت الطفل إلى طبيعة الإحساسات كما كان يكترث أول الأمر ، وإنما يتحول اهتمامه إلى تفسير طبيعتها . وعملية التعليل لهذه الإحساسات القائمة على سالف الخبرة ، يطلق عليها من الناحية الوظيفية العقلية «الإدراك» ؛ لذلك فالإدراك كنشاط عقلى يعتمد بدرجة كبيرة على الإحساس .

ويؤكد علم النفس المعاصر أهمية الحواس الخمسة المذكورة من قبل ، وأعلاها حاستا السمع والبصر وأدناها ثلاث حواس وهى اللمس والذوق والشم .

والحواس حسب وظائفها العضوية تقسم إلى :

١ - المستقبلات الخارجية : وهى الحواس الخمس المعروفة ، وتنبئ عادة بظواهر المحيط والبيئة التى يحياها الفرد .

٢ - المستقبلات الداخلية : وهى أعضاء الحس الداخلية ، وتنبئ عن الحالات الكيميائية العضوية والحالات الفسيولوجية التى تطرأ على الجسم وتتصل أشد الاتصال بالأعضاء الحشوية كالمعدة وتنبه عن الخبرات الإدراكية الداخلية .

٣ - المستقبلات الخاصة : وتقع ضمن الأنسجة الجسدية داخل العضلات مثلاً . ووظيفتها تمكين الفرد من إدراك مكانة أعضائه وأطرافه فى المجال الذى يحل فيه ، إذ هى تمكن الكائن العضوى لأن يعى طبيعة ووطأة الضغط الواقع عليه من البيئة خلال القيام بفعالياته فيها .

الإحساس والإدراك :

الإدراك هو عملية تميز بين المنبهات التى تتأثر بها الحواس الخمس المعروفة ومايتبع ذلك من تفسير معانى تلك المنبهات . ويتخلل الإدراك عمليات الحواس فيظهر أثره فى السلوك . وليس الإدراك مجرد استنساخ لما فى البيئة من منبهات عن طريق الحواس فقط ، وإنما هو عملية معقدة يؤديها الدماغ ، وتتضمن الفرز والتصنيف والتفسير لطبيعة تلك المنبهات .

ولكل حاسة حدود معينة فى إدراك مايردها من منبهات ، فإذا انخفضت قوة المنبه أو قلت درجته عن الحد المقتضى لتنبيه الحاسة المعينة فلايتم الإدراك . فهناك أصوات تكون من شدة الانخفاض بحيث يتعذر سماعها ، وكذلك أشعة ضوئية لاتقوى العين المجردة على إدراكها ، والسبب وراء ذلك هو أن لكل حاسة مايعرف «بالعتبة المطلقة» وهى تمثل أدنى مستوى صادر من منبة معين ، فتتأثر به الحاسة المعينة المتخصصة . فإذا ما انخفضت شدة التنبيه الصادرة عن المنبه عن ذلك المستوى ، فلاتستطيع الحاسة المقصودة التأثر به ، كما لايحدث الشعور بوجوده .

كما أن هناك أدنى فروق بين المنبهات يمكن عندها تمييز طبيعة المنبه الواحد لمن سواه من المنبهات الأخرى ، ويطلق على هذا التفاوت الطفيف الذى يمكن الفرد من تمييز منبه بعينه عمن سواه تعبير «العتبة الفارقة» ، أو التى تعرف أحياناً بعتبة التفاوت أو التناقض أو يعبر عنها أحياناً بعتبة الفرق الدقيق . وهذا التفاوت يكون بين المنهبات المختلفة ، ويكون كذلك بين خصائص المنبه الواحد ، فالعين مثلاً عتبة فارقة لتمييز الألوان من حيث تفاوتها ونصاعتها ، والأذن كذلك عتبة فارقة نستطيع معها تمييز درجة صوت عن صوت . ومن هذا يتضح لنا أن قدرتنا على الإدراك تتوقف على العتبة المطلقة والعتبة الفارقة .

بالنسبة لمراحل حدوث عملية الإدراك ، فإن هناك مراحل متشابهة أساسية يتفق حدوثها فى عملية الإدراك وتتم كالآتى :

١ - **الخطوة الأولى** : وتُعرف بمرحلة الإدراك المبهم ، وهى المعرفة الأولية بما هو موجود فى بيئة الفرد .

٢ - **الخطوة الثانية** : مرحلة إدراك ماهو كائن فى المجال الحسى والبصرى وحيث يكون إدراك هذه المرحلة تغلب عليه خصائص الشمول .

٣ - **الخطوة الثالثة** : وتُعرف بمرحلة التخصص فى الإدراك ، إذ يكون الفرد المُدرك على وعى تام بما يريد إدراكه إدراكاً محدداً بعد تلخيص الشىء المدرك بما فيه من مصاحبات .

٤ - **الخطوة الرابعة** : مرحلة التحديد وتفهم المعنى لما هو مُدرك ، وفى هذه المرحلة يتم استيعاب المدركات البصرية على صورة أشياء واقعية .

ويحدث الإدراك نتيجة تنبيه مجموعة من الأشياء المرتبطة من أعضاء الحس . والمنبه هو القوة التى تثير هذه المنبهات . والمنبهات الملائمة هى تلك التى تكون موافقة للأعضاء الحسية ؛ فالمنبه الموافق للإدراك السمعى مثلاً هى الموجات الصوتية التى تنبه المسع . والمنبه الموافق للإدراك البصرى هي الموجات الضوئية . ويمكن أن تنشط الأعضاء الحسية بمنبهات غير ملائمة لها ويطلق عليها المنبهات غير الملائمة ، ولعل أبرز مثال على ذلك «شدة البرودة» التى تصيب الفرد فيحس معها ببرودة مطردة .

هذا العرض الموجز عن الإحساس ودوره فى السلوك وإتصاله بالإدراك كوظيفة عقلية ، يمكننا من أن نعرض أفكار علماء المسلمين عن الإحساس وعن الإدراك أيضاً .

الإحساس والإدراك عند علماء المسلمين :

من المعروف أن علماء المسلمين أمثال الغزالى وابن سينا وابن رشد وابن ماجة وابن حزم بحثوا الإدراك بصورة تكاد تتقارب مع ماهو قائم فى علم النفس المعاصر ، وأشاروا إلى الإدراك القائم على الحواس ... الإدراك الحسى ... والإدراك كوظيفة عقلية .

وعند علماء المسلمين تقوم الحواس بإدراك الجزئيات ، أما العقل فإنه يُدرك الكليات ، وحيث يقوم العقل بوظيفة المترجم لمعانٍ مايرد إليه عن طريق الحواس .

وكما يفرق علم النفس المعاصر بين الإحساس الظاهر الذى يتم عن طريق الحواس الظاهرة والإحساس المستتر ، الذى يتحقق كوظيفة تقوم بها الحواس الباطنة ، فقد ميز علماء المسلمين ممن بحثوا هذا الموضوع بين هذين النمطين المذكورين هنا .

وبقدر مايهتم علم النفس المعاصر بأهمية الحواس الخمس المعروفة ، فإن فلاسفة علماء المسلمين أعاروها الاهتمام ذاته من حيث سلامتها وأهميتها للإدراك واستيعابه .

أما الإحساس الباطنى «الإحساسات الباطنية» كما أسموها ، فقد عينوا مواطنها وحددوا طبيعتها كشعور الإنسان بالجوع والعطش . ويتوافق هذا مع مايذهب إليه علم النفس المعاصر ، مما يعرف بالإحساسات الباطنية ، وإدراك التمييز بين المحسوسات .

من هذا يتبين أن الإدراك عند علماء المسلمين لايختلف كثيراً عن أدق مفاهيمه التجريبية المعاصرة . فهو لديهم كما هو فى علم النفس المعاصر ، عملية معقدة يشترك فيها العقل والحواس ، ويشمل كيان الفرد الوجدانى ، ويجمع الإحساسات الحاضرة بالخبرات الماضية . هذا بجانب اهتمامهم بصحة الحواس وسلامتها وسلامة الدماغ والعقل . ونضرب لذلك مثلاً بآراء «ابن حزم» عن الإحساس حيث يقول : «الأعضاء الحساسة مسالك إلى النفوس ومؤديات نحوها . والحواس أبواب القلب ومنافذ النفس . والعين أبلغها وأصحها دلالة وأدعاها عملاً . وهى رائد النفس الصادق ، ودليلها الهادئ ومرآتها المجلوة» .

والواقع أن «ابن سينا» له آراء قيمة فى الإحساس والإدراك نعرضها كمثال لتفسير علماء المسلمين لموضوع الإحساس والإدراك .

الإحساس عند ابن سينا :

يرى ابن سينا أن الإحساس يتم عن طريق الحواس الخمس . وكل حاسة تختص بمحسوس معين ، وحيث لاتستطيع حاسة أخرى أن تحسه ؛ فاللون محسوس البصر ، ولايمكن أن نحس اللون باللمس أو السمع . وهكذا كل حاسة مع محسوسها الخاص . وهذه المحسوسات الخاصة يدركها الإنسان على ماهى عليه فى الخارج ، متى لم يكن فى حواسه آفة (أى علة مرضية) .

ويرى ابن سينا أن الحس طليعة النفس الأولى ، وهى ماتدل على مايقع به الفساد ، ويحفظ به الصلاح . وأن تكون قبل الطلائع التى تدل على أمور تتعلق ببعضها منفعة خارجة عن القوام ، أو مضرة خارجة عن الفساد . (٨٩)

الحواس عند ابن سينا :

فيما يلى ما أشار إليه ابن سينا فى أفكاره النفسية عن الحواس :

السمع :

يعرف ابن سينا الصوت الذى يتصل بحاسة السمع بقوله : «إن الصوت ليس أمراً قائم الذات موجوداً ثابت الوجود ، ويجوز فيه مايجوز فى البياض والسواد والشكل من أحكام الثبات . بل الصوت بين واضح من أمره ، إنه أمر يحدث عن قلع أو قرع ، وقد لايكون مع كل قرع صوتاً ، إذ يجب أن يكون للجسم الذى تقرعه مقاومة ما ، وأن يكون الحركة التى للمقروع به إلى المقروع عنه صارم فهناك يحس ، وكذلك إذا شققت شيئاً يسيراً ، وكان الشيء لاصلابة له ، لم يكن للشق صوت البتة ، والقرع بما هو قرع لايختلف ، والقلع أيضاً بما هو قلع لايختلف لأن أحدهما أساسى والآخر تفريق . ولأن كل مساير إلى مماسه شيء فيجب أن يفرغ لنفسه مكان جسم آخر كان مماساً له لينتقل إليه ، وكل مقلوع عن شيء قد يفرغ مكان حتى يصار إليه ، وهذا الشيء الذى فيه هذه الحركات شيء رطب سيال لامحالة ، إما ماء أو هواء ، فيكون مع كل قرع وقلع وحركة للهواء ، أو مايجرى مجراه إما قليلاً وقليلاً برفق ، وإما دفعة على سبيل تموج أو انجذاب بقوة . لذلك وجب أن يكون هناك شئ لابد أن يكون موجوداً عند حدوث الصوت ، وهو حركة قوية من الهواء أو مايجرى مجراه .

البصر :

يشرح ابن سينا الإحساس البصرى شرحاً مفصلاً ، وقد ضمن شرحه معلوماته الطبية فى تشريح العين ، من حيث كونه طبيباً وفيما يلى بيان لآرائه :

قال ابن سينا : «وهذا الذى نسميه ضوءاً مثل الذى للشمس والنار ، فهو المعنى الذى يراد لذاته . فإن الجرم الحامل لهذه الكيفية ، إذا وجد بين البصر وبينه شيء كالهواء والماء رؤى ضرورة من غير حاجة إلى وجود مايحتاج إليه الجدار ، الذى لايكفى فى أن يرى على ماهو عليه وجود الهواء ومايشبههما بينه وبين البصر ، بل يحتاج إلى أن يكون الشيء الذى سميناه نوراً قد غشيه حتى يرى

حينئذ ، ويكون لذلك النور تأثيراً فى جسم ذى ضوء فيه ، إذا قابله وكان بينهما جسم ليس من شأنه أن يحجب تأثيراً المضئ فى قابل النور كالهواء والماء ، فإنه يعين ولايمنع ، والأجسام لذلك تقسم قسمين :

١- جسم ليس من شأنه هذا الحجب المذكور ويُسمى الشفاف .

٢- جسم من شأنه هذا الحجب كالجدار ومن شأنه الحجب .

كما أن الأجسام من حيث خصائص الضوء تقسم إلى :

١ - مضيئة . ٢ - ملونة . ٣ - شفافة .

والشفافية تبدو أنها خاصة لازمة لكل ماهو مرئى من ضوء ولون . ولكنها ليست هى ذاتها مرئية كشفافية الماء والهواء ، وهذه الخاصية ليست لازمة لكل ماهو مرئى ، وإنما هى خاصية عضو الأبصار أيضاً والرؤية تستلزم وسطاً بين الشيء المرئى وعضو الأبصار .

الشـــم :

حاسة الشم أضعف فى تمييز موضوعاتها من حاستى الذوق واللمس فالإنسان لايقبل الروائح قبولاً قوياً ، بل تكاد أن تكون رسوم الروائح فى نفسه رسوماً ضعيفة .

ويربط ابن سينا بين الرائحة والطعم ، فيُقرر أن بعض الروائح تحمل صفات الطعوم نفسها وأسمائها ، فيشتق للروائح من مشاكلتها للطعم اسم فيقال : رائحة حلوة ، ورائحة حامضة ، كأن الروائح التى يتعود مقارنتها لطعوم ماتنسب إليها وتعرف بها .

ويرى أنه لما كانت حاسة الشم أضعف من حاسة الذوق فى تمييز موضوعاتها وجب أن نطلق مثل هذه الأسماء والصفات على الشم ، عن طريق الإستعرة . فمثلاً عندما وصفنا لرائحة العسل حلو المذاق ونقول رائحة العسل حلوة ، فإن وصفنا لرائحة العسل بالحلاوة ينبغى أن يحمل على سبيل الاستعارة ، أما الروائح فلاتوصف إلا بأنها روائح طيبة وروائح غير طيبة .

ويقارن بين البصر والشم من ناحية ما فيقول : «وكما أنه ليس كل حيوان يحتاج إلى تحريك الجفن والمقلة عندما يبصر ، كذلك ليس يحتاج كل حيوان إلى استنشاق حتى يشم . وكثيراً من الحيوانات يأتيها الشم من غير تشمم» .

الــذوق :

ويُقارن من ناحية أخرى بين الذوق واللمس فيقول : «يأتى الذوق بعد اللمس من حيث هو طليعة للنفس مرتبة لحفظ حياة الحيوان . وبين الذوق واللمس وجه شبه ووجه خلاف . ووجه الشبه هو أن كل مايدرك بالذوق يدرك باللمس فى أغلب الأحيان . أما وجه الاختلاف هو أن ملامسة الغذاء لاتكفى لاستساغة طعمه، بينما تكفى مجرد ملامسة الحرارة للإحساس بها . وعند ملامسة الغذاء يقوم اللعاب بدور الوسيط أو المساعدة على قبول الطعم .

واللعاب إن كان يساعد على قبول الطعم إلا أنه هو نفسه لاطعم له . ولو غلب عليه طعم ما بسبب مرض كمرض المرارة أو الحموضة المعدية مثلاً ، لما أمكنه أن يؤدى الطعم بصحته .

ويرى أن الوظيفة الأساسية للعاب هى إذابة الغذاء وتحويله من الحالة الجافة إلى الحالة شبه السائلة التى نجده عليها قبل البلع ، لأن الذوق هو مذاق لأشياء سائلة . ولذلك كان اللسان وسطاً بين الجفاف والسيولة ، ولو غلب اللعاب والسيولة على اللسان لما أمكننا أن نذوق الطعوم .

فيما يتعلق بأنواع الطعوم فإنها عند ابن سينا التى يدركها الذوق هى : الحلاوة والمرارة والحموضة والقبض والعفوصة والحراقة والدسومة والبشاعة (إشارة إلى الطعم الكريه) ، والتفه (إشارة إلى الشىء الذى لاطعم له) .

اللمــس :

يشرح ابن سينا حالة اللمس فى كتابه الشفاء . فيما أسماه الكيفيات الملموسة، فلايخلو عنها وعن وسائطها جسم من الأجسام المتحركة ، ولاجسم منها إلا وطرف من أطراف منادتها موجود فيه أو ضده ، وهو قابل له أو لضده . فينبغى أن تكون الفصول الأولى للأجسام له أو لضده . فينبغى أن تكون الفصول الأولى للأجسام الأولى منها محصلة بهذه الكيفيات دون الطعوم والروائح والألوان .

ويشير إلى أن الكيفيات المنسوبة إلى اللمس مختلفة المراتب ، فليس كلها فى درجة واحدة ، بل بعضها أقدم من بعض ، ويشتمل على جملتها هذا التعديد ، وذلك أن الكيفيات الملموسة هى الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة واللطافة ، والغلظ والهشاشة والجفاف والبلة ، والصلابة واللين والخشونة والملامسة (الشفاء – ابن سينا – ١٩٦٠) .

ويُعد ابن سينا اللمس فى بعض شروحه أولى الحواس ، ولابد منه لكل حيوان أرضى . ويرى أنه - أى اللمس - طريق إلى معرفة الشيء لا علمه ، لأننا إنما نعلم الشيء بالفكرة والقوة العقلية ، وبها تقتنص المجهولات بالاستعانة عليها بالأوائل» .

الإحساسات المشتركة :

يبحث ابن سينا فى كتابه «النفس» عن الإحساسات ويميز بين نوعين منها وهما : محسوسات مشتركة ، ومحسوسات بالعرض ويقول فى إيضاح فكرته :

توجد إلى جوانب الحواس المفردة ومحسوساتها محسوسات مشتركة ، ومحسوسات بالعرض . أما المحسوسات المشتركة : فهى المقادير والأوضاع والأعداد والحركات والسكونات والأشكال والقرب والبعد والمماسة . وهذه المحسوسات لاتحسها حاسة واحدة منفردة وإنما تحسها عدة حواس مجتمعة ، فالبصر يدرك العظم والشكل والعدد والوضع والحركة والسكون بتوسط اللون . واللمس يدرك جميع هذا بتوسط صلابة أو لين . والذوق يدرك العظم بأن يذوق طعماً كثيراً منتشراً ، فكل حاسة تدرك هذه الكيفيات بواسطة موضوعها الخاص .

أما المحسوسات بالعرض : فهى عبارة عن الجمع بين إحساسين مختلفين ، ولكنهما وقعا فى وقت واحد ، ويخصان شيئاً واحداً : إذا رأينا رجلاً فقلنا : هذا ابن فلان ، فليس البصر هو الذى يدرك علاقة البنوة ، ولا أى حاسة من الحواس ، ولكننا عرفنا هذا الشخص بالبصر وعرفنا عن طريق آخر أنه ابن فلان ، فلما رأيناه تذكرنا أنه ابن فلان ، أو كلما قيل ابن فلان تذكرنا شخصه .

والحالة المشار إليها ليست إحساساً ، وإنما تعرف فى علم النفس المعاصر بالإدراك . (٩٠)

ولعل تسمية هذه الحالة بالإحساس بالعرض ، جاء ليميز بين الإحساسات المختلفة التى أشار إليها سابقاً ، وهذا النوع من الإحساس كان الأحرى يدخله فى بحثه الإدراك ، لأن الحالات التى ذكرها هى إحساس اقترن بمعرفة ، وكل إدراك يعتمد على معلومات سابقة ، ولعل ابن سينا يقرر بقوله هذا أن لاوجود لإحساس خالص ، ذلك أن كل إحساس ينقلب إلى إدراك بالنظر لما يرتبط به من معلومات سابقة ، وهذا مايؤيد الحقيقة القائلة «إننا لاندرك إلامانستدرك» .

والخلاصة إن للحس المشترك حسب رأى ابن سينا ثلاث وظائف ، هى :

١ – إدراك المحسوسات المشتركة والسكون والعدد والشكل والمقدار بواسطة الحركة.

٢ – إدراك المحسوسات بالاستناد إلى خبرات سابقة .

٣ – إدراك الإدراك : أى الشعور بحالتنا النفسية فالعين ترى الضوء واللون ولاترى رؤيتها ، وكذلك الأذن تسمع الأصوات على اختلافها ولاتسمع سمعها . وهكذا فى سائر الحواس ، فإذا كنت أشعر إنى راءٍ وسامع فليس ذلك بفضل العين والأذن ، بل بفضل قوة باطنة هى الحس المشترك .

وهذه الظاهرة فى مفهوم علم النفس الحديث هى خاصية من خصائص الشعور من حيث كونه مباشراً ، أى لايحتاج إلى وساطة شىء لمعرفة مايجرى فى نفس الإنسان من حوادث ، إذ إن مايحدث فى النفس ينعكس فى الشعور . وقد أطلق ابن سينا على هذه الحالة «إدراك الإدراك» ، وهو بذلك يختلف مع مايراه علم النفس المعاصر فى التسمية رغم الاتفاق فى الفكرة والمبدأ .

التمييز بين موضوعات الحواس المختلفة :

هذه الوظيفة لايمكن أن تقوم بها حاسة من الحواس الخمس ؛ لأن كل حاسة من الحواس لاتدرك إلا موضوعها الخاص بها ، فلابد أن تقوم بهذه الوظيفة ملكة خاصة تؤدى وظيفتها فى لحظة واحدة ، وتميز بين موضوعات الحواس المختلفة وبين المحسوسات فى كل حسن من حيث كونها جنساً كالتمييز بين الأبيض والأسود والحامض والمالح ، فإن وظيفة العين هى إدراك اللون الأبيض والأسود ، ولكن التمييز بين اللون الأبيض واللون الأسود ليس من وظيفة العين ، بل هو من وظيفة الحس المشترك .

وبصورة عامة ، فإن الحس المشترك عند ابن سينا ، يتقارب مع آراء أرسطو وكلاهما يقابل مايسمى الشعور أو الوجدان الذى تعالجه كتب علم النفس المعاصر .

الإدراك الحسي عند ابن سينا :

يؤكد ابن سينا ارتباط الإدراك بالإحساس ، ويبين أهمية العنصر العقلى فى عملية الإدراك ، ففى رأيه أنه لولا اشتراك العقل مع عمل الحواس لما حصل الإدراك ، ويبين آثر العقل فى النفس فيقول :

«الإدراك إنما هو للنفس وليس الإحساس بالشىء المحسوس والانفعال عنه ، والدليل على ذلك أن الحاسة قد تنفصل عن المحسوس وتكون النفس لاهية ، فيكون الشىء غير محسوس ولامدرك ، فالنفس تدرك الصور المحسوسة بالحواس ، وتدرك صورها المعقولة بتوسط صورها المحسوسة ، إذ تستفيد معقولية تلك الصور من محسوسيتها ، ويكون معقول تلك الصور لها مطابقاً لمحسوسها ، وإلا لم يكن معقولها . وليس للإنسان أن يدرك معقولية الأشياء من دون وساطة محسوسيتها» .

ويقول فى التعليقات أيضاً :

كل ما أصفه وأقول إنى قد أدركته فيجب أن يسبقه إدراكى لذاتى ، فإن قلت إنى عرفت ذاتى بهذا الشىء يكون قد سبق جهلى بذاتى فلن يصح قولى : إنى عرفت ذاتى ، فيجب أن يكو قد سبق ذلك بمعرفتك بذاتك . (٩١)

والإدراك فى نظر ابن سينا قوة باطنة والإحساس قوة ظاهرة ، فالقوة الظاهرة أى الإحساس ، تحصل بالحواس الخمس : اللمس والذوق والشم والسمع والبصر .

ويوضح قوى الإدراك الباطنة بقوله :

«إن خيالات المحسوسات تبقى عند الشخص بعد فواتها عن الحس وكونها غير محسوسة ، فتبقى لافى حس بل فى قوة أبطن ، وإجتماعها فى واحد تسمى المصورة والخيال – بعد تأديتها إلى الحس المشترك الذى هو ينبوع الحس» .

ويربط ابن سينا بين الإحساس والإدراك والعقل والانفعال . وقد أوضح ذلك فى كتاب التعليقات ، فقال : «كل إدراك جسمانى ، إنما يتم بفعل وانفعال . والانفعال هو حصول حال مع زوال حالٍ . ولايصح أن يكون المدرك هو الحاصل أو الزائل . فالجسم وأحواله آلات ، لأن المدرك يجب أن يكون شيئاً ثابتاً ، فالحرارة الطارئة مثلاً تحيل الحرارة المزاجية ولاتجتمع معها ، إذ لاتجتمع كيفيتان فى جسم . فحينئذ يقع الإحساس بالحار ، وكذلك تفرق الاتصال ندركه غير الاتصال المتفرق وغير الاتصال الحادث ، وإنما يدركه شىء ثالث . وكذلك الحال فى النمو إنما الفاعل له غير المزاج وهو المدبر للبدن الذى يأخذ من جانب ، ويزيد فى جانب حتى تتم الأعضاء .

وحصول المحسوسات فى الحواس إنما يكون السبب فى استعداد الحواس له ، فإن أيدينا مثلاً إنما تحس بالحرارة وتتأثر عنها للاستعداد الذى هو فيها ، والبصر

إنما يجعل فيه صور المبصر للاستعداد الذى هو فيه ، ، والسمع إنما يحدث فيه الصوت للاستعداد الذى هو فيه ، وليس للحواس إلا الإحساس فقط ، وهو حصول صورة المحسوس فيها فإما أن تعلم أن للمحسوس وجوداً من خارج فهو للعقل أو الوهم .

والإدراك فى رأيه هو حصول صور المدرك فى ذات المدرك ، وفى الإدراك بالحواس يكون هناك فعل وانفعال لامحالة .

الإدراك وسيلة إلي المعرفة عند ابن سينا :

المعرفة عند ابن سينا لاتكون بالإحساس وحده ، لأن الإحساس لايدرك الأمور المجردة ، بل يمزجها باللواحق الحسية والعلائق المادية من كم وكيف ووضع ... وغير ذلك ، فهو إذن لايدرك الكليات بل يدرك الجزئيات لأنه ليس من شأن المعقول من حيث هو معقول أن يحس . (٩٢)

تلخيص :

* الإحساس له دوره الهام فى عمليات ووظائف عقلية منها الإدراك والانتباه والتفكير ، وهو أولى الخطوات الخاصة بالتعرف على البيئة .

* الإحساس يتم عن طريق منبهات تؤثر على حواس الكائن ، وقد يكون للمنبه الواحد أكثر من إحساسات مختلفة .

* تلعب الخبرة السابقة دورها فى تعليل وفهم الإحساسات ، وهى من الناحية الوظيفية العقلية تسمى الإدراك .

* الحواس حسب وظائفها العضوية تُقسم إلى مستقبلات خارجية وأخرى داخلية وخاصة .

* الإدراك هو عملية تمييز بين المنبهات التى تتأثر بها الحواس . وكل حاسة لها حدود معينة فى إدراك مايرد لها من منبهات .

وهناك العتبة المطلقة التى تمثل أدنى مستوى يصدر من منبه معين ، تتأثر به الحاسة المعينة المتخصصة . كما أن هناك أدنى فروق بين المنبهات يمكن عندها تمييز طبيعة المنبه الواحد ، وهذا التفاوت يطلق عليه العتبة الفارقة .

* ويتم الإدراك وفق مراحل متشابهة أساسية . يتفق حدوثها فى عملية الإدراك .

* إهتم علماء المسلمين بالحواس التى تدرك الجزئيات ، وبالعقل الذى يُدرك الكليات ، وحيث يقوم العقل بوظيفة المترجم لمعانى مايرد إليه عن طريق الحواس.

* واتفق علماء المسلمين على ما أسموه بالنسبة للإحساس الباطنى بالإحساسات الباطنية وإدراك التمييز بين المحسوسات .

* بالنسبة للإدراك عند علماء المسلمين فهو لايختلف عن المفاهيم المعاصرة فهو عملية معقدة يشترك فيها العقل والحواس ، ويشمل كيان الفرد الوجدانى ، ويجمع الإحساسات الحاضرة بالخبرات الماضية ، هذا بجانب اهتمامهم بصحة وسلامة الحواس وسلامة الدماغ والعقل .

* يرى «ابن سينا» أن الحس طبيعة النفس الأولى ، وفى أفكاره النفسية عن الحواس أوضح طبيعة الحواس الخاصة بالسمع والبصر والشم والذوق واللمس ، كما أشار

إلى الإحساسات ، وميز بين نوعين منها محسوسات مشتركة ومحسوسات بالعرض ، وهى التى يمكن أن تفسر بالإدراك ، إذ إن المحسوسات بالعرض هى إحساس اقترن بمعرفة .

* والحس المشترك عند «ابن سينا» له وظائف من ناحية إدراك المحسوسات، وهو يقابل مايسمى الشعور أو الوجدان الذى تعالجه كتب علم النفس المعاصر .

* يؤكد «ابن سينا» ارتباط الإدراك بالإحساس ، ويبين أهمية العنصر العقلى فى عملية الإدراك ، كما يبين أثر العقل فى النفس ، والإدراك فى رأيه هو حصول صور المدرك فى ذات المدرك . والإدراك عن طريق الحواس يتبعه فعل وانفعال .

* وفى رأى «ابن سينا» أن الإحساس لايدرك الأمور المجردة ، بل تمتزج باللواصق الحسية والعلائق المادية من كم وكيف ووضع . كما أن الإحساس لايدرك الكليات بل يدرك الجزئيات .

تعقيب :

* نظراً لأن «ابن سينا» كان من المهتمين فى عصره بالدراسات التشريحية والكيميائية والطبيعة ، فقد برع فى تفسير الجانب الحسى فى السلوك الإنسانى وإدراك صور المحسوسات الخارجية نتيجة إدراك الجزئيات ، والإنفعال الذى يقع على الحس من المحسوس .

* وقد تأثر «ابن سينا» فى تدرج أهمية الحواس من البساطة إلى التركيب أو العكس ، وحيث لم يعتبرها أدوات الحياة أو آلات للمعرفة وحسب الغاية التى تؤديها، بل تأثر بالفكر الإغريقى خاصة فى الحواس الظاهرة . حيث رتبها على النحو التالى : اللمس ثم الذوق ثم الشم ثم السمع ثم البصر . فى حين تأثر فكر علماء آخرين كالإمام الغزالى فى بيان وظيفة الحواس والغاية من خلقها ؛ ولذلك رتب الحواس على أساس اللمس والشم والبصر ثم السمع ثم الذوق .

* فيما يتعلق بالحس الباطنى الخاص بإدراك صورالمحسوسات والمعانى الجزئية ، وحيث تكون المؤثرات فى الداخل ، فقد أشار إليها «ابن سينا» وغيره من علماء المسلمين أمثال «ابن باجة» و«الغزالى» وغيرهم ؛ حيث أشاروا إلى التمييز بين المحسوسات عن طريق الإدراك . وأن العقل والحواس تجمع الإحساسات الحاضرة بالخبرات الماضية عند تفسير مفاهيم الحواس ، وأنه من الأهمية أن تكون هناك سلامة الحواس التى تنقل الأحاسيس الظاهرة وسلامة الدماغ والعقل حتى يمكن أن يكون الإدراك سليماً .

* وفى نظر علماء المسلمين أن الحواس تدرك الجزئيات ، ويقابل ذلك فى علم النفس المعاصر مايعرف بالإدراك الحسى أو الإدراك المباشر ، بينما العقل هو الذى يدرك الكليات . وقد أطلقوا على ذلك الإدراك العقلى أى الإدراك المجرد . والواقع إن الإدراك كنشاط عقلى فى العمليات العقلية العليا فى التنظيم العقلى فى علم النفس المعاصر ، إما أن يكون لتفسير المدركات الحسية وإما أن يكون فى مراحل العمر المتقدمة مايطلق عليه الإدراك المعنوى ، وهو الإدراك المجرد الذى لايمثل أشياء واقعية حسية ملموسة فى العالم المحيط بالفرد ، بل تتداخل فيه عمليات أخرى عقلية كالتخيل والتصور والاسترجاع والتذكر ، وغير ذلك من العمليات التى لاتتم فى الإدراك الحسى المباشر .

* ويربط علماء المسلمين بين الجانب الحسى فى السلوك والجانب العقلى والجانب

الانفعالى . والحس المشترك الذى أسماه «ابن سينا» يختص بإدراك المحسوسات، وحيث فسره على أنه له جانب انفعالى ، فإنه يقابل مايعرف بالشعور أو الوجدان فى الدراسات النفسية المعاصرة .

* وحيث يهتم علم النفس المعاصر بين الإحساس الظاهر الذى يتم عن طريق الحواس الخمس المعروفة ، والإحساس الباطنى (المستتر) الذى يتم عن طريق الحواس الباطنية ، فقد اهتم أيضاً علماء المسلمين بذلك ، وأشاروا إلى الإهتمام بسلامة الحواس وأهميتها ودورها فى الإدراك واستيعاب المحسوسات .

أما الإحساسات الباطنية (أى الإحساس الباطنى فى وقتنا المعاصر) فقد أهتموا أيضاً بمواطنها وحددوا طبيعتها ، وأشاروا بذلك إلى مايعرف بالتمييز بين المحسوسات كشعور الإنسان بالجوع والعطش .

إضافة إلى إشارتهم بأن التمييز بين المحسوسات يتم بإدراك الأعداد والكميات والحركة والسكون والشكل ، فالمحسوسات فى الرأى الإسلامى تدرك بالحواس المتخصصة ، كما أن هناك محسوسات يتم إدراكها عن طريق الحس المشترك .

تمـــارين :

١ – وضح دور الإحساس ووظيفته فى التعرف على البيئة عند الإنسان .

٢ – بين وظيفة الإدراك بالنسبة للإحساس .

٣ – كيف أوضح علماء المسلمين وظيفة كل من الحواس والعقل فى الإدراك ؟

٤ – كيف أمكن لعلماء المسلمين تفسير الإحساس الباطنى ، وإدراك التمييز بين المحسوسات ؟

٥ – يشير «ابن سينا» إلى أن الحس طبيعة النفس الأولى . إشرح .

٦ – كيف فسر «ابن سينا» ارتباط الإدراك بالإحساس .

٧ – وضح مدى الاتفاق بين تفسير علماء المسلمين وتفسير علم النفس المعاصر ، فيما يتعلق بالإدراك الحسى والإدراك المجرد ؟

الفصل الحادى عشر

التفسير الإسلامى للجانب العقلى المعرفى والذكاء فى السلوك

المحـــــتوى :

* **تمهيد :**
* **المفاهيم الرئيسية للتنظيم العقلى فى الدراسات النفسية المعاصرة:**
  - الذكاء (قدرة القدرات أو القدرة العقلية العامة)
  - الذكاء مجموعة قدرات
  - الإنتباه
  - الذاكرة
  - التفكير
  - التصور
  - القدرات العقلية
* **آراء ابن سينا للجانب العقلى فى السلوك .**
* **المعرفة عن ابن سينا**
* **مراتب العقول عند ابن سينا**
* **مساهمات ابن سينا فى تفسير بعض العمليات العقلية العليا :**
  - التصور والتخيل عند ابن سينا
  - المخيلة عند ابن سينا
  - الذاكرة فى رأى ابن سينا
  - التفكير فى رأى ابن سينا
* **الوظائف الإدراكية والأخلاقية عند الغزالى .**
* **الأسس الأولية للإدراك العقلى عند الغزالى .**
* **الاستعداد الفطرى للعلم عند الغزالى .**
* **تلخيص**
* **تعقيب**
* **تمارين**

تمهـيد :

السلوك البشرى ... سلوك كلى يتضمن فى بنائه الجوانب : الإدراكية المعرفية .. الحركة الإجرائية .. الإنفعالية الوجدانية .. والنزوعية .. وهى كلها جوانب تعمل فى وحدة متكاملة .

ويتحدد النشاط العقلى وفقاً للكفاءة العقلية العامة أى مستوى الذكاء ، والذى يعرف فى علم النفس المعاصر بالقدرة العقلية العامة أو قدرة القدرات ، إضافة إلى القدرات العقلية الأولية ، والاستعدادات العقلية الخاصة ، والأنشطة العقلية التى تتباين فيها الدراسات النفسية المعاصرة بالفروق الفردية .

ولقد اهتمت الدراسات الإغريقية القديمة بالنواحى الإدراكية للنشاط العقلى للإنسان ، كما أكدت الدراسات النفسية فى تطورها أن الجانب الإدراكى المعرفى يعاون الإنسان على التكيف بطريقة أكثر فاعلية فى البيئة التى يعيش فيها .

ويعنينا فى التفسير الإسلامى للسلوك أن ننظر إلى أفكار علماء المسلمين فى توصيف العقل عند الإنسان ، كما نعرض أيضاً بعض أفكارهم عن بعض الأنشطة العقلية كالإدراك والانتباه والتخيل والتصور ، وغير ذلك من الأنشطة والعمليات العقلية المختلفة .

وقبل أن نوضح مساهمات علماء المسلمين فى الجانب العقلى المعرفى ، نعرض مايأتى :

المفاهيم الرئيسية للتنظيم العقلي في الدراسات النفسية المعاصر :

الذكاء (قدرة القدرات أو القدرة العقلية العامة)

تتعدد المفاهيم الخاصة بالذكاء وتتنوع بين الدارسين فى علم النفس المعاصر ، إلا أن مختلف المفاهيم تشترك فى تحديد أكثر لتحديد مفهوم الذكاء

على أنه :

١- القدرة على التفكير المجرد ومعالجة الأفكار والرموز والعلاقات والمفاهيم والمبادئ .

٢- القدرة على التعلم واستفادة الفرد من الخبرات التى يواجهها ؛ خاصة الخبرات المتعلقة بتعلم المجردات .

٣- القدرة على التكيف والارتباط بالبيئة ؛ أى القدرة على التكيف مع الأوضاع والشروط البيئية المختلفة المحيطية به بشكل فعال وإيجاد علاقات مثمرة .

ومن ناحية طبيعة الذكاء وتنظيمه فقد بحث العلماء فى مكونات الذكاء وما إذا كان يتركب من قدرات عقلية متعددة أو من عوامل متعددة تمثل أبعاد العقل الإنسانى .

الذكـــاء مجمـــوعة قـــدرات

يرى بعض المنظّرين أن الذكاء قدرة أساسية ، تؤثر فى الأداء العام لكل المهام ذات الطبيعة المعرفية ، فالإنسان «الذكى» يحسن الأداء فى حل المسائل الحسابية ، وتحليل القصائد الشعرية وحل الألغاز ، والدليل على صحة هذا الموقف تأتى من التحليلات الارتباطية ؛ حتى استخدام التحليل العاملى Factor Analysis لاختبارات الذكاء . وتشير كثير من الدراسات إلى وجود علاقة ارتباطية إيجابية ، تتراوح بين متوسطة إلى مرتفعة بين مختلف الاختبارات ، التى صممت من أجل قياس القدرات العقلية المستقلة .

ويبدو أن السؤال : لماذا ؟ يحتاج إلى إجابة .

إن سبيرمان Spearman يرى أن هناك عاملاً واحداً ، أو خاصية عقلية واحدة خلف أداء عقل الإنسان سماها الذكاء العام ، والتى تستخدم عند أداء أى اختبار عقلى ، بيد أن كل اختبار يتطلب بعض القدرات الخاصة إضافة إلى العامل العام . على سبيل المثال ، قد يتطلب الأداء فى اختبار للقدرة على تذكر الأرقام كلاً من العامل العام ، وقدرة خاصة على الاسترجاع الفورى لما تم الاستماع إليه أو تعرفه، وافترض سبيرمان أن الأفراد يتباينون فى ذكائهم العام وقدراتهم الخاصة، وأن هذين العاملين يحددان الأداء فى المهام العقلية .

ويصر ناقدو موقف سبيرمان أن هناك عدداً ما من «القدرات العقلية

الأساسية» ، وليس قدرة عقلية واحدة ، ولقد انتهى ثيرستون Thurstone إلى وجود القدرة اللفظية ، والتذكر ، والاستدلال ، والقدرة على تصور العلاقات المكانية ، والقدرة العددية ، والطلاقة اللفظية ، وسرعة الإدراك ، ضمن نطاق القدرات العقلية الكبرى، التى هى وراء المهام العقلية أو وراء أداء العقل ، غير أن الاختبارات لهذه العوامل المستقلة أظهرت أن القدرة فى مجال معين لها ارتباط متبادل بالقدرة فى مجالات أخرى .

وقد دفع الأمر مزيداً من الباحثين المعاصرين - كما ذكرنا - لتقصى الحقيقة ، منهم : إيزنك وجيلفورد وغيرهما من الجدد ، الذين اهتموا بمنطلق تعدد القدرات .

ويعد جيلفورد Guilford وجاردنر Gardner من أبرز المدافعين عن مفهوم القدرات المعرفية المتعددة .

يرى جيلفورد أن هناك ثلاثة أنواع أساسية ، أو مايسميه بأوجه للذكاء Faces of Intelligence ، هى : العمليات العقلية Mental Operations أو عمليات التفكير ، والمحتويات Contents ، أو مانحن بصدد التفكير فيه ، والنواتج Products ، وهو نتيجة ماتوصل إليه تفكيرنا ، وفى هذا النموذج الذى يشبه المكعب ذا الثلاثة أبعاد ، حيث تنقسم العمليات العقلية إلى ستة فروع : المعرفة (تعرف المعلومات القديمة واكتشاف الجديد من المعلومات) ، والتفكير التقاربى (حيث ليس هناك أكثر من حل أو إجابة واحدة) . والتفكير التباعدى (ويستخدم عندما توجد مجموعة من الإجابات المناسبة) ، والتقويم (ويتمثل ذلك فى القرارات المتعلقة . بما إذا كان شىء ما مجدياً ودقيقاً ومناسباً) ، والذاكرة المسجلة (أى الذاكرة الآتية) ، ثم الذاكرة الحافظة (القدرة على استرجاع شىء ما بعد عدة أيام) . أما المحتويات التى يتعامل معها الناس ، فهى تنقسم إلى خمسة محتويات : البصرى ، والسمعى ، والدلالى أو المعنوى ، والرمزى ، والسلوكى ، أما مختلف النواتج المتولدة عن ذلك ، فهى الوحدات ، والأصناف ، والعلاقات ، والنظم والتحولات ، والتضمينات .

ووفقاً لهذه النظرة ، فإن تنفيذ مهمة معرفية يعنى أساساً إنجاز عملية عقلية على محتوى معين ، وذلك بهدف تحقيق نتاج أو ناتج ما . ومثال على ذلك ذكر الرقم التالى لسلسلة أو متوالية الأرقام ٥ ، ١٥ ، ٤٥ .... يتطلب عملية تفكير تقاربى (لأن الإجابة الصحيحة وحيدة) على محتوى رمزى الأرقام ؛ بهدف

تحقيق نتائج العلاقة (أى إن كل رقم هو ثلاثة أمثال الرقم الذى يسبقه) ، ولكن رسم وتلوين لوحة لمنظر ما يتطلب عملية تفكير تباعدى (أى عديداً من الاحتمالات أو الإجابات) حول المحتوى البصرى ؛ بهدف خلق نتاج تحولات (يعنى أن الأشياء الحقيقية يتم تحويلها فى ضوء نظرة الرسام) ، ووفقاً لتصور جيلفورد ، فإن هناك ١٨٠ عملية عقلية هى نتاج ضرب بعد العمليات × المحتويات × النتاجات = ٦ × ٥ × ٦ .

يوسع نموذج جيلفورد للذكاء من نظرتنا لطبيعة الذكاء ؛ إذ يضيف عدة عوامل، مثل : الحكم الاجتماعى (أى تقييم سلوك الآخرين) ، والقدرة على الإبداع أو الابتكار (أى التفكير التباعدى أو التفريقى أو التشعيبى) . ومن ناحية أخرى ، وعلى الرغم من كون قدرات الإنسان مركبة ، فإن نموذج جيلفورد على درجة كبيرة من التعقيد ؛ بحيث قد لايكون سهلاً كمرشد للتنبؤ بالسلوك فى أوضاع حقيقية : فى تخطيط التعليم مثلاً علاوة على ذلك ، فإنه فى حالة اختبار الأشخاص فى مختلف هذه القدرات ، فإنه يتبين وجود ارتباط بين هذه القدرات . وتبقى مسألة تفسير العلاقات الارتباطية الموجبة المتبادلة ، بين كل هذه القدرات العقلية المستقلة غامضة .

ولقد اقترح جاردنر Gardner نظرية للذكاء المتعدد ، يرى منها أن هناك ما لايقل عن ثمانية أنواع من الذكاء ، وهى : لغوى ، وموسيقى ، ومكانى ، ومنطقى – حسابى ، وجسمى – حركى ، وفهم الآخرين (اجتماعى) ، وفهم الذات (شخصى) ، وفهم الطبيعة ، وهذا هو النوع الذى أضيف أخيراً .

الذكاء من وجهة جاردنر وستيرنبرج :

وكما اتضح .. فقد شهد القرن العشرون ظهور نظريات متعددة ، استهدفت تفسير ظاهرة الفروق الفردية بين الناس ، أحدثهم هى نظرية الذكاء المتعدد Multiple Intelligence لجاردنر Gardner وتعتبر إحدى ثمار النظرية المعرفية ، وكذا نظرية ستيرنبرج Sternberg .

ففى عام ١٩٨٣ نشر هاوارد جاردنر نظريته الجديدة المعروفة باسم نظرية الذكاء المتعدد (MI) ، فى كتابه عن بنية العقل Frames of Mind ، وتمثل النظرية وجهة نظر مغايرة ، فقد توصل مع معاونيه وقتها إلى أن هناك سبعة مجالات على الأقل للذكاء ، أو يمكن القول بسبعة أنواع من الذكاء أو سبعة

ذكاءات، وهى : الذكاء اللغوى ، والذكاء المنطقى Logical ، والذكاء الرياضى أو الحسابى Mathematical ، والذكاء المكانى Spatial ، والذكاء الجسمى أو الحركى Bodily of Kinesthetic ، والذكاء الموسيقى Musical ، والذكاء الاجتماعى Interpersonal ، والشخصى Intrapersonal وفى عام ١٩٩٥ أضاف جاردنر نمطاً آخر ، أسماه الذكاء الطبيعى Intelligence of Naturalist ، وكل نمط من هذه الأنماط له مجاله الخاص ومجموعة العمليات أو المهارات الخاصة به . وقد عرف جاردنر الذكاء عموماً بأنه قدرة الفرد على حل المشكلات والسيطرة على المعوقات ، وعلى الإسهام فى مجتمعه وثقافته المحلية .

لقد أسهمت نظرية المجالات المتعددة للذكاء فى إزالة كثير من جوانب الغموض المحيطة بفهم ظواهر الذكاء والتفوق ، أول هذه الجوانب أن جاردنر أثبت خطأ المفهوم الذى ساد لفترة طويلة من أن الذكاء شىء مستقر أو ثابت Fixed ، فمعدل أو نسبة الذكاء IQ كما تقاس بإحدى أدوات القياس المتفق عليها أى اختبارات الذكاء كان ينظر إليها على أنها تمثل مستوى ذكاء الفرد ، وهى نسبة باقية ومستقرة معه ولاتتغير .

أما الجانب الثانى الذى سيطر على علماء النفس من قبل ، فيتمثل فى اعتقادهم أن الذكاء شىء واحد هو مايعرف بالذكاء العام ، وقد أسفرت أبحاث جاردنر ومعاونيه عن وجود ثمانية أنماط على الأقل من الذكاء أو ثمانية مجالات للذكاء ، وأنها جميعاً على القدر نفسه من الأهمية ، كما أن كل الناس يمتلكون هذه الأنماط الثمانية ولكن بدرجات متفاوتة . ويعتبر المجال أو النمط الذى يتفوق فيه الفرد يدعم ويساعد المجالات الضعيفة لديه .

وفضلاً عن التأكيد أن كل إنسان يمتلك كل نمط من الأنماط الثمانية للذكاء، أشارت كامبل Cambell فى سنة ١٩٩٩ إلى بعض التطبيقات المترتبة على نظرية الذكاء المتعدد ، ومنها :

أن الذكاء يمكن أن يعلَّم ، أى يمكن إكسابه للآخرين عن طريق التعلم أو التدريب Can be taught . وبهذا فإن كل فرد يمكن أن يكون متفوقاً فى مجال أو أكثر ، كما أن هناك مجالات يكون فيها مستوى الفرد ضعيفاً نسبياً ، ويمكن تقوية وتحسين هذه المجالات الضعيفة لدى الفرد . ولايعنى ذلك تساوى الأفراد فى الذكاء بالضبط ، فلكل فرد عقله الخاص الذى يميزه عن غيره تماماً مثل بصمات أصابعه .

لقد أحدثت نظرية المجالات المتعددة للذكاء ثورة فى التعليم فى كافة أنحاء العالم ؛ حيث تخلى المربون عن فكرة الذكاء الإنسانى الواحد والثابت النسبة ، وعن الأفكار التقليدية التى سادت بأن الذكاء ينحصر فيما تقيسه اختبارات الذكاء .

إن نظرية جاردنر عن الذكاء دعمتها نتائج الدراسات والبحوث التى أجريت فى المجالات العلمية الأخرى كالأنثربولوجيا وعلم وظائف الأعضاء والتاريخ ، ومشفوعة بالسير الذاتية للأفراد المبدعين ، كما أن الأنماط الثمانية التى اقترحها جاردنر ليست مفاهيم مجردة ، ولكننا نلمسها بوضوح لدى عديد من الموهوبين والمتفوقين فى المدرسة وقبل المدرسة وخارجها . وخلاصة القول أن كل مجال من المجالات الثمانية يمثل بناءً مستقلاً ، يمكن أن نطلق عليه مصطلح الذكاء أو مجالاً مهماً بفعالية فى التفوق .

ومع ذلك لاتعتبر نظرية جاردنر عن الذكاء المتعدد المجالات بعيدة تماماً عن المنظور التقليدى للذكاء ، فمن المعروف أن أى كفاية عقلية بشرية تتضمن بالضرورة مجموعة المهارات اللازمة لحل المشكلات أو الصعوبات ، التى يواجهها الفرد فى الحياة الواقعية اليومية ، كما تستلزم القدرة على تعرف مختلف أنماط هذه المشكلات وتحليلها وتحديد أبعادها ، وتعد هذه المهارات بمثابة قواعد وأسس لاكتساب أية معرفة جديدة أو مواجهة المواقف .

– إن نظرية الذكاء المتعدد بالنسبة إلى المربين تعنى – بمدخلها العاملى المكونات – أن بإمكاننا تنمية وإثراء قدرات المتعلمين ، فى كافة مجالات التفوق والإبداع على اختلاف أنواعها .

ولقد دعم جاردنر مفهوم القدرات المستقلة جزئياً بدليل أن الضرر الذى يلحق الدماغ (من جراء جلطة مثلاً) ، كثيراً ماتحدث خللاً فى وظيفة جزء واحد من وظائف الدماغ ، مثل اللغة ، ولكنها لاتضر بوظائف الأجزاء الأخرى ، كما لاحظ جاردنر أن الأشخاص عادة مايتفوقون فى واحدة من هذه الوظائف الثمانى ، ولكنهم لايكتسبون قدرات متميزة فى السبع المتبقية ، التى نريد أن نظهر مزيداً من التوضيح لها .

١ – الذكاء اللغوى Linguistic Intelligence :

ويعنى قدرة الفرد على استخدام لغته الأصلية بكفاءة (وكذا اللغات الأخرى) فى التعبير عما لديه من أفكار ومشاعر واتجاهات ، بصورة شفوية أو مكتوبة .

ويتضمن الذكاء اللغوى عدداً من المهارات ، منها : القدرة على تذكر المعلومات ، والقدرة إلى إقناع الآخرين . ويبرز فى هذا المجال المتفوقون والمبدعون فى مجالات الخطابة والكتابة والأدب والشعر والصحافة والإذاعة والتلفزيون وغيرهم . إن هذا النمط من الذكاء ينطوى على حساسية للأصوات والمقاطع ، ومعانى الكلمات وحساسية لوظائف اللغة المختلفة ، ونجد ذلك واضحاً فى الشاعر والإعلامى المتفوق .

٢- الذكاء الموسيقى Musical Intelligence :

ويعنى قدرة الفرد على التفكير الموسيقى ، وتمييز مختلف الألحان الموسيقية، وتعرّفها ، وكذا القدرة على معالجة الأصوت والأنغام الموسيقية لتوليد لحن أو نسق موسيقى معين أو مقطوعة معينة . ومن بين المهارات المتضمنة فى هذا المجال قدرة الفرد على عزف آلة أو آلات موسيقية ، مع التنويع فى العزف من حيث السرعة Speed والإيقاع واللحن . إن هذا النمط من الذكاء ينطوى على إمكانية إنتاج وتقدير الإيقاعات والنغمات والاستمتاع بالتعبيرات الموسيقية المتنوعة ، ونجد ذلك واضحاً لدى الملحن والعازف ...

٣- الذكاء الرياضى/ أو المنطقى

Mathematical/ (Logical) Intelligence

ويعنى قدرة الفرد على فهم المبادىء أو الأسس ، التى تقوم عليها الأنماط المختلفة من النظم . ويتميز أصحاب هذه الموهبة بالقدرة على استخدام الأعداد Numbers والكميات ، وممارسة العمليات Operations الرياضية أو المنطقية بكفاءة .

ومن أمثلة المهارات المتضمنة هنا مهارة فهم الخصائص الأساسية للأعداد، وربط الأسباب بالنتائج ، والقدرة على التوقع (التنبؤ) Prediction . وأيضاً الحساسية الفائقة فى معالجة القضايا المنطقية والرياضية مع إمكانية القيام بسلسلة معقدة من الاستدلال ، ويظهر ذلك بوضوح لدى العالم ورجال الرياضيات .

٤- الذكاء المكانى Spatial Intelligence :

ويعنى قدرة الفرد على تمثيل الظاهرات المكانية داخلياً فى ذهنه بكفاءة وبصورة منظمة ، ويتضمن ذلك القدرة على تشكيل الفراغات والمسافات والألوان

والخطوط والأشكال والمواقع والإحساس بها . ومن أمثلة المهارات المتضمنة فى هذا المجال : القدرة على تمثيل المعلومات البصرية أو المكانية ، وترجمتها جغرافياً على الورق فى صورة مخططات أو خرائط أو رسوم ، كما يتضمن الإمكانية الدقيقة على إدراك المحيط البصرى المكانى ، ومهارة أداء تحويلات لإدراكات الفرد الأولية ، ويبدو ذلك بوضوح لدى المعمارى والنحات .

٥- الذكاء البدنى / الحركى أو الجسمحركى Bodily / Kinesthetic :

ويعنى قدرة استخدام الفرد جسمه ككل أو أجزاء منه (يديه / أصابعه) فى حل مشكلات أو أداء مهام أو عمل أو إنتاج أشياء بكفاءة وبصورة متميزة ، كما تعنى أيضاً القدرة على استخدام الجسم كأداة للتعبير عن الأفكار والمشاعر . والمتفوق فى هذا المجال يتميز بمهارات ، مثل : التنسيق الحركى Coordination والمرونة Flexibility ، والسرعة Speed ، والتوازن Balance ويتضح كل ذلك لدى لاعبى الجمباز وغيرهم من الرياضيين ، حيث تبدو إمكانيات السيطرة على حركات الجسم والتعامل مع الأشياء بمهارة فائقة بالجسم أو أحد أجزائه ، ويظهر ذلك جلياً لدى اللاعب والراقص ... إلخ .

٦- الذكاء الشخصى (قدر الذات) Intra - Personal - Intelligence :

يشير ذلك إلى قدرة الفرد على فهم ذاته ، من هو ؟ وما يمكنه عمله ؟ وماذا يريد ؟ وما طبيعة ردود أفعاله ؟ وما الأشياء التى ينفر منها ، وتلك التى ينجذب إليها ويفضلها أو يحبها ؟ أى يشير هذا النمط من الذكاء إلى قدرة الفرد على فهم ذاته ونقاط القوة والضعف لديه ، ومزاجه ومشاعره ورغباته ومقاصده الداخلية .

ومن أمثلة المهارات المتضمنة فى هذا النوع من الذكاء : قدرة الفرد على إدراك أوجه الشبه والاختلاف بينه وبين الآخرين ، وقدرته على تذكير نفسه بالقيام بعمل ما ، وقدرته على السيطرة على مشاعره ، وعلى توظيف جوانب القوة لديه ؛ أى إن هذا النمط من الذكاء ينطوى على تعرف الفرد مشاعره الذاتية، والقدرة على التمييز بينها ، ومعرفة الفرد بجوانب قوته وضعفه ورغباته وحتى ذكائه .

٧- الذكاء الاجتماعى (مع الغير) Inter - Personal - Intelligence :

يشير هذا النمط من الذكاء إلى قدرة الفرد على فهم الآخرين ، وفهم أحاديثهم وكلماتهم ومشاعرهم ودوافعهم ومقاصدهم ونواياهم .

ومن أمثلة المهارات على ذلك : قدرة الفرد على التجاوب مع الآخرين بصورة فاعلة ، وقدرته على حل المشكلات ، وفض النزاعات ، ومواقف الاختلاف فيما بين زملائه . وهنا فالأمر ينطوى على إمكانية الفرد على التمييز والاستجابة لأمزجة ودوافع ورغبات الآخرين بشكل مناسب ، وهذا يظهر فى رجال المبيعات والإخصائى النفسى والاجتماعى الماهر ، والمعالج النفسى .

٨- الذكاء المتصل بالطبيعة Intelligence of Naturalist :

ويعنى قدرة الفرد على التمييز بين الكائنات الحية من نباتات وحيوانات ، وما تتضمنه الطبيعة من صخور ومعادن ، والمجتمعات الاستهلاكية المعاصرة توظف هذا النمط من الذكاء ؛ فالفرد يستخدمه فى التمييز بين الأشياء الحية وغير الحية ، مثل : السيارات وألوان التجميل والديكورات وغيرها ، وفى إدراك أوجه الجمال والخلل فى البيئة .

ويبدو من ذلك أن هذه الذكاءات أو أنماط الذكاء يمكن التدخل لتحسينها وتطويرها ، فعندما سئل جاردنر : هل يمكن تنمية أو تقوية ذكاء الفرد ؟ وكيف يمكن ذلك ؟ أجاب بقوله : يمكننا تحسين ما لدى الفرد من ذكاء فى المجالات الثمانية ؟ ومع ذلك سنجد أن بعض الأفراد ستنمو قدراتهم فى أحد مجالات الذكاء بسرعة أكبر أو ببطء أكثر لأخرى ، مقارنة بالآخرين ، إما لأنهم ولدوا ولديهم قدرات أفضل فى هذا المجال أو إمكانات أدنى ، أو لأن بيئتهم الثقافية وفرت لهم فرصاً تعليمية وتدريبية أفضل أو لم توفر . ومن هنا نجد أن هناك مسئولية كبيرة تقع على المعلمين ، فيما يتصل بمساعدة تلاميذهم على تحسين وتنمية أنماط مختلفة من مجالات الذكاء ، ومساعدتهم فى تعرف جوانب القوة والضعف فيما لديهم من ذكاء فى المجالات المختلفة ، ومساعدتهم فى اختيار برامج التعليم أو التدريب المناسبة لهم ، وهذا لايمنع إتقان الآباء فى ممارسة بعض هذه المهام مع أطفالهم خلال عملية التنشئة .

ومع أن نظرية الذكاء المتعدد المجالات Multi - Inte ليست هى العصا السحرية ، التى ستوفر حلولاً لمشكلات التعليم والتعلم ، إلا أن ربطها بمنهاج يعمل على استثمار طاقات الطلبة ، يضفى قوة هائلة على مخرجات النظام التعليمى ، ومهارات التلاميذ فى مختلف أعمارهم .

وعلى المعلم أو الوالد بطبيعة الحال أن يراقب بدقة كل طفل ؛ ليتعرف

أفضل مجالات الذكاء عنده ، وعليه أيضاً ألا يتعامل معه ؛ وفقاً للمجال الذى يتفوق فيه فقط ، بل عليه أن يتيح له ولزملائه أو أقرانه فرصاً متساوية للنجاح والنمو فى كل المجالات ، مع إتاحة فرص خاصة لكل منهم على حدة ؛ لإشباع حاجته فى المجال الذى يتفوق فيه .

وإذا كانت نظريات سبيرمان وثيرستون وجاردنر تميل إلى وصف كيف يتباين الأشخاص فى محتوى الذكاء ، فعوضاً عن ذلك ، ركزت أحدث الأعمال فى علم النفس المعرفى على عمليات التفكير ، التى يقوم بها كل الناس كيف يجمع الأفراد المعلومات ، ويستخدمونها لحل المشكلات والتصرف الذى نقول عنه إنه تصرُّف بذكاء ؟ ولقد بدأت آراء جديدة تنبثق فى ضوء هذا المنطلق مثل نظرية ستيرنبرج.

وتُعد نظرية ستيرنبرج الثلاثية للذكاء Sternberg ، مثالاً لمنحى العملية المعرفية لفهم الذكاء كما يذكر محمد البيلى ورفاقه ، وكما يظهر من تسميتها ، فإن هذه النظرية تتكون من ثلاثة أجزاء : يهتم الجزء الأول بوصف العمليات لدى الفرد التى تؤدى به إلى السلوك الذكى بصفة عامة . ويمكن وصف هذه العمليات من منطلق كونها مكونات Components . والمكوِّن هو عملية أولية للمعلومات يكمن مجال نشاطها فى التمثيلات الداخلية للأشياء والرموز ، وتقسم المكونات تبعاً للوظائف التى تؤديها وحسب مدى شموليتها . وهناك ما لايقل عن ثلاث وظائف : الوظيفة الأولى وتشمل التخطيط – عالى المستوى – واختيار الإستراتيجية ، والمراقبة ، وتنفذ هذه الوظيفة المكونات الماورائية Metacomponets ، ويعد كل من تحديد المشكلة وتوزيع الانتباه ، ومراقبة مدى فاعلية استراتيجية ما أمثلة على المكونات الماورائية . أما الوظيفة الثانية التى تؤديها مكونات الأداء Performance Components ، والتى تتمثل فى تنفيذ الإستراتيجيات المنتقاة . كما تمكننا مكونات الأداء من إدراك وتخزين المعلومات الجديدة ، أما الوظيفة الثالثة فهى اكتساب المعارف الجديدة ، وتقوم بتأديتها مكونات اكتساب المعرفة Knowledge-acquisition components ، مثل : الفصل بين المعلومات ذات العلاقة ، وتلك التى ليس لها علاقة أثناء محاولة فهم مفهوم جديد.

وهذه المكونات محددة ؛ بمعنى أنها ضرورية لنوع من المهام فقط ، مثل : حل المترادفات . أما المكونات الأخرى ، فهى على درجة عالية من العمومية ، ويتوقع أن تكون ضرورية فى كل المهام المعرفية تقريباً . على سبيل المثال ، تكون

المكونات الماورائية دائمة العمل من أجل انتقاء الإستراتيجيات ومراقبة تقدم الأداء ، ومن شأن هذا أن يساعدنا على تفسير العلاقات الارتباطية بين كل أنماط اختبارات الذكاء ؛ فالأفراد ذوو القدرة على اختيار إستراتيجيات فعالة لحل المشكلات ، ومراقبة تقدم الأداء ، والانتقال إلى طريقة جديدة عند فشل الطريقة الأولى ، هم أكثر احتمالاً لتحقيق النجاح على جميع أنواع الاختبارات . ويمكن النظر إلى المكونات الماورائية على أنها فهم جديد للعامل العام (G) ، كما يراه سبيرمان . ويمثل بالتالى الجزء الأول من هذه النظرية ، ما يطلق عليه الذكاء التكوينى Componential .

أما الجزء الثانى من نظرية ستيرنبرج الثلاثية الدعائم ، فهو يتعلق بالتعامل مع التجارب الجديدة ، فالسلوك الذكى له ميزتان :

(١) الاستبصار Insight بمعنى القدرة على التعامل بفعالية مع الأوضاع الجديدة .

(٢) القدرة على أن يكون الفرد فعالاً ومرناً فى التفكير وحل المشكلات .

وهكذا فإن الذكاء له ثمة علاقة بالتفكير الإبداعى فى حل المشكلات المستجدة والآلية فى التفكير Automaticily ؛ أى تحويل الحلول الجديدة بشكل سريع إلى عمليات روتينية ، بحيث يمكن استخدامها دون جهد معرفى كبير ، ويمثل الجزء الثانى هنا الذكاء التجريبى Experimential .

وفى الجزء الثالث من نظرية ستيرنبرج ، تتضح أهمية اختيار المحيط البيئى الذى يمكن للفرد أن ينجح فيه ، وكذلك أهمية التكيف مع ذلك المحيط أو إعادة تشكيله إذا لزم الأمر ، وهنا تكون الثقافة عاملاً رئيسياً فى تعريف الاختيار الناجح والتكيف وإعادة التشكيل ، إذ إن ما قد يكون ناجحاً فى بيئة ثقافية قد لايكون كذلك فى بيئة أخرى . على سبيل المثال ، ترى أن القدرات التى تجعل إنساناً ما ناجحاً فى بيئة زراعية ريفية ، قد تكون عديمة الفائدة فى بيئة حضرية أو ما يشابهها .

إن الأشخاص الناجحين عادة مايبحثون عن أوضاع ، تظهر فيها فائدة قدراتهم ، وبعد ذلك يثابرون من أجل استغلال تلك القدرات والتعويض عن أية نقاط ضعف لديهم ، وهكذا فإن الذكاء بمعناه الثالث هذا يرتبط بالمسائل العملية ، مثلاً خيارات العمل والمهارات الاجتماعية .

ويمثل الجزء الثالث من نظرية ستيرنبرج الذكاء الموقفى Contextual . بما أن مناحى العملية المعرفية مثل التى بلورها ستيرنبرج لاتزال حديثة العهد نسبياً . ولم يتم على أساسها تطوير اختبارات ذكاء على نطاق واسع ، ومهما كانت نظرتنا إلى الذكاء ومداخل دراسته حتى الآن ، إلا أن اعتباره جانباً جوهرياً فى التفوق والموهبة ، يجب أن يؤخذ فى الاعتبار عند الكشف عن الموهوبين ولاجدال فى ذلك ؛ إلا أن الأمر الذى أصبح مبهراً هو أن الذكاء يمكن تنميته وحتى استثارته .

والذكاء ارتباطه موجب بالتحصيل الدراسى وسمات الشخصية [عند مراعاة .القضب الموجب لها] والتوافق النفسى ومفهوم الذات. وهناك أنشطة عقلية عليا لها أهميتها فى التنظيم العقلى ، نوجزها كما يلى :

العمليات العقلية العليا :

نعرض فيما يلى بعض العمليات العقلية العليا فى التنظيم العقلى :

الإنتباه :

وهو تركيز الذهن شعورياً تجاه شيء موضوعى أو فكرة تتصل بشيء موضوعى أو التركيز على فكرة مجردة . وهو عملية عقلية تتصل باهتمام الجانب الشعورى بشيء معين على نحو واضح . والاهتمام ينصب فى هذه العمليات العقلية على الناحية المعرفية فى النشاط العقلى ، إلا أن الجانب النزوعى الذى يهدف إلى القيام بنشاط ضرورى يكون ماثلاً فى عمليات الانتباه ، بحيث إن قوة الانتباه تتوقف على مدى قوة النزوع عند الفرد .

الذاكــرة :

تمر الذاكرة كنشاط عقلى فى عدة خطوات . الجانب الأول منها هو جانب الحفظ ، إذ إنه أحد الأركان الرئيسية الدالة على مفهوم الذاكرة ، حيث إن الذاكرة يمكن استنباط ماترمى إليه من مقدار ماهو مستوعب بعد عملية الحفظ .

والحفظ أحد ضروب الخبرة ، سواء أكانت تلك الخبرة مسموعة أم منظورة . والخطوة الثانية من الذاكرة هى الاستيعاب أو الاحتفاظ بآثار الشيء المسموع أو المنظور .

المنظور .

والقدرة العقلية على الاحتفاظ بالخبرة قد تكون من السعة بحيث تكون لفترة طويلة فتمتد إلى فترات طويلة ، وقد تكون قصيرة محدودة .

والخطوة الثالثة هى الاسترجاع أو التعرف . وهذه الخطوة تتضمن الدلالة على نوعية الحفظ وكميته .

وفى تكامل الخطوات الثلاث هذه أثر لايستهان به فى حياة الإنسان وفى كيان شخصيته ، فهى التى تساعد على النمو العقلى وتزايد محصول الخبرات .

وهناك علاقة بين التذكر والتصور ؛ فالتصور هو نوع من التذكر تكون المادة فيه هى الصورة العقلية ، التى سبق أن مرت فى الخبرات السابقة للفرد .

كما ينبغى التفريق بين التصور وهو استعادة صور عقلية سبق أن مرت بخبرة الفرد ، والتخيل وهو تكوين صور جديدة على العقل ولو أن أجزاءها قد مرت بخبراته السابقة .

ويؤثر فى التذكر عمليات منها :

النسيان – تقادم الفترة الزمنية – التداخل والتزاحم – الاستعمال والإهمال.

التفكـــير :

وظيفة عقلية وعملية معرفية تتم فى المستويات العقلية العليا ، وينشأ عن هذا المستوى العالى معرفة منسقة منتظمة .

وهو فى عملياته الرمزية يستخدم قوى الاستدلال والتذكر والتخيل والتصور.

وأهم مايميز التفكير عن سواه من الوظائف العقلية الأخرى ، هو أنه لايتقيد بحدود الزمان والمكان ، إذ يستطيع الفكر أن يخترق المسافات وأن يتصور مواقف ليست فى متناول الحواس .

وللتفكير مستويات منها :

أ – المستوى المعرفى أو الإدراكى .

ب– مستوى التفكير التذكرى .

جـ- مستوى التفكير الإبداعى .

د- مستوى التفكير التقييمى .

التصـــور :

وهو من العمليات العقلية العليا المتمثلة فى استرجاع الخبرات الحسية التى تمر بالفرد على شكل صور عقلية ، تكون ماثلة لعين العقل .

والصور العقلية المستحضرة التى تدركها البصيرة ، إنما هى تعبير رمزى لمدرك حسى سابق . وتختلف الصور العقلية عن الخبرات الحسية والمدركات العقلية الأصلية اختلافات جوهرية أهمها :

أنها صور عقلية رمزية لأشياء محسوسة . - أنها لاتبقى على نظام واحد فى الذهن . - أنها لاتكون من النضوج بحيث تحاكى الأصل تماماً . - أنها تكون منفصلة عن عالم الحس المحيط بالفرد .

هذا ويجب التمييز بين التصور والتذكر . فالتصور تكون فيه صورة المحسوس ماثلة أمام عين العقل على شكل صورة حسية مرتبطة بالحاسة التى سبق أن تأثرت بذلك المحسوس .

أما التذكر فإنه وظيفة عقلية أيضاً ، ولكنه يتم على صورة انطباع الشىء المحسوس فى العقل دون القدرة على استحضاره على هيئة صورة عقلية . هذا رغم أن التذكر يعتمد على التصور بدرجة عالية .

القدرات العقلية :

يعتبر الذكاء قدرة القدرات كما سبق الإشارة إلى ذلك ، بل إن الذكاء هو النشاط العقلي الذى يؤثر على العمليات والأنشطة العقلية التى سبق الإشارة إليها ، وهو كما ذكرنا يؤثر على التحصيل المعرفى وعلى سمات الشخصية .

وبجانب الذكاء توجد قدرات عقلية أخرى فى التنظيم العقلى ، وضمن التنظيمات التى أشارت إليها الدراسات النفسية المعاصرة ، التنظيم الذى أشار إليه ثيرسيتون Thurstone ١٩٣٨ (٩٣) فى تحديد القدرات العقلية الأولية : المكانية - العديدة - اللفظية - الطلاقة اللفظية - التذكر - الاستدلال الاستقرائى - القدرة الإدراكية .

وحيث تلى ذلك التنظيم الثلاثى الأبعاد ، والذى قام بوضعه جيلفورد Guilford ١٩٦٧ (٩٤) وحيث نظم الطاقات العقلية فى أبعاد : العمليات – المحتوى – النواتج .

وما أثمرت عنه النظرية المعرفية من جهور جاردنر Gardner فى نظرية الذكاء المتعدد (MI) حيث توصل إلى سبعة ذكاءات على الأقل هى الذكاء اللغوى والذكاء المنطقى والذكاء الرياضى أو الحسابى والذكاء المكانى والذكاء الجسمى أو الحركى والذكاء الموسيقى والذكاء الاجتماعى والشخصى وتوصل أخيراً إلى الذكاء المتصل بالطبيعة . وكذا ما انتهت إليه نظرية ستيرنبرج Sternberg . كما سبقت الإشارة .

ولانود الدخول فى تفاصيل أكثر من حيث التنظيم العقلى ، إذ إن هذا العرض الموجز القصد منه ... محاولة إبراز مساهمات علماء المسلمين ومدى اقترابهم أو ابتعادهم فى فهمهم للتنظيم العقلى وفق ماهو معروف فى علم النفس المعاصر .

... إذاً ما مساهمات علماء المسلمين فى تفسير الجانب العقلى المعرفى فى السلوك ؟

* آراء ابن سينا إلى القوى النفسية حسب (٩٥) التنظيم التالى :

١ – النفس النباتية وتقسم إلى غازية ونامية ومولدة .

٢ – النفس الحيوانية وتقسم إلى محركة ومدركة .

والمحركة : هى الباحثة والتى تكون شهوانية وغضبية وهى أيضاً فاعلة .

والمُدركة : القصد بها الإدراك الظاهر بالحواس (الحواس الخمس) والإدراك الباطنى بالحواس الباطنة وهى الخيال والمصورة والمخيلة والمفكرة والوهمية والحافظة والذاكرة .

٣ – النفس الإنسانية وهى فى رأيه :

عاملة : العقل العملى .

عالمة : العقل النظرى .

أما العقل فهو : هيولانى ، بالملكة ، بالفعل ، مستفاد (أو مستفاد ثم بالفعل) .

وأشار ابن سينا إلى جوانب أخرى عقلية فى السلوك الإنسانى تتمثل فى :

المعرفة عند ابن سينا :

وفى رأيه تتم إما بالإدراك الحسى الظاهر ، وإما بالإدراك الحسى الباطن أو بالإدراك العقلى .

١- الإدراك الحسى الظاهر :

وفى رأيه أنه انتقال حقائق الأشياء إلينا ، أو هو المعرفة بواسطة الحواس : اللمس وهو فى رأيه أولى الحواس ، وهناك عدة أعضاء لمسية فى البدن وفق ماتشير إليه الدراسات العلمية الحديثة ، والذوق ، والشم ، والسمع ، والبصر .

ويحدث الإحساس نتيجة انفعال يقع على الحس من المحسوسات الخارجية.(٩٦)

إلا أن الانفعال الحسى ينتقل خلال الأعصاب الحسية بواسطة جسم بخارى لطيف يسمى الروح ، يتدفق فى الأعصاب ، فيحمل إلى أعضاء الحس ثم ينقل التأثيرات الحسية إلى الدماغ ، ثم بالعكس ينقل الروح الأوامر الصادرة من المراكز الدماغية إلى أعضاء الحس .

٢- الإدراك الحسى الباطنى :

وهنا تأتى عملية الحس المشترك . فهذا يُجرد الأشياء الحسية ، وهو الذى يُحس ومركزه الدماغ ، ثم يأتى دور الوهم أو الوهمية ، وخزانة هذه هى الحافظة أو الذاكرة .

٣- الإدراك العقلى :

هنا يتكلم ابن سينا عن العقل ووظيفته ، ثم عن العقول حتى يصل إلى الحدس . ويعتبر الحدس من أهم النظريات النفسية لابن سينا .

مراتب العقول عند ابن سينا :

فى نظر ابن سينا ترتب العقول على أساس :

١- **العقل الهيولانى** : وهو قوة استعدادية ، قوة أولى ، لقبول الصور .

٢- **العقل بالملكة** : حيث تكون قد حصلت المعقولات الأولى (العلوم الأولية) فيصبح العقل الهيولانى مستعداً لقبول المعقولات الثوانى (العلوم المكتسبة بالتفكير أو الحدس أى غير التفكير) .

٣- **عقل بالفعل** : لأنه يعقل متى شاء بلاتكلف أو اكتساب .

٤- **العقل المستفاد** : عندما يعلم أنه يعقلها بالفعل (للصورة المعقولة) فهو عقل مستفاد .

وكل انتقال يكون بواسطة العقل الفعال . وكل عقل هو عقل بالقوة بالنسبة لما فوقه ، وعقل بالفعل بالنسبة لما دونه .

وهنا يضع ابن سينا ، فى هذا الترتيب للعقول ، العقل المستفاد (٩٧) فوق العقل بالفعل . وفى مؤلف آخر له (كتاب الإشارات والتنبيهات) يكون العقل بالفعل هو الأرفع .

* مساهمات ابن سينا فى تفسير بعض العمليات العقلية العليا :

التصور والتخيل عند ابن سينا :

يرى ابن سينا أن الخيال يبرئ الصور المنتزعة عن المادة تبرئة أشد من الإحساس ، ولكنه لايجردها من لواحق المادة تجريداً تاماً . وأما الوهم فإنه يجاوز هذه الرتبة فى التجريد ، ولكنه مع ذلك لايجرد الصورة من لواحق المادة تجريداً تاماً ؛ لأنه يأخذها جزئية ويحسب مادة مادة ، وبالقياس إليها ، وقد يأخذها بمشاركة الخيال . وأما القوة التى تأخذ الصور أخذاً مجرداً من المادة من كل جهة وتفرزها عن كل .. كم .. وأين .. ووضع مادى .. فهى العقل .

فالعقل ينزع الصور عن المحسوسات الجزئية ، ثم ينظمها حسب المعقولات الأولى ، ثم ينتقل من المعقولات الأولى إلى المعقولات الثانية حتى يبلغ العقل المستفاد . (رسائل فى الحكمة والطبيعيات - ابن سينا) .

المخيلة عند ابن سينا :

هى فى نظره ملكة ناتجة عن الإحساس ، لأن التخيل إحساس ضعيف ، فنحن نرى الأشياء الماثلة أمامنا بالفعل ، تظل آثارها وصورها بعد غياب المحسوسات عنا كامنة فى قوة أو ملكة باطنة موجودة فينا هى المخيلة .

فالتخيل فى رأيه هو إدراك المحسوسات فى غيابها (النجاة - ابن سينا) ومن الواضح أن آراء ابن سينا حول التصور والتخيل والمخيلة لاتذكر ميزات التصور والتخيل فى مفهوم علم النفس المعاصر .

فقوله : التخيل هو إدراك المحسوسات فى غيابها ، ينطبق على تعريف التصور فى مفهومنا فى علم النفس المعاصر .

أما التخيل فى مفهوم علم النفس المعاصر ، فهو إبداع أو تركيب جديد ليس له مثال فى الواقع استناداً إلى صور سابقة .

ولكنه فى الوقت نفسه يقرر حقيقة هامة ، تستند على مايلى :

- المخيلة لاتؤدى عملها إلا بالاعتماد على الإدراك الحسى .
- الصور الموجودة فى المخيلة شبيهة بالصور المحسوسة .
- الإدراك أكثر حيوية من الصور ، وأكثر موضوعية من الصور الموجودة فى المخيلة .
- الصور الموجودة فى المخيلة أكثر فعالية من الإدراك ، أى إن الصور تعمل بحرية أكثر من الإحساس . فمثلاً يمكن أن يتخيل الإنسان أشياء لاوجود لها فى الواقع المحسوس .

ويرى ابن سينا كذلك أن المخيلة تلعب دوراً كبيراً فى الأحلام ، حيث تخدم النائم الصور المخزونة فى دماغه ، ولكن ليست الأحلام كلها خادمة ، فهناك الرؤيا الصالحة فى النوم ، وذلك عندما تعتاد النفس الصدق وتقهر التخيل الكاذب ، فتقع لها الرؤيا الصادقة .

ويشير ابن سينا إلى قول النبى صلى الله عليه وسلم أو مامعناه : الرؤيا الصالحة فى النوم جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة .

وكذلك إلى رؤيا النبى صلى الله عليه وسلم قبل البعثة ، عندما كان يتعبد فى غار حراء .

الذاكرة فى رأى ابن سينا :

يُعرف ابن سينا الذاكرة بأنها ملكة إدراك الزمان ، وتتعلق بالماضى ولاتؤدى وظيفتها دون التخيل ؛ فهى مرتبطة بالتخيل وتابعة له . وليست وظيفتها

إدراك الصور الحاضرة ولكن وظيفتها إدراك الماضى . إن مهمة المخيلة اختزان الصور واسترجاعها ، أما مهمة الذاكرة التذكر وتساعد عليه الإرادة ، وهى لذلك تخص الإنسان وحده . هذا ويقرر ابن سينا فى مفهوم الذاكرة وجود العنصر العقلى، وهو يتمثل فى الإدراك والتخيل ، ومن جهة أخرى يربط بين التذكر والإرادة تميزاً للذاكرة عن التداعى ، الذى يتم بصورة عفوية وآلية . ومن المعروف أن علم النفس المعاصر يشير إلى وجود ذاكرة عند الحيوان من نوع خاص تختلف عن ذاكرة الإنسان .

التفكير فى رأى ابن سينا :

يرى ابن سينا أن الإحساس هو قبول الصور المحسوسة والتفكير هو قبول الصور المعقولة . وليس للتفكير صورة إيجابية خاصة به ، إنما هو قوة أو هو لاشيء بالفعل قبل أن يقوم بوظيفته ، وهو لذلك مستقل عن الجسم . وإذا قارنا بين موضوع الفكر وموضوع الحس والمخيلة وجدنا فارقاً يميز بينهما ، يظهر كما يلى : «إن الفكر يدرك الماهية أى الصورة المجردة عن أغراض المادة التى يمكن إطلاقها على كثيرين مثل : الماهية الإنسانية التى تطلق على جميع الأفراد الذين تتحقق فيهم الحيوانية والنطق ، وهذه هى صفة (الكلية) التى يشملها المعنى المجرد.

أما الإحساسات الخارجية والباطنية فإنها تُدرك الصورة الجزئية كما هى واقعة . وكون الفكر يدرك المجردات دليلاً على أنه مجرد ولايحتاج إلى عضو مادى فى إدراكه .

الوظائف الإدراكية والأخلاقية للعقل عند الغزالي :

اهتم الغزالى بتفسير الجانب العقلى فى السلوك الإنسانى ، ويعنينا أن نوضح ما أضافه من جديد فى هذا الشأن . فقد أشار الغزالى إلى أن العقل له وظائف إدراكية وأخلاقية تتمثل فى : (٩٩)

١ - أنه ميزان الله تعالى فى أرضه .

٢ - أنه يدرك المعقولات لأن المدركات على نوعين :

أ - محسوسات تدرك عن طريق الحواس .

ب- معقولات لاتدرك إلا بالعقل ، سواء كانت مجردة بذاتها ، أو أنها جردت عن طريق الإلهام أو الاستدلال .

وللإنسان قوة يُحضر بها المدركات مقترنة بأمور بعيدة عن التجريد ، ولايتصور أن تحضرها إلا مقرونة بهذه الأمور ، فتسمى تلك القوة حساً وخيالاً . كما أن عند الإنسان قوة أخرى يحضر بها المدركات مجردة عن الأمور الغريبة وتسمى تلك القوة عاقلة .

٣ – ثم أن للعقل وظيفة هامة وهى القضاء على أغاليط الحس ، وهى كثيرة «فالعين تدرك الكبير صغيراً فترى الشمس فى مقدار حجر ، والكواكب فى صورة منثورة على بسوط أزرق ، والعقل يدرك أن الكواكب والشمس أكبر من الأرض إضعافاً مضاعفة» .

٤– ومن الوظائف الهامة للعقل أنه يعوض قصور إدراك الحس ، وذلك لأن الحس:

أ – لايدرك الأشياء إلا بممارسة منها أو بقرب ، فالحس معزول عن المدركات أن لم تكن مماسة أو قريبة وليس ذلك شأن العقل .

ب– وهو مقيد بالعتبات الدنيا والعليا ، فلايُدرك ماقرب منه قرباً مفرطاً ، ولا ما بعد ، بينما يستوى عند العقل القريب والبعيد .

د– ولايُدرك الحس ماوراء الحجب بينما لاتحجب الحقائق عن العقل ، وإنما يكون الحجاب من الإنسان نفسه بسبب صفات مقارنة له .

هـ– ويكتفى الحس بظواهر الأشياء دون بواطنها وقوالبها وصورها دون حقائقها .

والعقل يتغلغل إلى بواطن الأشياء وأسرارها ، ويُدرك حقائقها ويستنبط أسبابها وعللها وحكمها .

و– ويعجز الحس عن معرفة الصفات الباطنية كالفرح والسرور والغم والحزن والألم والعشق والشهوة والقدرة والإرادة والعلم ، بينما يمكن للإدراك العقلى أن يعرف هذه الأمور ، بالإضافة إلى بقية المعقولات .

ز– والحس عاجز عن إدراك اللامتناهى بينما العقل قادره عليه .

٥– هناك سبب أخلاقى يستدعى وجود العقل . فالعلم بالحُسن لايحتم دائماً أن يتمثل الإنسان به . والعالم عادة أقدر على ترك المعاصى عن الجاهل لعلمه بمضار الشهوات وكيفية كسرها . والعقول قد تسخر للشهوة واستنباط الحيل لقضائها، لكن الأغلب أن العقل يوجه الإنسان للقضاء على الشهوة وتقبيحها .

ولذلك عُرف العاقل بأنه من اجتنب المحارم وأدى فرائض الله ، أو أنه هو التقى وتلك ثمرة العقل .

الأسس الأولية للإدراك العقلى عند الغزالى :

الإدراك العقلى – فى رأى الغزالى – سواء كان اعتباراً أو إلهاماً ، لابد له من قاعدة يرتكز عليها . وتبدو هذه القاعدة فى أمرين هما فى نظر الإمام الغزالى:

أ – الاستعداد الفطرى للعلم .

ب– تحصيل المبادئ أو المعقولات الأولى .

والإدراك العقلى عند الإمام الغزالى فى نظره أنه آلة ومحلاً . فالآلة فى الإدراك العقلى محلها القلب أو العقل . ويميز الغزالى فى العلم الذى هو الإدراك العقلى بين حقيقة العالم ومحله وكيفية حصوله ، أو بين آلة العلم والعلوم وعملية التعلم . والعلم هو القلب الذى يحل فيه مثال حقائق الأشياء ، والعلوم هى حقائق الأشياء ، والعلوم هو حصول المثال فى القلب .

والعقل فى نظره يبدو كآلة للإدراك العقلى فى تنقله وحركته ، فهو يسهل الوصول إلى الحقائق وتصورها من غير أن تحل ذاته فى الأشياء ولاأن تندمج فيها.

غير أن هذه الآلة ليست كآلات الإدراك الحسى محسوسة مادية ، بل هى ماهية مجردة هى حقيقة النفس الناطقة . وهى تدرك نفسها وينطبق عليها كل ماينطبق على النفس الناطقة من معانى التجريد وعدم المادية والفساد .

ولايوجد العقل إلا عند الإنسان ، لأن القوى الحيوانية تنتهى عند التخيل والوهم ، بينما الإنسان يتميز بالعلم والإرادة .

والعقل هو أحد جانبى النفس الناطقة التى يشير الغزالى إلى أن لها وجهين :

أ – وجه إلى البدن وهو العقل العملى وعمله تدبير الجسد وعلاقته بالمعرفة ضئيلة ويسمى عقلاً باشتراك اللفظ .

ب– ووجه آخر هو العقل النظرى ، وهو الذى يقوم بمهمة الإدراك العقلى . كما يستطيع الاتجاه إلى الجانب العلوى ليستفيد منه بالمبادئ النظرية المجردة .

الاستعداد الفطرى للعلم عند الغزالى :

تعتمد حركة العقل عند الغزالى على الاستعداد الفطرى الذى يتميز به الإنسان عن سائر الكائنات ، ويصل به إلى إدراك المعقولات والكليات والحقائق النظرية . وكل قلب هو بالفطرة صالح لمعرفة الحقائق .

والسبب فى وجود هذا الاستعداد صلة الإنسان بالربوبية ؛ فالإنسان يتكون من عدة طبائع ، أو بالأحرى من طبيعتين أساسيتين : الطبيعة الربانية – الطبيعة الأرضية .

وذلك الاستعداد هو أمر ربانى شريف على حد تعبير الغزالى . وأهم مايتميز به هذا الاستعداد هو القدرة على تلقى العلوم النظرية . ويبدأ ظهوره عند الإنسان عند سن التمييز ، ويستمر فى نموه حتى سن الأربعين ونموه خفى التدريج ومثاله مثال نور الصبح «فإن أوائله يخفى خفاءً يشق إدراكه ، ثم يتدرج إلى الزيادة إلى أن يكمل طلوع الشمس» .

ولابد للناس جميعاً من هذا الاستعداد ، بما فيهم الأنبياء وذو ، الإلهام والبصيرة ، إذ إنه القاعدة التى يقوم عليها كل من الإلهام والاعتبار على تفاوت فيه بين الناس ، ومن ظن غير هذا فقد انخلع عن ربقة العقل على حد قول الغزالى.

وقد اختلف الحكماء فى كون هذا الاستعداد متشابها أو مختلفاً عند الأفراد ، فقد قالت جماعة أن الناس جميعاً متشابهون فى هذا الاستعداد ، وأن الاختلاف هو فى استعماله فى علم دون آخر ، وقالت جماعة أخرى إن الناس مختلفون فيه حسب الأمزجة إلى الفعل ، فإنما يخرج بحسب الإستعداد .

تلخيص :

* تتحقق الكفاءة العقلية العامة للفرد وفقاً لمستوى الذكاء والقدرات العقلية الأولية والاستعدادات العقلية الخاصة والأنشطة العقلية التى يتباين فيها كلها أفراد المجتمع البشرى .

* اهتمت الدراسات الإغريقية القديمة بالنواحى الإدراكية للنشاط العقلى للإنسان ، كما أكدت الدراسات النفسية فى تطورها أن الجانب الإدراكى المعرفى يعاون الإنسان على التكيف بطريقة أكثر فاعلية فى البيئة التى يعيش فيها .

* فيما يتعلق بالذكاء أو مايُعرف بقدرة القدرات أو القدرة العقلية العامة فى التنظيم العقلى ، فإن له تعاريف كثيرة على أنه القدرة على التفكير المجرد ، أو القدرة على التعلم ، أو القدرة على حل المشكلات ، أو القدرة على التكيف مع البيئة .

* من الأنشطة العقلية التى لها أهميتها فى التنظيم العقلى العمليات العقلية :

الانتباه – الذاكرة – التفكير – التصور . هذا بجانب القدرات العقلية التى تنتظم فى صورة قدرات أشار إليها الدارسون والمهتمون فى الدراسات النفسية المعاصرة .

* فى آراء «ابن سينا» فى القوى النفسية أن النفس الإنسانية إما أن تكون عاملة (العقل العملى) وإما عالمة (العقل النظرى) ، كما قسم العقل إلى مراتب .

* فيما يتعلق بالإدراك عند «ابن سينا» ، فقد قسم إلى الإدراك الحسى الظاهر أو الإدراك الحسى الباطن أو الإدراك العقلى .

* رتب «ابن سينا» العقول إلى : الهيولانى (أولى) بالملكة (نتيجة لاكتساب وقبول المعقولات) – بالفعل (يعقل عند مشيئته بلاتكلف أو اكتساب) – المستفاد (وهو أعلى مراتب العقول) .

* فى التصور والتخيل عند «ابن سينا» ، أوضح صور الخيال والإحساس المجرد والمحسوسات الجزئية واتصالها بالمعقولات الأولى .

وفى رأيه أن التخيل هو إدراك المحسوسات فى غيابها ، وأوضح أن المخيلة تلعب دوراً كبيراً فى الأحلام وخاصة فى الرؤيا الصالحة .

* فى الذاكرة يرى «ابن سينا» أن وظيفة الذاكرة إدراك الماضى وليس الحاضر ، وأن مهمة المخيلة اختزان الصور واسترجاعها . والعنصر العقلى مهم فى

الذاكرة، التى تختلف فى الإنسان عن الحيوان .

* يميز «ابن سينا» بين الإحساس والتفكير فى أن الإحساس يتم على أساس قبول الصور المحسوسة والتفكير يقوم على قبول الصور المعقولة . والفكر يدرك الأشياء المجردة وفى هذا دليل على أنه مجرد ، ولايحتاج إلى عضو مادى فى إدراكه .

* العقل فى نظر «الإمام الغزالى» أنه له وظائف إدراكية وأخلاقية . والجوانب الإدراكية إما أن تكون محسوسات تدرك عن طريق الحواس أو معقولات لاتدرك إلا بالعقل .

والعقل فى نظره له وظيفة وهى القضاء على أغاليط الحس ، كما أنه يعوض قصور إدراك الحس والتى حدد فيها خصائص الحس مقارنة بوظائف العقل.

وهناك سبب أخلاقى يستدعى وجود العقل ، حيث إن العقل يوجه الإنسان للقضاء على الشهوة وتقبيحها .

* الإدراك العقلى سواء كان اعتباراً أو إلهاماً من وقائع حدوثه وجود الاستعداد الفطرى للعلم وتحصيل المبادئ أو المعقولات الأولى .

* العقل فى نظر «الغزالى » هو أحد جوانب النفس الناطقة ، ويشتمل على العقل العملى وعلاقته بالمعرفة ضئيلة والعقل النظرى ، وهو الذى يحدث الإدراك العقلى .

* الاستعداد الفطرى للعلم عند «الغزالى» يميز الإنسان عن سائر الكائنات ، وهو الذى يمكن من إدراك المعقولات والكليات والحقائق النظرية . وطبيعة الإنسان ربانية وأرضية . والجانب الربانى هو مايميز بقدرة الإنسان على تلقى العلوم ، ويبدأ ذلك فى سن التمييز .

تعقــيب :

* الذكاء هو قدرة القدرات العقلية ، أم هو ذكاءات فرعية فعموماً هو سبيل الإنسان إلى المعرفة حيث إنه هو الأساس للجانب المعرفى ، بل إنه يلازم اكتساب المعرفة ولاتوجد معارف إنسانية من غير أساس للذكاء .

* والذكاء منذ أمد بعيد عُرف على أنه عمل العقل . ويُقسم العقل عند علماء المسلمين فى النفس الناطقة ، سواءً ما أشار به ابن سينا أو الإمام الغزالى إلى العقل العملى ؛ حيث تكون النفس الإنسانية عاملة ، أو إلى العقل النظرى وحيث تكون النفس عالمة ، بل إن العقل لديهم مقسم أيضاً إلى مراتب .

وحتى نتبين مدى تقارب آراء علماء المسلمين فى التفسير الإسلامى للجانب العقلى المعرفى من السلوك الإنسانى نشير إلى أن :

١- العقل العملى فى النفس الإنسانية العاملة أنه فى نظر علماء الإسلام يتصل بالمعرفة . وفى هذا تقارب مع معنى الذكاء فى تعاريفه فى وقتنا المعاصر من أن الذكاء يتمثل فيه الجانب العملى أو اللفظى من السلوك العقلى .

٢- العقل النظرى فى النفس الإنسانية العالمة والذى من وظائفه فى التفسير الإسلامى إدراك المعقولات وتفسير المحسوسات التى تدرك ، وإدراك المعقولات التى تغيب عن الحواس .

وكما هو معروف فى التنظيم العقلى فى علم النفس المعاصر ، فإن هناك عمليات معرفية تتمثل فيها مستويات معرفية تتدرج بالمحسوسات أى الإدراك الحسى المباشر كما هو متمثل فى الإدراك عند الأطفال ، ثم يتدرج المستوى الإدراكى ليصل إلى الإدراك المجرد أو الإدرك المعنوى وهو أعلى مراتب الإدراك كلما تقدم الإنسان فى العمر .

ومن هذا يتبين أن علماء المسلمين تتفق آراؤهم وتصانيفهم – لحد ما – مع تصنيف الجانب العقلى المعرفى بين علماء النفس المعاصرين .

* فيما يتعلق بمراتب العقل ، فإن العقل المستفاد فى رأى علماء المسلمين يمثل أعلى المراتب .

* من الوظائف العقلية التى تشابهت فى تفاسيرها وفى نشاطها مع ماهو معروف التنظيم العقلى فى وقتنا المعاصر : التصور والتخيل والتذكر والتفكير ، وحيث أشار علماء المسلمين إلى هذه الأنشطة ودورها فى الإحساس واتصالها بالإدراك.

* وأضاف علماء المسلمين إلى وظائف العقل قيامه بالقياس والاستقراء والاستدلال، والحكم على المماثلة والمطابقة بين الأشياء ، ومنهم من أشار إلى الحدس باعتباره السبيل إلى حدوث الإدراك .

هذا إضافة إلى وصفهم للجانبين الفطرى والغريزى من العقل وإتصافهم العقل بالإستدلال والتبصر . وهذان الجانبان الآخران يهتم بهما علم النفس المعاصر وخاصة التجريبى فى بعض المدارس المعاصرة ، التى تنادى بالتعلم بالاستبصار أو ماتعرف بمدرسة الجشتالت .

* من الخصائص التى أشار إليها علماء المسلمين اتصاف العقل بجانب وظيفته الإدراكية بجانب أخلاقى ، وحيث أشار بذلك الإمام الغزالى إلى أن العقل يوجه الإنسان للقضاء على الشهوة وتقبيحها ، إضافة إلى أن الجانب المعرفى عند الإمام الغزالى أشار إلى أن العقل من وظائفه إدراك المعقولات والكليات والحقائق النظرية ؛ إذ إن من طبيعة الإنسان الجانب الربانى ، والذى يميز الإنسان بقدرته على تلقى العلوم ؛ خاصة عندما يصل إلى سن التمييز (سبع سنوات) وهو مايتقارب مع سن الإلزام وبدء التحاق الطفل التعليم الأساسى ، إعتباراً من السادسة من العمر .

* فيما يتعلق بالإدراك والذى يُصنف فى علم النفس المعاصر على أنه من العمليات العقلية العليا ، فإن علماء المسلمين أشاروا إلى الإدراك الحسى (القائم على الحواس) والإدراك العقلى .

وفى رأيهم أن الحواس تختص بإدراك الجزئيات ، أما العقل فمن وظائفه أنه يدرك الكليات (الإدراك العقلى) ، وحيث يفسر المعانى التى ترد إليه عن طريق الحواس .

والواقع إن الإدراك فى نظر علماء المسلمين لايختلف عن تفسيره فى وقتنا المعاصر ، من حيث كونه عملية معقدة (عملية عقلية عليا) حيث يشترك فيها

العقل والحواس والكيان الوجدانى للفرد . هذا بالإضافة إلى الجمع بين الإحساسات الحاضرة والتجارب الماضية .

كما أنهم أشاروا إلى الاهتمام بصحة الحواس وسلامة الدماغ والعقل كأساس للإدراك الحسى والإدراك العقلى .

تمـــــارين :

١- وضح فى صورة موجزة التنظيم العقلى والأنشطة العقلية المعرفية ، وفق ماتشير إليه الدراسات النفسية المعاصرة .

٢- حدد آراء «ابن سينا» فى القوى النفسية ومراتب العقول .

٣- كيف فسر «ابن سيناء» الإدراك ؟

٤- ما آراء «ابن سينا» حول بعض العمليات العقلية التى أشار إليها فى دراساته ؟

٥- يختلف مفهوم العقل عند الإمام الغزالى من حيث كونه له وظائف إدراكية وخلقية . وضح .

٦- كيف فسر «الإمام الغزالى» الإدراك ؟

٧- ما الذى قصده «الإمام الغزالى» من الاستعداد الفطرى للعلم ؟

الفصل الثاني عشر

آراء علماء المسلمين في التعلم

المحتوى :

* تمهيد
* طبيعة التعلم
* تعريف التعلم
* التعلم والتحسن
* التعلم والنضج
* التعلم والإتقان
* التعلم والتربية
* الأسس النفسية للتعلم ممارسة وتطبيقاً
* طرائق ونظريات التعلم
* آراء علماء المسلمين حول التعلم
* التعلم عند برهان الإسلام الزرنوجى
* تلخيص
* تعقيب
* تمارين

الفصل الثانى عشر

آراء علماء المسلمين في التعلم

تمهـيد :

التعلم عملية دراسة فى الحياة ، وأساليب السلوك التى يقوم بها الإنسان يتم اكتسابها خلال التعلم ، والذى تظهر نتائجه فى ألوان النشاط التى يقوم بها الإنسان وفيما ينجزه من أعمال .

ونتيجة لقدرة الإنسان على التعلم ، أمكنه المحافظة على العادات والتقاليد والقوانين واللغات ، والتى استطاع الإنسان عبر أجيال متواصلة أن يفيد من خبرات الأجيال التى سبقته عن طريق التعلم ، الذى يكفل للإنسان البقاء .

وعندما نريد أن نفهم السلوك الإنسانى ، علينا أن نفهم عملية التعلم . ومن الأهمية بمكان تنمية المهارات الخاصة بمعالجة المتغيرات البيئية التى تؤثر فى التعلم .

طبيعة التعلم :

تُعد طبيعة التعلم واضحة – لا لبس فيها ولاغموض – بالنسبة للرجل العادى (١٠٠) أى فى حدود معينة ؛ حيث إن التعلم بالنسبة له معناه اكتساب المعارف والمهارات .

إلا أن علماء النفس لايرضون بهذا التعريف ؛ لأنه يعكس فى نظرهم آراء الفلاسفة الذين يذهبون إلى أن الإنسان يولد وعقله كصفحة بيضاء ، وتعمل الأسرة والمدرسة وغيرها من مؤثرات التنشئة الاجتماعية فى إكسابه الخبرات والمعارف والمهارات والمعارف النافعة .

فالتعلم لايقتصر على اكتساب المعارف والمعلومات ؛ الأمر الذى يجعل المدارس تهتم بقيام التلاميذ بحفظ المعلومات واستيعاب الحقائق . بل إن التعلم من وجهة نظر علم النفس المعاصر ينطرح على السلوك ، ويستهدف تغيير السلوك وخاصة فى النواحى المعرفية والحركية والانفعالية والاجتماعية .

تعريف التعلم :

يُعرف التعلم بأنه تغير فى الأداء أو تعديل فى السلوك عن طريق الخبرة والمران ، وهذا التعديل يحدث أثناء إشباع الفرد لدوافعه وبلوغ أهدافه .

وقد يحدث للفرد أن تعجز الأساليب المعتادة لديه عن التغلب على الصعاب، أو عن مواجهة المواقف الجديدة . ومن هنا يصبح التعلم عملية تكيف مع المواقف الجديدة .

ويُقصد بتعديل السلوك أو تغيير الأداء المعنى الشامل ؛ أى عدم الاقتصار على الحركات الملاحظة والسلوك الظاهر ، وإنما ينصرف التغيير أيضاً إلى العمليات العقلية كالتفكير .

كما يُقصد بالخبرة والمران ، أوجه النشاط المتسقة التى تخطط لها المؤسسات التعليمية وتنفذها .

وفى المراحل الأولى لتعلم مهارة معينة ، تكون استجابات الفرد مشتتة غير منتظمة ؛ حتى يقوم الفرد بالمهارة فى يسر وسهولة .

ويحدث التعلم أيضاً عندما تتضح جزئيات الموقف ، الذى لم يفهمه الفرد من قبل إلا بصورة عامة .

ويركز هذا التعريف على التعلم المقصود الهادف ؛ إذ من المعروف أن الفرد قد يتعلم شيئاً لم يقصده .

التعلم والتحسن :

من المفاهيم الخاطئة الشائعة أن التعلم يؤدى دائماً إلى تحسن فى الأداء . وهذا المفهوم يعود إلى أن التعلم يحدث فى حجرة الدراسة ؛ وفقاً لمقاصد المدرس وأغراضه ، أو أن الفرد ينغمس فى التعلم لتحقيق هدف معين ، وأن أداءه يتشكل بحيث يقترب من هدف الامتياز والتفوق والمهارة ، وهو الهدف الذى تبذل من أجله الجهود ، وفى هذه الحالة يبدو من المعقول التفكير فى التعلم على أنه تحسن فى الأداء .

ومن الصعب التفكير فى التعلم على أنه تحسن فى الأداء فقط ، إذ إن التغيرات التى تؤدى إلى عادات سيئة ، وتثبيت الأخطاء والإتجاهات غير المرغوب فيها ... عبارة عن تعلم . ولايمكن أن يعتبر هذا النوع من التعلم تحسناً .

كما أنه قد يحدث أن يتعلم التلميذ فى حجرة الدراسة أشياء لاتقع فى مجال أهداف الدرس . فقد يتعلم عادة الكسل وعدم احترام السلطة ، وقد يتعلم الكتابة الرديئة واكتساب عادات القراءة السيئة . لذلك إذا قصد بالتحسن الاقتراب من الهدف المرغوب فيه ، فإننا لانستطيع أن نربط بين التعلم والتحسن كمحك خاص بالتعلم.

التعلم والنضج :

ليس التعلم هو العملية الوحيدة التى بواسطتها يتغير السلوك ؛ إذ إن هناك عملية أخرى هامة تحدث تغيرات فى السلوك وهى النضج . وهى عملية نمائية تحدث تغيرات فى السلوك نتيجة للنمو الجسمى .

فالطفل مهما قامت الأم أو المربية بتدريبه لايستطيع المشى أو الكلام إلا إذا وصل نموه العصبى والعضلى إلى مستوى يمكنه من هذا الأداء . وبالمثل كثير من عمليات التفكير العليا ، لاتتيسر إلا للإنسان الناضج ، مثل استخدام الرموز الجبرية.

ورغم أنه من الممكن تقديم توضيحات للتمييز بين التعلم والنضج ، إلا أنهما متداخلان فى الواقع ويصعب الفصل بينهما .

التعلم والإتقان :

وهناك تمييز آخر بين التغيرات التى تحدث فى الأداء نتيجة التعب ، وتلك التى تحدث نتيجة التعلم .

والممارسة التى تجعل التعلم ممكناً ، يمكن أن تحدث كلاً من الزيادة والنقصان فى الإتقان فى الوقت نفسه ، أى نقصان ناتج من التعب ، وزيادة ناتجة من التعلم . وكلاهما يمكن أن يحدث متآنيين ، وأن يستنتجا من التغيرات الملاحظة فى الأداء . مثلاً قد تؤثر فترة الراحة على التعلم فتؤدى إلى نقصان فى الإتقان فى الأداء بسبب النسيان ، وقد تؤدى إلى رفع مستوى الأداء فى حالة تأثير التعب .

التعلم والتربية :

يشتمل التعلم على التغيرات السلوكية المرغوب فيها والمرغوب عنها ، التى تنتتج عن الخبرة ، سواء أكانت داخل المدرسة أم خارجها ، وسواء أحدثت عن قصد أم عرضاً .

وتشير كلمة التربية بمعناها الشكلى إلى البرامج المنظمة ، التى خططت

لإنتاج معرفة معينة ، ومهارات ومفاهيم واتجاهات وأنماط سلوكية عند أعضاء جماعة اجتماعية معينة . وتؤسس المدارس ويحافظ عليها لتحقيق نتائج التعلم المرغوب فيها ، ويمكن القول بصفة عامة أن التربية المنظمة تسعى للمحافظة على استمرارية مؤسسات اجتماعية معينة ، ولمحاربة الشرور التى تهدد المجتمع .

وتتحقق هذه الأهداف النهائية بتنمية الأشكال السلوكية المناسبة عند أعضاء الجماعة الاجتماعية .

لذلك يتطلب الأمر النظر إلى الأهداف التربوية فى ضوء نتائج التعلم الفردى. ونجاحنا فى تحقيق الأهداف التربوية ، يعتمد أساساً على التعلم الذى يحدث فى قاعة الدراسة بتوجيه المدرس .

الأسس النفسية للتعلم ممارسة وتطبيقاً :

يعتمد نجاح عملية التعليم إلى حد كبير على سرعة التأثر وقوة الحس بهدف تقدم النمو وتطوير الحاجات والاستعدادات الأولية الكامنة لدى طلاب العلم ؛ لأن المعلم الناجح الكفء عليه أن يأخذ فى الاعتبار مايأتى : (١٠١)

١ – طبيعة كل تلميذ واحتمالات نموه وتطوره .

٢ – مدى توافق التلميذ الشخصى والاجتماعى مع زملاء الدراسة .

٣ – العوامل الفطرية النفسية فى عملية التعلم والتعليم .

هذا ومن منطلق الإستفادة من الميكانيزمات البشرية ووظائفها ، يمكن للمعلم أن يكيف الطرق والوسائل والإجراءات التى يستخدمها طبقاً للفروق الفردية فى النمو ، لكى يساعد المتعلم على اكتساب الكثير من المعارف والمهارات ، حيث إن فاعلية التعلم تمكن المتعلم من :

١ – تحقيق أنماط مرغوبة من السلوك ، الذى أصبح جزءاً من كيانه فى شكل عادات مفيدة ومثمرة .

٢ – اكتساب المعرفة المتعلقة بذاته ، وبعالم الناس من حوله .

٣ – تنمية أحاسيس الرضا وكذلك الاستجابات الانفعالية ، التى تفيد المتعلم فى علاقاته مع زملائه وسد مطالبه الشخصية .

طرائق ونظريات التعلم :

من حيث كانت عملية التعلم لها أهميتها فى السلوك الإنسانى ، فقد قام علماء النفس بوضع نظريات مختلفة لتفسير التعلم الحيوانى والإنسانى .

ونوجز فيما يلى مضمون هذه النظريات :

١- **التعلم بالمحاولة والخطأ** : وحيث أشار ثورنديك بوجود رابطة (علاقة) بين المؤثر Effector ورد الفعل Reaction مما يؤدى إلى التقوية والتدعيم ، ولاسيما إذا كانت العلاقة متبوعة بنوع من الثواب أو المكافأة .

بينما تضعف العلاقة بين المثير ورد الفعل ، إذا كانت تتبع بنوع من العقاب واللوم ، كما يجب أن يكون هناك ما أسماه «ثورنديك» بالإستعداد النفسى للمساعدة على التعلم أو التدريب .

٢- **التعلم الشرطى** : وحيث أشار «بافلوف» إلى وجود نوع من الإرتباط بين المثير والاستجابة . وهذا الارتباط يرجع إلى أسس فسيولوجية بحتة من وظائف المخ (١٠٢) ، مثال ذلك أن المثير الذى يصاحب تقديم الطعام كرؤية الوعاء الذى يوضع فيه هذا الطعام ، أو صوت هذا الوعاء أو حتى وقع أقدام حامل الطعام . وكل هذا يؤدى إلى إسالة لعاب الكلب (الذى استخدمه بافلوف فى تجاربه) كاستجابة شرطية وهكذا .

٣- **التعلم بالاقتران** : وحيث يشير «جاثرى» بأن هناك قانوناً واحداً لجميع أنواع التعلم ، وهو أنه إذا كانت لدينا مثيرات معينة مقرونة بحركات معينة ، فإن هذه الحركات تبدو فى الظهور مرة أخرى لحظة ظهور المثيرات . وهناك يحدث الترابط بين المثيرات والحركات بعد حدوثهما الإثنين مرة واحدة .

٤- **نظرية التعزيز** : وحيث يشير «هل» أن عملية التعلم تعتمد على حتمية وجود المنبه (المثير) والإستجابة بالإضافة إلى التدعيم . وأهم مايميز هذه النظرية نظرتها فى تكوين العادات بواسطة المثيرات البيئية ، وكذلك الاستجابات التى تظهر فى سلوك الكائن الحى . وكل ذلك يمكن ملاحظته وقياسه كمياً .

٥- **التعلم الشرطى الإجرائى** : وحيث يشير «سكينر» إلى أن معظم السلوك البشرى من نوع الاستجابات التلقائية ، حيث إن هذا السلوك إما استجابى يقوم على الربط بين مثير واستجابة ، وإما سلوك تلقائى . ولايشترط فى هذا النوع وجود أى مثير .

ومن الممكن حدوث الاستجابات دون وجود أى مثيرات ؛ لأن قوة الاستجابة التلقائية يمكن قياسها بدرجة الاستجابة نفسها وليس بقوة المثيرات .

٦- التعلم بالاستبصار (الجشتلت) : وحيث ظهرت أفكار هذه النظرية فى ألمانيا وحيث تمثل كلمة جشطلت بمعنى الشكل أو الصيغة . وحيث تنادى هذه النظرية بأن علم النفس هو علم السلوك الكتلى وهو السلوك الهادف إلى غاية معينة ، والذى يحقق الكائن الحى - ككل متكامل - عن طريق تفاعله مع البيئة . كما أن الكل ليس هو مجموع العناصر التى يتكون منها ، وتحليل الكل إلى عناصره لايعطى فكرة كاملة عن هذا الكل .

ومع هذه النظريات والطرائق الموصلة للتعلم ، يبقى المدرس العامل الأهم فى عملية التعلم والتعليم ، إلا أن هناك مايعرف بانتقال أثر التعلم ، حيث إن أول مايجب أن يوجه إليه المدرسون اهتمامهم ، هو أن يحددوا أى النتائج التعليمية يريدون تحقيقها عند تلاميذهم ، أو بمعنى آخر أكثر تحديداً ، أى المعارف والمهارات تستحق الاهتمام ؟ وما الوسائل والطرق التى يمكن أن يكتسب بها التلاميذ هذه المعارف والمهارات والاتجاهات والميول ؟ (١٠٣)

والتعلم المثمر لايقف عند حدود الوصول إلى أن معرفة المادة الدراسية هى الغاية الأساسية من التعلم ، وحيث يقصد المدرس اهتمامه - عندئذ - على حفظ تلاميذه للمادة التى يدرسها وتكرار هذا الحفظ أثناء الحصص المدرسية وبعدها ، كى يكتسبوا فى النهاية خبرات لاتفيدهم خارج المواقف التى تعلموها فيها . فمواقف الحياة تختلف اختلافاً متبايناً عن المواقف المحدودة ، التى يحصل فيها التلاميذ دروسهم بل وتتغير باستمرار .

وهذه الحقيقة تجعل قصر الاهتمام على حفظ المادة الدراسية وحده وتثبيت الخبرات المكتسبة عن هذا الطريق بالشكل المعمول به فى المدارس لايحقق الأهداف التربوية ، وتجعل من الضرورى إعادة تنظيم طرق التدريس بحيث تصبح الخبرات والمهارات ، وكل مايتعلمه التلميذ أكثر فائدة وأكثر ملاءمة لمتطلبات الحياة المتغيرة . (١٠٤)

آراء علماء المسلمين حول التعلم :

يعتبر الإمام الغزالى من العلماء الذين قالوا بأن السلوك الذى يسلكه الإنسان فى حياته وعمله ومعاملته للناس ، إنما هو نتيجة المعرفة والإدراك لا للمؤثر الذى

أثر فيه عند حدوثه فقط . وقد استنتج هذا الرأى الخاص بالسلوك الإنسانى ، الإمام الغزالى من خلال ملاحظاته اليومية على تلاميذه وعلى من يعاشرهم من الناس فى بلده .

فقد كان يستقرئ تجارب الإنسان اليومية التى يقوم بها على الطبيعة دون وجود المؤثر المصطنع ، الذى يستحثه على القيام بعمل معين من الأعمال . لأن المؤثر المصطنع ربما يبعده عن حالته الطبيعية ، ويضعه فى حالة مصطنعة لايمكن قياس سلوكه عليها وتعميم ذلك فيما بعد .

والغزالى صاحب نظرية «سبق الوهم إلى العكس» ، وهى نظرية تسبق نظرية بافلوف الخاصة بالتعلم الشرطى ، وحيث سبق الغزالى بقرون طويلة إلى تفسير السلوك الإنسانى والاستجابات المقترنة وتعليلها بالوهم ، الذى يتقابل مع معنى الأشراط فى علم النفس المعاصر .

ومع اعترافنا – حسبما يرى دكتور فائز الحاج – (١٠٥) الكامل بفضل الوسائل التجريبية للبحوث العلمية اليوم وأصحابها ، والذين توصلوا إلى دراسات واسعة وقوانين عامة ، إلا أن هذه الأبحاث يجب ألا تكون حاجزاً منيعاً ، يحول بيننا وبين أولئك الذين سبقوا إلى اكتشاف تلك النظريات .

فالغزالى يُعد من أوائل من قدموا نظرية «سبق الوهم إلى العكس» الإشراطية الاقترانية ، وبذلك فقد سبق «بافلوف» بقرون طويلة . وإن اقتصرت نظريته على الأمثلة الحسية فقط ، وافتقرت إلى التجريب ، فإن هذا يعود إلى اختلاف منهج البحث لدى العلماء السابقين .

والفرق بين الغزالى وغيره من علماء التعلم الشرطى ؛ خاصة «بافلوف» هو:(١٠٦)

١– أن الغزالى يسمى هذا القانون – سبق الوهم إلى العكس – ولهذه التسمية مبرراتها وسببها . أما بافلوف فيفضل أن يختار له اسماً آخر هو رد الفعل الشرطى أو الفعل المنعكس الشرطى .

٢– يُعرف الغزالى هذا القانون إلى قوة فى النفس هى القوة الوهمية ، والسب الكامن وراء هذا القانون هو الوهم . بينما يعزو بافلوف وعلماء النفس هذا القانون إلى عملية الإشراط .

٣ - يعطى الغزالى الدماغ دوره الكبير فى هذا القانون الوهمى . كما أن بافلوف يعطى الدور الفسيولوجى للقشرة الدماغية فى عملية الإشراط .

٤ - أعطى الغزالى أهمية كبرى للثواب والعقاب ودورهما فى هذا القانون ، وكذلك بافلوف أكد أيضاً ضرورة التعزيز الإيجابى (للثواب) والتعزيز السلبى (للعقاب) فى عملية الإشراط .

٥ - استنتج الغزالى هذا القانون من القواعد المنطقية الفكرية المجردة ، دون أن يستخدم الحيوان (الكلاب) فى نظريته ، واكتفى بالأمثلة الحسية الواقعية لتوضيح قانونه . بينما بافلوف توصل إلى إستنباط هذا القانون بعد إجراء عديد من التجارب والتطبيقات المادية ، وكان عمله بهذا يعد مثالاً جديداً على الأمثلة التى أوردها الغزالى .

والواقع أن نظرية الغزالى تؤكد «الوهم النفسى» ؛ أى إن النفس تتوهم وتتبنى مايتكرر أمامها ، ثم ينطبع فيها ذلك «الوهم» الذى يظهر فى سلوك الإنسان على شكل «رد فعل» نابع من النفس ذاتها . وفى هذا يقول الغزالى :

«إن النفس .... متى توهمت شيئاً ، خدمتها الأعضاء والقوى التى فيها تحركت إلى الجهة المطلوبة .. حتى إذا توهمت شيئاً طيب المذاق تجلت أشداقه وانتهت القوة الملعبة فياضة باللعاب من معادنه ... وذلك لأن الأجسام والقوى الجسمانية خلقت خادمة مسخرة للنفوس ، (ويختلف ذلك باختلاف صفاء النفوس وقوتها) فلايبعد أن تبلغ قوة النفس إلى حد تخدمها القوة الطبيعية فى غير بدنه لأن نفسه ليست منطبعة فى بدنه إلا أن لها نزوعاً وشوقاً إلى تدبيره» .

هذا وليس الإمام الغزالى وحده الذى ساهم بجهوده ، فقد أورد «ابن جماعة» فى كتابه (تذكرة السامع والمتكلم فى آداب العالم والمتعلم - ١٩٨٠) (١٠٧) - أورد كثيراً من نظريات التعلم التى اكتسبها من تجارب العلماء المسلمين ، الذين سبقوه ، فقد طبق «ابن جماعة» بعض نظريات التعلم تطبيقاً عملياً أوردها فى كتابه بقوله :

«وينبغى أن يعتنى بمصالح الطالب ويعامله بما يُعامل به أعز أولاده من الجنود الشفقة عليه والإحسان إليه ، والصبر على جفاء ربما وقع منه نفص لايكاد يخلو الإنسان منه وسوء أدب فى بعض الأحيان ، ويبسط عذره بحسب الإمكان ، ويوقفه مع ذلك على ماصدر منه بنصح وتلطف لابتعنيف وتقشف ، قاصداً بذلك حسن تربيته وتحسين خلقه ، وإصلاح شأنه فإن عرف ذلك لذكائه بالإشارة ،

فلاحاجة إلى صريح العبارة ، وإن لم يفهم ذلك بصريحها أتى بها وراعى التدريج فى التلطف ويؤدبه بالآداب السنية ويحرضه على الأخلاق المرضية ويوصيه بالأمور الوفية على الأوضاع الشرعية» .

فإذا تمعنا فى هذه الوصية العلمية ، تبين لنا أن «ابن جماعة» كان متفهماً لنظريات التعلم المعروفة آنذاك منذ سبعمائة سنة ، مثل النظرية التجريبية فإن عرف ذلك لذكائه بالإشارة ، فلا حاجة إلى صريح العبارة ، وإن لم يفهم ذلك إلا بصريحها آتى بها وراعى التدريج .

من هذا يتبين أن النظريات الخاصة بالتعلم كانت شائعة عند أسلافنا من علماء المسلمين . وقد طبقها معظمهم فى تعليم تلاميذه وتنشئتهم ، ولاحظ مردودها ، وكتب عنها ، وأجاد فى وصفها ، ووصف طالب العلم الذى كان يلازمه من حيث تصرفه ، ومقدار حفظه ، وأمانته ، وسلوكه ، وأخلاقه ، وجودة كتابته ، وسرعة بديهته ، وسداد جوابه .

التعلم عند برهان الإسلام الزرنوجى :

من نتاج الثقافة الإسلامية مؤلف برهان الإسلام (برهان الدين) الزرنوجى المتوفى سنة ٥٩١ هجرية (١١٩٥ ميلادية) كتاب «تعليم المتعلم طريق التعليم» وحيث أسهم نتاجه فى تيار الفكر الإنسانى فيما يتصل بعلم النفس ، وبعلم التعلم خاصة. .(١٠٨)

ومن الملامح العامة للتعليم عند الزرنوجى فى كتاب «تعليم المتعلم طريق التعليم» :

١- إفراد دراسة خاصة عن التعليم والتعلم وطرائقه وشرائطه ، وحيث أشار فى كتابه إلى العلم وفضله ، وبيان معنى الأخلاق الذميمة .

٢- تعليم التعلم : وحيث أوضح عناصر التعلم والملامح العامة للتعلم ، وأبان أن المتعلم ذاته هو الذى يحدد تمكنه من التعليم ويقوم تعلمه ويوجه طريقه ، وأن المتعلم هو الذى يضع المعيار ، بل المتعلم هو المعيار .

٣- الصبغة العملية للتعلم (الطابع التطبيقى) وحيث أوضح أساليب التعليم من تكرار وحفظ وتجويد الكتابة والخط ووصايا أخرى .

٤- المتعلم كله : حيث أشار إلى الاهتمام بجوانب شخصية المتعلم الانفعالية والعقلية والاجتماعية .

٥- شمول التناول للعديد من جوانب التعلم .

والتعلم الذى أشار إليه الزرنوجى يشمل الجوانب :

المعرفية – الدينية – النظرية . والتعلم : إنفعالياً – أخلاقياً – تطبيقياً .

كما امتاز التعلم فى عصر الزرنوجى بتفهم الدين والتفقه فى علومه ، والإلتزام بالفرائض والشعائر ، واجتناب النواهى ، واستمساك بالقيم الأخلاقية والقواعد السلوكية فى التعامل مع الآخرين . كما كان تعلماً مؤدياً إلى نوع من التهذيب والتنظيم الداخلى، بما يحقق التوازن الانفعالى المطلوب عند التعلم ، بل ويعتبر شرطاً من شروط نجاح التعلم .

وأشار الزرنوجى فى مؤلفه إلى اكتساب المهارات الحركية (التعلم الحركى) وهذا الجانب إستحدث فقط فى التعلم فى وقتنا المعاصر .

وفيما يتعلق بعناصر نسق الزرنوجى فى التعلم ، فإنها تتلخص فى :

التأهب – أدب النفس – الدافعية – الاختيار – الأنشطة – الحفظ والنسيان – صحة البدن والتعلم – اجتماعية التعلم .

وهذا المؤلف الذى مضى عليه قرابة ألف عام ، يشتمل على جوانب عديدة مما يتفق مع شمولية الجوانب المختلفة فى التعلم والتعليم من النواحى النفسية والإجتماعية والعقلية وغير ذلك ، مما تنادى به التفسيرات الحديثة فى علم النفس المعاصر بالنسبة للتعلم .

تلخـــيص :

* يتم إكتساب أساليب السلوك من خلال التعلم ، الذى يمكن الإنسان من المحافظة على العادات والتقاليد والقوانين واللغات ، وفهم السلوك يتم عن طريق فهم التعلم .

* التعلم من وجهة نظر علم النفس المعاصر ينطرح على السلوك ويستهدف تغييره ؛ خاصة فى النواحى المعرفية والحركية والإنفعالية والإجتماعية .

* التعلم هو تغير أو تعديل فى السلوك نتيجة الخبرة والمران وهو لايقتصر على الحركات والسلوك الظاهر ، بل يشمل العمليات العقلية كالتفكير . ويحدث التلعم عندما تتضح جزئيات الموقف الذى يفهمه الفرد ، كما يؤدى التعلم إلى تحسن فى الأداء .

* التعلم يُحدث تغيراً فى السلوك ، والنضج يُحدث كذلك تغيراً راجعاً إلى النمو الجسمى ، ولذلك يصعب الفصل بين آثار التعلم والنضج عن تغيير السلوك .

* التعلم يحدث التغيرات السلوكية المرغوب فيها والمرغوب عنها فى البرامج المنظمة التربوية ، التى تخطط لإنتاج معرفة معينة ومهارات ومفاهيم وأنماط سلوكية .

* نجاح عملية التعلم يعتمد على التأثر وقوة الحس بهدف تقدم النمو وتطوير الحاجات والاستعدادات الأولية الكامنة لدى طلاب العلم .

* وضع علماء النفس نظريات مختلفة لتفسير التعلم الحيوانى والإنسانى ، منها : التعلم بالمحاولة والخطأ – التعلم الشرطى – التعلم بالاقتران – نظرية التعزيز – التعلم الشرطى الإجرائى – التعلم بالاستبصار (الجشتلت) .

* فى رأى الإمام الغزالى أن السلوك الذى يسلكه الإنسان فى حياته وعمله ومعاملته للناس ، إنما هو نتيجة المعرفة والإدراك لا للمؤثر الذى أثر فيه عند حدوثه فقط .

* يعتبر «الغزالى» صاحب نظرية «سبق الوهم إلى العكس» وهى نظرية تسبق نظرية «بافلوف» الخاصة «بالتعلم الشرطى» وهذه النظرية الخاصة «بالغزالى» هى ماتناظر مااختاره «بافلوف» ، وأسماه رد الفعل الشرطى أو الفعل المنعكس الشرطى .

* ومن مساهمات «الغزالى» فى التعلم إضافة إلى نظريته أن : الدماغ له دور كبير فى القانون الوهمى ، كما أن الثواب والعقاب له دوره فى هذا القانون . وهذه التفاسير لها مايقابلها فى نظرية «بافلوف» .

* استنتج «الغزالى» قانون التعلم من القواعد المنطقية الفكرية المجردة، دون أن يستخدم الحيوانات فى نظريته ، واكتفى بالأمثلة الحسية الواقعية لتوضيح قانونه .

* ساهم «ابن جماعة» فى كتابه «تذكرة السامع والمتكلم فى آداب العالم والمتعلم» فى تفسير التعلم ، حيث كان متفهماً للتعلم فيما يعرف بالنظرية التجريبية .

* التعلم عند برهان الإسلام الزرنوجى ورد فى كتابه «تعليم المتعلم طريق التعليم» وحيث أشار فى كتابه إلى طرائق وشرائط التعليم والتعلم ، وأوضح عناصر التعلم وأن الطابع التطبيقى هو الصبغة العملية للتعليم ، وضرورة الاهتمام بجوانب شخصية المتعلم الانفعالية والعقلية والاجتماعية ، وأن عملية التعلم لها جوانب شاملة متعددة .

* ويُعتبر الزرنوجى من الذين سبقوا إلى التنبيه إلى إكتساب المهارات الحركية (التعلم الحركى) ، والذى إستحدثت قيمته ومعرفته فى التعلم فى علم النفس المعاصر .

تعقـــيب :

* يتم فهم السلوك الإنسانى عن طريق فهم التعلم ، على أنه من الضرورى أن تفرق بين آثار التعلم والنضج فى تغيير السلوك .

وفى رأى الغزالى أن السلوك هو نتاج المعرفة والإدراك أى نتاج التعلم فى مواقف الحياة والعمل والمعاملات مع الناس . كما أوضح ذلك أيضاً بأن هذا السلوك (المتعلم) ليس نتاج المؤثر الذى آثار حدوثه أو وقت حدوثه .

* وإن كانت نظرية التعلم الشرطى التى كشف عنها العالم الروسى «بافلوف» تُعد من النظريات الحديثة التى يفسر بها التعلم فى علم النفس المعاصر ، فإن الإمام الغزالى كان أسبق إلى وضع نظرية أسماها نظرية «سبق الوهم إلى العكس» ، وهى نظرية تختص بالاقتران الاشتراطى ، وحيث فسر السلوك والإستجابات المقترنة وتعليلها بالوهم وهو مايقابل معنى الإشراط اليوم . وهذه النظرية تسبق نظرية بافلوف بقرون طويلة .

* أضاف الغزالى إلى نظريته مايتوافق مع الجانب الفسيولوجى الذى أشار إليه بافلوف فى نظريته ، حيث إن الغزالى ذكر دور الدماغ فى القانون المشار إليه، كما أشار إلى قانون آخر عن الثواب والعقاب ودورهما فى التعلم . وهذه القوانين لها مايشابهها أيضاً فى نظرية «بافلوف» ، وهى ماأشار إليه «بافلوف» بالتعزيز الإيجابى (الثواب) والتعزيز السلبى (العقاب) فى عملية الإشراط .

* وقد توصل «بافلوف» إلى قوانين التعلم الشرطى من خلال تجاربه العديدة على الكلاب ، إلا أن الغزالى منذ أمد بعيد استنبط قوانينه من القواعد المنطقية الفكرية المجردة فى نظريته ، واكتفى بأمثلة حسية واقعية لتوضيح قانونه .

* تتوافق آراء ابن جماعة فى تفسيره للتعلم فيما يُعرف بالنظرية التجريبية للتعلم .

* إضافة إلى ماأشار إليه الزرنوجى من شرائط التعليم والتعلم ، فإنه أوضح إن التعلم له جوانب شاملة متعددة ، ويعد أسبق عالم إسلامى فى التنبيه إلى قيمة التعلم الحركى واكتساب المهارات الحركية ، وحيث كان لذلك مردوده فى معرفة قيمة هذا النوع من التعلم واكتساب المهارات الحركية فى علم النفس المعاصر فيما بعد .

* من هذا يتبين أن مساهمات علماء المسلمين فى تفسير التعلم واكتساب السلوك كانت قائمة منذ قرون عديدة مضت ، مما أضاف إلى جهودهم فى التفسير الإسلامى للسلوك الإنسانى بعداً آخر من أبعاد الاهتمام بتفسير كيفية تعلم أنماط السلوك الإنسانى . ولأهمية العلم والتعلم فى الإسلام يكفينا أن نذكر قول رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذا المقام : «بعثت لأكون معلماً» .

تمــــارين :

١ – التعلم أساس فى اكتساب السلوك ، وفى إحداث التغيرات السلوكية . وضح .

٢ – أشار علماء النفس إلى نظريات مختلفة لتفسير التعلم الحيوانى والإنسانى؟ اشرح .

٣ – يتقارب فكر الإمام الغزالى فى نظريته «سبق الوهم إلى العكس» مع نظرية «بافلوف» الخاصة «بالتعلم الشرطى» ؟ اشرح .

٤ – كان «ابن جماعة» متفهماً للتعلم فيما يُعرف «بالنظرية التجريبية» ؟ اشرح .

٥ – وضح مساهمات «الزرنوجى» فى طرائق وشرائط التعلم والتعليم .

الباب الثالث

التفسير الإسلامى للتوافق النفسى

الباب الثالث

التفسير الإسلامى للتوافق النفسى

تمهـــيد :

من حيث يهتم علم النفس المعاصر بدراسة السلوك الإنسانى دراسة علمية قائمة على تحديد الاستعدادات والقدرات والدوافع والحاجات والاتجاهات الإيجابية والسلبية ، والتى تقف جميعها وراء مايصدر من الإنسان من سلوك ، فإن هناك بجانب ذلك الاهتمام بالظروف البيئية والمادية والاجتماعية ، والتى يعتبر سلوك الإنسان أو عمله ناتجاً من نواتج التفاعل القائم بينه وبين المحيط المادى والإجتماعى ، أى التكيف مع هذه الظروف أو سوء التوافق أى فى البيئة التى يعيش بينها .

ويُطلق عادة تكيف الإنسان مع المحيط المادى والاجتماعى الذى يتفاعل معه بالتوافق النفسى . وإذا كان الإنسان لايتكيف مع المحيط المادى والاجتماعى التكيف المناسب ، فإنه أنئذ يشك فى صحته النفسية وفى توافقه النفسى وسوية سلوكه مع ذاته ومع المحيط البيئى والاجتماعى الذى يعيش فيه .

ونعرض فى الباب الثالث التفسير الإسلامى للتوافق النفسى ، وحيث يشتمل هذا الباب الفصول التالية :

الفصل الثالث عشر : الإسلام والإشباع النفسى للحاجات الإنسانية .

الفصل الرابع عشر : الإسلام وضوابط السلوك .

الفصل الخامس عشر : الإيمان ودوره فى التوافق النفسى .

الفصل السادس عشر : أمراض القلوب وسوء التوافق النفسى .

الفصل الثالث عشر

الإسلام والإشباع النفسي للحاجات الإنسانية

المحتوى :

* تمهيد
* الصحة النفسية والتوافق النفسى .
* السوية واللاسوية فى السلوك .
* التوافق الإنسانى والسلوك التوافقى .
* الأمن النفسى وإشباع الحاجات النفسية فى الإسلام .
* مبادئ الإسلام وضوابط إشباع الحاجات الإنسانية .
* الإسلام وتحقيق الذات عند إشباع الحاجات الإنسانية .
* الإسلام ومعايير التوافق النفسى .

الإسلام والإشباع النفسي للحاجات الإنسانية

تمهيد :

من الاهتمامات الرئيسية فى علم النفس المعاصر ، الدراسة العلمية للصحة النفسية للإنسان والتوافق النفسى فى الحياة الإنسانية ، ومايؤدى إليها ومايحققها ، ومايعوقها ، ومايحدث من مشكلات واضطرابات وأمراض نفسية ، ودراسة أسبابها وتشخيصها وعلاجها والوقاية منها .

واهتمامات علم النفس متعددة فى دراسة السلوك فى سوائه وإنحرافه ، وحيث تقدم الدراسات النفسية المعاصرة خدمات فى مجال الصحة النفسية والعلاج النفسى ؛ حيث تطبق مبادئ وطرق علم النفس فى علاج المشكلات والاضطرابات السلوكية والأمراض النفسية .

هذا مع مانعرفه من تعدد مناهج الدراسات النفسية فى فروع علم النفس المرضى وعلم النفس العلاجى وعلم النفسى التحليلى والعلاج النفسى ، وماتتناوله من موضوعات ومجالات متعددة لعلاج المشاكل الفردية والجماعية .

الصحة النفسية والتوافق النفسى :

تُعرف الصحة النفسية بأنها حالة دائمة نسبياً ، (١٠٩) يكون فيها الفرد متوافقاً نفسياً (شخصياً وانفعالياً واجتماعيا) أى مع نفسه ومع بيئته ، ويشعر فيها بالسعادة مع نفسه ومع الآخرين ويكون قادراً على تحقيق ذاته واستغلال قدراته وإمكانياته إلى أقصى حد ممكن ، ويكون قادراً على مواجهة مطالب الحياة ، وتكون شخصيته متكاملة سوية ، ويكون سلوكه عادياً بحيث يعيش فى سلامة وسلام .

والصحة النفسية حالة إيجابية ، تتضمن التمتع بصحة العقل والجسم ، وليست مجرد غياب أو الخلو أو البرء مع أعراض المرض النفسى .

والمرض النفسى عبارة عن اضطراب وظيفى فى الشخصية ، ويبدو فى صورة أعراض نفسية وجسمية مختلفة ، ويؤثر فى سلوك الشخص ، فيعوق توافقه النفسى ، ويعوقه عن ممارسة حياته السوية فى المجتمع الذى يعيش فيه .

والمرض النفسى أنواع ودرجات :

فقد يكون خفيفاً يُضفى بعض الغرابة على شخصية المريض وسلوكه . وقد يكون شديداً حتى لقد يدفع بالمريض إلى القتل أو الانتحار . وفيما يتعلق بأعراض المرض النفسى فهناك تباين فى هذه الأعراض ، فقد تكون هناك مبالغة فى سلوك معين ، وقد يكون هناك انفصال عن الواقع أو العيش فى عالم من الخيال .

وهناك فرق بين المرض النفسى والسلوك المرضى : فالسلوك المرضى سلوك عابر يلونه الاضطراب الذى يشاهد كأحد أعراض المرض النفسى . فقد يشاهد السلوك الهستيرى لدى شخص سوى ، وقد يشاهد السلوك الهوسى لدى شخص عادى . وهذا يختلف عن الشخص المريض بالهستيريا أو الفرد المريض بالهوس .

السوية واللاسوية في السلوك :

السوية هى القدرة على التوافق النفسى للفرد مع ذاته ومع بيئته ، والشعور بالسعادة وتحقيق أهداف وفلسفة سليمة للحياة يسعى لتحقيقها . (١١٠)

والسلوك السوى هو السلوك الطبيعى العادى أى المألوف والغالب على حياة غالبية الناس .

والفرد السوى هو الفرد الذى يتطابق سلوكه مع سلوك الشخص العادى فى تفكيره ومشاعره ونشاطه ، ويكون سعيداً ومتوافقاً شخصياً وانفعالياً واجتماعياً .

واللاسوية هى الانحراف عما هو عادى والشذوذ عما هو سوى . واللاسوية حالة مرضية فيها خطر على الفرد نفسه أو على المجتمع ، وتتطلب التدخل لحماية الفرد أو حماية المجتمع منه .

والشخص اللاسوى هو الشخص الذى ينحرف سلوكه من سلوك الشخص العادى فى تفكيره ومشاعره ونشاطه ، ويكون غير سعيد وغير متوافق شخصياً وانفعالياً واجتماعياً .

وهناك معايير للسوية واللاسوية ، حيث يُعتبر السلوك سوياً أو لاسوياً ، وفق المعايير التالية :

١- المعيار الذاتي : حيث يتخذ الفرد من ذاته إطاراً مرجعياً يرجع إليه فى الحكم على السلوك بالسوية واللاسوية .

٢- المعيار الإجتماعي : حيث يتخذ من مسايرة المعايير الاجتماعية أساساً للحكم على السلوك بالسوية أو اللاسوية ؛ فالسوى هو المتوافق اجتماعياً واللاسوى هو غير المتوافق اجتماعياً .

٣- المعيار الإحصائي : حيث يتخذ المتوسط أو المنوال أو الشائع معياراً ليمثل السوية، وتكون اللاسوية هى الانحراف عن هذا المتوسط بالزائد أو الناقص.

٤- المعيار المثالي : وحيث تعتبر السوية هى المثالية أو الكمال أو مايقرب منه ، واللاسوية هى الانحراف عن المثل الأعلى أو الكمال .

التوافق الإنسانى والسلوك التوافقى :

هناك من يُعرف علم النفس المعاصر بأنه علم دراسة التوافق Adjustment الإنسانى بالمواقف . (١١١) ولهذا التعريف مزية إرجاع سلوك الإنسان وخبرته لشخصيته الفردية فى جانبيها التكوينى والعملى ، والفكرى والفعلى .

وأن كلمة التوافق أصلح فى تحديد هدف شخصية الإنسان فى بنائها وسلوكها . وبإضافة بادئة العكس (عدم ... mal) فهى تشير إلى جانبى سواء الشخصية وانحرافاتها أو اضطراباتها ، اللذين يدرسهما علم النفس السوى والمرضى أو ماتعرف بسوء التكييف Malad justment.

كذلك فإن كل مجالات الحياة التى تفرع عليها علم النفس ، يمكن النظر إليها من زاوية التوافق أو عدم التوافق ، أولى من مجرد السلوك أو الاستجابة أو الخبرة . فهناك التوافق الحسى الحركى ، وتوافق عالمى العقل والواقع : التربوى ، والمهنى ، والاجتماعى ، والصحى النفسى . حيث كل مواقف الحياة فى جميع مجالاتها التى تثير سلوكنا تتطلب منا التوافق ، وشخصياتنا التى هى نتاج خبراتنا بهذه المواقف هى التى تدرك وتستجيب بتوافق أو عدم توافق .

ويُعرف التوافق على أنه تكيف الشخص ببيئته الاجتماعية فى مجال مشكلات حياته مع الآخرين ، والتى ترجع لعلاقاته بأسرته ومجتمعه ومعايير

بيئته الاقتصادية والسياسية والخلقية .

والسلوك التوافقى فى الإنسان هو السلوك الموجه للتغلب على عقبات البيئة أو صعوبات مواقفها ، كما أن آليات توافقه التى يتعلمها هى استجاباته المعتادة التى يسير عليها لإشباع حاجاته ، وإرضاء دوافعه وتخفيف توتراته .

وقدرة الفرد – تحت تأثير دوافعه – على تحويل ماهو ذاتى إلى اجتماعى ، هى قابلية تكيف Adaptability ، لأنها القدرة على تبنى مالدى الجماعة أو النوع من معايير وقيم موحدة ، لايعتبر الفرد متوافقاً إلا إذا أخذ بها . وحيث إن المعايير والقيم نسبية وفى تغير مستمر ، وكل تغير فى الإنسان يستلزم تغيراً فى البيئة والعكس .

والتوافق هو ثمرة التكيف ، وسوء التوافق فشل أو عدم قابلية ملاءمة ماهو نفسى بما هو اجتماعى . وهو عدم قدرة على تخطى عقبات البيئة أو التغلب على صعوبات المواقف . وإذا قدرنا أن كل لحظة فى حياة الإنسان تمر به ، فهى تضعه فى مواجهة موقف أو بإزاء مشكلة ، أدركنا إلى أى حد .. تعتبر الحياة الإنسانية كلها توافقات موقفية . (١١٢)

وضرورة التوافق يفرضها كون الإنسان فى مواجهة بيئة ، والفرد بإزاء مجتمع . والبيئة تحوى مواد إشباع حاجات الإنسان من الطعام والشراب والمأوى والعمل من أجل العيش ، وتكوين أسرة وتربية أبناء .. حتى الهواء الذى يستنشقه بلا ثمن أو صراع على حيازته أو تملكه مع الآخرين .

والمجتمع يمثل تنظيم استخدامات مواد البيئة (التى للآخرين حق إشباع حاجاتهم منها أيضاً) بقواعد وعادات سلوك متبعة وتقاليد وأعراف وقوانين لابد من الامتثال لها والخضوع لما تفرضه من توافق اجتماعى . فحتى آدم فى الجنة – وحده ، وبكل إمكانياتها المادية – تلقى الأمر الإلهى بعدم الاقتراب من شجرة الخلد .

والبيئة فى الدنيا ليست جنات عدن ، بل هى الكد والعمل والسعى فى مناكب الأرض للتغلب على العقبات وتخطى العوائق والصعوبات ، والالتزام بالضوابط وعدم التعدى على حقوق وحرمات الآخرين وفق ما أمرت به الشريعة الإسلامية الغراء .

والإنسان طاقاته وقدراته محدودة ، وفى صراع دائب لتحقيق التوافق فى حدود معايير المجتمع .

وليس فقط – أن الفرد لكى يحقق التوافق ، أن يتغلب على العقبات أو العوائق Obstacles الراجعة إلى قدرته – سواء بالعجز أو الزيادة فى هذه القدرة – فإنه يواجه عقبات أخرى من نوع ، يرجع أساساً إلى تغيرات ظروف الحياة ومواقف الفرد ، ويتعين عليه تخطى هذه العوائق أيضاً ، إذ قد :

١- تكون قدرة الفرد غير كافية لتؤدى بطريقة مُرضية ، الفاعليات التى ينتظر الآخرون من الفرد القيام بها ، أو التى يتوقع من تلقاء نفسه أن يؤديها . وعدم الكفاية قد يكون جسمياً عضوياً أو عقلياً أو اجتماعياً .

٢- تكون الفاعليات أو الأنشطة غير كافية نتيجة للضرورة والظروف الطارئة ، أو لعدم التدرب والاستعداد ، أو الاستمرار بعض الفاعليات السابقة أو لتعثر الفاعليات الجديدة .

ومن هذا يتبين أن التوافق يمثل فى الحياة الإنسانية مجملها ، إذ إنه وسيلة الإنسان للتكيف .

الأمن النفسى وإشباع الحاجات النفسية فى الإسلام :

عرفنا من قبل أن ضرورة التوافق النفسى ، يفرضها كون الإنسان فى مواجهة بيئة ومجتمع ، وأن البيئة تحوى مواد إشباع الحاجات الإنسانية ، وأن المجتمع يمثل تنظيم استخدامات مواد البيئة .

إذاً كيف يحقق الإسلام للإنسان الفرد إشباع حاجاته النفسية ، وخاصة المؤمنين الذى تعمر قلوبهم بالعقيدة السمحة ؟

الواقع أن الإسلام منذ أربعة عشر قرناً نبه إلى أهمية الحاجات النفسية للإنسان . (١١٣)

فالرسول المصطفى عليه الصلاة والسلام يوضح لنا بجلاء أهمية الحاجات الإنسانية إلى الحب والأمن الجسمى والأمن الروحى والأمن الاقتصادى ؛ حيث يقول عليه السلام : «من بات آمناً فى سره ، معافاً فى بدنه ، عنده قوت يومه ، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها» .

ويقول تعالى :

﴿ أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

(سورة يونس آية ٦٢)

﴿ إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾

(سورة القصص آية ٥٦)

ويربط الإسلام بين الأمن النفسى وبين التقوى والالتزام بالعقيدة الإسلامية والإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره .

والإسلام يخلص المؤمن من عقدة الخوف من المستقبل ، والمستقبل غيب والغيب بيد الله وحده .

كما يخلص الإسلام المؤمن من عقدة الخوف من الموت ، فلكل أجل كتاب، ولن تموت نفس حتى توفى أجلها ، ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها .

ثم إن الله تعالى وعد المؤمنين جنات تجرى من تحتها الأنهار ، خالدين فيها أبداً ، تحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين . لهذا يقبل المؤمن على الشهادة بحب غير مدبر ، ويستعذبها إيماناً منه أن الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون .

كما أن المؤمن يتحرر من عقدة الخوف على الرزق ، فهو يؤمن بما قاله تعالى :

﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾

(سورة الذاريات آية ٢٢)

والمؤمن متحرر من القلق والخوف ، فهو يدرك – باقتناع تام – أن الله سبحانه وتعالى يضعه فى الدنيا موضع الاختبار والابتلاء فلايجزع ولايخاف ويظل محتفظاً باتزانه النفسى ، دون اضطراب أو خلل أو جزع ، حيث يستشعر الأمن والسلام . مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ ﴾

(سورة البقرة آية ١٥٥)

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾

(سورة البقرة آية ٢١٤)

وحتى تتحقق للمؤمن حاجاته النفسية ، عليه بمتطلبات الإيمان الحق من توحيد الله وعبادته حق العبادة والامتناع عن الكبائر والفواحش واجتناب نواهيه واتباع أوامره .

ويجد المؤمن الحق راحته النفسية فى الصلاة والتى تنهى عن الفحشاء والمنكر . وكان عليه الصلاة والسلام كلما يحزم عليه أمر ينادى بلال :

«ارحنا بها يابلال»

كما أن المؤمن الحق يجد الأمن والراحة النفسية فى تقوى الله وخشيته ، حيث يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴾

(سورة البقرة آية ٤٠)

﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾

(سورة آل عمران آية ٢٨)

والمؤمن الحق لاينقطع رجاءه من الله سبحانه ، فهو يشعر بالأمن والرضا والطمأنينة ، كلما تذكر قوله تعالى :

﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾

(سورة الحديد آية ٤)

والواقع إن الحاجات النفسية فى الإسلام ، وكيف يكفل الإيمان الحق تحقيقها حديث يطول . وعلينا أن نوضح فى إيجاز أهم الحاجات النفسية التى يركز عليها علم النفس المعاصر . (١١٤) والتى يعمل الإسلام على تحقيقها بين أبناء الأمة الإسلامية :

١- **الحاجة إلى الحب (الانتماء)** : وهى من الحاجات النفسية التى تستمر مع الإنسان منذ طفولته . فالطفل فى حاجة إلى حب المحيطين به . وعندما يكبر يحتاج إلى حب الآخرين فى صورة علاقات طيبة يكونها معهم ، ومن يفقد الحب ولايشبع هذه الحاجة فى الصغر يتعرض إلى اختلالات نفسية فى الكبر.

٢- **الحاجة إلى الأمن** : تمثل الطفولة البشرية أطول طفولة فى عالم الكائنات الحية. والطفل يشعر بالأمن إلى جوار أمه وأبيه . ثم بعد ذلك يشعر بالأمن داخل الجماعة وبتحقيق الاستقرار الجسمى والإقتصادى والروحى . وكما سبق الإشارة فإن المؤمن يتحقق آمنه فى إيمانه بالله ، واتباع الكتاب والسنة ؛ فالله تعالى ولى الذين آمنوا .

٣- **الحاجة إلى النجاح** : فالنجاح هدف للفرد منذ طفولته حتى نهاية الأجل. وعادة مايقود النجاح إلى نجاح آخر .

٤- **الحاجة إلى الحرية** : وهى نعمة وهبها الله تعالى للإنسان . وقد ذكر الصحابى الجليل الفاروق لأحد الولاة : «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً» .

وتتمثل هذه الحاجة فى حاجة الفرد إلى الاستقلال فى سلوكه وتصرفاته، فى إطار الشريعة الغراء وتنفيذ أوامر الله والامتناع عن المحرمات والالتزام بإقامة حدود الله سبحانه وتعالى .

٥- الحاجة إلى التقدير : وتشير هذه الحاجة إلى أن الفرد يحتاج إلى أن يكون موضع تقدير الجماعة المحيطة به ، وأن يكون مرغوباً فيه اجتماعياً .

٦- الحاجة إلى التعبير عن الذات : فالإنسان يسعى دائماً إلى أن يُعبر عن نفسه ، وأن يكون له صوت مسموع وسط جماعته . (صوت الحق وليس صوت الباطل) .

٧- الحاجة إلى الانتماء (التآلف مع الجماعة) : فالإنسان اجتماعى بطبعه ، ويحتاج دائماً إلى الانتماء إلى جماعات اجتماعية يتوحد بها ، ويشعر أنه جزء لايتجزأ منها . وأولى هذه الجماعات التى أولاها الإسلام اهتماماً بالغاً الجماعة الأسرية ، ثم تأتى بعدها جماعة المسجد وجماعة المدرسة وجماعة الأصدقاء.

.... ويأتى الآن سؤال يتردد فى الأذهان :

١- ما مبادئ الإسلام فى إشباع الحاجات الإنسانية ؟

٢- ما غايات الإنسان فى تحقيق ذاته عند إشباع حاجاته ؟

لذلك نورد فيما يلى الإجابة عن هذين التساؤلين .

مبادئ الإسلام وضوابط إشباع الحاجات الإنسانية :

من عوامل بقاء الإنسان وحفظ نوعه إشباع حاجاته الإنسانية (الفسيولوجية والنفسية والاجتماعية) ، والإشباع من وجهة نظر الإسلام لاينمى الشخصية السوية ولايحقق الصحة النفسية والتوافق النفسى ، إلا إذا تم فى ضوء المبادئ الآتية:(١١٥)

١- الإشباع المشروع للحاجات :

فقد خلق الله تعالى الإنسان ، وسخر له مافى الأرض وأحل له الطيبات . قال تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾

(سورة البقرة آية ١٧٢)

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾

(سورة المائدة آية ٨٧)

وحث الرسول عليه الصلاة والسلام المسلمين على إشباع حاجاتهم ، لأن الحرمان منها ليس من الإسلام فى شيء . فلم يقر عليه السلام رغبة عثمان ابن مظعون فى التبتل أى تحريم النساء والطيب وكل مايتلذذ به ، ورفض القضاء على الحاجة الجنسية بالخصاء ، وقال :

«ليس منا من خصى أو اختصى»

وأنكر على الرجال الذين عقدوا العزم على قيام الليل ، وصيام الدهر وإعتزال النساء ، فقال لهم :

«أنتم الذين قلتم كذا كذا ؟ أما والله إنى لأخشاكم لله وأتقاكم له ، لكنى أصوم وأفطر ، وأصلى وأرقد ، وأتزوج النساء . فمن رغب عن سنتى فليس منى» (متفق عليه)

٢- إشباع الحاجات وسيلة لا غاية :

فالإنسان يشبع حاجاته ليحمى حياته ويحفظ سلالته ، وينمى شخصيته ، ويبنى مجتمعه . أى إنه يشبع حاجاته ليعيش يعبد الله ويحمده ويعمر الأرض . وهذا مايجعله يسيطر على حاجاته ويخضعها لإرادته ، فيشبع منها مايفيده ، ويقمع مايضره ولاينفعه .

أما إذا جعل الإنسان إشباع الحاجات غاية لاوسيلة أصبح يعيش ليشبعها ، فتسيطر عليه ، وتنعدم إرادته فى اختيارها ، وتضعف حريته فى كيفية إشباعها ، فقد يشبعها من حرام ، ويظلم نفسه ويؤذى غيره ، ويضطرب توافقه النفسى .

لذا دعا الإسلام المسلمين إلى تنظيم حاجاتهم ، والسيطرة عليها . فقال تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾

(سورة المنافقون آية ٩)

٣- إشباع الحاجات الصحية وقمع الحاجات غير الصحية :

فالحاجات نوعان :

- حاجات صحية Healthy needs يساعد إشباعها على نمو الإنسان وارتقائه نفسياً وجسمياً واجتماعياً .
- حاجات غير صحية Unhealthy needs ، ويؤدى إشباعها إلى إيذاء النفس والجسم ، وإفساد العلاقات الاجتماعية وهدم القيم . والحاجات غير الصحية حاجات يكتسبها الإنسان بالاعتياد فى سلوكها ، فينشئها وينميها بإرادته ، ثم تسيطر عليه ، ولايقوى على قمعها .

من هذه الحاجات : اعتياد تناول الخمور ، واعتياد تناول المخدرات والحبوب النفسية وإدمان التدخين ، وغيرها من الحاجات التى يسببها الإدمان أو ، الاعتياد النفسى السىء .

والحاجات الصحية طيبات أحلها الله لعباده .

أما الحاجات غير الصحية فهى خبائث ، حرمها الله فى التوراة والإنجيل والقرآن .

قال تعالى :

﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾

(سورة الأعراف آية ١٥٧)

٤- إشباع الحاجات الصحية بالحلال وعدم إشباعها بالحرام :

فالإنسان يتعلم إشباع حاجاته ، ويكتسب السلوك الذى يحقق له الإشباع ، فإذا كان هذا السلوك مشروعاً كان الإشباع حسناً ، والعمل صالحاً للدين والدنيا ، ومفيداً للفرد والمجتمع ، يؤجر عليه صاحبه .

أما إذا كان السلوك غير مشروع كان الإشباع سيئاً ، والعمل فسقاً وفجوراً ، فيه ظلم للفرد ، وفساد للمجتمع ، وتعدى على حدود الله تعالى حسب قوله الحق :

﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لاَّ يَسْتَوُونَ أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلاً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾

(سورة السجدة آيات ١٧ ، ٢٠)

وقد لاييسر للإنسان إشباع بعض حاجاته الصحية بالحلال ، لنقص فى إمكاناته المادية ، فإذا كان مسيطراً عليها أمكنه ضبطها وقمعها ، أو أجل إشباعها ، وسما بها حتى تتوفر لديه إمكانية الإشباع الحلال ، وذلك أزكى له : قال تعالى :

﴿ وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ﴾

(سورة النور آية ٣٣)

وقال الرسول عليه الصلاة والسلام للشباب :

«يامعشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج - ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء»

(رواه ابن مسعود)

أى حماية له إذ يساعد الصوم على إضعاف الدافع إلى الحاجة الجنسية . لكن إذا كان الحرمان من إشباع الحاجة سوف يضر بالإنسان ضرراً بالغاً أو يودى بحياته ، فله أن يشبعها من حرام إن لم يجد غيره ، ولاإثم عليه :

﴿ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

(سورة البقرة آية ١٧٣)

ولكن مادامت وسيلة الإشباع محرمة فهى خبيثة ، ومن ثم يجب الاقتصار منها على الحد الأدنى الذى يرفع خطر الهلاك ، فمن تجاوز هذا الحد أو أقبل عليها راغباً فهو باغ وعاد ، وعليه الإثم طبقاً لما أوضحته الآية .

٥- عدم الإفراط فى إشباع الحاجات الصحية :

لأن الإفراط فى الإشباع - مثل الحرمان منه - يؤذى الإنسان نفسياً وجسمياً واجتماعياً ؛ فالنهم من الطعام يؤدى إلى التخمة والأمراض والبلادة والكسل . والمبالغة فى طلب الجنس يؤدى إلى الإباحية ، وتحلل المجتمع ، وهتك الأعراض .

والإسراف فى الراحة يعوق النشاط والإنجاز ، وكثرة النشاط تؤدى إلى الإجهاد والتعب والضعف .

كذلك الإسراف فى إشباع الحاجات النفسية والاجتماعية يعوق نمو الشخصية ، ويؤثر تأثيراً سيئاً على النضوج الاجتماعى والانفعالى ؛ فالعطف الزائد يشعر الطفل بالتدليل ويفسد شخصيته . وكثرة الثناء والمديح قد يشعر الطفل بالغرور . واللين الزائد يحرم الطفل من اكتساب السلوك المقبول اجتماعياً ، وتلبية جميع رغبات الطفل تجعله أنانياً متمركزاً حول ذاته .

والإفراط فى إشباع الحاجات – العضوية وغير العضوية – مثل الحرمان من إشباعها ليس من الصحة النفسية والتوافق النفسى فى شيء ، لأن التوافق النفسى يتم على أساس إشباع هذه الحاجات بقدر مناسب ، دون إفراط أو تفريط . وفى يقول تعالى :

﴿ وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾

(سورة الإسراء آية ٢٩)

ووصف سبحانه عباد الرحمن وهم فى قمة الأمن النفسى والصحة النفسية بأنهم قوم لايسرفون ولايقترون على أنفسهم . قال تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾

(سورة الفرقان آية ٦٧)

٦- لايستطيع الإنسان إشباع جميع حاجاته فى الحياة :

فليس كل مايتمناه المرء يدركه ، إما لقصور فى الإمكانات المادية والمعنوية، فيرضى بما تيسر له من نجاح ، أو لضيق فى الوقت فيشبع مايسمح به وقته ، ويؤجل الأخرى ، أو لتعارض حاجاته فيشبع بعضها ويترك البعض الآخر ، أو لرغبته فى إعلاء بعض حاجاته فيؤجلها بعض الوقت .

وهكذا نجد أن الحياة لاتسمح للإنسان بتحقيق جميع أهدافه ، وعليه أن يوطن نفسه على ذلك ، فيثابر ويضاعف من جهوده ، وينوع سلوكه ، ويعدل أهدافه ، ويؤجل بعض حاجاته أو يقمعها فى سبيل تحقيق أهداف أخرى أفضل منها من الناحية الدينية والاجتماعية والنفسية والجسمية . ولكى ينمو الإنسان صحيحاً نفسياً ، عليه أن يتعود مواجهة الإحباط من وقت لآخر ليكتسب الخبرات ، وتنمو مهاراته ، وتنضج شخصيته ، وتتنوع أساليب توافقه مع نفسه ومع البيئة .

الإسلام وتحقيق الذات عند إشباع الحاجات الإنسانية :

يشعر الإنسان بتحقيق ذاته إذا نجح فى الوصول إلى هدفه الأساسى فى الحياة . (١١٦)

وكل شخص له غاية رئيسية فى الحياة ، تدور حولها أفكاره ، وتتجه نحوها أعماله ، وتتركز حوالها آماله وطموحاته ، فإذا حقق هذه الغاية أو اقترب منها شعر

بتحقيقها ذاته بحسب درجة قربة منها .

ويرتبط تحقيق الذات Self-identification والذى يتماثل فى مفهومه مع الأنا المثالية عند «كارل روجزر» وتكامل الشخصية عن «آريك أريكسون» فى علم النفس المعاصر . يرتبط تحقيق الذات بمشاعر النجاح والرضا فى إشباع الحاجات الإنسانية ، فالشخص الذى ينجح فى إشباع حاجاته ، وتحقيق معظم أهدافه التى توصله إلى غاياته فى الحياة ، يشعر بتحقيق ذاته .

ومن العوامل التى تساعد الإنسان على تحقيق ذاته ، نجاحه فى الحصول على عمل يرضيه ، ومركز اجتماعى يناسبه ، ومسكن يلائمه وزوجة يطمئن إليها .

ويؤدى تحقيق الذات إلى الصحة النفسية والتوافق النفسى ، إذا سمت غاية الإنسان فى الحياة ، لأن الغايات السامية تدفع صاحبها إلى أعمال شريفة مجيدة . وتطبع نفسه بصورة من الجمال الروحى وتحدو به إلى الكمال دائماً ، حتى يأخذ فيه بالنصيب الذى يصبو إليه .

أما إذا كانت غاية الإنسان فى الحياة إشباع شهوات البطن أو الفرج أو المال أصبح عبداً لها ، يأتمر بأمرها وتدفعه إلى مختلف الأخلاق الخبيثة التى تؤدى به إلى التهلكة .

وتحقيق الذات عن طريق الوصولِ إلى الغايات الدنيا ليس من الصحة النفسية فى شىء ، لأنها غايات ثانوية ، متعها مؤقتة لاتدوم ، وأثرها عارض ، وصاحبها – كما قال «مسكويه» – كثير الخوف قلق النفس مجهد البدن . وكثير من الناس حازوا هذه الشهوات وأنغمسوا فيها ، لكنهم كانوا تعساء وركبهم الهم والغم .(١١٧)

ومن الناس من يجد تحقيق ذاته فى الوصول إلى غايات غير مشروعة ، ويسعى لإثبات كفاءته وتفوقه فى أعمال شيطانية ، ويجد مكانته فى جماعات فاسدة .

وتحقيق الذات عند هذا الصنف من الناس يُشقيه ويُفسد علاقته بغيره ، ويبعده عن خالقه ولايحقق له الصحة النفسية ، لأنه يعيش تبع أهواء نفسه ، فإذا أعطى مايشتهيه من الشهوات الحلال أو الحرام زال غضبه ، وهو بذلك يتعدى حدود الله :

﴿ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ﴾

(سورة الطلاق آية ١)

أما من تسمو غايته ، ويُدرك حقيقة الوجود فى هذه الدنيا ، فإنه يجعل أهدافه الرئيسية فى عبادة الله ، ويجد تحقيق ذاته فى عمل ما أمر الله به ، والإبتعاد عما نهى عنه ، والإصلاح بين الناس والسعى فى مناكب الأرض يبحث عن رزقه ، وهو قد خلق لتحقيق هذه الغاية . قال تعالى :

﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴾

(سورة الملك آية ١٥)

وهذه الفئة من الناس آمنت بربها ، وخلصت نواياها لله عز وجل ، وعملوا الصالحات وهم – كما قال «ابن تيميه» – خير أمة أخرجت للناس ، لأنهم يجدون تحقيق ذواتهم فى الالتزام بما فرضه الله من عبادات ومعاملات ، ويجدونها فى التوبة والاستغفار بالليل والنهار ، ويجدونها فى الحمد والشكر فى السراء ، والصبر والاحتساب فى الضراء ، وهذا مايجعلهم يشعرون بالصحة النفسية فى جميع الأحوال .

قال الرسول عليه الصلاة والسلام :

«أمر المؤمن كله خير إن أصابته سراء شكر ، وإن أصابته ضراء صبر»

وتحقيق الذات عند المؤمن يكون فى بقاء نفسه على مستوى حسن من الإحساس الدائم بالله ، والمصاحبة المستمرة له ، والشعور بالمسئولية الكبيرة ، والواجب العظيم والأمانة السامية ، التى يحملها الإنسان فى الحياة .

كما أن تحقيق الذات عند المؤمن يجعل قلبه متصلاً دائماً بمصادر الجمال فى ملكوت السموات والأرض ، وفى نفسه فيحس بعظمة الخالق وقدرته التى ليس لها حدود ، ورقابته المستمرة وإطلاعه على هواجس نفسه وخفاياها . قال تعالى :

﴿ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ ﴾

(سورة البقرة آية ٢٨٤)

ويتأثر نشاط وسلوك المؤمن بوعيه الدائم وصلته بخالقه ، وحيث يكون هذا دافعاً له إلى طريق السمو والمثل الراقية النبيلة .

وفى هذا مايجعل شعوره بتحقيق ذاته ، دافعاً له إلى المزيد من الأعمال الصالحة ، التى تؤدى بدورها إلى زيادة فى الشعور بتحقيق الذات .

وهكذا يؤدى عمل الصالحات إلى تحقيق الذات ، ويؤدى الشعور بتحقيق الذات إلى عمل الصالحات ، وتستمر دائرة (عمل الصالحات – تحقيق الذات) عند المؤمن إلى أن ينتهى به الأجل وهو يعمل صالحاً . فإذا عمل صالحاً يرضى ربه شعر بتحقيق غايته ، وعمل صالحاً من جديد شكراً لله الذى اجتباه وجعله من الصالحين .

ودائرة (عمل الصالحات – تحقيق الذات) عند المؤمن تجعله يحب لأخيه مايحب لنفسه ، ويعمل ماينفع الناس ويخلص فى عمله ، وتجعله يحب الله ورسوله أكثر من حبه لنفسه ، فيعمل مايرضيهما ، وتكون كل تصرفاته لله وفى الله ، فيحبه الله ورسوله .

ودائرة (عمل الصالحات – تحقيق الذات) هى التى تجعل المؤمن يقول الحق ولايخشى لومة لائم ، ويقبل على الجهاد فى سبيل الله بنفسه وماله ، ويستبشر بالموت دفاعاً عن الحق .

الإسلام ومعايير التوافق النفسى :

يتوافق الإنسان مع مواقف الحياة المتباينة بأساليب سلوكية مختلفة ، إما مباشرة أو غير مباشرة . (١١٨)

ويتم التوافق إما بعد تحقيق الهدف الذى يسعى الإنسان إلى تحقيقه – كله أو بعضه – أو بعد تحقيق هدف بديل ، أو بعد تأجيل هدفه الأصلى أو إلغائه .

وقد يتعرض فى توافقه للإحباط والصراع ، ويشعر بالقلق والتوتر والكدر والغضب ، ويلجأ للحيل النفسية الدفاعية لتخفيف هذه المشاعر . والحيل النفسية سلوك متعلم ، يفيد فى مواجهة بعض الإحباطات والصراعات ، كما يساعد الإنسان على حماية نفسه من مشاعر عدم الكفاءة أو عدم الجدارة ، وتخفف عنه التوتر والقلق والشعور بالذنب .

كما أن بعض الحيل النفسية تساعد على بناء الشخصية وتحقيق التوافق

الاجتماعى ، فالتوحد Identification بين الطفل ووالديه يساعدانه على اكتساب السلوك المناسب لجنسه ، وامتصاص ضوابط السلوك ومعايير المجتمع .

والإعلاء Sublimation كحيلة نفسية يساعد الإنسان على تصريف طاقاته المتعلقة بالرغبات غير المقبولة فى مجالات مفيدة اجتماعياً .

والتعويض Compansation يساعد على النجاح والتفوق فى أعمال كثيرة . إلا أن كثرة اتباع الحيل النفسية والتمادى فى استخدامها مدة طويلة يؤديان إلى سوء التوافق وانعدام الصحة النفسية .

فأحلام اليقظة Day-dreams تفيد فى تخفيف التوتر والقلق والشعور بالارتياح فى مواقف الإحباط والصراع ، أما كثرة استخدامها والتمادى فيها يفسد حياتنا ، ويبعدنا عن الواقع ، ويعوق الإنسان عن مواجهة مشاكله مواجهة واقعية حقيقية .

لذلك فالتوافق النفسى عند الإنسان إما توافقاً حسناً Well-adjustment أو توافقاً سيئاً Mal-adjustment . والتوافق الحسن أو السئ يختلف من مجتمع إلى آخر ، حسب قواعد السلوك السائدة فى كل منها ؛ فالتوافق الذى يكون حسناً فى مجتمع قد يكون سيئاً فى مجتمع آخر .

فمثلاً ... اللواط والسحاق أى إشباع الحاجة الجنسية عن طريق الإتصال بشخص من الجنس نفسه (الجنسية المثلية Homosexuality أو ما تعرف باشتهاء المماثل) نهى عنه الإسلام نهياً قاطعاً ، وهذا السلوك كان يعتبر توافقاً حسناً عند الإغريق . بل إن هذا الإشباع الجنسى الشاذ يعتبر توافقاً سيئاً فى الكثير من المجتمعات المعاصرة ، وفى الإسلام خاصة يعاقب من يرتكب ذلك عقاباً صارماً .

ويعتبر إشباع الحاجة إلى الطعام بتناول لحم الخنزير والحاجة إلى الشراب بتناول المسكرات ... يعتبر ذلك توافقاً حسناً فى المجتمعات غير الإسلامية وتوافقاً سيئاً فى المجتمعات الإسلامية .

وتعتبر حراسة المرأة لقدر الطبخ الذى تعد فيه الطعام ، ولاتتركه خوفاً من أن يدس فيه السم ، يعتبر ذلك توافقاً حسناً عند قبيلة دوبو Dobu بماليزيا Malesia ، فى حين يعتبر ذلك توافقاً سيئاً فى مجتمعاتنا بل يدل على جنون البرانويا Paranoia وهو حالة مرضية ذهانية تتميز بالأوهام والهذيان .

ويعتبر زواج المرأة من قاتل زوجها توافقاً حسناً عند بعض قبائل الإسكيمو (هولم Holme، ١٩٧٢) (١١٩) بينما يعد ذلك فى الإسلام شذوذاً وفجوراً بل يقتص

من القاتل وفق شريعة الإسلام .

ومن وجهة نظر الصحة النفسية فإن الحكم على التوافق الحسن أو سوء التوافق فى ضوء الشريعة (١٢٠) الإسلامية يتم حسب الأهداف التى يحققها الفرد وأساليبه فى تحقيقها ، فيعتبر توافقه حسناً إذا كانت أهدافه مشروعة ، وكانت أساليب تحقيقها من حلال ومقبولة دينياً واجتماعياً .

ويُعتبر توافقه سيئاً إذا كانت أهدافه غير مشروعة ، أو كانت مشروعة وحققها من حرام ، أو كانت مشروعة ، أو كانت مشروعة وفشل فى تحقيقها أو تعديلها أو تبديلها أو إلغائها ، وأدت إلى استغراقه فى الحيل النفسية .

والعلاج النفسى لسوء التوافق يتم عن طريق إحداث تعديل أو تغيير فى الشخصية وفى السلوك ، وخاصة فى تعديل الأفكار والاتجاهات أو تغييرها ، حيث أن سلوك الإنسان يتأثر – بدرجة كبيرة – بأفكاره واتجاهاته .

والعلاج النفسى فى الدراسات النفسية المعاصرة ، يستهدف تغيير أفكار المرضى النفسيين ، الذين يعانون من سوء التوافق مع أنفسهم ومع الآخرين ومع المجتمع الذى يعيشون فيه ، ومع المشكلات التى تواجههم فى حياتهم اليومية .

وعادة عند تغير أفكار المريض النفسى نتيجة العلاج فإنه يُصبح أقدر على مواجهة مشكلاته وأقدر على حلها . إضافة إلى أنه غالباً ماتتضح أمامه أن مشكلاته التى كانت تقلقه فى الماضى وأدت إلى مرضه لم تكن فى الحقيقة بالصورة التى كان يتوهمها ، ولم يكن هناك فى الواقع مايبرر قلقه الشديد ، بسببها وسوء توافقه مع نفسه ومع الآخرين .

وكتاب الله العزيز والذى نزل بالحق لهداية الناس ، نزل لتغيير أفكار الناس واتجاهاتهم وسلوكهم وهدايتهم ، وتبديل حالهم من الضلال والجهل إلى الصلاح والخير ، حيث إبان للناس طبيعة الإنسان ورسالته فى الحياة ، والقيم والأخلاق والمثل العليا . لذلك فقد أوضح الإسلام أسس نظام الحياة الإنسانية ، والعلاقات الإنسانية الفردية والجماعية ، وحيث قام ببناء الشخصية الإنسانية السوية الآمنة المطمئنة .

هذا ونود الإشارة إلى أن سوء التوافق سنعود إلى الحديث عنه تحت مايُعرف بأمراض القلوب وسوء التوافق النفسى ، وهو من التفسير الإسلامى للاضطرابات السلوكية والإختلالات الخلقية ، والتى تعيق الأمن النفسى الفردى والجماعى .

تلخـــيص :

* تُعرف الصحة النفسية بأنها الحالة التى يكون فيها الفرد متوافقاً نفسياً مع نفسه ومع بيئته . وهى حالة إيجابية يتمتع فيها الفرد بصحة العقل والجسم ، وهى ليست مجرد غياب أو الخلو من أعراض المرض النفسى .

* المرض النفسى عبارة عن اضطراب وظيفى فى الشخصية ، وهو إما خفيفاً أو شديداً ، كما أن هناك فرقاً بين المرض النفسى والسلوك المرضى .

* السوية فى السلوك تمثل القدرة على التوافق النفسى للفرد مع ذاته ومع بيئته . واللاسوية هى الانحراف عما هو عادى والشذوذ عما هو سوى . وهناك معايير للسوية واللاسوية .

* التوافق هو تكيف الشخص مع بيئته الاجتماعية فى مجال مشكلات حياته مع الآخرين ، والتى ترجع لعلاقاته بأسرته ومجتمعه ومعايير بيئته الاقتصادية والسياسية والخلقية ، وضرورة التوافق يفرضها كون الإنسان فى مواجهة بيئته والفرد بإزاء مجتمع ، علماً بأن هناك بعض العوائق التى قد تقف عقبة أمام التوافق النفسى .

* يبين الإسلام أهمية الحاجات الإنسانية إلى الحب والأمن الجسمى والأمن الروحى والأمن الاقتصادى . ويربط الإسلام بين الأمن النفسى والتقوى والالتزام بالعقيدة الإسلامية . كما أن الإسلام يخلص المؤمن من عقدة الخوف من المستقبل ومن الموت ومن قلة الرزق . وبذلك فإن الإيمان يحرر المؤمن من القلق والخوف .

* وأهم الحاجات النفسية التى يعمل الإسلام على تحقيقها بين أبناء الأمة الإسلامية الحاجة إلى الحب (الانتماء) – الحاجة إلى الأمن – الحاجة إلى الحرية – الحاجة إلى النجاح – الحاجة إلى التقدير – الحاجة إلى التعبير عن الذات – الحاجة إلى الانتماء (التآلف مع الجماعة) .

* فيما يتعلق بضوابط إشباع الحاجات الإنسانية ، فإنها تتمثل فى : الإشباع المشروع للحاجات – إشباع الحاجات يمثل وسيلة لا غاية – إشباع الحاجات الصحية وقمع الحاجات غير الصحية – إشباع الحاجات الصحية بالحلال وعدم إشباعها بالحرام – عدم الإفراط فى إشباع الحاجات الصحية – لايستطيع الإنسان إشباع جميع حاجاته فى الحياة .

* يشعر الإنسان بتحقيق ذاته إذا نجح فى الوصول إلى هدفه الأساسى فى الحياة ، ويؤدى تحقيق الذات إلى الصحة النفسية والتوافق النفسى ، وتحقيق الذات عن طريق الوصول إلى الغايات الدنيا لايحقق الصحة النفسية ، كما أن تحقيق الذات عن طريق غايات غير مشروعة يشقى الإنسان ، ويفسد علاقاته بغيره ويبعده عن خالقه ، ولايحقق له الصحة النفسية .

* عمل الصالحات يؤدى إلى تحقيق الذات ، ويؤدى الشعور بتحقيق الذات إلى عمل الصالحات . ودائرة عمل الصالحات – تحقيق الذات هى التى تحقق التوافق النفسى للفرد المؤمن ، الذى يعمل بما يرضى الله وما أمر به الرسول ، والذى يجاهد فى سبيل الله بنفسه وماله ويدافع عن الحق ولو بالتضحية بنفسه .

* التوافق النفسى عند الإنسان إما توافقاً حسناً أو سيئاً . والتوافق يختلف من مجتمع إلى آخر ، حسب قواعد السلوك السائدة . وفى الإسلام يعتبر التوافق حسناً إذا كانت أهداف الفرد مشروعة وأساليب تحقيقها مقبولة دينياً واجتماعياً . ويعتبر التوافق سيئاً إذا كانت الأهداف غير مشروعة ، أو مشروعة وتم تحقيقها من حرام ، أو مشروعة وفشل فى تحقيقها أو تعديلها أو تبديلها أو إلغائها ، وأدت إلى استغراقه فى الحيل النفسية .

تعقيب :

* التوافق النفسى للمؤمن مرجعه خصائص وسمات يتشكل منها شخصية الفرد المسلم ، والتى من ميزاتها وجود الضمير الحى الذى هو من مقاييس الشخصية ، فى الإقدام أو الإحجام .. فى الاتجاه نحو الخير أو الابتعاد عن الشر .. فى العزة أو الذلة والخنوع .

* والتوافق النفسى يُحدث مشاعر الرضا الذاتى نحو العمل والسلوك المرغوب فى البيئة الاجتماعية ، حيث ينادى الإسلام بالتجمع وعدم التفرق والاعتصام بحبل الله للجميع ، وبذلك يكون هناك سلوك موحد متفق عليه من أجل صالح الفرد وصالح الجماعة ، وهو نمط السلوك الذى يتوافق والشرع ، وما أحل الله وما أمر به الرسول ، ووفق معايير الجماعة ومثلها واتجاهاتها وقيمها الاجتماعية.

* وإن السمات النفسية للمؤمن تُكسب النفس السكينة والأمن ، وتضفى عليها نبذ اللغو من الحديث ، وتجعلها قادرة على التعبير عن أفكاره باتزان وترو ، وحيث تبدو المهابة والاتزان الانفعالى فى أقواله وأفعاله وأعماله ، ومن ثم يكون فى توافق مع ذاته ومع الآخرين ، والرضا الذاتى من شأنه أن يجعل الإنسان فى الوقت ذاته فى رضى وقناعة فى التعامل مع الآخرين .

* وفى الذكر الحكيم يقول الحق تبارك وتعالى

«ومثل كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء»

واللسان من الجوارح وهو إما أن يرفع من قيمة صاحبه أو يذلل عنقه .
والمرء مخبوء تحت لسانه ، فإذا تكلم أو خاطب الآخرين ظهر على حقيقته .

* ومن السمات النفسية للمؤمن أن يكون خشوعه لله وحده وتضرعه وابتهاله للخالق الواحد ، وفى هذا مايحقق السعادة والرضا النفسى وحيث يشعر الإنسان بقوته وتماسكه وإقباله فى تعامله مع الناس دون خوف أو شعور بالذلة والاستكانة .

* وفى التوافق النفسى للمؤمن إحساسه بالمسئولية تجاه الآخرين كما يُحس بالمسئولية تجاه ذاته ، فيسعى إلى العمل على مساعدة ذوى القربى واليتامى والمساكين وأصحاب الحاجات ، ولاتقتصر المساعدة والمعاونة على الماديات بل

أيضاً المعنويات ، وبذلك يشارك الفرد المؤمن فى إسعاد نفسه وغيره . بل وفى إسعاد نفسه مايحفزه .... إلى العناية بحاجات الآخرين والسعى إلى الوفاء بالوعد والعمل على احترام الآخرين ، وفى هذا مايؤدى إلى تقدير الذات وتقدير واحترام الآخرين للذات أيضاً .

* والتوافق النفسى من شأنه الالتزام بالضوابط الأخلاقية فلاتعدِ على الحرمات ، ولا إقدام على ما أحل الله ، وحتى لايشعر بالذنب ويصبح فريسة صراع نفسى لما يحدث من تأنيب الضمير عندما يتعدى حدود الله .

* وقد أبان الإسلام الضوابط والحدود التى تحرر المؤمن من القلق والخوف، وحدد الإسلام الحاجات النفسية التى يسعى إلى تحقيقها بين أبناء الأمة الإسلامية وضوابط الإشباع حتى لايحدث الصراع بين الفرد وذاته أو بينه وبين الجماعة التى يعيش بين ظهرانيها .

* وقال تعالى :

﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾

(سورة فاطر آية ١٠)

وفى هذا مايحفز الإنسان المؤمن إلى الجهاد دائماً نحو تحقيق عمل الصالحات سواء بالقول أو بالفعل .

* هذا ونود أن نضيف أن التوافق النفسى من شأنه أن يُشعر الإنسان بالانتماء وعدم النفرة أو الاغتراب مع الذات والآخرين والميل إلى الانعزال . وأقسى درجات الصراع النفسى ، هى المعاناة والاضطراب نتيجة الوساوس ، ومايصاحب ذلك معاناة الفرد فى صراعه مع ذاته من جانب وصراعه مع الآخرين من جانب آخر ، وهو مايفسره الإسلام بأمراض القلوب ، والتى سنتعرض لها بالحديث فى هذا الباب .

تمـــارين :

١ - وضح معنى كل من : الصحة النفسية والمرض النفسى .

٢ - سوية السلوك تمثل القدرة على التوافق النفسى للفرد . اشرح .

٣ - أوضح الإسلام الحاجات الإنسانية والنفسية الأساسية التى يعمل على تحقيقها ؟ اشرح .

٤ - كيف حدد الإسلام ضوابط إشباع الحاجات الإنسانية ؟

٥ - التوافق النفسى عند الإنسان إما توافق حسن أو سيء . وضح .

الفصل الرابع عشر

الإسلام وضوابط السلوك الإنسانى

المحتوى :

* تمهيد
* عوامل ومتغيرات الفروق الفردية فى الحياة النفسية الإنسانية .
* نوازع الخير والشر والصراع النفسى عند الإنسان .
* الرأى الإسلامى فى الصراع كضرورة بشرية .
* التفسير الإسلامى لسلوك الخير والشر فى النفس البشرية .
* التفسير الإسلامى لضوابط السلوك الإنسانى .
* النية ودورها فى الأدب مع النفس فى الإسلام .
* مقومات الأدب مع النفس .
  - التوبة .
  - المراقبة .
  - المحاسبة .
  - المجاهدة .
* تلخيص .
* تعقيب .
* تمارين .

الفصل الرابع عشر

الإسلام وضوابط السلوك الإنساني

تمهيد :

فى طبيعة الإنسان الصراع الدائب بين الخير والشر ، والغلبة للجانب الأقوى . وإذا لم يكن الإنسان مزوداً بالتقوى ، يعمل على صلاح الأمور ويتواصى بالحق ويتواصى بالصبر ، فإن الشر ينتصر على الخير ، وعندئذ تقوى الوساوس والمخاوف ويتذبذب سلوك الإنسان وتعمى البصيرة .

واستهداف الحوادث عند الأفراد ، وجنوحهم إلى الشر ، واضطراب واختلال السلوك ، وسوء أو سوية التوافق النفسى عند الإنسان مرجعه إلى مايعرف فى علم النفس المعاصر بالفروق الفردية ، بمعنى أن هناك تبايناً بين الأفراد والجماعات فى تفسير السلوك الإنسانى ، ومايؤثر فيه من عوامل ومتغيرات وضوابط تحكم السلوك ويلتزم بها الفرد ، أو عدم الالتزام بهذه الضوابط والمعايير الدينية والاجتماعية ، والتى من شأنها إذا تمت بهذه الصورة ، أن تحدث الاختلالات فى تماسك البناء الاجتماعى والفردى .

وفى هذا الفصل نوضح كيف يقوم الإسلام بتحييد الطاقة الإنسانية بين الخير والشر ، وكيف ينظم الإسلام سلوك الفرد على أساس مايعرف فى علم النفس المعاصر بضبط الذات ، وهى ضوابط يحددها الإسلام تحت مايعرف بالأدب مع النفس .

عوامل ومتغيرات الفروق الفردية في الحياة النفسية الإنسانية :

يشير «جيلفورد Guilford» ١٩٧١ (١٢١) إلى أن هناك تبايناً بين الأفراد أو بين الجماعات من حيث تفسيرالسلوك البشرى ومايؤثر فيه من عوامل ومتغيرات كثيرة ... منها :

١- عوامل فيزيائية مثل البيئة الاجتماعية .

٢- عوامل بيولوجية (حيوية) مثل العمر والسلالة والجنس .

٣ – عوامل ثقافية مثل الاتجاهات والمعايير والقيم .

٤– وعوامل اجتماعية مثل كثافة السكان والمستوى الاقتصادى والاجتماعى.

وبصفة عامة تتباين الفروق الفردية فى الحياة الإنسانية المضطربة أو السوية وفق متغيرات وعوامل ، تتمثل فى :

١– كيفية إشباع الحاجات الإنسانية عضوية واجتماعية ونفسية ، والتى تحدث التوازن والنضج النفسى والشخصى .

٢– توافق المكونات الفسيولوجية الجسمية عند الفرد ؛ فالأمراض الجسمية والعلل والإصابات الجسمية وكف البصر وضعف السمع أو غيره يوضح تباين السلوك الإنسانى .

٣– خبرات الطفولة وطرائق التنشئة والتطبيع الاجتماعى ، والحرمان من الأمومة أو الأبوة والاضطرابات الأسرية ، أو الاحتواء الكامل من قبل الوالدين ، وماقدينتج عن ذلك من عدوانية أو اتكالية من جانب الصغار ، ومماينتج عن ذلك من توافق سوى فى حياة الأفراد .

٤– تباين القدرات العقلية بين الأفراد ، حيث تبين وجود علاقة بين المستوى العقلى والاضطرابات السلوكية .

٥– المستوى الاجتماعى والثقافى وأثر ذلك على القيم والمعايير والعادات الاجتماعية على أنماط السلوك .

٦– سوء تكيف الإنسان مع ذاته وعدم إدراك الفرد لذاته ودوافعه ورغباته وقدراته وعدم تقديره للناس من حوله .

٧– الخبرات غير السارة فى حياة الإنسان ، ومايترتب عنها من أشكال من الاضطرابات فى الحياة الاجتماعية أو الأسرية أو المهنية .

٨– الوسائل الإعلامية والتى قد تكون مصدراً دائباً للاضطرابات السلوكية ، إذا لم تحسن المؤسسات الرقابية أحكام النشر والإعلام وخاصة بين الشباب .

وهذه العوامل والمتغيرات من شأنها أن تحدث التوافق النفسى أو سوء التوافق فى حياة الفرد .

نوازع الخير والشر والصراع النفسى عند الإنسان :

قبل أن نعرض المفهوم الإسلامى وآراء الإسلام عن حقيقة طبيعة الإنسان وماينتابه من نوازع الخير والشر ، نود أن نشير إلى وجهات النظر الخاصة برجال الفكر والتربية من المهتمين بالبحث عن ذلك من القدامى والمعاصرين ؛ حيث تعددت وجهات النظر فى ذلك . وفيما يلى الآراء الخاصة بذلك : (١٢٢)

١ – هناك اتجاه يشير إلى أن الطبيعة الإنسانية خيرة فى أصل وجودها . وليس معنى ذلك أن الإنسان لايفعل الشر ، وإنما معناه أن الشر خارج عن طبيعته، فهو فى الأساس خير ويميل إلى الخير بصفة دائمة ، ولكنه يفعل الشر عن خطأ أو عن جهل أو نتيجة تأثير البيئة عليه (١٢٣) . ومن أنصار هذا الاتجاه سقراط (١٢٤) ، إذ أشار إلى أن فى كل إنسان رغبة فى الخير وأن الشر ناتج عن الجهل وسوء التقدير ، لأن الذى يعلم يقيناً أنه شر لايمكن أن يفعله .

ولهذا ذكر أن الشر غير إرادى فى الإنسان ، لكنه يرى أن عدم إرادة الشر لايكفى لعدم ارتكاب الشر فعلاً ، بل لابد من وجود السلطة أو الصداقة مع الأخيار بالنسبة للمرء . (١٢٥)

كما أن الرواقيين يرون أن الناس يُخلقون أخياراً ثم يصيرون أشراراً بمجالسة الأشرار والميل إلى الشهوات والانغماس فيها ، فهى تدفع الإنسان إلى أن تميل نفسه من الشهوات دون الفكر فيما هو حسن وماهو قبيح منها . (١٢٦)

٢– والاتجاه الثانى يرى أن الإنسان شرير فى طبيعته الأساسية ، وليس ذلك نتاج الظروف والتربية ، بل إن جذور الشر متأصلة فى طبيعة الإنسان . ومن أنصار هذا الرأى أفلوطين المصرى ومن تبعه من اليسوعيين . (١٢٧)

٣– الاتجاه الثالث يرى أن الناس منهم الأخيار ومنهم الأشرار ، ومنهم من هو متوسط بين الأمرين . ومن أنصار هذا الرأى جالينوس وحيث يرى أن من كانوا أشراراً بالطبع لايمكن أن ينتقلوا بالتربية إلى الأخيار .

٤– والاتجاه الرابع يرى أن فى طبيعة الإنسان جانباً خيراً وآخر شريراً ومن أنصار هذا الرأى أفلاطون ، حيث يرجع الخير إلى العنصر الروحى فى الطبيعة الإنسانية ، كما يرجع الشر إلى طبيعة النفس الحيوانية فيه . فالمصدر الأساسى للخير عنده هو الروح الإلهى فى الإنسان ، إذ إنها أصلاً من المصدر

الإلهى ، بينما النفس الإنسانية هى المصدر الأساسى للشر حيث فيها الشهوات والنزوات .

وقد أشار «أفلاطون» إلى أن نجاح الإنسان فى الحياة متوقف على خضوع النفس وميولها للروح الإلهية فيه . (١٢٨)

ويمكن توجيه الإنسان بإخضاع النفس بما فيها من شهوات ونزوات وميول متعارضة مع الروح الطاهرة .

ويرى بعض علماء المسلمين أن النفس والروح يتصارعان باستمرار ، وقد تتغلب النفس على الروح فيصبح الإنسان شريراً ، وعندئذ يصبح دور التربية هو مساعدة الفرد وتزويده بالوسائل التى تمكنه من تغليب روحه على نفسه . (١٢٩)

٥- الاتجاه الخامس ينادى بأن الطبيعة الإنسانية محايدة ، بمعنى أنها ليست خيرة ولاشريرة فى ذاتها ، وفى أصلها الخلقى بل هى محايدة ، ولديها الاستعداد لأن تكون خيرة أو شريرة حسب التربية وظروف البيئة ، لكن لايوجد فى الإنسان خير بالفطرة أو شر بالفطرة على الإطلاق . (١٣٠)

ويؤيد هذا الرأى بعض الفلاسفة المعاصرين أمثال «كانط» الألمانى ، والذى يقول عن خلق الإنسان : «خلق وفى نفسه الميول البهيمية والأهواء المختلفة ولكنه لايوصف إذ ذاك بالخير ولابالشر» . (١٣١)

ومن المفكرين الغربيين أيضاً الذى يؤيد ذلك أيضاً «برتراند راسل» ومن علماء المسلمين ممن يتبنى هذا الاتجاه ، الإمام الغزالى حيث يقول : «والصبى أمانة عِند والديه وقلبه الطاهر جوهرة نفيسةٍ ساذجة خالية عن كل نقش وصورة ، فإن عود الخير وعلّمه نشأ عليه ، وإن عود الشر وأهمل إهمال البهائم شقى وهلك» .(١٣٢)

كما أن «ابن سينا» يقول إن كل إنسان مفطور على قوة بها يفعل الأفعال الجميلة ، وتلك القوة بعينها تفعل الأفعال القبيحة .

وفى رأى العلماء المعاصرين أن التربية يمكنها توجيه طبيعة الإنسان ، رغم أنها لاتستطيع أن تصنع من هذه الطبيعة المحايدة طبيعة خيرة ، لأن الطبيعة المحايدة طبيعة طيعة ، ومن ثم يمكن توجيه هذه الطبيعة بالوسائل والطرق التربوية نحو الخير والغايات الخيرة باستمرار . (١٣٣)

والإسلام فى كتاب الله العزيز ، يذكر أن الإنسان خُلق فى أحسن تقويم :

﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾

(سورة التين – آية ٤)

والإنسان فى تعامله إما أن يتعامل بسلوك سوى ، وإما أن يتسم سلوكه بالاسوية :

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾

(سورة الشمس – آية ٨/٧)

والإنسان فى حياته وتعامله إما أن يكون فى خُسر وهلاك ، وإما أن يكون من الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر .

ومن آيات الله البينات الدالة على ذلك ، ماورد فى سورة العصر والتى ذكر الشافعى رحمه الله «لو تدبر الناس سورة العصر لوسعتهم» وفى كلام الله تعالى فى هذه السورة :

﴿ وَالْعَصْرِ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾

(سورة العصر آيات ١–٣)

والعصر هنا بمعنى الزمان الذى يقع فيه حركات الإنسان من خير وشر ، وقد أقسم الله بذلك على أن الإنسان لفى خسر وهلاك ، واستثنى من بنى الإنسان عن الخسران ، الذين آمنوا بقلوبهم وعملوا الصالحات لوجه ربهم ، وأدوا الطاعات وتركوا المحرمات ، وتواصوا بالصبر على المصائب والأقدار ، ممن يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر .

وإن هُدى الله لعباده إنما يتمثل فى راحة النفس وتكاملها ، وسوية السلوك وعدم وجود الاضطراب النفسى مع الذات ومع الآخرين .

وفى نظر الدين الإسلامى الحنيف ، يكون الصراع النفسى وافتقاد الأمن النفسى مرجعه أسباب عديدة ، منها :

١ – أمراض القلب أو ماتُعرف فى علم النفس المعاصر ، بأمراض الضمير والحيل الهروبية من تأنيب الضمير ، فضعف الضمير يؤدى إلى ضعف الأخلاق ،

ويترتب على ذلك سوء التوافق النفسى بين الفرد والآخرين .

٢- الصراع بين قوى الخير وقوى الشر وبين إتباع سبل الخير وطرق الضلال . فالنفس إما لوامة تحاسب الذات على سلوك ، وإما أمارة بالسوء تدفع بصاحبها إلى الضلال والغواية .

وبذلك إما أن تكون النفس مطمئنة متكيفة متوافقة لاتشكو العلل النفسية ، وإما أن تكون مضطربة تحيل صاحبها إلى افتقاد الاستقرار والجنوح وتعذيب الذات وسوء التعامل مع الآخرين . والصراع الذى قد يستحكم فى حياة الإنسان قد يصرعه ويؤدى به إلى القلق والتوتر ، ويحيل حياته إلى سلسلة من المخاوف وعدم الاستقرار .

وفى طبيعة البشر الصراع الدائب بين الخير والشر ، والغلبة للجانب الأقوى. فإذا لم يكن الإنسان مزوداً بالتقوى ، يعمل على صلاح الأمور ويتواصى بالحق ويتواصى بالصبر ، فإن الشر ينتصر على الخير ، وعندئذ تقوى الوساوس والمخاوف ، ويتذبذب سلوك الإنسان وتعمى البصيرة .

٣ - من أسباب الصراع النفسى أيضاً الغواية والضلال ، والتى تقود الإنسان إلى إضطراب السلوك .

والضلال هو غواية النفس والصد عن سبيل الله والبعد عن العقيدة ومعصية الله ورسوله .

وأقسى درجات الضلال تلك التى يتبع فيها الإنسان هواه ، دون تحكيم للعقل والضمير :

﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ﴾

(سورة القصص آية ٥٠)

وحيث ينحرف السلوك ، ويجد الإنسان نفسه فى ضياع واضطراب نتيجة أعراضه عن ذكر الله . وفى هذا شقاء النفس وضيق العيش :

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾

(سورة طه آية ١٢٤)

٤- قد يكون من أسباب الصراع النفسى الضلال عن البصيرة ، وعيش الناس فى غفلة عن الواقع الفعلى الذى يعيشه ، ومايأتمر به من هداية ومثل وقيم فى تعامله مع نفسه ومع غيره ، وحيث ينسى الإنسان ذاته ويصبح فى غفلة وإعراض عن كل مايدخل إلى نفسه الأمن والطمأنينة ، فقد أمرنا الله تعالى :

﴿ وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾

(سورة الحشر آية ١٩)

٥- وهناك أسباب أخرى تُحدث الصراع النفسى فى حياة الإنسان ، وهناك أكثر من موضع فى كتاب الله يحض على إثبات كل مايعذب الإنسان فى حياته الدنيا ويجعل مصيرها فى الحياة الآخرة أسوأ مصير . ومن هذه الأسباب على سبيل المثال لا الحصر : اتباع الشهوات والعدوانية والغيرة والحقد ، وعدوان النفس على الغير ، والإعراض عن التراحم والتعاطف مع الآخرين ، والشك والارتياب ، وسوء الأخلاق بصفة عامة .

والواقع أن الإسلام إبان كيف يسعى الإنسان فى مناكب الأرض وكيف له من سبيل الهداية ، وكيف له الابتعاد عن طريق الغواية ، ولكن كثيراً من الناس فى زحمة الحياة وفى الصراع النفسى الدائب بين قوى الخير وقوى الشر ، فى غفلة معرضون ، وحسبما قال الله تعالى فى كتابه الكريم :

﴿ وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴾

(سورة المائدة آية ٤٩)

وهذا من أسباب شقاء البشرية فى وقتنا الحاضر ، حيث زادت الاضطرابات النفسية ، وزادت الانحرافات السلوكية والمخاوف والقلق والتوتر ، وزاد الشعور بالإثم عند الكثير نتيجة للصراعات التى يعانيها الإنسان الفرد ، وماتسببه له من عدم الاتزان النفسى وسوء التوافق الاجتماعى .

الرأى الإسلامى فى الصراع كضرورة بشرية :

عالم الإنسان ... يعتبر الصراع فيه عنصر من عناصره الأصيلة ، وضرورة لاتستقيم دونها الحياة . (١٣٤)

وهو ضرورة يشير إليها تركيب الإنسان ذاته من جسم وعقل وروح ، مختلفة المطالب متباينة الاتجاه .

وتشير إلى رغبات الإنسان التى لاتقف عند حد ، وطاقته المحدودة التى لاتستطيع تلبية الرغبات كلها ، سواء رغبات الجسد أو العقل أو الروح .

يشير إليها تطلع الإنسان الحسى والمعنوى .

ويشير إليها اضطراب الإنسان إلى مقاومة الكثير من الآفات والأمراض والقوى الطبيعية لكى يعيش ، فضلاً عن أن يرتفع بحياته إلى حيث يرجو من الارتفاع .

ويشير إليها أخيراً وجود الشر فى الأرض كحقيقة واقعة ، واضطرار الخير أن يصارع الشر لكى يثبت وجوده ، فضلاً عن الغلبة عليه فى نهاية المطاف .

وعلينا أن نعرف هل أمكن فى الواقع العملى القضاء على الشر ومحوه من الوجود ؟

فماذا يصنع الخير إزاء هذا الشر الموجود ، إذا لم تكن له القدرة على الصراع ؟

من هنا نقول – على حد قول الأستاذ محمد قطب – (١٣٥) إن الصراع ضرورة بشرية .

وعلى هذا النحو نفهم الآية التى تقول :

﴿ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ ﴾

(البقرة آية ٢٥١)

أى لغلب الشر وأصبح هو الأغلب والمسيطر على الأرض .

ومادام الصراع ضرورة للبشر ، فقد زُود البشر بالقدرة على الصراع ، وحيث جلت قدرة الله تعالى فى تزويد البشر فى أجسامهم وعقولهم وأرواحهم وكيانهم كله .

فهو إذا أعطاهم أجساماً تشتهى ، وعقولاً تفكر وأرواحاً تُحلق ساعية إلى النور ، فقد زودهم كذلك بالقدرة على التوفيق بين هذه جميعاً ، ولن يقوم التوفيق بينها إلا بشىء من الصراع ، شىء من التدافع حتى لنستطيع أن نقول : إنه لولا دفع هذه القوى بعضها ببعض لفسدت النفس .

ولنتصور إنساناً يسير فى خطه الجسدى إلى آخر مداه ، فينساق مع شهواته ويصبح فى النهاية عبداً لهذه الشهوات .

هل تتحقق له سعادته الفردية فضلاً عن أثر هذا الانسياق فى بنية المجتمع ؟ إن الشهوة لاتهدأ بإشباعها الدائم ، بل تصبح سعاراً دائماً لاينقطع ، وعذاباً دائماً لايستقر .

أو نتصور إنساناً يسير فى خطه الروحى إلى أخر مداه ، فيكبت نشاطه الحيوى ولايسمح له بالوجود فى كيانه الواعى .

هل تتحقق له سعادته الفردية فضلاً عن أثر هذا الكبت فى وقف الحياة – وقف النسل ، ووقف عمارة الأرض – بوقف النشاط الجسمانى ؟

إن الكبت عذاب وإثم لايهدأ صاحبه ولايستريح . أو نتصور إنساناً سار مع عقله ومنطقه لايستجيب لدفعات الجسد أو نداء الروح .. إن الذهن على اتقاده ونشاطه العالى فى محيطه الخاص – قوة بليدة لاتنفعل . الأعمال التى لابد منها لتسيير دفة الحياة قد لايستسيغها منطق العقل ، خاصة حين يتجرد ويدخل فيما وراء الطبيعة ، وينكر حقائق الأشياء الظاهرة ويقول إنه ليس لها وجود مادى !!!

والواقع أنه لابد من التوفيق بين هذه المتناقضات ، ولن يكون التوفيق بينها إلا عند تجاذب بعضها بعضاً نحو نقطة التوازن فى منتصف الطريق . وتلك بداية الصراع فى داخل النفس الإنسانية ، وهى ضرورة لايستقيم دونها الكيان النفسى للبشر .

والكيان الإنسانى يتمثل فى :

كيان الإنسان كفرد مستقل ، وكيانه كعضو فى جماعة .

وكل من هذان الكيانان أصيل فى نفس الإنسان ، وليس أحدهما مفروضاً على الإنسان من الخارج . فالفرد الذى يحب ذاته : «**إنه لحب الخير لشديد**» ، يحس أحياناً أن ذاته هى محور الوجود كله وملء فراغه . هو نفسه يضيق بذاته الفردية كأنها سجن ينقبض عليه وتكاد تفتك به وحدته ، فيسعى إلى الناس أى إلى المجتمع ، فراراً من وحدته وأنسا بالآخرين .

أى لابد من التوازن فى سلوك الإنسان ، وإلا لقضى جزء من النفس على الجزء الآخر ، ولابد من التوفيق بينهما .

ونخرج من النفس الواحدة إلى النفوس المتعددة ، فنجد شبيهاً لهذا التناقض وهذا الصراع . نجد تناقضاً بين نفوس الناس ومصالحهم وشتى اتجاهاتهم . تناقضاً

لابد من التوفيق بين جزئياته . ولن يكون التوفيق إلا بشىء من الصراع لرد القوى المتطرفة إلى نقطة التوازن فى منتصف الطريق .

وحكمة الخالق اقتضت التوفيق بين المخلوقات وضروراتها ، فجعلت بذرة الصراع موجودة فى داخل الكيان النفسى مادامت ضرورة لواقع الحياة .

والإسلام يُقر الصراع على هذا النحو .. على أساس أنه ضرورة لازمة لمنع الفساد عن الأرض ، ولإيجاد التوازن فى الحياة البشرية . وأنه – لهذا السبب – موجود فى بنية النفس الإنسانية .

والإسلام يتخذ دائماً الفكر المتوازن ، لايشتط ولايتطرف ، ولذلك فإنه لايعتبر الصراع هدفاً فى ذاته ، ولايقر كذلك أنه هو – بذاته – الذى ينشئ القلق والاضطراب فى حياة البشر .

كما أن الإسلام يفهم الصراع على أنه وسيلة للتوفيق بين المتناقضات ، ووسيلة بعد ذلك لرفع الإنسان عن عالم الضرورة ، وعن وهدة الشر ، إلى حيث يستطيع أن يحلق – سوياً متوازناً – فى عالم النور .

وهو لهذا يوازن عنصر الصراع فى داخل النفس .

إذاً كيف يتم هذا التوازن ؟

إن الإسلام يوازن عنصر الصراع داخل النفس عن طريق :

١ – عنصر الحب (الانتماء) ... فلو أن الصراع نما وحده داخل النفس وهو طاقة طبيعية تنمو نمواً ذاتياً – فلن يؤدى غير مهمة واحدة ... هى الكراهية والنفور ... والتنابذ والتناحر ... ومصير ذلك الحرب المدمرة التى تعمل للهدم ولاتعمل للبناء .

لذلك فالحب هو الذى يستطيع أن يوازن عنصر الصراع فى النفس ، فيخفف حدته ويكسر شوكته ، أو يستأنسه ، فلا يندفع ويهيج إلا حيث ينبغى له أن ينطلق ليحطم الشر ، أى يحطم العوائق التى تقف فى طريق الحب ، وتمنع البشرية أن تستمع بظلاله .

والحب فطرى إنسانى طبيعى ، ينشأ نشوءاً ذاتياً فى باطن النفس ، وهو سابق فى وجوده على الكراهية والصراع .

والحب لاينمو ولايزدهر إلا فى بيئته الطبيعية ومكانه الملائم . ففى داخل الأسرة يتلقى الطفل أولى جرعات الحب الحانية التى يتفتح لها كيانه الصغير . فمن صدر الأم الدافئ وبين ذراعها الحانيتين يحس بالأمن والراحة، ويفتح عينيه على مشاعر الأمن والطمأنينة . ثم ينمو ويتطلع إلى أبيه يناغيه ويرعاه ، فيطمئن إلى عالم أرحب من الثدى الذى يطعمه والذراعين اللتين تحملانه .. ويدلف الهوينا إلى العالم الأكبر .

وبغير الأسرة ، بغير أم وأب يمتلكهما الطفل ملكية كاملة ، ويُحس أنه لامنازع له فيهما - فى العامين الأولين على الأقل - لايترعرع الحب الذى يوازن نبت الصراع ، فينشأ الصراع وحده نافراً كالأشواك .

ويُحرص الإسلام حرصاً شديداً على كيان الأسرة ، ويقيم فكرته كلها : الروحية والفكرية والاجتماعية - والاقتصادية كذلك - على اختيار وتخصيص الأم لمهمتها الخطيرة فى تنمية البشرية .

وغاية الإسلام فى ذلك أنه يريد الناس أن ينشأوا متوازنين . وقد تكون المدنية المعاصرة التى اختل صوابها من الكسب المادى والإنتاج الآلى - نزع الأم من طفلها المتشبث بها ، المتطلع إليها ، وحيث بدأت الأمهات العمل فى المصانع والمتاجر وسائر الأعمال ، ونادت بتحرير المرأة .. وعائد هذا كله تحرير البشرية من عنصر الإنسانية .

كما أن المحاضن التى يتلهى بها الأطفال بعيداً عن الأمهات ، يلهون بها الأجيال المقبلة من البشرية ، لن تكون إلا منابت الشوك الذى يمزق الأجيال البشرية القادمة .

٢ - من الكيان النفسى والطاقات البشرية .. فالإسلام يقيم توازناً آخر للصراع فهو لايكتفى بأن يوازنه بعنصر الحب ، حتى لاينقلب إلى نفور مطلق وخيم ، ولكنه يوازن كذلك مكانه من الكيان النفسى والطاقات البشرية .

فحيث تعمل بعض العقائد - كالهندوكية - على توجيه طاقة الصراع كلها أو معظمها إلى داخل النفس .. لكبت الجسد ، وغل نشاطه بحجة التطهر والارتفاع.

وحيث تعمل بعض المدنيات المعاصرة ، على توجيه طاقة الصراع كلها أو معظمها إلى خارج النفس .. وحيث يعمل ذلك على تحطيم الآخرين من بنى البشر.

فإن الإسلام يعمل على توجيه طاقة الصراع – بقدر – إلى الداخل والخارج على السواء ، فى الحدود المعقولة التى لاتدمر النشاط الحيوى ، ولاتدمر كذلك الآخرين ، وإنما تسمح لكل بالعمل فى الحدود المأمونة للجميع .

وللإسلام فى ذلك حكمته ...

فتوجيه طاقة الصراع كلها أو معظمها إلى الداخل يُطهر النفس – حقاً – من شهواتها ، ولكنه يوقف نشاطها وينشئ فيها سلبية معيبة تجاه الحياة . سلبية لاتنتج، ولاتقاوم الشر حين يقع ، ولاتضيف شيئاً إلى رصيد الحياة الدائم النماء .

وتوجيه الطاقة كلها أو معظمها إلى الخارج ينشئ قوة إيجابية حقاً . قوة تنتج وتبدع الجديد كل يوم وتفتح وتتوسع ، ولكنها تقضى على نفسها بحماقة فى نهاية الأمر ، لأنها تهمل تنظيف داخل النفس ، ولاتتعرض لتهذيب الشهوات ، فتعصف هذه الشهوات فى النهاية بكل ما أنتجت تلك القوة الإيجابية من خير مفيد .

أما التوجيه المتوازن فهو يوجه إلى داخل النفس من طاقة الصراع مايقف فى طريق الشهوات الجامحة ، ولكه لايحسبها من منبتها ، ولايعترض طريقها المشروع ، أى أنه لايكبتها ولايدينها (يستقذرها) فى ذاتها ، وإنما يحدد لها فقط سبيلها وطريقها الآمن .

ويوجه من هذه الطاقة إلى خارج النفس مايحول دون وقوع الشر ، ولكنه لايقف فى طريق الرغبات المشروعة للآخرين ، فلا يعطل إنتاجهم ، ولايشغلهم عنه بالدفاع عن أنفسهم ضد الاعتداء . ويقيم نظامه على أساس (إنسانى) يتعاون فيه البشر كلهم لخير الإنسانية .

وبذلك يتجنب السلبية المريضة كما يتجنب الإيجابية المعتدية ، ويحقق من الخير فى الحياة الإنسانية أقصى مايستطيع .

وإذ يعلم الإسلام أن الصراع طاقة ضرورية داخل النفس وخارجها ، فإنه يتعهدها بالرعاية والتوجيه ؛ فهو لايتركها تطغى عن حدودها المعقولة ، بل يعقلها بالحب من أول الطريق .

ولايتركها تذوى وتضعف لسبب من الأسباب ، لأن ضعفها ينشئ انحرافاً آخر فى النفس الإنسانية .

لذلك يرى الإسلام فى النفس قوة الصراع ، عن طريق النشاط والرفعة والقوة والنماء وشتى ألوان التدريب .

ففى بعض عباداته – كالصوم – تدريب لطاقة الصراع فى داخل النفس وفى بعض توجيهاته تدريب للنفس فى مواجهة الناس والأشياء ، وحيث يوجه النفس إلى الجهاد بالنهى عن الهوى ، وغير ذلك من الجهاد الذى تدعو إليه الشريعة السمحاء .

وبذلك يعمل الإسلام على إنقاذ النفس من الضعف والخذلان ، ويصل فى الوقت ذاته إلى تصحيح الأوضاع فى المجتمع الإنسانى كلما مالت إلى الانحراف.

وهذا إنما يمثل لمسة واحدة من القوة الإسلامية المعجزة ، التى تضع كل شيء فى مكانه الصحيح ، فتدور العجلة كلها فى اتجاهها الصحيح .

التفسير الإسلامي لسلوك الخير والشر في النفس البشرية :

فطرة الإنسان تتركز على حقيقة النفس البشرية وبنائها من جسم وروح مترابطين . (١٣٦)

والله سبحانه وتعالى خلق الإنسان على هذه الصورة ، وجعل الخير كل الخير بالنسبة للوجود الإنسانى أن يعمل الإنسان بكيانه المجتمع المترابط ، لا بأى من عنصرية دونه الآخر ، ولا بالعنصرين منفصلين ، كل يسير فى اتجاه .

والإنسان يكون على فطرته الحقة – مزاج مترابط من الجسد والروح – حين تمنحه الروح المعرفة والإدراك والإرادة والإختيار أى حين تحكمه الروح . ولايكون الإنسان على فطرته السوية – وهو مزاج مترابط من الجسد والروح حين يكون الجسد هو المسيطر على سلوك الإنسان ، فيطمس إشعاعة الروح وشفافيتها ويحجب المعرفة والإدراك والإرادة والاختيار . وهو فى كلتا حالتيه مزاج مجتمع مترابط .. غير منفصل الأجزاء (ولايحدث هذا الانفصال أبداً إلا إذا حدث اختلال فى كيان الإنسان) .

ولكن هذا المزاج يكون محكوماً بالجسد تارة ، وتارة يكون محكوماً بالروح ؛ أى إنه يكون شريراً تارة وخيراً تارة .

والخير والشر بذلك يصبحان ذَوَىْ مفهومين واضحين محددين لايلتبسان ولايحار فيهما الإنسان .

وحيث يحكم الجسد هذا المزاج المجتمع المترابط ، فإنه لايلغى وجود الروح، ولكنه يطمس عليها ويكبت إشعاعاتها التى تسمو بالكيان الجسدى .

وإذا أراد الجسد أن يأكل وأن يشرب ويستمتع ، فإن هذا ليس حراماً فى ذاته، ولكنه حين يصير الجسد هو المسيطر ينقلب إلى فاحشة لأنه يزيد على القدر السليم المعقول الذى لايعطب الكيان ولايفسد الجمال الواجب فى حياة الإنسان .

ومادام الجسد هو المسيطر ، فسوف يسعى إلى الطعام إسرافاً ، وبغير تَوَخّ للنظافة والطهارة فى اكتسابه ، وبغير تحرز من ظلم الآخرين فى سبيل الحصول عليه .. فينشأ عن ذلك الشر .

ومادام الجسد - بنوازعه - هو المسيطر فسوف يسعى إلى الجاه والسلطان ، إسرافاً ليحقق لنفسه المتاع ، وليضمن لنفسه الفائدة ، دون توق لظلم الآخرين وسحقهم إذا وقفوا فى الطريق ... فينشأ عن ذلك الشر .

وقد تكون شهوة الجاه والسلطان أحياناً شهوة نفسية لا صلة لها بالجسد ، إذ تستولى على أفراد لا هم لهم فى الطعام والشراب أو الجنس أو المتاع الجسدى على وجه العموم .

ولكن هذا الذى يبدو فى الظاهر ليس صحيحاً فى الحقيقة ، فعلى الرغم من أن الإنسان يعمل دائماً - حتى فى حالات اختلاله - بمزاجه المجتمع من الجسم والروح ، إلا أن السيطرة على هذا النحو غريزة حيوانية يمارسها الحيوان بكاملها ويمارسها الإنسان المختل على صورة قريبة من الحيوان .

والإرادة التى تكون الطغيان هى إرادة النوازع المرتبطة بالكيان الحيوانى وليست إرادة النوازع المرتبطة بكيان الروح .

والحيوان من غرائزه السيطرة ومن مظاهرها فى عالم الحيوان قتل غيره أو سلب غذائه أو أرضه أو أمنه أو راحته .. وبذلك تصبح السيطرة الطغيانية عملية حيوانية فى أساسها ، تجرجر الروح فى ركابها ، مقهورة مسلوبة ، مطموسة الإشعاع . وأياً كان نوع الطغيان ... فهو أصل واحد متعدد الأشكال .

وفى كل ذلك ينشأ الشر ... وينشأ من خضوع الكيان المجتمع المترابط لسيطرة الجسد ... ويكون شراً فى جميع الأوضاع والبيئات ، وجميع الأجيال والأطوار ... لأنه اختلال فى ميزان الإنسان .

أما حين تحكم الروح هذا الكيان المجتمع المترابط ، فإنه يحدث شيء آخر .

فإن هذا يكون :

١- الوضع الطبيعى للإنسان والذى يحقق كمال نشأته .

٢- لايكبت الجسد ولا النشاط الجسدى إلا فى حالات الاختلال ، وإنما ينظم فقط منطلقات هذا النشاط وينظفها ويضبطها .

وحكم الروح للكيان الإنسانى المترابط لايمنع الإنسان من الطعام والشراب والجنس ، والمتاع الحسى بكل أنواعه ، وإنما يضيف إليه فقط متاعاً روحياً ، يجعله شفافاً رائقاً (أى فى مستو عال) متحرراً - إلى حد ما - من الضرورة القاهرة والقيد المتحكم .

فالإنسان يأكل ويشرب ، ولكن بلا إسراف . وسيطرة الروح تضبط هذا الإسراف وتنظمه ، وإن كانت لاتكبته من أساسه . ثم لايجعل الطعام والشراب هدفاً فى ذاته ، وإنما وسيلة لحفظ الذات ، وسيطرة الروح هى التى توقظ الإنسان للهدف من كل عمل يعمله ، لأنها هى المنوطة بالوعى والإدراك . ثم يتحرى النظافة والطهارة فى طعامه وشرابه ، وسيطرة الروح هى التى تتحرز من القذارة الحسية والمعنوية ، وتختار السلوك النظيف لأنها المنوطة بالاختيار .

ثم هو يبعد عن نفسه الأثرة البغيضة ، فيشرك معه غد فى طعامه وشرابه:

﴿ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾

(سورة الحشر آية ٩)

وسيطرة الروح هى التى تدفع إلى هذا البذل والإيثار ، لأنها هى المنوطة بالحب الذى يتوجه للغير .

وينشأ من ذلك الخير ...

خير لايفوت الفرد ذاته - فهو يستمتع بالقسط المعقول من الطعام والشراب - ثم يصل كذلك للآخرين .

وهو يستمتع بمتاع الجنس بلا إسراف ولافاحشة ، ويستمتع به على مستوى

المشاعر والعواطف لا على مستوى الجسد وحده ، فيوسع مساحته فى النفس ، ويضيف إليه ألواناً من الجمال .

وينشأ من ذلك الخير ...

الخير الفردى (الذى يصيب الفرد) حيث يتمتع كل فرد بنصيب معقول من المتاع .

والخير الجماعى (الذى يصيب الجماعة) حيث يحفظ المجتمع من الجريمة والتفكك والانحلال والهبوط والتفاهة ، التى تصاحب دائماً الانفلات والإباحية فى شئون الجنس .

وهو يملك ... ولكنه يتحرى النظافة فيما يملك ، ويتحرى عدم إيقاع الظلم بالآخرين ، ويتحرى التزكية لما يملك بإشراك الآخرين فيه .

وينشأ عن ذلك الخير ...

الخير الفردى فى الإستجابة لنزعة التملك الفطرية فى الإنسان .

والخير الجماعى بتكافل المجتمع وتعاونه ، وإشتراكه فى الجهد والجزاء .
وهو يبرز ويسيطر ... ولكنه يتحرى البروز النظيف والسيطرة فى سبيل الخير .
البروز الذى لايقوم على تحطيم الآخرين وسحقهم ، وإخضاعهم لنزوات إنسان .
والسيطرة التى توجه إلى الحق وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر .

وينشأ عن ذلك الخير ...

الخير الفردى بإعطاء الإنسان شخصية إيجابية فعالة متحركة نشيطة منتجه، مستمتعة راضية .

والخير الجماعى بتوجيه المجتمع نحو الخير ، وتقليل فرصة الظلم والطغيان .

وسيطرة الروح هى المنظم لكل ذلك ، والضامن له فى داخل النفس وواقع الحياة .

وفى كل ذلك لايكبت نشاط الجسم ، ولاتمتنع لحظات الجنوح الطبيعية التى يجنح فيها الإنسان بجسده فى لذة أو متاع .. وإنما ينطلق الجسم والروح ماتزال ممسكة بالقياد ، فتسمح بالمتاع ولكنها تمنع الفحش والإسراف .

وفى كل ذلك يكون الخير صادراً عن الكيان الطبيعى للإنسان ، حسب

تركيبه الأول الذى خلق به بادئ ذى بدء :

﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾

(سورة التين آية ٤)

ويكون متماشياً مع الفطرة السوية التى ليس فيها اختلال ، ولا هى مضغوط عليها من الخارج بشىء لايناسب طبيعتها .

ويكن ذلك الخير خيراً فى جميع الأحوال والملابسات ، والأطوار والبيئات .. لأنه ناشئ عن الحقيقة الطبيعية للإنسان .. الإنسان عامة فى كل زمان ومكان .

والإنسان – بطبيعته المزدوجة – قابلاً قبولاً طبيعياً أن يتخذ هذا الوضع أو ذاك :

وضع سيطرة الجسم على الكيان الممتزج ، أو سيطرة الروح ؛ أى إنه مشتمل – بصورة طبيعية – على استعداد للخير واستعداد للشر :

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾

(سورة الشمس آية ٧/١٠)

بل إنه – حين يترك وشأنه – أكثر ميلاً لأن يستجيب لما جاء فى قول الحق:

﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴾

(سورة التين آية ٤ ، ٥)

ومن ذلك ينشأ الشر فى حياة الإنسان ويملأ وجه الأرض :

﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ ﴾

(سورة الروم آية ٤١)

وليس هذا الشر ناشئاً من الإستجابة إلى دوافع الجسم ، فهى بذاتها لاتنشئ شراً ، بل ينشأ عنه الخير حين يكون فى الصورة التى وصفناها من قبل .

إن الجسم ليس شريراً بذاته ، ولامنبوذاً ولامحتقراً ولاساقطاً من الحساب . فهو لم يخلق عبثاً ... تعالى الله عن العبث وعن عدم القصد .. وإنما الجسم هو

وعاء الطاقة الحيوية العاملة النشيطة التى تعمر الأرض ، وتستخرج كنوزها وتستغل طاقاتها وتنشئ وتبنى وتنتج ، فتسمح للحياة الإنسانية بالوجود والبقاء والامتداد والارتقاء .

والاستجابة لدوافع الجسم هى التى ينشأ عنها الوجود والحركة والعمل والإنتاج ... وكل ذلك مطلوب ومقصود ، لأنه الأداة التى تقوم عليها خلافة الإنسان عن الله فى الأرض ، والتى بغيرها لايكون لهذه الخلافة معنى ولاوجود .

فليس الجسم ولاالاستجابة لدوافعه هما منبع الشر فى حياة الإنسان . إنما الشر – كما أسلفنا – ينشأ من تولى الجسم قيادة الكيان المجتمع المترابط الذى ينبغى أن تتولى قيادته الروح ، بحكم النشأة الطبيعية التى جعلت الإنسان إنساناً ، ورفعته عن الحيوان .

وحين يلغى الإنسان كيانه الروحى (وحيث لايتم ذلك بغير خلل وظيفى) أى حين يجعل الجسم هو صاحب القيادة ، فتنطمس إشعاعة الروح المضيئة وحينئذ ينشأ الشر ، وحينذاك يهبط الإنسان إلى مستوى أسوأ من مستوى الحيوان رغم أنه مازال محتوياً على عنصر الروح .

يهبط ... لأنه يستخدم طاقات روحه ، ومن ثم فإنه لايرقى لمستوى الإنسان السوى .

﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾

(سورة الأعراف آية ١٧٩)

والإشارة إلى القلوب والأعين والآذان ليس المقصود بها الحواس الظاهرة – بطبيعة الحال – وإنما المقصود ماوراءها من وعى وفهم وإدراك والاستفادة بما يرى ويسمع ويحس ، فى انتهاج النهج السوى واتخاذ الطريق المستقيم .

عندئذ – يصبح الإنسان كالأنعام (أى كالحيوان) بل أضل ؛ أضل لأن الحيوان من ناحية ليس مطالباً بالارتفاع ولاقادراً عليه . وإنما هو على فطرته الطبيعية حين يأتى مايأتى من أعمال . وليس من شأنه أن يقدر «قيماً» لأعماله ، ومن ثم فهو لايخالف عن طبيعته ولا عن الدور المقدر له فى الحياة .

والحيوان من ناحية أخرى له غريزة تضبط أعماله ، وتقف بها عند الحد الملائم لفطرية ، فتمنع عنه الإسراف والشطط بالنسبة للمقاييس الحيوانية وبالنسبة للقصد الذى يقصده الخالق ، وإن كان الحيوان ذاته يأتيه بلا وعى ولا اختيار .

أما الإنسان الذى لايستفيد بطاقات روحه - مع أنه مازال محتوياً على عنصر الروح - فهو أضل . لأنه يخالف فطرته السوية ويهبط عنها ، وفى الوقت ذاته يسرف ويشتط لأنه - وقد عطل الضابط الإرادى الذى وهبه الله له متمثلاً فى الروح - ولايملك الضابط الغريزى الذى يضبط تصرفات الحيوان . ويكون ذلك شراً لامحالة فيه ، وانحرافاً عما ينبغى أن يكون عليه الإنسان .

ولكنه انحراف طبيعى إذا تُرك الإنسان وشأنه ، لأنه وهو يشتمل على إستعداد الخير واستعداد الشر ، قمين فى هذه الحالة أن ينقلب وينتكس إلى أسفل ، وعندئذ تصدق عليه التفسيرات المنحرفة التى تصور الحياة البشرية فى صورة حيوانية ، كالتفسير الفرويدى الجنسى للسلوك البشرى ، أو التفسير الداروني لسلوك الإنسان .

والرسالات إذاً ذات مهمة رئيسية فى حياة البشرية ، وليس نافلة تستغنى عنها حين تريد .

والإنسان إما أن يهتدى بهذا الهدى الإلهى ، فيجعل لروحه قياد كيانه الممتزج المترابط ، ويكون فى وضعه الصحيح بالنسبة للفطرة ، ويجعل القياد لجسمه وشهوته ، فهو كالأنعام بل هو أضل ، وهو منتكس بروحه إلى أسفل .

هذا هو التفسير الإسلامى النفسى للخير والشر فى كيان الإنسان ... وهو تفسير واضح ، لايتخبط تخبط الفلسفات التى تشطح هنا وتشطح هناك ، وتتجافى المنبع الأصيل الذى ينبغى أن ترجع إليه فى قياس الخير والشر فى كيان الإنسان ... وهو فطرة ذلك الإنسان .

التفسير الإسلامى لضوابط السلوك الإنسانى :

كيف يضبط الإنسان الشطط الذى يحدث فى سلوكه فى نزوعه إلى الشر بديلاً عن الخير ؟ وما أدوات الضبط للسلوك الإنسانى ؟

الواقع فى كيان الإنسان قوة ضابطة تمنع الشطط فى أى دافع من الدوافع الفطرية . وهذه القوة تنحرف أحياناً وتكف عن العمل أحياناً وهى ماتعرف

بالفطرة السوية ، وهى تؤدى مهمة رئيسية فى حياة الإنسان (١٣٧) ، وهى الفطرة التى فطر الله تعالى الناس عليها ، وهى الصمام الذى لابد من توافر وجوده فى الكائن الحى .. الصمام الذى يمنع الدمار والانحراف فى سلوك الإنسان . إنها المقابل الواعى لعمل الغريزة فى الحيوان . وهى التى تحدد حد الاكتفاء . ثم هى – فى حياة الإنسان – وتقوم بمهمة أخرى لاتقل فى حيويتها عن تحديد حد الاكتفاء الذى يمنع الدمار .

إنها تقوم بتوجيه الطاقة الحيوية عن الإنسان إلى مستويات أعلى وأرفع من مجرد الاستجابة المباشرة للدوافع الفطرية (الغريزية) . وقوة الإنسان قوة فائضة عن الضرورة وليست كقوة الحيوان على قدر الضرورة . وهذا الفائض هو الذى تمنع القوة الضابطة استهلاكه فى محيط الضرورة . وترفعه إلى المستوى الأعلى ... تحوله إلى عمل .. إلى إنتاج .. إلى إنشاء وتعمير .. وتغيير وتطوير .. أى إلى القيام بمهمة الخلافة عن الله فى الأرض .

هذا الفائض هو الذى ينشئ به الإنسان الحضارات ، ويكافح به فى سبيل العقائد والمثل ، وينتج به الإنتاج المادى ، والمخترعات والمكتشفات ، والفنون والعلوم .. وهو مجد الإنسان فى الأرض ، الذى هيأه الله للإنسان ، وهو ينشأ من الدوافع والضوابط معاً فى حياة الإنسان .

والضبط فى الإسلام ليس هو الكبت الذى أشارت إليه نظريات التحليل النفسى فى علم النفس المعاصر ، فالضوابط ليست هى المكبوتات أو اللاشعور ؛ إذ إن الضبط عملية عقلية إرادية واعية ، يقوم بها الإنسان العاقل المسئول بما يملكه من اختيار وعقل . (١٣٨)

والعقل هو الأداة الأساسية فى النفس للضبط ، ولذا سماه العرب عقلاً لهذا السبب لأنه يكف ويضبط ، يضبط العلم ويضبط الأهواء والشهوات والغرائز .. وتمده من الداخل النفس اللوامة بما فطرت عليه من كراهية الفجور والشر ، وتمده من الخارج الشرائع والتربية السليمة ، والنفس اللوامة لاتوجد إلا بعد النفخ بالروح فى الجنين . والجنين لايخرج إلى الحياة دون إدراك أو وعى ، وإنما يولد مدركاً واعياً بصورة لاتبدو ملحوظة ؛ لأن أجهزته الجسمية لاتكون قد نمت إلى الحد الذى يسمح بالتعبير الواضح عن هذا الوعى والإدراك .

وفى منهاج الإسلام فى العقائد والآداب والأخلاق والعبادات والمعاملات . مايهم الإنسان الفرد من معرفة بعقيدته وآداب نفسه واستقامة خلقه وعبادته لربه ومعاملته لأهله وذويه وعشيرته . وهذا كله جمع لأصول الشريعة الإسلامية وفروعها .

وفى الإسلام هناك ضوابط للسلوك الإنسانى ترد تحت عنوان الآداب فى الإسلام (١٣٩) وهى ماتعرف بمقومات الأدب مع النفس ، ونتناول هذه الآداب فيما يلى ، وهى المتمثلة فى ضوابط السلوك الإنسانى فى الإسلام ، وهى :

آداب النية – والآداب مع النفس : وهى التوبة – المراقبة – المحاسبة – والمجاهدة .

النية ودورها في الأدب مع النفس في الإسلام :

النيـــة :

يوجه الإسلام الفرد المسلم للإيمان بخطر شأن النية ، وأهميتها لسائر أعماله وسلوكه ؛ إذ إن جميع أفعال الفرد تتكيف بها ، وتكون بحسبها فتقوى وتضعف ، وتصح وتفسد تبعاً لها . وهى التى تفسر فى علم النفس المعاصر بالعزم أو الغرض أو الباعث Intention or Incentive وإيمان الفرد المسلم بضرورة النية لكل الأعمال ، ووجوب إصلاحها مستمد من قوله تعالى :

﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾

(سورة البينة آية ٥)

والنية هى الباعث على العمل والدافع إليه ، من قوله صلى الله عليه وسلم :

«من هم بحسنة ولم يعملها كتبت له حسنة» .

فمجرد الهم الصالح معناه أن العقل يعمل دون اضطراب ، وحيث يُثاب الفرد لفضيلة النية الصالحة .

والنية السيئة تقلب المباح حراماً ، والجائز ممنوعاً ، ومايكون خالياً من الحرج ليصبح ذا حرج .

وكل هذا يؤكد أهمية النية وعظم شأنها وكبير أهميتها ؛ إذ إنها تمثل كما أشرنا من قبل الباعث أو الحافز على العمل Incentive فى علم النفس .

وفى هذا مايجعل الإسلام يوجه الفرد المسلم أن يبنى أعماله على صالح النيات ، ويبذل جهده فى ألا يعمل عملاً دون نية .. أو نية غير صالحة ؛ إذ إن النية هى روح العمل وقوامة صحته من صحتها .. وفساده من فسادها .. والعمل دون نية مراد متكلف ممقوت .

والنية فى الإسلام أساس من أسس ضبط السلوك ، فهى ركن الأعمال وشرطها ؛ فهى ركن باعتبار أنها البداية .. وشرط باعتبار الاستمرار ؛ أى إنها فى السلوك تمثل البداية والاستمرارية فى السلوك أو التوقف عن إتيانه .

والنية ليست مجرد اللفظ باللسان (اللهم نويت كذا) ، ولا هى حديث نفسى والذى يعرف فى علم النفس المعاصر بالتأمل الباطنى ، بل إن النية – فى نظر الإسلام – هى انبعاث القلب نحو العمل الموافق أى الباعث أو الحافز ، لغرض معين من جلب نفع أو دفع ضر . كما أنها تمثل الإرادة المتوجهة تجاه الفعل لابتغاء رضا الله أو امتثال أمره ، وهو مايفسر على أنه الأدب مع النفس . وفى الإسلام إذ يعتقد الإنسان أن العمل المباح يقلب بحسن النية طاعة ذات أجر ومثوبة .. وأن الطاعة إذا خلت من نية صالحة تنقلب معصية ذات وزر وعقوبة .. لايرى أن المعاصى تؤثر فيها النفية الحسنة فتنقلب طاعة ، ولاينقلب بالنية الصالحة طاعة إلا ماكان مباحاً مأذوناً فى فعله فقط . أما المحرم فلا ينقلب طاعة بحال من الأحوال .

وهذا مايُمثل ركن النية فى سلوك الإنسان الفرد المسلم .

مقومات الأدب مع النفس :

الأدب مع النفس فى الإسلام هو مايُمثل ضبط الذات Self-control فى علم النفس المعاصر ، وحيث يكون التوافق النفسى مع الذات ومع البيئة متمثلة فى المجتمع الإنسانى على مستوى الفرد والجماعة . والأدب مع النفس فى الإسلام موقوف على مدى تأديب الفرد لذاته وتطييبها وتزكيتها وتطهيرها .. والالتزام التام بسوية السلوك .. كما أن شقاءها منوط بفسادها وتدنيها وخبثها .

قال تعالى :

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾

(سورة الشمس آية ٩/ ١٠)

بالنسبة لما تطهر عليه النفس وتزكو ، فإن الإنسان المسلم يؤمن بالعمل الصالح ، وأن ماتتدنى به وتخبث وتفسد هو سيئة الكفر والمعاصى . والإسلام ينادى الفرد المسلم بالالتزام وتأديب النفس وتزكيتها وتطهيرها ، إذ هى أولى من يؤدب ، فيأخذها بالآداب المزكية لها والمطهرة لأدرانها ، كما يجنبها كل مايدنسها ويفسدها من سئ المعتقدات ، وفاسد الأقوال والأفعال ، يجاهدها ليل نهار ، ويحاسبها فى كل ساعة ، ويحملها على فعل الخيرات ، ويدفعها إلى الطاعة دفعاً ، كما يصرفها عن الشر والفساد ويردها عنهما ، ويتبع فى إصلاحها وتأديبها لتطهر وتزكو ، ويتماثل هذا مع مايعرف فى علم النفس المعاصر بمحاسبة النفس .

ووسائل الإسلام فى الأدب مع النفس تتمثل فى :

التــــوبة :

وهى التخلى عن سائر الذنوب والمعاصى ، والندم على كل ذنب سالف ، والعزم على عدم العودة إلى الذنب فى مقبل العمر . قال تعالى :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾

(سورة التحريم آية ٨)

والتوبة فى الإسلام تمثل الكف أى التثبط أو المنع Inhibition فى السلوك الإنسانى حيث يكف الإنسان عن ممارسة عادة سلوكية مرفوضة وغير مقبولة إسلامياً ، وحيث يتم إستبدالها بعادة سلوكية مرغوبة مطلوبة يثاب عليها الإنسان إذا كانت نيته خالصة فى أدائها .

وتعديل الاستجابة لإزالة العوائق أو تعديل الهدف أو تبديله (النية) ، أو التخلى عن الهدف نهائياً بإزالة الحاجة وخفض الدافع والامتثال للأمر الواقع (التوبة) ، وحيث يمثل الكف التام مايثير شهوات الإنسان وقبول الأمر الواقع استجابة لداعى الله وعدم العودة إلى الذنوب ، ويتوافق هذا مع مايعرف فى علم النفس المعاصر بالإعلاء Sublimation كحل للصراع الذى يعانى منه الإنسان.

المراقــــبة :

وهى أن يأخذ المسلم نفسه بمراقبة الله تبارك وتعالى ، ويلزمها (يضبط سلوكها) فى كل لحظة من لحظات الحياة ، حتى يتم لها اليقين ، بأن الله مطلع

عليها ، عالم بأسرارها ، رقيب على أعمالها ، قائم عليها وعلى كل نفس بما كسبت، وبذلك تصبح مستغرقة بملاحظة جلال الله وكماله ، شاعرة بالإنس فى ذكره ، واجدة الراحة فى طاعته ، راغبة فى جواره ، مقبلة عليه معرضة عمن سواه .

ومعرفة الإنسان ... باطلاع الله على العباد وأعمالهم وسرائرهم وكونه رقيباً عليهم – إذا صارت يقيناً (أى خلت من الشك) ، ثم استولت على القلب ، سخرت القلب وأجبرته على مراعاة جانب الرقيب وصرفت المهمة إليه . (١٤٠)

وإذا تم هذا ، فإن معنى هذا إسلام الوجه . قال تعالى :

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾

(سورة النساء آية ١٢٥)

وحكى : أن «زليخا» لما خلت بيوسف عليه السلام ، قامت وغطت وجه صنمها . فقال يوسف . مالك ؟ أتستحين من مراقبة جماد ولا أستحى من مراقبة الملك الجبار ؟

فالمراقبة إذاً هى اليقظة والوعى التام لما يُحفز الإنسان لسلوك معين .

المحاسـبة :

المحاسبة والمراقبة قريبة من التوبة فى ضديتهما من وجه الإصرار على الذنوب . ومثلهما فى كونهما من ثمرات الخوف والحب وتعلقهما بقوتى الشهوة والغضب وكونهما من فضائلها .

والمحاسبة فى معناها الظاهر أن يُعين الفرد فى كل يوم وليلة وقتاً يحاسب فيه نفسه بموازنة طاعاته ومعاصيه ، ليعاتب نفسه ويقهرها إذا وجدها فى هذا اليوم والليلة مقصرة فى طاعة واجبة ، أو مرتكبة لمعصية ويشكر الله – سبحانه – لو أتت بجميع الواجبات ولم يصدر منها معصية ، ويزيد الشكر لو صدر منها شيء من الخيرات والطاعات (التراقى – الجزء الثالث) .

والمحاسبة فى الإسلام تتوافق مع مايُعرف فى علم النفس المعاصر بنقد الذات Self-criticism ، بغية إصلاح الذات وتأديبها وتزكيتها وتطهيرها .

قال تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾

(سورة الحشر آية ١٨)

ومعنى : «ولتنظر نفس» هو أمر بالمحاسبة للنفس على ماقدمت لغدها المنتظر .

المجـــاهدة :

وهو أن على المسلم أن يعلم بأن أعدى أعدائه إليه هو نفسه وذاته ، وأنها بطبعها ميالة إلى الشر ، فرارة من الخير ، أمارة بالسوء . قال تعالى :

﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ﴾

(سورة يوسف آية ٥٣)

والنفس الإنسانية تُحب الدعة والخلود إلى الراحة وترغب فى مجاراة اللهو ، وتنجرف مع الهوى تستهويها الشهوات العاجلة ، وإن كان فيها حتفها وشقاؤها .

فإذا عرف السلم هذا عبأ نفسه لمجاهدة نفسه ، فأعن عليها الحرب وصمم على مكافحة رعونتها ، ومناجزة شهواتها ، فإذا أحبت الراحة أتعبها ، وإذا رغبت فى الشهوة قام بحرمانها ، وإذا قصرت فى طاعة أو خير عاقبها ولامها ، ثم ألزمها بفعل ماقصرت فيه ، وبقضاء ما فوتته أو تركته . يأخذها بهذا التأديب والالتزام والضبط .. حتى تطمئن وتطهر وتطيب . وتلك غاية المجاهدة للنفس .

قال تعالى:

﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾

(سورة العنكبوت آية ٦٩)

وأول صورة من صور الجهاد «جهاد النفس» تربيتها تربية سليمة قويمة بعيداً عن الصغائر والدنايا ، وأخذها بالصبر على المكاره والأذى والاضطهاد والحرمان والإساءة والبهتان . (١٤١)

وجهاد النفس عبادة فى حد ذاته ؛ لأن كل صور العبادات نوع من المجاهدة ، فأنت حين تصوم فإنك تقاوم إغراء الشهوات ، وتكف عن النظر إلى

مغريات الوان الطعام وتبتعد عن فحش القول ، وتدرب نفسك على مجابهة الصعوبات والعقبات ، فتتعلم النفس الصبر على المكاره والتعلم هنا هو إحلال عادة مرغوبة مطلوبة محل عادة مرفوضة مرذولة .

والمجاهدة فى نظر علم النفس المعاصر كما يراها هاكون (١٤٢) Hacon ١٩٧٢ ، والتى تتم بإحلال عادة مرغوبة محل عادة مرفوضة ، تتم كالآتى :

١ – إحساس الإنسان الفرد بالضيق والتبرم والملل وعدم الرضا Dissatisfactionمن جراء إحساسه بأن هناك مايحتاجه أو ينقصه ويريد هذا الشيء ، رغم أنه لايستطيع الحصول عليه .

٢ –اختيار ... وانتقاء ... سلوك... جديد Selection of new behaviourيتماشى مع متطلبات واحتياجات الموضوع المراد تعلمه . وفى هذه المرحلة على الفرد أن يعدل من سلوكه ليقترب من تحقيق ما يصبو إليه من تعلم أو تدريب.

٣ – ممارسة السلوك الجديد Practicing new behaviour وفى هذه المرحلة يدخل الفرد فى مجال إعداد نفسه ، وتحضير ذاته لتقبل الجديد من ممارسة السلوك الذى يصبح بعدئذ عادة جديدة مرغوبة مقبولة .

٤ – إحراز أدلة على النتائج ، حيث يتساءل الفرد هل هو على صواب ؟ وما الدليل على أن أداءه سليم صحيح ؟ وكيف السبيل للوصول إلى صحة نتائجه فيما يعمله أو يتعلمه ؟

لذلك يعمل على ربط الأدلة بالنتائج الجديدة ، ومدى مطابقتها وتماثلها مع بعض . وكلما كان التطابق والتماثل كبيراً بين الأدلة والنتائج ، كان الأداء سليماً ومقبولاً وصحيحاً .

٥– وتُعرف هذه المرحلة باسم التعميم والتكامل والتطبيق Generalization, integration and application وفى هذه المرحلة يجاهد الإنسان الفرد فى تشكيل سلوكه وفقاً للسلوك المرغوب . وهو السلوك المكتسب الذى يتضمن عمومية وتكاملاً وتطبيقاً لما تعلمه أو اكتسبه . وكأن هذه المرحلة بمثابة تثبيت وترسيخ لبناء نفسى جديد ، قام الفرد بتخطيطه الشبكى Network planning المعقد وتكامله المستفيض .

٦ – المرحلة السادسة والأخيرة هى مرحلة مجابهة المشاكل الجديدة Facing new problems ، وحيث يمر الإنسان بالخطوات السابقة نفسها ، عندما يريد أن يتعلم شيئاً جديداً آخر .

وهذا ماتهدف إليه المرحلة السادسة من مصادفة مشاكل جديدة ، يتغلب عليها الإنسان الفرد ويطوعها لنفسه بنفسه .

وهذا جهاد دائم مستمر إلى الأبد للفرد والجماعات .

وليس الجهاد قاصراً على التعلم والتدريب والممارسة لعلم أو معرفة أو عمل ، ولكنه يذهب إلى أبعد من ذلك . فحب الخير .. جهاد ، وقول الحق .. جهاد ، وتطهير النفس من الأدران والأحقاد جهاد ، وكبح جماح شهوات النفس .. جهاد .

والمجاهدة فى الإسلام تقوم على أن المسلم إذ يجاهد نفسه فى ذات الله .. تطيب نفسه وتطهر وتزكو وتطمئن ، وتصبح أهلاً لكرامة الله تعالى ورضاه ، وحيث يعلم أن هذا هو درب الصالحين وسبيل المؤمنين الصادقين ، فيتبع فى سلوكه القدوة بهم ، ويسير مقتفياً آثارهم .

ومن أروع أمثلة الجهاد التى كانت فى قدوة المسلمين فى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذى كان يقوم الليل حتى تتفطر قدماه الشريفتان . وسئل عليه السلام فى ذلك (ثابت فى الصحيح) فقال : أفلا أحب أن أكون عبداً شكورا ؟

ومن أمثلة مجاهدة الخلفاء الراشدين وحرصهم وضبطهم والتزامهم ، ماقام به عمر بن الخطاب رضوان الله عليه ، عندما عاتب نفسه على تفويت صلاة عصر فى جماعة ، وتصدق بأرض من أجل ذلك تقدر قيمتها . بمئتى ألف درهم .

وإذا كانت هذه هى ضوابط السلوك فى الإسلام .. فكيف يؤدى الإيمان دوره فى التوافق النفسى للإنسان ؟

وكيف يقوم الإيمان بالعمل على سكينة النفس والإطمئنان والأمن النفسى ؟

وما أسس توافر الصحة النفسية فى المفهوم الإسلامى ؟

هذا مانجيب عنه فى الفصل الخامس عشر .

تلخيص :

* تتعدد نظرات رجال الفكر والتربية من المهتمين بالبحث عن حقيقة طبيعة الإنسان ومايتنتابه من نوازع الخير والشر . وتتلخص هذه النظرات فى :

١- أن الطبيعة الإنسانية خيرة فى أصل وجودها .

٢- أن الإنسان شرير فى طبيعته الأساسية ، وليس ذلك نتاج الظروف والتربية ، بل إن جذور الشر متأصلة فى طبيعة الإنسان .

٣- أن الناس منهم الأخيار ومنهم الأشرار ، ومنهم من هو متوسط بين الأمرين.

٤- أن فى طبيعة الإنسان جانباً خيراً وآخر شريراً .

٥- أن الطبيعة الإنسانية محايدة فى أصلها الخلقى ، ولديها الاستعداد لأن تكون خيرة أو شريرة حسب التربية وظروف البيئة .

والرأى المعاصر أن التربية يمكنها توجيه طبيعة الإنسان ، رغم كونها لاتستطيع أن تصنع الطبيعة المحايدة طبيعة خيرة ، لأن الطبيعة المحايدة طبيعة طيعة . ومعنى ذلك أنه يمكن توجيه هذه الطبيعة بالوسائل والطرائق التربوية نحو الخير والغايات الخيرة بإستمرار .

* وفى طبيعة الإنسان صراع دائب بين الخير والشر ، والغلبة للجانب الأقوى . وعندما لايلتزم الإنسان بالتقوى والتواصى بالحق والصبر ، فإن الشر ينتصر على الخير ، وحينئذ تزداد الوساوس والمخاوف ويتذبذب سلوك الإنسان وتعمى بصيرته .

* ويُشير جيلفورد إلى وجود تباين بين الأفراد الجماعات من حيث تفسير السلوك الإنسانى ، ومايؤثر فيه من عوامل ومتغيرات كثيرة .

* وفى نوازع الخير والشر والصراع النفسى عند الإنسان ، تتعدد الاتجاهات الخاصة بتفسير الطبيعة الإنسانية خيرة كانت أم شريرة .

* والذكر الحكيم يشير إلى أن النفس سوية أساساً وأنه فيها الفجور والتقوى . وهدى الله لعباده يتمثل فى راحة النفس وتكاملها ، وفى سوية السلوك وعدم وجود الاضطراب النفسى مع الذات ومع الآخرين .

* الصراع النفسى وافتقاد الأمن النفسى فى نظر الإسلام مرجعه أسباب عديدة منها أمراض القلب والصراع بين قوى الخير وقوى الشر والغواية والضلال وغير ذلك من أسباب ، حيث إن الإسلام أبان سبل الهداية وكيف يبتعد الإنسان عن طريق الغواية .

* الصراع فى حياة الإنسان ضرورة أصيلة لاتستقيم دونها الحياة . والشر واقع فى الأرض كحقيقة ، والخير يصارع الشر وهو قائم ثابت وجوده ، فضلاً عن غلبة الخير على الشر إياً كان . والله سبحانه وتعالى زود الإنسان بالقدرة على الصراع .

* والصراع من وجهة نظر الإسلام ضرورة لازمة لدرء الفساد فى الأرض، ولإيجاد التوازن فى الحياة البشرية .

* والإسلام يوزان عنصر الصراع داخل النفس عن طريق الحب (الانتماء) ، وعن طريق الكيان النفسى والطاقات البشرية ، وحيث يتم ذلك عند الحد من الشهوات الجامحة بحيث لايكبتها أو يدينها (يستقذرها) ، وإنما يحدد لها فقط سبيلها وطريقها الآمن . وفى العبادات التى فرضها الله تعالى تدريب للنفس على الجهاد والنهى عن الهوى ، إضافة إلى جوانب أخرى من الجهاد الذى تدعو إليه الشريعة السمحاء .

* وفطرة الإنسان تتركز على حقيقة بناء النفس البشرية من جسم وروح مترابطان ، وحيث يحكم الجسد هذا المزاج المجتمع المترابط ، فإنه لايلغى وجود الروح ، ولكنه يطمس عليها ويكبت إشعاعاتها التى تضفى السمو والرفعة على الكيان الجسدى وبذلك فإن هذا الترابط وهذا المزاج قد يكون محكوماً بالجسد تارة ، وتارة يكون محكوماً بالروح ، أى أنه يكون شريراً تارة وخيراً تارة .

* وليست بالضرورة أن تكون نوازع الجسد هى التى تُحدث الاختلال ، فقد تكون شهوة الجاه والسلطان شهوة نفسية لا صلة لها بالجسد ، وبذلك يحدث الطغيان ، الذى هو من إرادة النوازع المرتبطة بالكيان الحيوانى ، وليست إرادة النوازع المرتبطة بكيان الروح .

* وحين تحكم الروح الكيان المتجمع المترابط فإن ذلك يُحدث الوضع الطبيعى للإنسان والذى يحقق كمال نشأته ، بل إنه لايكبت الجسد ولا النشاط الجسدى ، بل ينظم منطلقات هذا النشاط وينظفها ويضبطها .

* والروح هى التى توقظ الإنسان للهدف من كل عمل يعمله ، لأنها هى التى توقظ الوعى والإدراك .

* والإنسان – بطبيعته المزودجة – قابلاً قبولاً طبيعياً أن تسيطر على الكيان الممتزج نوازع الجسد أو طغيان الجاه والسلطان ، أو سيطرة الروح .

* وليس الجسد ولا الاستجابة لدوافعه هما منبع الشر فى حياة الإنسان ، وإنما الشر ينشأ من تولى الجسم قيادة الكيان للمجتمع المترابط ، الذى ينبغى أن تتولى قيادته الروح ، بحكم النشأة الطبيعية التى جعلت الإنسان إنساناً ورفعته عن الحيوان .

* وفيما يتعلق بضبط الإنسان للشطط الذى يحدث فى سلوكه فى نزوعه إلي الشر بديلاً عن الخير ، فإنه فى كيان الإنسان قوة ضابطة تمنع الشطط ، وهى تعرف بالفطرة السوية التى تسمو بسلوك الإنسان ، وترفع من طاقاته الحيوية عن مجرد الاستجابة المباشرة للدوافع الغريزية .

* والضبط فى الإسلام لايُمثل الكبت ، بل إنه عملية عقلية إرادية واعية ، يُقوم بها الإنسان العاقل المسئول بما يملكه من اختيار وعقل .

* وهناك ضوابط للسلوك الإنسانى هى آداب النية والآداب مع النفس ، وهى التوبة والمراقبة والمحاسبة والمجاهدة .

* فالنية فى الإسلام أساس من أسس ضبط السلوك ، وهى ركن باعتبار أنها البداية وشرط باعتبار الاستمرار ، وهى تمثل الباعث أو الحافز فى العمل .

* والآدب مع النفس يمثل ضبط الذات ، وحيث يحدث التوافق النفسى مع الذات ومع الآخرين .

* والتوبة هى التخلى والإقلاع عن ارتكاب الذنوب والمعاصى ، وهى تمثل الكف أو المنع فى السلوك الإنسانى عن ممارسة عادة سلوكية مرفوضة . واستبدالها بعادة سلوكية مرغوبة مطلوبة .

* والمراقبة هى اليقين بإطلاع الله على العباد وأعمالهم وسرائرهم ، وحيث تصبح المراقبة تستولى على القلب وتسخره وتجبره على مراعاة الرقيب الأعلى .

* والمحاسبة والمراقبة قريبة من التوبة ، وهى تمثل نقد الذات بغية إصلاح الذات وتأديبها وتزكيتها وتطهيرها .

* والمجاهدة هى مكافحة رعونة النفس ومناجزة شهواتها ، وهى تعمل على تضاد رغبات النفس ، فإذا أحبت الراحة أتعبتها ، وإذا رغبت فى الشهوة قامت بحرمانها ، وإذا قصرت فى طاعة أو خير عاقبتها ولامتها .

والمجاهدة فى علم النفس المعاصر إحلال عادة مرغوبة محل عادة مرفوضة ، والمجاهدة فى الإسلام تقوم على جهاد النفس فى ذات الله ، وبذلك تطيب النفس وتطهر وتزكو وتطمئن ، وبذلك يقتفى الإنسان درب الصالحين وسبيل المؤمنين الصادقين .

تعقيب :

* ينظم الإسلام السلوك الإنسانى الفردى والجماعى ، عن طريق تعاليم الشريعة السمحة الحنيفة وما احتوت عليه من عبادات وأخلاق ومعاملات وعقائد .

* والإسلام يوازن بين حاجات الجسد والروح ، وحيث ينظم بإشباعاته ومناسك وعبادات الروح ، وأيضاً مايتعلق بإشباعات الجسد وحاجاته ، فلا كف للجسم أو كبح جماح وظائفه أو تعطيلها بغية تسامى الروح ، والزهد فى طيبات الحياة الدنيا ، أو إهمال الروح وكبتها وإطلاق العنان لرغبات الجسد وشهواته ، مصداقاً لقول الحق :

﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾

(سورة القصص آية ٧٧)

* والصراع فى حياة الإنسان كما هو فى حياة غيره من الكائنات ، يُعد ضرورة من ضرورات الحياة ، حيث تتباين رغبات الإنسان سواء كانت من قبل الجسد أو الروح – كما ذكرنا آنفاً – إضافة إلى رغبات العقل .

والشر وجُد على سطح البسيطة منذ بدأ الصراع بين ولدى آدم قابيل وهابيل، والخير وجد أيضاً ليصارع الشر ، فضلاً عن غلبة جانب الخير فى نهاية المطاف .

* والشر موجود فى كل نفس ، وبعض النفوس أميل إلى الشر وأقدر عليه ، ولاتستقر نفوسهم إلا عندما ينطرح مافى نفوسهم من شر على الآخرين ، وعندئذ تهدأ نفوسهم .

والحق تبارك وتعالى يقول :

﴿ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ ﴾

(سورة البقرة آية ٢٥١)

أى لغلب الشر وأصبح هو السائد على الأرض ، ومن ثم عم الفساد الأرض وهلك ماعليها من حرث ونسل .

* ومن حيث يكون الصراع ضرورة للبشر ، فإن خالق البشر زودهم بالقدرة على الصراع ، زودهم بها فى أجسامهم وعقولهم وأرواحهم وكيانهم كله ، بل زودهم بالقدرة على التوفيق بين شهوات الجسد ونشاط العقل وسمو الروح ، وحيث لايحدث التوفيق بين هذه جميعاً إلا بالتدافع بين هذه القوى بعضها ببعض وإلا فسدت الأنفس .

* ومن حيث إن الصراع ضرورة ، فإن الإسلام لايعتبر الصراع هدفاً فى ذاته ، ولايقر الإسلام أن الصراع بذاته هو سبب القلق والاضطراب والاختلال فى حياة الإنسان ، بل إنه يرى فى الصراع وسيلة للتوفيق بين المتناقضات ، ووسيلة لدفع الكائن البشرى عن عالم الضرورة ، وعن وهدة الشر ، إلى حيث يستطيع أن يصبح سوياً متوازناً فى عالم الخير والنور . (١٤٣)

* والإنسان وهو على فطرته الحقة – مزاج مترابط من الجسد والروح – والروح هى التى تضبط وتوجه المعرفة والإدراك والإرادة فلا يكون إلا الخير . بينما عندما يسيطر الجسد تحجب المعرفة والإدراك والاختيار ولايكون إلا الشر .

فالشر أساسه خضوع الكيان المتجمع المترابط لسيطرة الجسد بكل شهواته، ومن ثم يكون الاختلال فى ميزان الإنسان .

والإنسان الذى لايستفيد بطاقات روحه يُخالف فطرته السوية ... فطرة الخير ... فإن الإنسان لحب الخير لشديد ... وبذلك ينحرف ، ويصبح الشر متمثلاً فى سلوكه .

* وضوابط السلوك فى الإنسان هى التى تمنع الشطط والانحراف . ويرى الأستاذ محمد قطب أنها الفطرة السوية التى فطر الناس عليها ، فهى التى توجه الطاقة الحيوية عند الإنسان إلى مستويات أعلى من مجرد الاستجابة لشهوات الجسد ورغباته .

ويعترض الدكتور محمد رشاد خليل على التفسير الذى أشار إليه الأستاذ محمد قطب للضوابط ، وفق ماورد ذكرها فى كتابه «دراسات فى النفس الإنسانية»(١٤٤) أجهزة بيولوجية تنشأ عنها أجهزة سيكولوجية . وكونها بيولوجية فهى من صميم الفطرة ؛ فالكيان البيولوجي للإنسان فطرى يولد معه، ويورث عن طريق البويضة الملقحة ولايكتسب من عمل الظروف الخارجية .

كما أضاف الأستاذ محمد قطب أن من خصائص الإنسان التغلب على شدة الغريزة ، وهذه خاصية فطرية من صميم كيانه وليست مفروضة عليه من خارج نفسه .

كما يُشير الأستاذ محمد قطب أيضاً أن عملية الضبط تعمل لاشعورياً فى سنوات الطفولة الأولى ، ثم تعمل شعورياً بعد ذلك ؛ أى إنها تتبع خط النمو نفسه ، الذى تتبعه جميع العمليات النفسية الأخرى وجميع القدرات .

وهكذا يؤكد الأستاذ محمد قطب أن الضوابط فطرية فى كيان الإنسان . ويشير الدكتور محمد رشاد خليل فى كتابه «علم النفس الإسلامى العام والتربوى»(١٤٥) معترضاً على هذا الرأى بأن أجهزة الضبط عقلية لابيولوجية . وأشار – حسب قوله – إلى أن وجه الخطأ فى كلام الأستاذ محمد قطب أنه خلط بين مفهوم بيولوجى فى الاصطلاح الغربى ، ومفهوم الفطرة فى الإسلام . فمفهوم بيولوجى – على حد قول الدكتور محمد رشاد خليل – يعنى بالنسبة للإنسان الحيوانى والجسدى ، بينما مفهوم الفطرة فى الإسلام يشمل الجسم والروح . والفطر يكون فى النفس المخلوقة من الاثنين معاً ولايكون فى إحداهما . ويضيف الدكتور محمد خليل : وقد جعل الأستاذ محمد قطب «الضوابط» فى الجانب البيولوجى ، الذى يولد ويورث عن طريق البويضة الملقحة .

وفى رأيه أن هذا قول بلا دليل ، كما أنه – فى رأى الدكتور محمد خليل – أن هذا يصادم النصوص الصريحة فى خلق الإنسان من جسد وروح ، وهو بالتأكيد أى الأستاذ قطب لاينكر ذلك ؛ لأنه يقول بأن الإنسان جسد وروح ، ولكنه أخطأ حين نسب الضوابط إلى الجسد وحده ، مع أن الأحاديث صريحة فى أن فطرة الإنسان تتحدد بعد نفخ الروح فى الجسد ، وليس قبل ذلك .

وفى رأينا أنه ليس هناك مبرر لاعتراض الدكتور محمد رشاد خليل حول ما أشار إليه الأستاذ محمد قطب . فمعنى بيولوجى القصد به من الناحية العلمية حيوى ، والجانب الحيوى فى البناء الجسمى هو الذى يحرك جميع أجهزة الجسم ، العقلية والعصبية والحشوية وغيرها من ناحية القيام بوظائفها .

والقصد بالكيان البيولوجى للإنسان فطرى يولد معه ، يقصد بذلك الأستاذ محمد قطب أن الفطرى بمعنى أنه ولادى أى وراثى ، حيث يفسره على أنه يتم عن طريق البويضة الملقحة ، وفى رأيه أنه لايكتسب من عمل الظروف الخارجية ؛

أى حال تكونه فى الرحم عندما يأذن الله للبويضة الموجودة فى مبيض الأنثى أن يتم تلقيحها من حيوان منوى ، وعندئذ تتكون البذرة ثم النطفة ثم العلقة ثم المضغة ، ثم تكسى المضغة عظاماً ثم تكسى العظام لحماً حسبما ورد فى الذكر الحكيم .

ومن المعروف أن الله تعالى ينفخ فى المضغة (جسد الجنين) بعد أربعة شهور من التلقيح . وبذلك عند الميلاد يكون مافطر عليه الوليد من جسد وروح من صنع الله الذى أتقن كل شىء . ولايغير هذا بين هذا التكوين للوليد من بناء حيوى وكونه أيضاً فطرى (ولادياً / وراثياً) .

وقد ذكر الأستاذ محمد قطب أن الضوابط فى السنوات الأولى من النمو أى فى مرحلة الطفولة المبكرة تعمل لاشعورياً . والقصد لاشعورياً هنا مرجعه أن النمو العقلى ونمو الضمير الذى يحكم السلوك لايصل إلى المستوى ، الذى يمكن الصغير من معرفة الحق من الباطل أو الصواب من الخطأ أو الخير من الشر أو الطيب من الخبيث أو الحلال من الحرام . فالطفل يولد على الفطرة وأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ، أى أن الوسط الاجتماعى والتنشئة الاجتماعية هو الذى ينمى مافطر عليه الصغير من خصائص نفسية وعقلية ووجدانية ، وغير ذلك من جوانب تعد مسئولة عن السلوك فى مظاهره المتعددة .

بل إنه فى رأينا ليس العقل أو الجانب الانفعالى مسئولاً ، بقدر ماهى الهداية والرعاية من فضل الله تعالى والإيمان الصادق ، الذى يحكم جوانب النفس .

وعندما يصل الطفل إلى مرحلة المراهقة ، سواء تتمايز قدراته وطاقاته العقلية ويتوقف نمو الذكاء أو مايعرف بقدرة القدرات العقلية عند عمر ١٦ سنة للعاديين و١٩ سنة للمتفوقين وأقل من ١٣ سنة عند ضعاف العقول أو ينمو. ولايعنينا هذا فى قليل أو كثير قدر مايعنينا أن الضمير الذى يحكم السلوك والمستوى العقلى الذى يحدد التفكير والإدراك ، وبقية الأنشطة العقلية فيما يمر بالإنسان من مواقف الحياة المختلفة .. هذا الضمير وهذا المستوى العقلى هما اللذان يحكمان ويضبطان السلوك الإنسانى ؛ خاصة عندما يصل الإنسان إلى مرحلة الرشد .

وقد أشار الأستاذ محمد قطب أن الضوابط بعد مرحلة الطفولة تعمل شعورياً، وحيث تتبع خط النمو الذى تتبعه العمليات النفسية الأخرى . وهذا الرأى لااختلاف فيه بين ماقمنا بإيضاحه .

كما أن الدكتور محمد رشاد خليل كونه يصف الضوابط بأنها عقلية ، إنما يصفها وهى فى مرحلة الرشد ، وحيث يكون الإنسان قادراً على التروى والتفكير والاختيار بين طرائق عدداً فيما يفكر فيه . بل إن الاتزان الانفعالى عند الفرد أنئذ يزيد من طاقات الفرد فى الضبط والتمييز بين الخير والشر فيما يقدم عليه من أفعال أو أعمال ، إضافة إلى دور الضمير أو مايعرف بالرقيب .

هذا على أنه يتعين علينا أن نذكر أن جانب التنشئة الاجتماعية فى مدارج العمر فى الطفولة وحتى الوصول إلى مرحلة الرشد ، هى المسئولة عن تنمية الجانب الدينى والخلقى وتشكيل الضمير الحى وتنمية العقل والمعارف وضبط الانفعالات ، حتى يميز الفرد بعد ذلك بين الخبيث والطيب ، ويعرف الحق من الباطل ، خاصة إذا كانت تنشئته تتبع قواعد الشريعة السمحاء . وعندئذ تكون الضوابط الفطرية يمكن تنميتها واكتسابها أيضاً من التربية والتنشئة الصالحة ، وهذا أمر لا أظن أن هناك خلافاً حوله .

* من القضايا الأخرى التى يمكن أن تناقش فى هذا الصدد ، هى .. هل هناك عمر زمنى معين ينضبط فيه السلوك الإنسانى ؟ أى يصبح الإنسان أكثر قدرة على التحكم فى سلوكه ؟

الواقع أنه من وجهة نظرى ، ليس هناك عمر زمنى معين يمكن للإنسان أن يتحكم فى جوارحه ويضبط سلوكه مع ذاته ومع الآخرين ، رغم أنه من المعروف أن الوصول إلى سن الرشد ، ومايليه من مراحل عمرية ، يتبعه تحمل المسئولية وتكاليف الحياة والنضج العقلى والاتزان الانفعالى . فإذا تخلف النضج بالفرد فى أى ناحية من النواحى الجسمية أو العقلية المعرفية أو الانفعالية العاطفية أو الاجتماعية ، فإن الفرد يجد صعوبة فى تكيفه لمطالب الحياة، ويصبح الفرد حساساً قلقاً عدوانياً ثائراً ، مندفعاً فى أغلب مظاهر سلوكه ، وبهذا يغلب طابع الشر فى سلوكه بصفة عامة .

والهداية من الله تعالى ، فقد يستقيم الصبى أو المراهق قبل وصوله إلى سن الرشد مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾

(سورة القصص آية ٥٦)

وقد يتأخر الضبط حتى يصل الفرد إلى سن الشيخوخة فكم من شيخ ضال ، ضاقت به سبل الهداية ، وقد تفوته فسحة الزمان بالتوبة الصادقة . وكم من صبى هدى الله قلبه ، وتراه فى اتزانه وضبط سلوكه وكأنه حكيم زمانه .

* وللإسلام ضوابطه وأحكامه فى التأدب مع الذات وضبط السلوك . وأولى هذه الضوابط البداية بالنية ، والتى تمثل الباعث أو الحافز فى العمل الخاص بضبط السلوك والالتزام بالأحكام والآداب والقواعد .

وتأتى بعد ذلك أركان أخرى تتمثل فى : التوبة .. المراقبة .. المحاسبة .. المجاهدة .

هذا ونرى أن المحاسبة تأتى كخطوة تالية للنية ؛ حيث إنها تمثل نقد الذات بغية إصلاح الإعوجاج عند الخروج عن طريق الاستقامة .

أو تكون المحاسبة فى صورة وزن وتقدير السلوك لتحديد مدى سويته أو انحرافه عن السلوك الأمثل . وفقاً لقول عمر بن الخطاب رضى الله عنه :

«حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا»

والخطوة التالية لذلك المجاهدة ، وأرى أن المجاهدة يمكن أن تتم بإحدى الصور التالية :

١ – المجاهدة فى سبيل الالتزام والضبط للسلوك المعدل ، الذى يتم اختياره بعد عملية المحاسبة ، وعدم التفريط بأى صورة من الصور فى الخروج عن هذا الالتزام ، حيث يتم كف السلوك اللاسوى بالإقلاع التام عن أدائه .

٢ – المجاهدة فى التمسك بالمبادئ والقيم والتعاليم الدينية والخلقية التى تنادى بها الشريعة السمحاء ، والتقاليد الاجتماعية السليمة التى يقرها المجتمع ولاتخرج عن تعاليم الدين ، وتعتبر من القواعد السلوكية التى يقبلها ويرتضيها المجتمع. وهذه المجاهدة ليست بالأمر اليسير ؛ إذ إنها تستلزم تماسك البناء الشخصى للإنسان ، وعدم الجنوح تحت أى ظروف أو مغريات .

٣ – الخطوة التالية لذلك هى المراقبة الذاتية والتى تتماشى مع المحاسبة ، والمراقبة من أعمال الضمير الحى أو مايعرف بالرقيب ، وحيث تكون أسمى مراتب المراقبة تمثل الصلة الدائمة بين الإنسان وخالقه ، واضعاً نصب عينيه أن الله تعالى **«يعلم خائنة الأعين وماتخفى الصدور»** .

٤- الخطوة الأخيرة فى أركان الآداب مع النفس فى الإسلام هى التوبة ، والتى تمثل الإقلاع عن ارتكاب المعاصى والذنوب ، وتعديل السلوك اللاسوى إلى سلوك سوى ، يتمثل فى الاستقامة والاستجابة لتعاليم الدين .

ولاتكون هناك توبة عند النكوص والارتداد إلى القيام بالأفعال أو الأعمال التى تم إعلاؤها وصرف طاقاتها النفسية والجسمية فى أعمال طيبة صالحة ، وحيث تمثل التوبة أرفع مستوى فى الالتزام بضبط الذات وعدم انحرافها البتة . هذا مع التأكيد بأن التوبة تستلزم أيضاً استمرار المجاهدة والمحاسبة والمراقبة ؛ حتى تكون توبة نصوحا مصداقاً لقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا ﴾

(سورة التحريم آية ٨)

تمـــــارين :

١- عدد آراء ونظريات رجال الفكر والتربية عن طبيعة الإنسان .

٢- وضح الرأى المعاصر فى توجيه طبيعة الإنسان .

٣- ما أسباب الصراع النفسى وافتقاد الأُمن النفسى فى نظر الإسلام ؟

٤- ترتكز حقيقة بناء النفس البشرية على الجانب الجسمى والروح . اشرح.

٥- كيف تحكم الروح الكيان المتجمع فى بناء النفس البشرية ؟

٦- الفطرة السوية فى نظر الإسلام هى التى تضبط سلوك الإنسان عند نزوعه إلى الشر . وضح .

٧- تُمثل النية فى الإسلام أساساً من أسس ضبط السلوك . وضح .

٨- يُمثل الأدب مع النفس ضبط الذات فى التفسير الإسلامى للسلوك الإنسانى . وضح .

٩- عدد جوانب الأدب مع النفس فى الإسلام .

١٠- وضح مفهوم كل من المجاهدة فى الإسلام وفى علم النفس المعاصر .

الفصل الخامس عشر

الإيمان ودوره في التوافق النفسي

المحتوى :

* تمهيد
* الإسلام عقيدة تنظيم السلوك الإنساني .
* العبادات الإسلامية .. والأركان التعبدية والعملية ودورها في السلوك .
* الإيمان وسمات التوافق النفسي .
* الإيمان سبيل الطمأنينة والأمن النفسي .
* الإيمان وعلاج الاضطرابات النفسية .
* تلخيص .
* تعقيب .
* تمارين .

الإيمان ودوره في التوافق النفسي

تمهيد :

من خلال الفصول السابقة ندرك أن الإنسان يسعى إلى الاستمرار والمحافظة على التوافق النفسى ؛ إذ إن ذلك من مقومات الصحة النفسية ، وحيث تكون نزعات ورغبات وميول الإنسان الفرد فى توافق ، وليس بينها تعارض أو تضاد أو تصارع .

والإسلام عن طريق قيمه وتعاليمه ومبادئه ، ونظرته إلى الحياة الفردية والجماعية فى مجتمع يشعر فيه الإنسان بالأمن والأمان والاطمئنان على نفسه وعرضه وماله ، مجتمع متماسك البنيان ... من شأنه أن يحقق للفرد المسلم ولأبناء المجتمع الإسلامى التوافق النفسى .

والإيمان من شأنه يدعو إلى الاطمئنان وسكينة النفس . وسمات الإيمان الخضوع لله والالتزام والخشوع الذى يدعو الإنسان المسلم إلى تجنب الشر وتذكر وعد الله وعهده . وحتى يتم ذلك ، هناك مايعرف بشروط توافر التوافق النفسى والتمتع بالصحة النفسية فى المفهوم الإسلامى .

ولعلنا نعرض فى هذا الفصل ماأشرنا إليه فى الصدد الموضح فيما سبق .

الإسلام .. عقيدة تنظيم السلوك الإنساني :

الدين الإسلامى دين الفطرة الأصيلة لتنظيم السلوك الإنسانى ، فهو يحكم سلوك الأمم والأفراد ، طبقاً لما شرعه الله عز وجل من عبادات وأخلاق ومعاملات وعقائد . (١٤٦)

ودين الإسلام دين متوازن بين الروح والجسد . للروح نصيب من إشباعات ومناسك هذا الدين ، وللجسد نصيبه – بالمثل – من هذه الإشباعات . وليس دين الإسلام الحنيف الميسر كالديانات الأخرى أو العقائد المتغايرة ، كما هو الحال فى الديانة الهندوكية والديانة البوذية والفلسفة المادية فى أوروبا .

ففى المجال الخاص بالديانات الهندوكية والبوذية ووفق تعاليمها ، كان كف الجسم وتعطيله وكبح جماح معظم وظائفه بقصد التسامى بالروح ، فكانت النتيجة: الهذال والمرض والانفصام عن طيبات الحياة الدنيا .

على النقيض فى مجال المادية الأوروبية والأمريكية ، كان إهمال الروح إهمال الروح إهمالاً متعمداً لاتجاه الأفراد نحو زيادة الإنتاج المادى الوفير فتحقق لهذه الفلسفة ماأرادات فكبتت الروح صداً ومنعاً ، فوصل أفراد هذه المجتمعات فى سلوكهم نحو الهبوط والتروى فى مهاوى المتع الجسدية والجنسية التى لاقرار لها ، فأصبحوا كالعجماوات فى علاقاتهم بعضهم بعضاً ، ويتجلى ذلك فى تكالبهم على المادة والحياة ، فضلاً عن إستبعادهم للآخرين وإستغلالهم لهم . وهنا أفل نجم الأخلاقيات والروحانيات عندهم ، وانطفأت جذوة حمية الرجال ، وتلاشت إنسانية الإنسان . (١٤٧)

هذا رغم أن الأديان السماوية كلها تدعو الإنسان إلى التوحيد الذى بعث به الله تعالى جميع الرسل إلى قومهم :

﴿ واعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ﴾

(سورة المائدة آية ٧٢)

﴿ وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ﴾

(سورة العنكبوت آية ١٦)

وهو توحيد العبادة والألوهية بمعنى أنه لايستحق أن ينفرد بالعبادة إلا الله الخالق المنفرد بالألوهية ، وفى هذا مايحكم سلوك الفرد عن طريق مايتقرب به من الخالق سبحانه وتعالى من عبادات ومعتقدات وأخلاق ومعاملات ، تسمو بسلوكه وتشعره بالأمن والطمأنينة ، فإن فى تقربه إلى الله مايدخل السكينة إلى نفسه مصداقاً لقول الحق تبارك وتعالى فى حديثه القدسى :

«من تقرب منى شبراً تقربت إليه ذراعاً ، ومن تقرب منى ذراعاً تقربت منه باعاً ، ومن آتانى يمشى آتيته هرولة»

وقد يدعونا هذا إلى أن نوضح الأدوار التعبدية والعملية فى أداء العبادات الإسلامية ودورها فى السلوك الإنسانى المتوافق .

العبادات الإسلامية .. التعبدية .. العملية وورها فى السلوك:

من المزايا البارزة فى العبادات الإسلامية أنها تمزج بين الدنيا والآخرة وتصل بين الأرض والسماء . (١٤٨)

وليس بينها عبادة خالصة منقطعة الصلة عن عالم الأرض . وإنما كلها تشتمل على جانب تعبدى موجه للسماء مقصود به الآخرة ، وتشتمل فى الوقت ذاته على جانب عملى ، موجه لواقع الأرض ، مقصود به الحياة الدنيا ، وتنظيمها وإقامتها على أسس مكينة من العدالة والصلاح والاستقرار . والمزية العظمى – كما ذكرنا (قطب) – هى مزج هذه وتلك بحيث يصبح الشيء الواحد عملاً وعبادة في الوقت ذاته ، وتصبح الدنيا والآخرة متصلتين متحدتين فى الفكر والضمير ، ويصبح الكائن البشرى يمشى بجسمه على الأرض وروحه متطلعة إلى السماء .

وكل العبادات الإسلامية ينطبق عليها هذا الوصف ، حتى التى تبدو لأول وهلة أنها مجرد صلة بين العبد والرب ، أو عمل يعمل فى الدنيا لغير شيء إلا رجاء الثواب فى الآخرة .. حتى هذه لاتغفل الحياة الدنيا ، ولاتنفصل نتائجها العملية عن عالم الناس .

والإيمان عبارة عن التصديق ، والتصديق بالقلب هو التسليم . كما أن الاعتراف يكون باللسان والطاعة والانقياد بالجوارح . لذلك فالإسلام أعم والإيمان أخص .

والإيمان فى سلوك الإنسان يمثل التصديق والتصميم ، ويؤثر فيه عمل وسلوك الإنسان بالنماء والازدهار . قال تعالى :

﴿ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ ﴾

(سورة الفتح آية ٤)

والإسلام يحتوى الإيمان ، ولكن إذا كان الإيمان عملاً من الأعمال وهو أفضلها ، فإن الإسلام هو تسليم إما بالقلب أو باللسان أو بالجوارح . وأفضلها ما كان بالقلب وهو التصديق الذى يسمى إيماناً .

وفيما يلى خصائص العبادات من الناحية التعبدية والعملية (السلوكية) .

١- شهادة أن لاإله إلا الله وأن محمداً رسول الله :

الشق الأول من الشهادة يبدو من أبرز الأمثلة على العبادات الخالصة التى تنشئ صلة مجردة بين العبد والرب . فهى الإقرار لله بالألوهية المطلقة ، والإقرار بالعبودية الكاملة لله .

ومعنى ذلك أن الله تعالى هو وحده القوة المدبرة لهذا الكون كله ، وأنه لاتدبير لبشر فى صغيرة ولا كبيرة إلا أن يشاء الله . ومن ثم تتجه القلوب كلها إلى الله ، ولاتطلب العون من أحد سواه .

ومعناه أيضاً أن قوى الأرض كلها ينبغى أن تتجه فى أعمالها وأقوالها إلى الله ، تهتدى بهديه وتسترشد بنوره .

والشق الآخر من هذه العبادة واضح الدلالة ؛ فالرسول صلى الله عليه وسلم هو الترجمة العملية الكاملة الواضحة للفكرة الإسلامية كما وضعها الله ، ومن ثم فهو القدوة التى يقتدى بها والمثل الذى ينظر إليه .

وهو المثال الذى ينبغى أن يُحتذى (القدوة الحسنة) بقدر ماتطيق قدرة البشر، وبقدر مايستطيع كل إنسان أن يستوعب من جوانب نفسه العميقة الشاملة الصافية .

وذلك هو المقياس الذى يقيس كل إنسان حياته عليه ، ليعرف إلى أى مدى هو مخطئ ، وإلى أى مدى هو على صواب .

وهذه العبارة الخالصة تدعو النفس الإنسانية إلى الخضوع لله ، والسعى إلى ضمان طاعته ، وتلوذ من الشرور والآثام نحو عفوه وتوبته فتكتسب الهدوء النفسى والرضا والطمأنينة والسكينة ، وفى هذا مايحفز على العمل الدائب والسلوك المتوافق.

بل إن التمسك بخطى الرسول عليه الصلاة والسلام يجعل الفرد أكثر التزاماً وتمسكاً بالإيمان الصادق .

٢- إقامة الصلاة :

وهى من العبادات التى تمثل عنوان التنظيم الإسلامى الذى يشمل الكيان البشرى كله فى آن واحد : جسمه وعقله وروحه ، تعطى كل منها نصيبه ، وتوازن بين شتى الاتجاهات .

ونصيب الجسد فى الصلاة هو الحركة التى يقوم بها الفرد المسلم من قيام وركوع وسجود وتحرك وسكون .

ونصيب العقل هو التفكير فيما يتلوه المصلى من الأدعية والآيات . والرسول صلى الله عليه وسلم يقول :

(ليس لك من صلاتك إلا ماوعيت)

ونصيب الروح هو الخشوع والتقوى والتطلع إلى الله والاتصال بنوره . وهى ليست حركة جسم فقط ، أو عقل فقط ، أو روح فقط . وإنما هى الجسم والعقل والروح فى كيان واحد متكامل ممتزج الأجزاء .

وتتسم هذه العبادة بالنظرة الشمولية الواعية ، إذا كان الفرد يقوم بها فى خلوته والتضرع والدعاء بقلب جياش ، ونفس تتوق لنور الإيمان وحلاوته إذا كان الفرد فى جماعة . فالصلاة كعبادة تشمل الكيان البشرى كله فى وقت واحد ، تشمله وتحتويه وجدانياً وإدراكياً ونزوعياً .

وجدانياً .. لأننا نصلى للوصول إلى حالة من الروحانية بأرواحنا وأنفسنا .

إدراكياً .. لأننا نصلى ولابد أن نعى وندرك مانقوله ومانردده فى صلواتنا .

نزوعياً .. لأننا نتحرك فى ركوعنا وسجودنا وننزع نحو القيام والسكون .(١٤٩)

٣- إيتاء الزكاة :

كونها عبادة يتقرب بها الإنسان إلى الله ، ثم يجعلها فريضة ثقيلة على النفس عند أدائها ، يتهرب منها دافعها ، بل جعلها أمراً يسابق الناس إلى أدائه ليرضى الله عنهم ، ويمنحهم البركة فى أموالهم وأحوالهم ، بل إن الضمير يصبح ذا حساسية تجاهها ، بحيث يشعر المؤمن بالحرج والضيق بل ومشاعر الإثم ، تجاه ذاته إذا طعم طعاماً أو أنفق على نفسه وأهله مالاً مالم يدفع زكاته .

وبذلك تعتبر الزكاة أعدل نظام للتكامل الاجتماعى ولمنفعة الضعفاء والمحتاجين والعاجزين ، وحيث يتم التنظيم والتعامل الاجتماعى بين الناس فى تعاملهم الدينوى ، والشعور الوجدانى ومايتبعه من رضا بما يأمر به الناس كافة .

ومن الناحية النفسية نجد أن الزكاة عبادة لها خاصية فريدة ، فهى ضريبة منظمة تنظيماً جبرياً فى صورة الزكاة أو تطوعياً فى صورة الصدقة ، وهى بذلك

حسبما أشرنا من قبل هدفها كفالة المحتاجين والبؤساء والضعفاء والعاجزين مع كفالة المجتمع .

وهى بذلك تقرب من النفوس وتقرب من المسافات الاجتماعية بين الأفراد Social distance ، وهى أيضاً تقرب من شريعة الله وليس من شريعة الإنسان، وفى هذا تكافل ورضاء وانسجام وتوافق بين أفراد المجتمع .

٤- الصـــوم :

فريضة تعبدية خالصة فى ظاهرها ، فهى حرمان النفس من الشهوات ، وحرمان الجسد من الغذاء والشراب ابتغاء مرضاة الله .

وهى لم تفرض لصالح الفرد فى الحياة الآخرة وحدها ، وإنما فرضت لصلاح أمره فى الحياة الدنيا كذلك .

فالصوم فى حقيقته عملية تجنيد .

فكما تحتاج الأمم كلها لتجنيد أبنائها وتدريبهم على احتمال الجهد والمشقة توقعاً للاحتياج إليهم يوم الصراع . فكذلك فرض الإسلام هذا التجنيد ، ولكن على نطاق أوسع ، يشمل الروح والجسد فى وقت واحد ، ويشمل الصغار والكبار والرجال والنساء ، لأنه تدريب لهم على الصراع الأكبر ، الصراع الدائم ، صراع الحياة ، التى يمارسها الجميع وتقع تبعاتها على الجميع . وأبسط أنواع هذا الصرع أن الحياة لاتعطى أحداً كل أمنياته مهما بدا مستمتعاً بطيبات الحياة . فالنفس البشرية خلقت هكذا واسعة المطامع والأحلام ، لاتقنع بما تجد ، وتسعى دائماً إلى جديد ، ليكون هذا حافزاً من حوافز النشاط فى الحياة الدنيا وباعثاً على التعمير والنماء .

ومن الناحية النفسية يُعتبر خير تدريب للفرد مايُمثل الامتناع الاختيارى عن بعض الشهوات وبعض الضرورات فترة من الوقت . بينما الصوم يعطى النفس القدرة على تحمل الامتناع الإجبارى عن تلك الشهوات والضرورات حين تحكم بذلك ظروف الحياة ، بل إن فى هذا تدريب النفس على ماقد يتطلب الأمر القيام به وقت الضرورة من امتناع عن طيبات الحياة .

وحيثما كانت الحياة مملوءة بالشر ، فإن المسلم مطالب بمقاومة الشر أنى وجده . وهذه المقاومة قد تعرضه أحياناً للأذى . فكيف يمكن أن يحتمل الأذى ، إذا كان لايقوى على احتمال الجوع والعطش بضع ساعات.

والصوم هو إحدى وسائل الإعداد لمجابهة صراع الحياة الأكبر ، ولاعجب إذاً أن يكون الصيام قد فرض عام فرض القتال .

٥- الحـــج :

يذهب المسلمون إلى الحج صافية قلوبهم ، وحيث تكون أحاسيسهم فيها العجب ، إذ إن الحج من العبادات التى تمتزج فيها الدنيا بالآخرة ، والأرض بالسماء .

والمُسلم الذى يؤدى فريضة الحج تستثار مشاعره عند زيارة الأماكن المقدسة وأداء الفريضة فيها ، ويمثل ذلك حالات نادرة المثال فى واقع الحياة ، حيث تسمو النفوس البشرية عن ملابسات الأرض وشهواتها ومطامعها ، وتتجرد لله خالصة ، تتوجه إليه أن يتقبلها فى عباده ويمنحها مغفرته ورضوانه .

وتمتزج مشاعر الناس بالأحاسيس المرهفة والخضوع الإرادى والخشوع التام والسكينة المتواصلة ، حيث يسيرون حيث سار الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، ويصلون حيث صلى ، وحيث نزل الوحى ، وحيث جاهد وصبر حارب وانتصر .

وهذه المشاعر الفياضة تهز الوجدان ، وتصل إلى أعماقه ، وتعمل على تنقية وتصفية الكيان النفسى من الأدران والخطايا ، إلى الجوهر المشرق المستضئ بنور الله ، حيث أودعه الله ليتصل به ويلقاه .

إنها العبادة التى تطهر النفس وتخلصها من كثير من أوضارها .

هذا إضافة إلى أن عبادة الحج فيها منافع أخرى للناس غير إصلاحها للنفوس وربطها بالله ورسوله .. ففيها تبادل التجارة والتعارف بين المسلمين ، وقيام التجمع والمؤتمر الإسلامى السنوى الذى يلتقى فيه كافة الناس من ألوان وأجناس ولغات ، لينهلوا من معين واحد ، ويلتقوا على قبلة واحدة ، وحيث يعرضون مشكلاتهم ويتدارسون أحوالهم ، وينظمون شئونهم على هدى وبصيرة ، واتصال فى الأفكار والغايات .

من هذا يتبين أن السمات الرئيسية البارزة فى العبادات الإسلامية أنها تربط بين الأرض والسماء والدنيا والآخرة ، فهى مزيج من الجوانب التعبدية والعملية ، وليس فيها عبادة واحدة خالصة للآخرة ، ولاعمل واحد لايعود على الإنسان بالنفع الحاضر القريب . إن الله لم يفرض هذه العبادات من أجله سبحانه .

قال تعالى :

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾

(سورة الذاريات آية ٥٦)

فالحق حق ألوهية الله على عبودية البشر هو العبادة الخالصة لله . ولكن الحق تبارك وتعالى سبحانه غنى عن عبادة العباد وتقوى المتقين فالله تعالى يقول:

﴿ وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾

(سورة العنكبوت آية ٦)

ومن هذا ليس لفائدة الله سبحانه تقوم هذه العبادات ، وإنما هى لصالحنا نحن أبناء البشرية ، فى الوقت ذاته الذى هى فيه أداء الحق الله على العباد .

وهو كرم الله السابغ ، الذى يمنح الفرد المسلم من الفرائض مايُصلح به حاله على الأرض ومايشعره بالأمن والأطمئنان والسكينة ، وحيث كون جزاءه الثواب والمغفرة يوم الحساب .

هذا فيما يتعلق بالجوانب التعبدية فى السلوك ودور الإيمان فى التوافق النفسى ، أما عن الجوانب العملية فى نظر الإسلام فيما يتعلق بسلوك الإنسان وتوافقه النفسى ، فإنها تتمثل فى جوانب رئيسية ثلاثة ، هى :

١- الصبر :

إن دعوة القرآن الكريم للمؤمنين بالتمسك بالصبر ، غايتها تربية النفس وتعويدها الالتزام وتقوية بناء الشخصية ، وزيادة قابلية الإنسان على تحمل المواقف والمصاعب ، وتجديد طاقاته لمواجهة مشكلات الحياة وأعبائها ، ولتجميع طاقاته وقدراته لمواصلة مجاهدة النفس والتزامها بما أمر به الله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾

(سورة آل عمران آية ٢٠٠)

والمؤمن الصابر يواجه الأذى والإبتلاء بالجهاد والإمتثال لحكم الله .

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴾

(سورة محمد آية ٣١)

والصبر ينمى عند الإنسان المثابرة ، ويمكنه من مواصلة الجهد لتحقيق أهدافه . والصبر والمثابرة مرتبطان بقوة الإرادة . فالمؤمن الصابر قوى الإرادة ، لاتهن عزيمته ولاتفتر عندما يواجه العقبات أو الصدمات . وبقوة الإرادة ينجز الإنسان الكثير من الأعمال التى تحقق له أهدافه وطموحاته .

والصبر على مواجهة كل عوائق الحياة ، من شأنه أن يكسب الإنسان شخصية ناضجة متزنة متكاملة منتجة فعالة ، وحيث يصبح الإنسان متمتعاً بالصحة النفسية والأمن النفسى ، وفى مأمن من القلق والتوتر والاضطرابات النفسية.

وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم :

«الصبر نصف الإيمان واليقين الإيمان كله»

(رواه الطبرانى والبيهقى)

وعنه أفضل صلاة وتسليم :

«الصبر ضياء»

(رواه مسلم)

٢- الذكـــــر :

يعمر قلب المؤمن بذكر الله عندما يداوم على قراءة القرآن ، ويتبع منازل بالحق ، ويسبح الله بكرة وأصيلا ، ويستغفره ويدعوه آناء الليل وأطراف النهار .

﴿ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴾

(سورة طه آية ١٣٠)

﴿ والَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾

(سورة الرعد آية ٢٨)

ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم :

«ذكر الله شفاء القلوب»

وذكر الله أكبر العبادات أمام الله عز وجل ، يقول الله تعالى :

﴿ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾

(سورة العنكبوت آية ٤٥)

والعبادات كلها ذكر :

فالصلاة فيها تكبير الله ، وتلاوة القرآن ، وتسبيح الله ركوعاً وسجوداً وحمداً لله والثناء عليه ، والصلاة على رسول الله ، ثم يعقب الصلاة والاستغفار والتسبيح والحمد والتكبير لله تعالى ، والتوجه إليه بالدعاء ، وفى هذا كله ذكر .

والصوم طاعة لله ، وابتعاد واجتناب للمعاصى التى تغضبه ، وتدريب على الصبر وكبح جماح الشهوات ، ومجاهدة للنفس ومقاومة أهوائها ، وتعظيم لقدر الله تعالى وشكر على نعمائه وهدايته ، وفى هذا كله ذكر لله . والحج فيه ابتهال لله وتضرع ودعاء وضبط للنفس وتحكم فى شهواتها وتنزه عن الجدال والخصام والسباب ، ومقاومة الأهواء ، وتدريب للنفس على تحمل الصعاب وعلى فعل الخيرات وحب الناس والترفق بهم ، وفى كل هذا ذكر لله وخشوع له .

٣- التـــوبة :

سبق أن أوضحنا فى مقومات الأدب مع النفس ، دور التوبة كأساس للمراقبة والمحاسبة والمجاهدة حتى تسمو النفس إلى أعلى مراتبها . والتوبة هى أن الشعور بالإثم يولد عند الإنسان القلق والتوتر ، وقد يتضاعف الموقف فتحدث الأمراض النفسية .

وكتاب الله العزيز الذى فيه شفاء لما فى الصدور ، يُعتبر النبع الفياض فى علاج الإنسان الذى يشعر بالذنب ، حيث يوجهه إلى التوبة . والله تعالى يغفر الذنوب جميعاً إلا أن يشرك به ، وفى هذا مايحفز الإنسان عن الإقلاع عن خطاياه . ويتجه بكل قواه ويأمل فى رضوان الله ، فتهدأ النفس ويمنحها الله السكينة والاطمئنان ، فيخف القلق .

والتوبة من شأنها تحفز الإنسان إلى إصلاح الذات وتقويمها ، ومن ثم فهى تجنب الزلل والوقوع فى المعاصى ، وفى هذا مايساعد الإنسان على تقدير قيمة ذاته ، وزيادة الثقة بنفسه ، واتصافه بالقناعة والرضى ، وفى هذا كله مايقوى الشعور بالأمن النفسى والسكينة والطمأنينة .

وفى إيمان المسلم بأن الله تعالى يغفر الذنوب ويقبل توبة التائبين ، يدفع الفرد إلى الاستغفار والتوبة ، والالتزام بما أمر الله ، والابتعاد عن ارتكاب المعاصى، أملاً فى مغفرة الله وعفوه .

والتوبة النصوح والالتزام بطاعة الله والعمل الصالح ، يُضفى على النفس الراحة والإطمئنان ، ويزيل الهم والكدر ، ويبدل الشعور بالذنب إلى الشعور بالأمن بعدما كان الفرد يعانى من القلق وسوء التوفيق .

الإيمان وسمات التوافق النفسي :

عندما نتذكر قول الله تعالى فى سورة «المؤمنون» :

﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلاَّ عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ أُوْلَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾

(سورة المؤمنون آيات ١-١١)

عندما نقرأ هذه الآيات البينات فيما يتعلق بصلاح المؤمنين ، ندرك السمات النفسية للمؤمنين والمتمثلة فى :

١ - الفوز وتحقيق مايصبو إليه الفرد بإيمانه مما يُحقق له الرضا الذاتى .

٢ - الخشوع والتضرع والابتهال إلى الله تعالى أثناء الصلاة ، مما يُكسب النفس السكينة والأمن والاطمئنان ، وفى هذا مايحقق التوافق النفسى والتمتع بالصحة النفسية ، وهى سمات النفس السوية التى يشير إليها علم النفس المعاصر .

٣ - نبذ اللغو من الحديث وتوافه الكلم ؛ مما يضفى على شخصية المؤمن المهابة والجلال والثبات والاتزان الانفعالى ، فالمرء مخبوء تحت لسانه فإذا تكلم ظهر.

٤- الإحساس بالآخرين والعمل على مساعدتهم مادياً ومعنوياً ، عن طريق ماسبق الإشارة إليه من تأدية الزكاء ، تعبيراً أصيلاً عن هذا الإحساس ، وبهذا يشارك الفرد فى إسعاد غيره ، وفى هذا مايحقق الرضا الذاتى وإسعاد الذات .

٥- الحفاظ على مقومات الإشباع الجنسى ليكون فى موضعه الشرعى ، ولايحدث عنه الاختلال الخلقى بعيداً عن الفسق والزنى حتى لايقع الفرد صريع الشعور بالذنب والندم والخوف ، إذا تعدى حدود الله شرعاً ، وخالف وارتكب ماحرم الله تحريماً قاطعاً ، وحتى لاتختلط الأنساب .

٦- العناية بحاجات وأمور الغير والوفاء بالوعد ، حيث إن ذلك يجلب للفرد تقديراً ذاتياً واحتراماً ووقاراً من جانب الآخرين .

هذا وثمة سمات أخرى للمؤمنين ذكرها تعالى :

﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا (٦٣) وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا (٦٤) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (٦٥) إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٦٦) وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾

(سورة الفرقان آيات ٦٣ – ٦٧)

وهؤلاء هم المؤمنون حقاً وصدقاً .

إن القرآن الكريم صور التكوين النفسى للمؤمنين ، وضرب عديد من الأمثال لنتخذ منها دروساً ، من مجموعها تتكون شخصية الفرد المسلم المؤمن .

وقد شرع القرآن بادئ ذى بدء فى تشكيل ضمير الفرد ذلك الضمير الذى يحقق الأمن النفسى أو عندما يختل العقل فى غيبة الضمير تضطرب أمور الحياة . قال تعالى :

﴿ لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴾

(سورة القيامة آية ٢/١)

وكأن القسم بيوم الحشر .... يوم الموقف الأعظم يتساوى مع القسم بالنفس اللوامة والتى تمثل عند علم النفس المعاصر ، بالضمير اليقظ الحى . وإن وجود هذا الضمير الحى بين جنبات الفرد وجوانحه ، هو مايحدد سمات الشخصية فى

التجديد أو العودة إلى القديم ... فى الإقدام أو الإحجام فى الاتجاه نحو الخير أو الشر ... فى الذلة والخنوع على العزة والسيطرة . فالضمير الحى هو الذى يحضنا على العزة وعمل الخير ، بينما الضمير الميت هو الذى يباعد بين الفرد ، وبين كل خير ومنفعة ، بل يغرس فيه الذل والمسكنة .

إن التوافق البيئى عند المؤمن هو مايُمثل إحساس الفرد بالرضا الذاتى نحو ربه ، ونحو طاعة ما أمر الله به ورسوله ، ونحو عمله وسلوكه المرغوب فى المجتمع الذى يعيش فيه . وهو السلوك الموحد الذى يمثل نمط السلوك ، الذى يحدث وفق نمط السلوك الموحد ، الذى يحدث وفق معايير الجماعة ومثلها واتجاهاتها وقيمها الاجتماعية .

الإيمان سبيل الطمأنينة والأمن النفسي :

الإنسان فى عالمنا المعاصر .. دائم البحث عن العلاج الناجع مما يعانيه من الخوف والاضطراب الدائب الذى يلازمه . وهدف الإنسان هو أن ينعم بالطمأنينة والسكينة بدلاً من الخوف والشك والقلق . (١٥٠)

والنفس الإنسانية فُطرت على الخوف والرجاء ، وتتنوع المخاوف ، ويتمايز الرجاء . ومن حيث إن بواعث القلق والفزع والخوف تصاحب الإنسان منذ أن يولد، فقد أصبح الخوف ملازماً لحياة الإنسان ، بل قد يصل به الحال إلى مايعرف فى علم النفس المعاصر «بالخواف» أو الخوف المرضى .

لذلك منذ أمد بعيد ويحاول الإنسان بذل أكبر جهده وصرف معظم وقته لتأمين نفسه من عوادى الطبيعة ومن عداوة الإنسان الذى يعايشه أيضاً ، وأصبح فى فزع دائب ، وشغله البحث عن الأمن والسكينة والطمأنينة .

وقد قام الإسلام فى كل بنائه على حماية الإنسان من الخوف والفزع والإضطراب . ويحقق الإسلام للمسلمين الأمن والسكينة والطمأنينة عن طريق عقيدة الإيمان ، التى تجعل النفس الإنسانية وحدة متآلفة متسقة ، تواجه مصادر الفزع بثبات . لذلك نجد أن المؤمنين الصادقين الذين سلمت نفوسهم وصفت قلوبهم واتسم سلوكهم بالسوية والضبط والالتزام بما أمر الله به ورسوله ، لم يتعرضوا للأمراض النفسية ، والتى عادة ماتلازمها الأمراض العضوية ، فهذه الأمراض بنوعيها تظهر مع ضعف الإيمان ، أو عندما تتسرب الوساوس إلى النفس فتنشأ العقد ، ويلجأ الإنسان إلى المنشطات أو المهدئات أو المخدرات ، والتى قد

تضاعف من أمراضه ، ويظل الصراع قائماً فى كيان النفس التى ضعف إيمانها ، فمعرفة الله والإيمان به إيماناً صادقاً ، والالتزام بما أمر به تعالى وما أوصى به نبيه صلوات الله عليه وسلامه هو سبيل الإنسان إلى السكينة والطمأنينة والأمن ، لأن الله سبحانه وتعالى لايفزع عباده المخلصين وهو خالقهم .

والقرآن الكريم يوضح أن النفس الإنسانية تشتمل على خاصيتين أساسيتين :

١- النزوع إلى طلب الشهوات بالفجور .

٢- المجاهدة فى طريق الله بالتقوى .

وإتباع طريق الله .. يُطهر النفس الإنسانية من نقائصها ، ويُبعد عنها المخاوف ، فتسلم من الأمراض النفسية وتشعر بالأمن والأمان ، بعد أن كان الاضطراب والقلق والخوف طباعاً ملازمة لها .

واتباع طريق الله لتحقيق الأمن النفسى يلزم الإنسان بمحاسبة نفسه ومراقبتها وتهذيبها وترويضها ؛ حتى لاتخرج عن طريق الطاعة والالتزام وحيث تبقى النفس فى رقى وسمو إلى أعلى حيث يريدها الله .

والإيمان درجات .. والإيمان الصادق هو الذى يصنع المعجزات ويهيئ النفوس لتقبل المبادئ الخيرة لهما يكمن وراءها من تكاليف وواجبات وتضحيات ومشقات ، وهو الأساس الوحيد الذى يغير النفس تغييراً تاماً وينشئها خلقاً آخر ، ويصبها فى نمط بشرى جديد ، فيغير من أهدافها ووجهتها وسلوكها ومقاييسها ... وهذا الإيمان .... هو الطريق إلى الله الذى من وراءه الأمن والطمأنينة وسكينة النفس .

الإيمان وعلاج الاضطرابات النفسية :

رغم الجهود الكثيرة التى تبذلها المجتمعات الحديثة فى ميادين التربية والتعليم لتوجيه النشء وتعليمهم وإرشادهم لكى يكونوا مواطنين صالحين ، إلا أن هذه الجهود لم تثمر الثمرة المرجوة فى تكوين المواطنين الصالحين ؛ فالجرائم والانحرافات المنتشرة فى جميع المجتمعات لدليل واضح على فشل أساليب التربية الحديثة وعجزها عن تكوين المواطنين الصالحين . (١٥١)

والاختلافات الموجودة الآن بين المدارس المختلفة للعلاج النفسى ، فى نظرتها إلى طبيعة الدوافع الأساسية المحركة للسلوك ، وإلى طبيعة التهديدات

المثيرة للقلق والمسببة لنشوء أعراض الأمراض النفسية والعقلية ، يجعل من تفاق عام بين هذه المدارس المختلفة حول نظرية٣٩٤الصعب الوصول إلى ا متكاملة في الشخصية وتوافقها ، وفي العوامل المسببة لسوء التوافق ، وفي أساليب العلاج النفسي ، نكمل مدرسة من هذه المدارس تنظر إلى الإنسان من زاوية معينة محددة، ولم تنظر إليه نظرة كلية شاملة ، الأمر الذي جعلها عاجزة عن فهم الإنسان فهماً سليماً .

وقد بدأت تظهر حديثاً اتجاهات بين بعض علماء النفس تنادي بأهمية الدين في الصحة النفسية في علاج الأمراض النفسية ، وترى أن في الإيمان بالله قوة خارقة تمد الإنسان المتدين بطاقة روحية تعينه على تحمل مشاق الحياة ، وتجنبه القلق الذي يتعرض له كثير ممن يعيشون في هذا العصر ، الذي يسيطر عليه الاهتمام الكبير بالحياة المادية ويسود التنافس الشديد من أجل الكسب المادي ، والذي يفتقر في الوقت نفسه إلى الغذاء الروحي ، وجعله نهباً للقلق ، وعرضة للإصابة بالأمراض النفسية .

ومن أوائل من نادوا بذلك من علماء النفس المعاصرين ، العالم الأمريكي وليم جيمس W. James والذي نادى بـ :

إن أعظم علاج للقلق هو الإيمان (١٥٢) .

وقال أيضاً : الإيمان من القوى التي لابد من توافرها لمعاونة المرء على العيش ، وفقدها نذير بالعجز عن معاناة الحياة .

كما أضاف : إن بيننا وبين الله رابطة لاتنفصم ، فإذا نحن أخضعنا أنفسنا لإشرافه تعالى ، تحققت كل أمنياتنا وآمالنا . وقال أيضاً : إن أمواج المحيط المصطخبة المتقلبة لاتعكر قط هدوء القاع العميق ولاتقلق أمنه ، كذلك المرء الذي عمق إيمانه بالله ، فالرجل المتدين حقاً عصي على القلق محتفظ أبداً باتزانه ، مستعد دائماً لمواجهة ماعسى أن تأتي به الأيام من صروف (١٥٣) .

وقال كارل يونج C. Yung وهو من تلاميذ «فرويد» والذي انشق على فكره ، واتخذ لنفسه فكراً مغايراً في التحليل النفسي ، حيث قال : استشارني في خلال الأعوام الثلاثين الماضية أشخاص من مختلف شعوب العالم المتحضرة ، وعالجت مئات كثيرة من المرضى . فلم أجد مريضاً واحداً من مرضاي الذين كانوا في المنتصف الثاني من عمرهم أي جاوزوا سن الخامسة والثلاثين ، من لم تكن

مشكلته فى أساسها هى افتقاره إلى وجهة دينية فى الحياة .

وأستطيع أن أقول (على لسان كارل يونج) أن كل واحد منهم قد وقع فريسة المرض ؛ لأنه فقد الشيء الذى تمنحه الأديان لأتباعها ، وأنه لم يتم شفاء أحد منهم حقيقة إلا بعد أن استعاد نظرته الدينية فى الحياة (١٥٤) .

وفضلاً عن علماء النفس والمحللين العاملين فى مجال العلاج النفسى ، فقد أشار كثير من المفكرين فى عالم الغرب ، إلى أن أزمة الإنسان المعاصر إنما ترجع أساساً إلى افتقار الإنسان إلى الدين والقيم الروحية . فقد أشار المؤرخ أرنولد توينبى Arnold Toynbi إلى أن الأزمة التى يعانى منها الأوروبيون فى العصر الحديث إنما ترجع فى أساسها إلى الفقر الروحى ، وأن العلاج لهذا التمزق الذى يعانون منه هو الرجوع إلى الدين (١٥٥) .

والواقع أن الإيمان الصادق يحقق للمؤمن سكينة النفس وأمنها وطمأنينتها لأن إيمانه الصادق يمده بالأمل والرجاء فى عون الله ورعايته وحمايته ، وهو يزيد من ثقته بنفسه ، ويزيد من قدرته على الصبر وتحمل مشاق الحياة ، ويبث الأمن والطمأنينة فى النفس ، ويبعث على راحة البال ، ويغمر الإنسان بالشعور والسعادة ، فلا معاناة من قلق أو اضطراب ، بل اتزان وثبات فى مواجهة المواقف والشدائد فى الحياة .

تلخيص :

* المجتمع الإسلامى فى تماسك بنيانه ، يوضح للفرد والجماعة القيم والتعاليم والمبادئ والنظرة إلى الحياة الفردية والجماعية فى مجتمع ، يشعر فيه الإنسان بالأمن والأمان والاطمئنان على نفسه وعرضه وماله .

* والإسلام دين يوازن بين الروح والجسد ، والروح لها نصيب وافر من إشباعات وتماسك هذا الدين ، وللجسد نصيبه من هذه الإشباعات . وكف الجسم وتعطيله وكبح جماح وظائفه بقصد التسامى بالروح ، أمر يرفضه الإسلام ، بل إن المذاهب التى تنادى بذلك تتلاشى فيها إنسانية الإنسان .

* توحيد العبادة والألوهية تعنى أن ينفرد بالعبادة الله الخالق ، وفى هذا مايحكم سلوك الفرد عن طريق مايتقرب به من الخالق من عبادات ومعتقدات وأخلاق ومعاملات ، تسمو بسلوك الإنسان وتشعره بالأمن والطمأنينة ، فالتقرب من الله يدخل السكينة إلى النفس .

* الإيمان عبارة عن التصديق ، والتصديق بالقلب هو التسليم ، كما أن الإعتراف يكون باللسان والطاعة والانقياد بالجوارح . والإسلام هو تسليم إما بالقلب أو باللسان أو بالجوارح ، وأفضلها ماكان بالقلب وهو التصديق أى الإيمان .

* العبادة الخالصة تدعو النفس الإنسانية إلى الخضوع لله والسعى إلى طاعته ، والإبتعاد عن الآثام فتكتسب الهدوء النفسى والرضا والطمأنينة والسكينة ، وفى هذا مايحفز على العمل الدائب والسلوك المتوافق .

* السمات الرئيسية البارزة فى العبادات الإسلامية تربط بين الأرض والسماء والدنيا والآخرة ، فيها مزيج من الجوانب التعبدية والعملية ، وليس بينها عبادة خالصة للآخرة ولاعمل واحد لايعود على الإنسان بالنفع الحاضر القريب .

* وفى الجوانب العملية من الصبر والذكر والتوبة مايثبت الإيمان ويبعث على الأمن والأمان .

* صور القرآن الكريم التكوين النفسى للمؤمنين ، وضرب عديداً من الأمثال لنتخذ منها دروساً ، من مجموعها تتكون شخصية الفرد المسلم المؤمن .

* يُعتبر الإيمان سبيل الإنسان إلى الطمأنينة والأمن النفسى خاصة عندما يجاهد فى طريق الله بالتقوى .

* من الاتجاهات الحديثة مانادى به علماء النفس من أهمية الدين فى الصحة النفسية وفى علاج الأمراض النفسية .

تعقيب :

* الإيمان وسيلة الإنسان إلى الأمن والأمان والاطمئنان على ذاته بكل مقوماتها .

* والإيمان قوة عاصمة عن الدنايا والمعاصى ، بل إنه حافز ودافع إلى المكرمات. والله سبحانه وتعالى ينادى عباده بإتباع الخير وينفرهم من الشر ، حتى يستقر الإيمان فى القلوب :

﴿ اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾

(سورة التوبة آية ١١٩)

* والإيمان القوى يبعث إلى الالتزام بالأخلاق القويمة . واضطراب السلوك والاختلالات الخلقية مرده إلى ضعف الإيمان ، والتمسك بالعقيدة ، أو فقدان الإيمان وفق تفاقم الشر واختلال السلوك ؛ حيث ينسى الإنسان ذاته ولايقدر على كبح جماحها وشهواتها . والله تعالى يقول :

﴿ وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ ﴾

(سورة الحشر آية ١٩)

* والعبادات فى الإسلام وهى أركانه الأصيلة متباينة فى جوهرها ومظهرها ، نتبين منها الروابط المتينة التى تربط العبادات بالخلق والالتزام والضبط والربط ، بل إن الصبر والذكر والتوبة من أهم مايبعث الأمن النفسى عند المؤمن . والعبادات من شأنها تهذيب النفس ودعوتها إلى الخضوع للخالق تعالى والعمل على الإلتزام بطاعته ، وضبط النفس والابتعاد عن الآثام ، والمعاصى فيدخل على النفس السكينة وتشعر بالأمن والطمأنينة ، وفى هذا مايحفز الإنسان على السعى إلى مرضاة الله لأن فى هذا مرضاة لذاته .

* وإن تعاليم الإسلام جاءت لهداية البشرية ، ولذلك تتكامل السمات الخاصة بالشخصية فى الإسلام ، عندما يقوم الفرد بتطبيق واجبات الإسلام وفرائضه وتنفيذ وصاياه وأحكامه .

* والإيمان على مراتب ، وأعلى هذه المراتب الإيمان بالقلب ، والتصديق بالعمل وهو الإيمان الصادق الذى يقر فى القلب ويصدقه العمل .

* والإيمان الصادق يكون القلب عند صاحبه على يقين ثابت بالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله ، واليوم الآخر والقدر خيره وشره . وهو ماجاء فى الحديث لشريف الذى رواه عمر بن الخطاب رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين سئل عن الإيمان فقال : «أن تؤمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر غيره ....» . وعندما يثبت الإيمان فى القلب ، يتسم سلوك الإنسان بالإستجابة باقتناع وترو وهدوء إلى تنفيذ ما أمر الله به ، وعندئذ يكون فى ذلك صلاح الفرد والجماعة .

* والإيمان الصادق يكون بأداء جميع الواجبات والتكاليف ، والالتزام دون التفريط أو الإفراط ، وألايتبع الهوى فى حال اليسر ، والقنوط والانطواء فى حال العسر ، مصداقاً لقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ﴾

(سورة العلق آية ٦/٧)

* وقد لايبالى الإنسان بعقيدته ، ويحارب الدعوة فى سلوكه وأقواله وينبذ حدود الله ويسخر من شرعه ، ويعتبر الاستمساك بكلمة الله - كلمة الحق - من الأمور التى لاتعنيه ، بل قد يعتبر التمسك بالدين من الأمور الرجعية التى لاتساير تقدم الحياة ، وحيث يتمتع بدنياه كأنه يعيش أبداً فيتبع الهوى ويضل عن سبيل الله ، وحيث تعميه الضلالة عن سوية السلوك ، وقد نبه الله تعالى إلى خطر هؤلاء المنافقين .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيدًا (٦٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴾

(سورة النساء آيات ٦٠/٦١)

* ومن الناس من هم ﴿ مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لا إِلَىٰ هَؤُلاءِ وَلا إِلَىٰ هَؤُلاءِ ﴾

(سورة النساء آية ١٤٣)

فهم تارة يتبعون الهدى عندما يصيبهم الخير ، فيكون إيمانهم على حرف – ولانقول الإيمان الصادق – وتارة يتبعون الضلال والغواية عندما تصيبهم فتنة مصداقاً لقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴾

(سورة الحج آية ١١)

* وهكذا نجد أن الإيمان هو زاد التقوى وسبيل الإنسان إلى التمتع بمشاعر وأحاسيس الأمن والأمان والاطمئنان على ذاته لقربه من الله تعالى وقربه من عباد الله الذى يحسن إليهم عندما يحسن لذاته ، والذى يرد إساءتهم بالإحسان . وهذا أسمى سمات الشخصية عند الإنسان المؤمن .

تمـــــارين :

١ – يعمل الإسلام على التوازن بين مطالب الروح والجسد . وضح .

٢ – يحكم سلوك الفرد عن طريق توحيد العبادة والألوهية . وضح .

٣ – العبادة الخالصة تحفز النفس الإنسانية إلى الخضوع لله والسعى إلى حمى طاعته . اشرح .

٤ – الإيمان هو سبيل العلاج للاضطرابات النفسية . وضح .

الفصل السادس عشر

أمراض القلوب وسوء التوافق النفسى

المحتوى :

* **تمهيد**
* **أمراض القلوب وسوء التوافق النفسى**
  - الحقد والحسد .
  - الطمع .
  - الرياء .
  - الكبر .
* **القرآن الكريم وعلاج أمراض القلوب .**
* **تلخيص**
* **تعقيب**
* **تمارين**

الفصل السادس عشر

أمراض القلوب وسوء التوافق النفسي

تمهيد :

يُعرف المرض النفسى فى علم النفس المعاصر ، بأنه اضطراب وظيفى فى الشخصية (١٥٦) ، نفسى المنشأ ، يبدو فى صورة أعراض نفسية وجسمية مختلفة تؤثر فى سلوك الشخص فتعوق توافقه البيئى والنفسى ، وتعوقه عن ممارسة حياته السوية فى المجتمع الذى يعيش فيه . ويتوقف علاج المرض النفسى على نوعه ومداه وحدته .

وهناك فرق بين المرض النفسى والسلوك المرضى ؛ فالسلوك المرضى سلوك يلونه الاضطراب الذى يشاهد كأحد أعراض المرض النفسى .

فقد يكون الشخص السوى يتبع سلوكاً هستيرياً ، يختلف تماماً عن الشخص المريض بالهستيريا ، وقد يكون الشخص عادياً ويتبع السلوك الهوسى وهو يختلف تماماً عن الفرد المريض بالهوس .

والأمراض التى نعرضها فى هذا الفصل ، تُعد أصعب استحكاماً فى النفس الإنسانية عن الأمراض النفسية عندما يتوب الله عليه توبة نصوحاً ، بعد أن كان الله قد ختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة .

وتتعدد الصراعات فى الحياة ، مما يجعل الإنسان فى شقاء وتعاسة نتيجة لسوء توافقه مع نفسه ومع المجتمع الذى يعيش فيه ، وإما أن يكون متمتعاً بالأمن النفسى والسكينة والرضا بما منحه الله من نعمة وإما أن يكون من الساخطين الذين لاتستقر بهم الحياة ، ودوماً فى شقاء وتعاسة . ولقد أبان الإسلام معرفة النفس بهدف إصلاحها وتهذيب أخلاقها . ولايتأتى تهذيب الأخلاق إلا بمعرفة عيوب النفس وأمراض القلب ، التى ينبغى على الإنسان أن يتجنبها حتى يسير فى الطريق إلى الله .

ولقد سبق أن أشرنا فى الباب الثانى فى هذا الكتاب ، فيما احتواه الفصل التاسع تحت عنوان التفسير الإسلامى للعواطف والاتجاهات ، إلى أن العواطف الناجمة عن الميول والانفعالات فى رأى الإمام الغزالى يمكن أن تقسم إلى :

* الغضب	* الميل إلى التملك	* حب الذات
ويتولد عن الغضب :	ويتولد عن الميل إلى التملك :	ويتولد عن حب الذات :
– الحقد	– الحرص	– حب الجاه
– الحسد	– البخل	– الرياء
– الحلم	– الطمع	– الكبر
– الرفق	– السخاء	

ومن الواضح أن هذه الميول والانفعالات يتولد عنها عواطف إيجابية تكون من سمات القلوب السليمة ، بينما توجد عواطف سلبية تكون من سمات القلوب المريضة .

وأمراض القلوب أعصى فى حدتها وفى اضطراب سلوك أصحابها من الأمراض النفسية أو العضوية ؛ إذ إن أمراض القلوب تحدث سوء التوافق النفسى الفردى والجماعى .

وسنعرض فيما يلى بعضاً من هذه الأمراض ، والتى يُطلق عليها بعض المفسرين الآفات النفسية (١٥٧) ، وحيث يتراكم بعض هذه الآفات لتشكل مجموعة مترابطة من الآفات مثل داء الرياء الذى تتجمع معه مظاهر أخرى من أمراض القلوب ، مثل الحقد والحسد والعجب والوسوسة .

أمراض القلوب وسوء التوافق النفسي :

وفيما يلى نماذج وأنماط لبعض أمراض القلوب التى تعيق التوافق النفسى :

الحقد والحسد :

من أمراض القلوب التى قل أن يخلو منها إنسان . (١٥٨)

والحسد إما : مباح أو مذموم مكروه أو مُحرم . ومن الحسد المباح .. المنافسة وتتم فى صورة مسابقة والمسارعة إلى طلب العفو والمغفرة من الله تعالى،

وبذلك فإن الحسد المباح (المنافسة) أمر مشروع وفرض على كل مسلم . فالله تعالى يقول :

﴿ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴾

(سورة المطففين آية – ٢٦)

والمؤمن يسارع إلى أعمال الخير وينافس غيره فى طاعة الله والإخلاص له تعالى . ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« لا حسد إلا فى اثنين رجل أتاه الله عز وجل مالاً فسلطه على هلكته فى الحق ورجل آتاه الله عز وجل علماً فهو يعمل به ويعلمه للناس »

(عن الإمام الحارث المحاسبي)

وهذا التنافس الشريف ، يأمل طالبه أن يلحق بمن يسابقه فى الخير ، ويتكرر عندما يكون دونه ، وهو فى ذلك لايريد شراً بغيره ولايحب الأذى لمن ينافسه .

أما الحسد المكروه ، كأن يأتى الله رجلاً مالاً فينفقه فى المعاصى ، فيتمنى الحاسد أن يعطيه الله مثل هذا المال ليصرفه كما يصرفه الآخر ، فهما فى الإثم سواء .

(عن الإمام الحارث المحاسبي)

أما الحسد المحرم فهو وارد فى قول الحق وتبارك :

﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ﴾

(سورة النساء آية – ٥٤)

والحاسد هنا يهدف سلوكه إلى الرياسة والرفعة وعلو المنزلة ، وينكرها على غيره ، ويكره أن يكون تابعاً لأحد أو مؤتمراً بأمره . ويتمنى أن يزول عن غيره مافيه من نعمة وجاه ، فيتحاسد المتحاسدون بعضهم بعضاً بغياً وحقداً وتنشغل عقولهم بأهواء باطله ، ويتركوا الحق ويبتعدوا عن الخير حسداً بينهم .

﴿ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴾

(سورة التوبة آية ٥٠)

والحسد المذموم يقع فيه المؤمن والكافر ، ويظهر الحسد فى كراهية النعم للغير وتمنى زوالها . وفى ذلك يقول تعالى :

﴿ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا ﴾

(سورة آل عمران آية ١٢٠)

والحسد المذموم نتاج الكبر والعُجب والحقد والبغضاء والرياء ، فيغتم الحاسد عند سماعه الخير ولايسعده إلا الإضرار بمن يحسده . ولايقتصر الحسد على العامة، بل لايسلم منه العلماء والعباد ، إذ ينشأ الحسد المذموم بينهم نتيجة الخوف من زوال الرئاسة ، كأن يجزع الحاسد عندما يتولى شخص منصباً أو مرتبة أعلى، فيرغب فى أن تزال عمن يحسده حسب منزلته فى مجالس العلم ، حتى تبقى له الرئاسة مهما كان مايحسده يستحق المرتبة الأعلى ، إذ إنه ذو عقل راجح وعلم غزير .

الطـــمع :

تميل النفس الإنسانية بطبيعتها إلى الطمع الكاذب (١٥٩) ، وتصديق الأمور الوهمية التى تستحوذ عليها ، والتى تقودها إلى الأوهام والخيالات ، فيستبد بعقل الإنسان الأكاذيب والظنون ، وتنزع النفس إلى الهوى الذى هو دليل الانحراف لأنه ضد الفطرة السليمة :

﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ ﴾

(سورة النجم آية ٢٣)

ولذلك فإن المؤمن يتخلص من الطمع الكاذب ، وتصديق الظنون ويباعد بين عقله وبين الأوهام والفارغة ، فيرى أنها طمع فى غير مطمع ، ويتجه بقلبه إلى الله لينقذه من هذه الضلالات .

لذلك فإن المؤمن الصادق يرضى بما قسم الله له ، ويختار حياة القناعة خوفاً من الانحراف إلى هوى النفس الأمارة التى تقوده إلى الضلالات والخيالات والأوهام الكاذبة .

والمؤمن الصادق زاهد وقانع ، ويجد سعادته فى القناعة مع الله ، وفى هذا تحرر خالص له من شوائب المادة .

والقناعة هى الإيمان الحق فهى الطريق إلى الله ، بينما الطمع طريق الأمانى المتوهمة والآمال الباطلة والظنون الكاذبة .

والقلب السليم لايقبل على الطمع ، أما القلب المريض فيتعلق بالأوهام ، ويتجه إلى الأدنى المتهالك ، ويترك الخير الدائم .

وهناك نوع من الطمع والمحمود ، وهو طمع فى عفو الله ورجاء فى تجاوزه عن السيئات ، وعما قام به العبد من خطايا وهفوات عندما يأتى يوم الحساب . وهذا النوع من الطمع ، هو طمع المؤمن الصادق فى الله الرحيم القادر كما فى قوله تعالى :

﴿ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴾

(سورة الشعراء آية ٨٢)

الريـــاء :

يتضمن الرياء أسلوب الخداع ، فمن يرائى الناس يخدعهم (١٦٠) . إنه يُظهر غير مايبطن ، أى إن سلوكه الظاهر غير سلوكه الباطن . والرياء نوع من الشرك الخفى ؛ إذ إنه إدعاء كاذب ، حيث يزعم المرائى أقوالاً أو أفعالاً خلافاً للحقيقة ليغش الآخرين به .

ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم :

«إن أدنى الرياء شرك»

(رواه البخارى ومسلم)

والرياء من سمات النفس البشرية ، ولاتخلو قلوب منه إلا قلوب العارفين بالله ، فأعمالهم خالصة لله ، وقلوبهم عامرة بالتقوى .

والمرائى يولع بالأقنعة الكاذبة ليكبت باطنه القبيح ، ويتستر على نفسه الأمارة بالسوء فيوارى الشر ، ويحسن الباطل ، ليخفى الحقيقة غشاً وخداعاً . ويقول الرسول الله صلى الله عليه وسلم :

«تجدون شر الناس يوم القيامة عند الله ذا الوجهين ، الذى يأتى هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه»

(رواه معاذ وذكره الإمام الحارثي المحاسبي)

والمرائى غير صادق فى قوله أو فعله ، فهو إن كان يتكلم فكلامه ظاهره الرحمة وباطنه العذاب .

والمرائى يكتسب عادات سلوكية سيئة فهو كاذب منافق مخادع ، يعمى قلبه عن كل حق ، ويقع فى شراك خداعه فيحجب قلبه ويعشق ذاته ، حتى ولو ظلم جميع من حوله ، فاهتمامه فى المرتبة الأولى لنفسه :

﴿ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾

(سورة النساء آية ١٤٢)

والرياء فى نظر الإمام عبدالقادر الجيلانى فسق وعبادة للذات (١٦١) ونسيان لله ، وهو ثمرة لاستحواذ الشيطان على قلب المرائى ، حيث يغويه بالأباطيل ، ويوقعه فى الأكاذيب ، حتى إذا تم خداعه ، ظن أنه مركز الكون كبرياء وغروراً .

والمرائى كما هو بعيد عن الناس فإنه بعيد عن خالقه ، وإن عرف حقيقة نفسه ، فإنه ينعزل ناسياً ربه فى غربة ووحشة .

﴿ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلاَّ قَلِيلاً مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لا إِلَىٰ هَؤُلاءِ وَلا إِلَىٰ هَؤُلاءِ ﴾

(سورة النساء آية ١٤٢-١٤٣)

ويتشابه سلوك المرائى مع سلوك النرجسى ، الذى يُوصف فى علم النفس المعاصر على أنه العاشق لذاته ، لايعمل إلا لمنفعته الشخصية أو لإشباع غروره وتعجبه بنفسه أو لإخفاء أمراضه من نقص وعجز باستظهار العظمة والاستعلاء والغطرسة ، وطلب مدح الناس له وثنائهم عليه وتفريطهم لأعماله حتى تسكن مخاوفه ، وهذا مايطلق عليه فى علم النفس المعاصر بفوبيات الهستيريا Hysterical phobia أى الخوف الهستيرى .

وفى علاج النرجسية فى علم النفس المعاصر ، يتم شغل النرجسى باهتمامات أخرى ، وتبديل أفكاره بأفكار جديدة ، غير التى تستحوذ عليه وتستعبده .

وليس هذا بالعلاج المناسب لأمراض النفاق والرياء فإن الطريق الإسلامى فى علاج المرائى يكمن فى كسر شهوته ويتأتى هذا بالتواضع ، وأن يغرس فى نفسه أن خالق الكون وصاحبه هو الله ، وأنه لايستطيع أن يفعل شيئاً إلا إذا أراده

الله، فينتقل من حب ذاته إلى المحبة الإلهية ومن الشك إلى الإيمان ، ومن الخداع، إلى الحق ، وبذلك تتغير نفسه تغيراً عميقاً فلايطمع إلا فى مرضاة الله وتهدأ نفسه ، بعد أن تفرغ من أهوائها الدنيوية ، وليس هذا العلاج كما يراه بعض علماء النفس المعاصرين من أنه تحقيق أو تنفيس أو حيلة هروبية ، وإنما ذلك تقويم للنفس ، وبتر لأمراض القلب ، وعود محمود إلى الإيمان اليقين ، فيعود المريض صحيحاً سليماً عارفاً بنفسه وربه .

ومن الرياء حب الرياسة والتعظيم وتسخير الناس لمصلحة المرائى . كما أن من الرياء حسب الاستعلاء فى العلم أو العمل ، ليعلو صاحبه وليعلم الآخرين وليعلم الناس أنه أعلم العلماء .

الكــــبر :

من التكبر وهو التجبر وإدعاء الكبر أو الإتصاف به (١٦٢) ، وقد ورد فى قوله تعالى :

﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾

(سورة الأعراف آية ١٤٦)

والكبر آفة العلماء ، وسبيل المفاسد والضلالات ، والمدخل الذى يتصور الإنسان أن فيه الراحة والأمن ، ولايعرف أنه دليل البعد عن الله وسبيل الكذب والنفاق والرياء .

وأكبر مغريات الكبر التظاهر بالتواضع ، والقلب منه خال ، والشيطان يُحسن للمرء سوء عمله ليوقعه حتى يصبح من حزب الشيطان فيصبح فريسة للاضطراب والقلق .

والكبر الظاهر يُمكن أن يعالج منه صاحبه ، ويتم ذلك بالنهى عن المنكر وبالنصح لصاحبه لأنه ضلالة ، حتى يعرف نفسه وينفر عن المظاهر الخادعة ويرجع عن غيه ، ويتم ذلك عن طريق العلم أو بالنصيحة الصادقة ، فيترك النفاق ويبتعد عن المدح الكاذب والرياء ، ويعرف أن ذلك يقوده إلى الخسران والضلال .

وصاحب الكبر الخفى أعظم فحشاً ، فهو عكس المتكبر الظاهرى تماماً ، مظهره التواضع ، وظاهره الحياء ، وكلامه الرجاء ، وحديثه الخوف من الله ، ومن كثرة نفاقه يوصف بالصلاح والتقوى ، ويوهم غيره بأنه بعيد عن مطالب

الدنيا ومافيها ، فهو طالب الأخرة وقد يقرن قوله بالصلاة كذباً وخداعاً ، وبالإحسان نفاقاً ورياءً ، وبالتذلل لله طمعاً فى المغانم والمكاسب الدينوية .

وصاحب الكبر الخفى هو المتكبر بإظهار سلوك التواضع ، والمتجبر بإخفاء سلوك العدوان وسلوك الاستعلاء ، وهو الحريص على أن يكون سلوكه الظاهرى يخالف سلوكه الباطنى .. أى أن يظهر غير مايبطن ، والذي يتقرب إلى عامة الناس ، وقلبه بعيد عنهم ، يحسبه العامة مؤمناً ورعاً ، وهو مراء يتخفى فى زى الطاعة ، يتدثر بمسوح الإخلاص ، ويعلم الله أن الضلال أمامه والخداع قوامه ، وأن الدين منه براء .

وهذا الذى يظهر من سلوكه الظاهرى التقوى ، يحرص على خداع الناس وإيهامهم بالورع ، وقد خلى قلبه من نعمة التواضع ، وتعلق قلبه بحب ذاته وحب الدنيا وإدعاء الإخلاص والتوبة .

ومثل هذا الإنسان لايصلح معه نصح ولا إرشاد ، ولاينفع معه علم ولامعرفة ، وإن تظاهر بالصدق وادعى الإخلاص .

وهذا المتكبر يعرف ذاته ويكشف أمره عندما يتخلى الناس عنه أو ينصرفون عنه عندما يعرفون زيفه وخداعه . عندئذ يتبدل حاله وتثور نفسه الأمارة بالسوء وينقلب إلى نفس شرسة ناقمة ، يعتدى ويؤذى ، ولايشبع من الأذى والعدوان ، إذ بدت له حقيقته ، وبدت شرور نفسه العدوانية التى كانت متخفية بالرياء والنفاق ، والتواضع الظاهرى الذى يكمن وراءه الكبرياء والاستعلاء وإدعاء التقرب إلى الله . إنه شرير مقنع يمشى على الأرض ، ظاهره ثوب الصالحين وإزاء المتواضعين ، والدين منه براء .

... وبعد هذه أمثلة لبعض أمراض القلوب التى ينهى عنها الإسلام ، وماقمنا بعرضه لايمثل حصراً كاملاً لهذه الأمراض ، إذ إن هناك أمراضاً أخرى أشد فتكاً بأصحابها وبمن يعايشونه ، ومثال ذلك مايعرف بكلية الغضب والغفلة والنسيان والوساوس ، واليأس والقنوط ، والغرور ، والعجب والقلق والكبت ، وكل هذه أمراض تعيق التوافق النفسى الفردى والجماعى .

إن الإسلام دين الهداية أوضح السبل إلى إصلاح النفس الإنسانية وتهذيب وتقويم أخلاقها ، وأوضح كيف نعرف عيوب النفس وآفاتها والتى ينبغى على الإنسان الحذر منها وعدم ممارستها والتخلص منها عندما يبتلى بها ، حتى يسير

فى الطريق إلى الله ، الذى يستشعر فيه الأمن والطمأنينة وسكينة النفس .

وهل من سبيل لعلاج هذه الأمراض وهداية وشفاء من يبتلى بها ؟

نعم إنه فى القرآن الكريم الذى فيه شفاء لما فى الصدور .

القرآن الكريم وعلاج أمراض القلب :

أنزل الله تعالى القرآن الكريم لهداية الناس ، ودعوتهم إلى عقيدة التوحيد ، ولإكسابهم القيم والأساليب الجديدة من التفكير والحياة ، ولإرشادهم إلى السلوك السوى السليم الذى فيه صلاح الفرد وخير المجتمع ، ولتوجيههم إلى الطرق الصحيحة لتربية النفس وتنشئتها تنشئة سليمة ، تؤدى إلى اكتمال بناء الإنسان الذى تتحقق به سعادة الإنسان فى حياته الدنيا وفى الآخرة .

قال تعالى :

﴿ يا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾

(سورة يونس آية ٥٧)

والقرآن الكريم طاقة روحية لها تأثيرها البالغ فى نفس الإنسان ، من حيث تأثيره على الجانب العاطفى والانفعالى للإنسان ، وعلى أحاسيسه ومشاعره ، وعلى إيقاظ إدراكه وتفكيره ، وجلاءٍ بصيرته ، وبهذا عندما يهتدى الإنسان بهدى القرآن يصبح إنساناً جديداً ، وكأنه خلق خلقاً جديداً (١٦٣) هذا وقد سبق أن أوضحنا فى الفصل الخامس عشر الإيمان ودوره فى التوافق النفسى وعلاج الإضطرابات النفسية .

وخير مايوجه به القرآن الكريم عباد الله ، هو أن يستبصر الإنسان ذاته ويفهم نفسه ويدرك نواحى القوة والضعف فى ذاته وفى بنائه الشخصى ، فإن الله تعالى لايغير مابقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم .

ولانقصد بفهم الفرد لذاته أن يتم ذلك عقلياً فقط ، بل أن تتغير وجهة نظر الإنسان نحو ذاته ؛ بحيث يستكشف الإيجابيات التى يتسم بها سلوكه ويعيد تنظيمها بما يمكنه من تحقيق التكيف والتوافق مع ذاته .

هذا ويؤدى الاستبصار فى هذه الحالة إلى تغيير وجهة نظر الفرد نحو نفسه ونحو العالم المحيط به (١٦٤) .

والإيمان والتوجه بقلب خاشع إلى الله تعالى ، من شأنه أن يضفى على

القلب الصفاء والروح الشفافية ، وعندئذ لايكون هناك حجاب أو حاجز بين الإنسان وخالقه ، فيلهمه الله تعالى طريق الحق والهداية والخير ويرشده إلى سبل الفضيلة ويبعده عن الغواية .

والإنسان عندما يعرف ذاته ، يسعى مجاهداً لنزع مافى نفسه من شر ، إذ إنها تكون راضية مرضية ، تتصف بالتعقل ورحابة الصدر وتتجنب الباطل ، حيث ينزل الله تعالى عليها السكينة والطمأنينة .

﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾

(سورة الفجر آية ٢٧/٢٨)

ومحاسبة النفس التى يحفزنا إليها القرآن تقوم على إيضاح الخبيث من الطيب ، وتعرف صاحبها بريائها أو صدق أفعالها ، وترشد النفس إلى نسيان أمراض قلبه ، بل إن القلب السليم آنئذ يؤنب الذات ويذكر الإنسان بالثواب عندما يحسن لنفسه وغيره ويعقاب الله ووعيده عندما يحيد عن شرع الله .

إن غيظ القلوب عندما يفيق الإنسان من غفلته ، يذهب عندما يصحو الضمير من غفلته ، ويتبين الإنسان طريق الخير واليقين وحيث يتوب الله على من تاب من عناده ومكابرته .

﴿وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ﴾

(سورة التوبة آية ١٥)

والقلب قُلب والنفس قد يفتر عزمها فتتغلب على القلب والعقل ، وتلجأ إلى حيل لاشعورية كالتبرير ، وقد تخدع ذاتها وتتظاهر بفعل الخيرات ، رغم أنها تميل فى سلوكها الباطن إلى الشر ، وتخادع الله وتخادع المؤمنين حولها وماتخدع إلا نفسها .

﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾

(سورة البقرة آية ٩)

والمؤمن دائماً يبحث عن ذاته ويحاسبها ، ويضعها دائماً موضع الاتهام عندما تتظاهر بالتقوى أو تتناقض فى أفعالها .. وهو دائم الذكر لله تعالى لاييأس من رحمته أو يستسلم لأهوائه أو يقنط ، فينقطع عنه الرجاء من الله .

هذه هى سبل القرآن الكريم فى هدايته للنفس وفى علاج أمراض القلوب .

تلخيص :

* أمراض القلوب فى نظر الإسلام أصعب استحكاماً فى النفس الإنسانية عن الأمراض النفسية والأمراض العضوية ؛ إذ إن الإنسان يمكنه أن يبرأ من هذه الأمراض فى حين يصعب عليه التخلص من أمراض القلوب .

* أمراض القلوب نتيجة لسوء التوافق النفسى عند أصحابها تجعل الإنسان فى اضطراب دائم وقلق وتوتر .

* يُطلق البعض على هذه الأمراض الآفات النفسية ، حيث قد تتجمع بعضها فى صورة مجموعة مترابطة من الآفات مثل داء الرياء ، الذى تتجمع معه مظاهر أخرى من أمراض القلوب مثل الحقد والحسد والعجب والوسوسة .

* من أمراض القلوب التى قل أن يخلو منها إنسان الحقد والحسد ، وهو إما مباح أو مذموم مكروه أو محرم . وأقسى هذه الأنواع الحسد المحرم .

* يعمل الطمع على دفع الإنسان إلى تصديق أمور وهمية وخيالات ، فتطغى على العقل الأكاذيب والظنون وتنزع النفس إلى الهوى والانحراف . ومن الطمع ماهو مكروه ومحرم ومنها ماهو محمود .

* السلوك الظاهرى للمرائى يخالف سلوكه الباطنى . والرياء نوع من الشرك الخفى ، ولاتخلو منه إلا قلوب المؤمنين العارفين بالله . والمرائى يصل تعلقه بذاته إلى حد العبادة ، ويتشابه سلوكه مع سلوك النرجسى الذى يوصف فى علم النفس المعاصر على أنه العاشق لذاته .

* الكبر هو التجبر وهو التظاهر بالتواضع وحيث يُصاب الإنسان بالقلق والاضطراب ؛ إذ إن نفسه أمارة بالسوء ، عدوانية تخفيه بالرياء والنفاق والتواضع الظاهرى .

* هناك مظاهر أخرى لأمراض القلوب ومنها الغفلة والنسيان واليأس والقنوط والغرور والعجب .

* القرآن الكريم هو الطاقة الروحية التى فيها شفاء لما فى الصدور وهو سبيل الإنسان إلى إيقاظ إدراكه وتفكيره وهدايته ، عندما يفتقد الأمن والسكينة والتوافق النفسى ؛ إذ إن فيه الهداية والخلق الجديد لإنسان يغاير ماكان عليه من ضلال وفساد .

* والعلاج النفسى فى القرآن الكريم لأمراض القلوب يتم عندما يستبصر الإنسان ذاته وتتغير أفكاره عن نفسه ، ويستكشف الإيجابيات التى يتم بها سلوكه .

* الإيمان يؤدى إلى إلهام الإنسان بطريق الحق والهداية والخير ، ويرشده إلى سبل الفضيلة ويبعده عن الغواية .

* محاسبة النفس من أسس علاج أمراضِ القلوب ؛ حيث إن القلب السليم يؤنب الذات دائماً ويذكرها بالثواب ، عندما يحسن الفرد لذاته ويعقاب الله ووعيده عندما يحيد الإنسان عن جادة الصواب .

تعقيب :

* أمراض القلوب تتماثل فى علم النفس المعاصر ، فيما يُعرف بأمراض الضمير أو مايسمى صاحبها فاقد الضمير Conscienceless والذى يتبع الحيل الهروبية من تأنيب الضمير وحيث يكون ضعف الضمير أساسه الضعف الخلقى ومايترتب عن ذلك من سوء التوافق النفسى .

* وفى الصحة النفسية والعلاج النفسى فى علم النفس المعاصر ، نجد أن السوية Normality هى قدرة الفرد على التوافق النفسى والتوافق البيئى والإحساس الدائم بالأمن والسعادة ، وحيث تتحقق للفرد أهداف سليمة للحياة يسعى لتحقيقها . هذه السوية من شأنها أن يكون السلوك السوى هو السلوك العادى ؛ أى المألوف والغالب على طبيعة الحياة الإنسانية ، وحيث نجد أن الفرد السوى هو الذى يتطابق سلوكه مع أفراد مثله ، وحيث يكون تفكير هذا الفرد وأحاسيسه ومشاعره ونشاطه يتماثل مع المجموع العام من الأفراد من حوله ، وفى هذا مايحقق له الأمن النفسى ويشعره بالسعادة والتوافق الشخصى والانفعالى والاجتماعى .

* على طرف آخر نجد أن اللاسوية Abnormality تُمثل الانحراف عما هو عادى والشذوذ عن المألوف أو عما هو سوى . واللاسوية حالة مرضية يعانى منها الفرد حيث تمثل خطراً عليه ، وعلى المجتمع ، وتحتاج إلى التدخل لحماية الفرد وحماية المجتمع منه .

* والفرد اللاسوى هو الفرد الذى ينحرف سلوكه ويشذ عن سلوك الفرد العادى ، أو الجماعة التى يعيش بينها ، وحيث يختلف تفكيره ونشاطه وأحاسيسه ومشاعره عنهم ، ومن ثم يعانى من الاضطراب النفسى وسوء التوافق فى النواحى الشخصية والانفعالية والاجتماعية .

* ومن الناحية المثالية تعتبر السوية هى المثالية أو الكمال أو مايقرب منه ، إذ ليس هناك الكمال المثالى إلا لمن اصطفاه الله تعالى على الخلق أجمعين ، ووصفه فى كتابه العزيز وإنك على خلق عظيم ، وهو كمال النبى الهادى البشير محمد عليه أفضل صلاة وتسليم .

بينما اللاسوية من ناحية المعيار المثالى تمثل الانحراف والشذوذ عن المثل الأعلى أو الكمال .

* والإنسان دائب الصراع مع ذاته ومع مجتمعه وبيئته ؛ ولذلك فإن السوية وقدرة الفرد على التوافق النفسى والبيئى وشعوره بالسعادة مع نفسه ومع الآخرين وقدرته على تحقيق ذاته ومواجهة متطلبات الحياة ، هذه السوية قد تنقلب إلى اللاسوية بين آن وآخر ؛ إذ إن الفرق بين السوية واللاسوية فرق فى الدرجة ، وليس فى النوع . ومن ثم فإن الإنسان حالته النفسية بين السوية واللاسوية وبين العادية والشذوذ وبين الصحة النفسية والمرض النفسى تمثل عدم الاستقرار فى الحياة الإنسانية .

* ومرجع ذلك الصراع الذى يعانى منه الإنسان ، منذ خلق الله آدم وحواء حيث :

﴿ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ ﴾

(سورة الأعراف آية ٢٢)

وحيث :

﴿ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ﴾

(سورة طه آية ١٢١)

وكانت الغواية سبيل آدم ونسله من البشر من بعده ، بل إن الغواية أيضاً كانت سبيل ماحدث بين ولديه قابيل وهابيل .

* والصراع النفسى وافتقاد الأمن النفسى فى نظر الإسلام مرجعه أسباب عديدة منها أمراض القلب ، التى قمنا بإيضاح بعض أنماطها فى هذ الفصل ، إضافة إلى الصراع الدائب بين قوى الخير وقوى الشر والغواية والضلال ، وغير ذلك من أسباب ، وحيث أبان الإسلام كيف للإنسان أن يتجنب طريق الغواية ويتبع طريق الهدى والحق .

* وأقسى ماتعانى منه النفس الإنسانية هو مايُعرف بأمراض القلوب إذ إنها سبيل الإنسان إلى الانحراف والشذوذ واللاسوية فى حياة الإنسان ، وكلما اشتد سعار هذه الأمراض فى النفس كلما اضطربت الحياة التوافقية للفرد ، واشتدت وطأة هذه الأمراض عليه وعلى أفراد مجتمعه .

* ومن الناس من يعمل السوء جهراً أو باطناً ويُخادع نفسه وغيره ، إذ إنه فى نظره الحق والحق منه بعيد . وهذا الإنسان هو المنافق الحسود الكاذب المرائى المخادع المتكبر المرجف الفاسق المغرور ، فقلبه مريض وعقله متهور أحمق

ونفسه فاجرة والعياذ بالله .

* إن أمراض القلوب فى رأينا هى من مسببات الأمراض العضوية والاضطرابات والأمراض النفسية العصابية والذهانية .

* إن الله تعالى خلق الإنسان ويعلم ماتوسوس به نفسه التى سواها وألهمها فجورها وتقواها ، وهداه النجدين ؛ ولذلك على الإنسان أن يختار ويدقق فى اختياره إما طريق الهداية أو طريق الغواية وإما طريق الحق أو طريق الباطل .

* إن الإنسان كى ينعم بالأمن النفسى والتوافق النفس مطالب بالتقوى فعليه أن يتقى وأن يصبر ..

﴿ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴾

(سورة آل عمران آية ١٨٦)

والله تعالى فى محكم آياته يدعو الإنسان أن يهجر فسقه ولايتبع هوى النفس ، الذى هو أساس من أسس مرض القلوب ، وأن يصدق الإنسان فى ظاهره مع باطنه ولايكون كالذى وصفه الله تعالى :

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ (٢٠٤) وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴾

(سورة البقرة آيات ٢٠٤/٢٠٥)

هذا الإنسان إذا اتبع هذا الهدى ، فإنما هو من هدى الله . ومن يهده الله فلا مضل له :

﴿ وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انتِقَامٍ ﴾

(سورة الزمر آية ٣٧)

وهذا الإنسان يعيش فى أمن وأمان .

* لذلك فإن الأمراض النفسية والعصبية التى كثرت تصنيفاتها فى مجالات الصحة النفسية والعلاج النفسى كفروع لعلوم النفس المعاصر ، يمكن أن نقول إن من مسبباتها أمراض القلوب التى يصاب بها من لا إيمان لهم ، ممن يتهالكون على أهوائهم ، فتشيع الفاحشة والاضطراب فى سلوكهم ، وهم من الذين أغفل

الله قلوبهم عن ذكر الله تعالى واتبعوا أهواءهم . وهؤلاء الذين أعرضوا عن ذكر الله فإن الله معذبهم فى حياتهم الدنيا إذ إنهم يعيشون معيشة ضنكا ، وجزائهم فى الآخرة بئس الجزاء .

* والمؤمنون إيماناً حقاً والذين عمرت قلوبهم بالتقوى ، والذين اهتدوا هدى وأتاهم الله تعالى تقواهم ، قلوبهم سليمة ، يخافون يوماً تتقلب فيه الأبصار لذلك فهم فى خشية الله يسلكون بإخلاص وفى طريق الله سائرون ، وقلوبهم سليمة لاحسد ولابغضاء ولارياء أو نفاق .

هؤلاء المؤمنون صادقون مع أنفسهم فى الظاهر والباطن ، فقد صدقوا ما عاهدوا الله عليه من تقوى وإيمان ، وهم من الموفين بعهدهم إذا عاهدوا ، ولذلك يتذكرون قوله تعالى :

﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ ﴾

(سورة النحل آية ٩١)

ولذلك فهم العامرة قلوبهم بالتقوى ، والذى تطمئن قلوبهم بذكر الله ، ويستبشرون دائماً بنعمة من الله وفضل .

* هذا وسبل القرآن الكريم فى آيات بينات عديدة وما أوصانا به رسول الله صلى الله عليه وسلم والمصطفى الآمين ، فى هداية النفس وعلاج أمراض القلوب، وقد حق قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾

(سورة الإسراء آية ٩)

تمـــارين :

١ – تعانى النفس الإنسانية من أمراض القلوب ، أكثر مما تعانى من الأمراض العضوية أو النفسية ؟ وضح .

٢ – من أمراض القلوب التى لايخلو منها إنسان .. الحقد والحسد . اشرح .

٣ – يُصاحب الطمع أوهام وخيالات عند الطامعين . وضح .

٤ – يختلف السلوك الظاهر عن السلوك الباطن للمرائى . وضح .

٥ – من خصائص النفس الأمارة بالسوء .. التكبر . وضح .

٦ – القرآن الكريم هو سبيل الإنسان إلى الأمن والسكينة والتوافق النفسى . وضح .

الباب الرابع

الإسلام وتكامل بناء الشخصية

الباب الرابع

الإسلام وتكامل بناء الشخصية

تمهيد :

الشخصية فى مفهوم علم النفس المعاصر تمثل النمط الذى يحدد سمات وخصائص شخص معين ، بناء على ملاحظة أنماط سلوكه ، الذى تكون له دلالته ومعناه بين الفرد والآخرين ، والعمليات التى تحدث بداخل هذا الفرد .

ومعنى ذلك أن الشخصية تمثل نظام خصائص الفرد وأساليبه السلوكية فى الحياة ، والتى منها تتحدد توافقاته النفسية تجاه ظروف البيئة التى يعيش فيها .

والشخصية فى تعريفها هذا ليست مرادفة للسلوك ، بل هى بناء معقد أو هى التفسير النظرى لما يشتق من الملاحظات السلوكية .

وهذا التعريف للشخصية يقوم على أساس أنه لايحمل علماء النفس وحدهم عبء تفهم جميع الأنماط السلوكية التى يصدرها الإنسان ، بل يتضامن معهم جميع الأخصائيين الذين يتعاملون مع السلوك الإنسانى .

ومعنى ذلك أننا يجب أن نلم جميع مجهودات العاملين فى حقل الشخصية، لكى نصل إلى تفهم أفضل وأعمق .

وهذه المجهودات تتمركز حول علم النفس الإجتماعى ، وعلم النفس التجريبى ، وعلم النفس البيولوجى ، والفسيولوجى ، والأنثربولوجيا الثقافية والعلوم الإجتماعية والتربوية .

وكل هذه الميادين مما لاشك فيه تلقى أضواءً يُعتد بها فى فهم طبيعة الشخصية . وبالتالى يجب على دارسى الشخصية الاهتمام بهذه الميادين ؛ حتى يستطيعوا الوقوف على حقيقة الشخصية الإنسانية .

ويعنينا فى ختام التفسير الإسلامى للسلوك الإنسانى ، أن نوضح المفهوم الإسلامى لتكامل بناء الشخصية ، حيث إن من خصائص تكامل بناء الشخصية التى تتوافر فى الفرد السوى ، أنها تقوم على حفظ التوازن بين جوانب الشخصية

المختلفة والمتطلبات الاجتماعية والحيوية فى حياة الإنسان ، على حين أنه إذا حدث اختلال فى هذا التوافق أو التوازن ، فإن الفرد يتعرض لإحدى حالات اضطراب الشخصية .

ويشتمل هذا الباب على توضيح خصائص إنسانية الإنسان وتكاليف وممارسات الإنسان فى الإسلام ، حتى يمكن أن نوضح المنظور الإسلامى لتكامل وتوازن أبعاد الشخصية .

كما نعرض أيضاً البناء المتكامل للإنسان ، الذى خلقه الله تعالى فى أحسن تقويم .

لذلك يشتمل الباب الرابع الفصول التالية :

* الفصل السابع عشر : الهدى الإسلامى والبناء الإنسانى .

* الفصل الثامن عشر : المنظور الإسلامى لتكامل وتوازن أبعاد الشخصية .

* الفصل التاسع عشر : الإسلام والإنسان ... فى أحسن تقويم .

الفصل السابع عشر

الهدى الإسلامى والبناء الإنسانى

المحتوى :

* تمهيد
* إنسانية الإنسان .. والعقائد عامة والعقيدة الإسلامية خاصة .
* القرآن الكريم والبشر .
* القرآن الكريم والإنس .
* خصائص إنسانية الإنسان فى القرآن الكريم .
* العقيدة الإسلامية والإنسان الكائن المكُلف .
* تلخيص .
* تعقيب .
* تمارين .

الهدى الإسلامى والبناء الإنسانى

تمهـيـد :

قبل أن ندخل إلى الموضوع الرئيسى لدراستنا فى المنظور الإسلامى لتكامل وتوازن أبعاد الشخصية ، علينا أن نتعرف موضع الإنسان باعتباره المحور الرئيسى للدراسة الخاصة بالتفسير الإسلامى للسلوك الإنسانى .

لذلك نعرض فى هذا الفصل :

القرآن الكريم ... وخصائص إنسانية الإنسان .

الهدى الإسلامى ... وتكاليف وممارسات الإنسان .

إنسانية الإنسان والعقائد عامة والعقيدة الإسلامية خاصة :

الإنسان ... وخاصة السلوك الإنسانى وموضعه ومكانه فى الوجود كله ، وبين الخلائق الحية على هذه الأرض التى ملكها واستعمرها ، وبين أبناء نوعه وأبناء الجماعة التى يعيش فيها ، وبين كل نسبة ظاهرة أو خفية ينتمى إليها .. ذلك المخلوق الذى خلقه سبحانه وتعالى وعلمه البيان وأكرمه ونعمه ، ثم رده سبحانه وتعالى إلى أسفل سافلين ، إلا أولئك الذى أنعم الله عليهم وألبسهم لباس التقوى وجعل فى قلوبهم الرحمة وهداهم إلى صراط الإيمان ، وكانوا من الصالحين فلهم أجر عند خالقهم غير ممنون .

هذا الإنسان اختلفت النظرة إليه بتعدد العقائد التى يروجها دعاتها باسم المادية أو الفاشية أو العقلية ، وكل هذه عقائد من صنع الناس وليست من عند الله، إذ إنهم يعتقدون أن عقائد الغيب معدومة أو موجودة كمعدوم .

وأهل الكتاب يتدبرون القول ، فيتبعون أحسنه إذا تدبروا فلم يأخذوا بعقيدة من هذا العقائد .

هذا الإنسان عبر العقائد المختلفة ، (١٦٥) كانت النظرة المادية التاريخية إليه على أنه عملة اقتصادية فى سوق المال والصناعة والتجارة ، تعلو قيمته وتهبط فى طبقاتها بمعيار العرض والطلب ، وصفقات الرواج والكساد .

أما إنسانية الإنسان بالنسبة للمادة التاريخية ، فلم يكن لها وجود البتة مع طوائف المادية التى تحكمها الأسعار والأجور وحيث تضيع إنسانية الإنسان .

أما الفاشية فقد نظرت إلى الإنسان على أنه .. واحد .. من عنصر سيد أو عنصر مسود .

وأن الإنسانية وأبناء الإنسانية فى النظام الفاشى الاستبدادى جميعاً عبيد للعنصر السيد ، والعنصر السيد فى هذا النظام ، قبل ذلك عبد للسيد المختار بغير إختيار .

وكانت العقلية التى تنادى بأن الإنسانية للإنسان شىء لاوجود له ، ووهم من أوهام الأذهان ، وأن الشىء الموجود حقاً هو الفرد الواحد .

وبرهان وجود الإنسان عند العقلانيين أن يفعل الفرد ما استطاع من نفع أو أذى ، كلما آمن المغبة من سائر الأفراد والأحداث .

أما عن العقائد الإلهية فإن مكان الإنسان حُدد مكانه من إخوته فى آدم وحواء .

ونادى أهل هذه العقائد بأن الإنسان إنسانان ... إنسان صحيح مقبول ... فى كل ما اجتباه مولاه على هواه .

... وإنسان زائف مدخول .

ونادوا أيضاً بأن الإنسان يولد بذنب غيره ، ويموت بذنب غيره ، ويبرأ من الذنب بكفارة غيره ، ويمضى بين النعمة واللعنة بقدر من الأقدار ، لانصيب له فيها من عصيان أو طاعة ومن أباء أو اختيار .

وجاء القرآن .. الذى لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . فهو من لدن عزيز حكيم ، وسمع الناس من القرآن غير ذلك ، فهم متدبرون يستمعون إلى العقل كما يستمعون إلى الإيمان ، إذا اطمأنوا وثبتوا على اطمئنانهم إليه .

إن الإنسان فى العقيدة الإسلامية هو الخليفة المسئول بين جميع ماخلق الله ، وهو الكائن الذى يدين بعقله ويدرك ويتدبر فيما يرى ومايسمع .

وهو الكائن الذى يدين بوجدانه ومشاعره فيما طواه الغيب ، وفيما لاتدركه الأبصار والأسماع .

وإنسانية الإنسانية فى العقيدة الإسلامية تعتبر من أسلافها إلى أعقابها أسرة واحدة لها نسب واحد وإله واحد ، أزكاها وأفضلها من عمل حسناً وأتقى سيئاً ، وصدق النية فيما أحسنه وأتقاه .

إذاً ماذا عن سمات إنسانية الإنسان ، كما وردت فى كتاب الله العزيز ... الذى جمع فأوعى ؟

القرآن الكريم والبشر :

عند استقراء مواضع ورود «بشر» فى القرآن الكريم ، يتبين أن البشرية هى الآدمية التى تأكل الطعام وتمشى فى الأسواق ، وفيها يلتقى بنو آدم جميعاً على وجه المماثلة التى هى أتم المشابهة . (١٦٦)

وبهذه الدلالة ورد لفظ «بشر» .. اسم جنس .. فى خمسة وثلاثين آية من آيات القرآن الكريم ، منها خمسة وعشرون موضعاً فى بشرية الرسل والأنبياء ، مع النص على المماثلة فيما هو من ظواهر البشرية وأعراضها المادية ، بينهم وبين سائر البشر .

قال تعالى :

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾

(سورة الكهف – آية ١١٠)

وقد تأتى الآيات فى الذكر الحكيم فى تقرير بشرية الرسل دون التصريح بلفظ المماثلة فيها لبشرية الناس جميعاً ، ولكن السياق فيها شاهد على هذه المماثلة، وإن لم تذكر بلفظها .

قال تعالى :

﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا (٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ

رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً ﴾

(سورة الإسراء – آيات ٩٠/٩٣)

أما عن «الإنسان» .. «والناس» فى كتاب الله العزيز ، فقد ورد لفظ الناس فى النص القرآنى نحو مائتين وأربعين مرة بدلالة واضحة على اسم الجنس للسلالة الآدمية ، أو هذا النوع من الكائنات فى عمومه المطلق .

قال تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾

(سورة الحجرات – آية ١٣)

وهو أيضاً غير الأنس ، وإن كان بينهما ملحظ مشترك من الأصل اللغوى لمادة «أ ن س » فى دلالتها على نقيض التوحش .

ثم يختص كل من اللفظين فى البيان القرآنى ، بملحظ متميز وراء ذلك الملحظ المشترك .

القرآن الكريم والإنس :

يأتى دائماً لفظ الإنس فى الذكر الحكيم مع «الجن» على وجه التقابل ، ولايتخلف فى كل الآيات التى ورد فيها ذكر «الإنس» وعددها ثمانى عشرة آية .

وملحظ «الإنسية» هنا بمعنى «عدم التوحش» وهو المفهوم صراحة من مقابلتها «بالجن» فى دلالتها أصلاً على الخفاء ، الذى هو قرين التوحش .

وبهذه الإنسية يتميز الجنس البشرى عن أجناس أخرى خفية مجهولة لاتنتمى إلينا ولاتحيا حياتنا .

وليس من الضرورى أن يقتصر مفهوم الجن على ما ألفنا من إطلاقه على تلك الأشباح ، التى لاتظهر لنا إلا فى تهاويل الظلمة وتصورات الوهم ، وإنما يتسع اللفظ – غير بشرى يعيش فى – عوالم غير منظورة ولامدركة ، وراء حدود عالمنا الأرضى الذى نعيش فيه نحن الإنس (البشر) ، ولايخضع للسنن والنواميس المعروفة التى توجه حياتنا وتحكمها .

وبهذا المدلول الواسع تنتفى شبهة الخرافة التى تدفع كثيراً من العصريين إلى رفض الاعتقاد فى وجود الجن ، إذا قدرنا أن الكشوف العلمية الحديثة لاتنفى احتمال وجود جنس غيرنا ، يعيش فى عوالم خفية كالكواكب ، لانزال تجهلها وإن

لم نكف عن السعى إلى اكتشاف خفاياها ومجاهلها .

الدلالة اللغوية لمعنى الإنسان :

سبق الإشارة إلى أن لفظ الإنسان يلتقى مع لفظ الإنس فى ملحظ مشترك من الدلالة اللغوية الأصلية للمادة على نقيض التوحش ، ثم ينفرد كل منهما بملحظ خاص يميزه عن الآخر .

فدلالة الإنسية هى المتعينة بمقتضى استعمال القرآن الكريم للفظ الإنس دائماً فى مقابل الجن بما تعنى من توحش وخفاء .

أما «الإنسان» فليس مناط إنسانية ، فيما نستقرئ من آيات البيان المعجز ، مجرد كونه منتمياً إلى فصيلة الإنس ، كما أنه ليس مجرد بشر يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق .

وإنما الإنسانية فى الإنسان هى ارتقاء إلى الدرجة التى تؤهله للخلافة فى الأرض واحتمال تبعات التكليف وأمانة الإنسان ، لأنه المختص بالعلم والبيان والعقل والتمييز ، مع مايلابس ذلك كله من :

١ - تعرض للابتلاء بالخير والشر .

٢ - وفتنة الغرور بما يُحس من وقته وطاقته .

٣ - ماينتابه من الشعور بقدرته ومكانته فى الدرجة العليا من درجات التطور ومراتب الكائنات .

وفى هذا كله ماينسيه فى نشوته وكبريائه وغروره ، إنه المخلوق الضعيف الذى يعبر رحلة الدنيا من عالم المجهول إلى عالم الغيب على الجسر المفضى حتماً إلى حفرة من تراب . (١٦٧)

قال تعالى :

﴿ أَمْ لِلإِنسَانِ مَا تَمَنَّىٰ فَلِلَّهِ الآخِرَةُ وَالأُولَىٰ ﴾

(سورة النجم آيات ٢٤/٢٥)

خصائص إنسانية الإنسان فى القرآن الكريم :

وعندما نمضى فى تدبر آيات القرآن عن هذا الإنسان بوجه خاص اجتلاءً لملامح صورته وخصائص إنسانيته ، التى يتميز بها عن مجرد كونه فرداً من النوع البشرى أو من الإنس ، نجد أن لفظ الإنسان فى القرآن الكريم ورد فى خمسة

وستين موضعاً نتدبر سياقها جميعاً ، فنطمئن إلى الدلالة المميزة للإنسانية .

ونبدأ بسورة العلق أول مانزل من كتاب الله ، فيها يمكن أن نجتلى الملامح العامة للإنسان وقد تكرر ذكره فى هذه السورة ثلاث مرات :

أ – تلفت إلى آية خلقه من علق .

ب– تشير إلى اختصاصه بالعلم .

جـ– تحذر مما يتورط فيه من طغيان حين يتمادى به الغرور ، فيرى أنه إستغنى عن خالقه .

قال تعالى :

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ ﴾

(سورة العلق آيات ٨/١)

هذه هى السمات المجملة للإنسان كما بدت فى السورة الأولى من القرآن الكريم . ثم تتابعت الآيات من بعد ذلك تزيدها جلاءً وبياناً بما تضيف إليها من إضاءة كاشفة لدقيق الملامح ، وخفى النوازع فى خصائص وسمات الإنسان .

وقد تكررت الإشارة إلى خلق الإنسان من علق أو من تراب ومن نطفة ثم علقة فى آيات كثيرة .

وليس من شأنى (عائشة عبدالرحمن) هنا أن أعرض لما يخوض فيه المحدثون من تأويلات علمية لهذه الآيات ، وإنما نقصر الجهد فى تدبر آيات كتاب الله العزيز الحكيم ، ونصغى إلى إيحاء سياقها .

وآيات خلق الإنسان جاءت كلها فى سياق العظة والاعتبار ، لافتة إلى أطوار الجنسن البشرى التى يدركها الناس بأيسر ملاحظة وانتباه .

ويبدو فى آيات الذكر الحكيم العمد الواضح إلى الاستدلال بها على القدرة الإلهية على البعث .

قال تعالى :

﴿ فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴾

(سورة الطارق آيات ٥/٨)

﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ﴾

(سورة القيامة آيات ٣٧/٤٠)

وإذا كان الأسلوب العلمى فى علوم التشريح والأحياء لايتعلق بمثل الكفر أو الشكر أو الإيمان والخصومة والإبتلاء والغرور ... فإن طبيعة النص القرآنى من حيث هو كتاب هدى ودين ، تقتضى توجيه كل لفظ وآية إلى مناط الهداية والاعتبار. ولمثل هذه الغاية يحرص كتاب الإسلام على تذكير الإنسان بهوانه وضعفه ، فيلفته إلى خلقه من تراب أو من طين أو من نطفة ، ثم من علقة أو من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب ، ولاشىء من هذا يحتاج الإنسان فيه إلى دراسة علمية ليدركه كبحاً لجماح غروره لكيلا يتجاوز قدره فيطغى ويستكبر .

والإنسان مظنة أن يتمادى به الطغيان والغرور إلى حد الكفر بخالقه والوقوف منه سبحانه موقف خصيم مبين .

قال تعالى :

﴿ خَلَقَ الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾

(سورة النحل آية ٤)

﴿ أَوَلا يَذْكُرُ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴾

(سورة مريم آية ٦٧)

ومن شأن الإنسان أن ينسى ربه فى حال النعمة والقوة فأما إذا مسه الضر فإنه يذكر خالقه فى ضراعة وابتهال :

﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَائِماً فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ ﴾

(سورة يونس آية ١٢)

﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُون إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنسَانُ كَفُوراً ﴾

(سورة الإسراء آية ٦٧)

والإنسان فى القرآن الكريم هو الذى يختص بالعلم :

﴿ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾

(سورة العلق آية ٥)

وعلمه البيان :

﴿ الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الإِنسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾

(سورة الرحمن آيات ١/٤)

وبما تهيأ له من وسائل التعقل والتبصر والتمييز بين الخير والشر وذلك كله من جوهر إنسانيته وبها يحمل الأمانة ويحتمل تبعات التكليف ومسئولية الثواب والعقاب .

﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَىٰ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الأَوْفَىٰ ﴾

(سورة النجم آيات ٣٩/٤١)

ثم إن الإنسان هو الذى يحتمل الوصية :

﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴾

(سورة لقمان آية ١٤)

كما أنه يحتمل هموم المكابدة واقتحام العقبات لتحقيق وجوده الإنسانى وأداء مسئوليته الاجتماعية :

﴿ لقَدْ خَلَقْنَا الإنسَانَ في كَبَدٍ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْه أَحَدٌ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُّبَدًا أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يرَهُ أَحَدٌ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ﴾

(سورة البلد آيات ٤/١٢)

كما أن الإنسان هو الذى يتعرض لتجربة الابتلاء ومحنة الغواية :

﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ من نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾

(سورة الإنسان آيات ٢/٣)

ويظل الإنسان ماعاش كادحاً لمصيره ، محتملاً هموم المكابدة وتجربة الابتلاء حتى يحين الأجل فيمضى . أليست خصائص إنسانية الإنسان فى رحلته العابرة مابين الحياة والموت لاتعدو أن تكون فى مجملها ، إلا كما وصفها البيان القرآنى :

﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسَانَ في أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾

(سورة التين آيات ٤/٦)

العقيدة الإسلامية ومسئولية الإنسان :

عندما جاء الإسلام ظهرت عقيدة الرشد والهداية ، وكان «المخلوق المسئول» صفوة جميع المخلوقات والصفات التى ذكرها القرآن عن الإنسان ، إما خاصة بالتكليف أو عامة فى معارض الحمد والذم من طباعه وفعاله .

ولقد ذكر الإنسان فى القرآن بغاية الحمد وغاية الذم فى الآيات المتعددة فى الآية الواحدة ، ولايعنى ذلك أنه يحمد ويذم فى آن واحد وإنما معناه أنه أهل للكمال والنقص بما فطر عليه من استعداد لكل منهما ، فهو أهل للخير والشر لأنه أهل للتكليف . (١٦٨)

والإنسان مسئول عن عمله فرداً وجماعة لايؤخذ واحد بوزر واحد ولا أمة بوزر أمة :

﴿ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾

(سورة الطور آية ٢١)

أما مناط المسئولية فى القرآن فهو جامع لكل ركن من أركانها ، فهى بنصوص الكتاب قائمة على أركانها المجملة : تبليغ وعلم وعمل فلاتحق التبعة على أحد لم تبلغه الدعوة فى مسائل الغيب ومسائل الإيمان :

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ ﴾

(سورة يونس آية ٤٧)

أما العلم فإن أول آية فى الكتاب تلقاها نبى الهداية ، كانت أمراً بالقراءة وتنويها بعلم الله وعلم الإنسان :

﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾

(سورة العلق آية ٤/٥)

وأول فاتحة فى خلق الإنسان كانت فاتحة العلم الذى تعلمه آدم وامتاز به على سائر المخلوقات :

﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾

(سورة البقرة آيات ٣١/٣٢)

والعمل بالنسبة للإنسان مشروط فى القرآن بالتكليف الذى تسعى طاقة المكلف وبالسعى الذى يسعاه لديه ولنفسه :

﴿ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا ﴾

(سورة البقرة آية ٢٨٦)

ورُسل البلاغ هم أول المكلفين بالعلم والعمل أمامهم جميعاً أمة واحدة ، هى الأمة الإنسانية التى يحكمها إله واحد هو رب العالمين :

﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴾

(سورة المؤمنون آيات ٥١/٥٢)

وفيما ذُكر فيه الإنسان من آيات الكتاب وصف له ، وهو فى الذروة من الكمال المقدور له بما استعد له من التكليف ووصف له ، وهو فى الدرك الأسفل من الحطة التى ينحدر إليها بهذا الاستعداد ، وكل هذه الآيات شملت نصوص الأمر والنهى والعظة والتذكير والثواب والعقاب ، فالإنسان أكرم الخلائق بهذا الاستعداد بين خلائق السماء والأرض من ذى حياة أو غير ذى حياة :

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾

(سورة الإسراء آية ٧٠)

ولكن الإنسان ينفرد بين الخلائق بمساوئ لايوصف بها غيره ؛ لأن السيئة والحسنة على السواء لايوصف بها مخلوق غير مسئول . وهذا المخلوق المسئول يوصف دون غيره من الخلائق بالكفر والظلم والطغيان والخسران والفجور والكفور؛ لأنه دون غيره أهل للإيمان والعدل والرجحان والعفاف .

﴿ بَلْ يُرِيدُ الإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ﴾

(سورة القيامة آية ٥)

﴿ إِنَّ الإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴾

(سورة العاديات آية ٦)

وقد يذكر الإنسان بالضدين فى الآية الواحدة ، كما جاء فى قوله تعالى :

﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴾

(سورة التين آية ٤/٥)

والجمع بين النقيضين فى الإنسان ينصرف إلى وصف واحد وهو وصف الاستعداد الذى يجعله أهلاً للترقى إلى أحسن تقويم ، وأهلاً للتدهور إلى أسفل سافلين .

على أن الآيات التى قصر منها القول على خلق جسد الإنسان لم تخل مما يوحى إلى المخلوق المسئول أن أطوار خلقه السوى إعداد لما هو أشرف من حياته الحيوانية ، وبرهان من براهين التبليغ برسالة الغيب ، عسى أن ينظر فى الخلق فيرى فيه آثار الخالق الذى لاتدركه الأبصار والأسماع :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾

(سورة المؤمنون آيات ١٢/١٤)

ولايُسأل الإنسان عمن يجهل ولكنه يسأل عما علم وعما وسعه أن يعلم ، وما من شىء فى عالم الغيب أو عالم الشهادة هو محجوب كله عن علم الإنسان فما وسعه من علم فهو محاسب عليه .

العقيدة الإسلامية والإنسان الكائن المكلف :

القرآن الكريم كتاب تبليغ وإقناع وتبيين وقوام هذه الفضيلة فيه هذا التوافق التام بين أركانه وأحكامه ، وبين عقائده وعباداته وبين حجته ومقصده ، فكل ركن من أركانه يتنزل فيه بأقداره ويوافق فى تفصيله سائر أركانه ، التى به تتم أو يتم بها على قدر مبين . (١٦٩)

وليس أتم ولا أعجب من التوافق بين تمييز الإنسان بالتكليف وبين خطاب العقل فى كتاب الله العزيز بكل وصف من أوصاف العقل ، وكل وظيفة من وظائفه فى الحياة الإنسانية .

ومكان الإنسان فى القرآن الكريم هو أشرف مكان له فى ميزان العقيدة وفى ميزان الفكر ، وفى ميزان الخليقة الذى توزن به طبائع الكائن بين عامة الكائنات فهو الكائن المكلف ، وهو كائن أصوب فى التعريف من قول القائلين «الكائن الناطق» وأشرف فى التقدير ، وليس الكائن الناطق بشىء إن لم يكن هذا النطق أهلاً لأمانة التكليف . والقرآن الكريم ميز الإنسان بخاصة التكليف ، وهو الكتاب الذى امتلأ بخطاب العقل بكل طاقة من طاقاته ، وكل وظيفة عرفها له العقلاء والمتعلقون، وفيما يصدر منه ومايئول إليه .

والعقل وازع «يعقل» صاحبه عما يأباه له التكليف . والعقل فهم وفكر يتقلب فى وجوه الأشياء وفى بواطن الأمور .

والعقل رشد يميز بين الهداية والضلال .

والعقل روية وتدبير .

والعقل بصيرة تنفذ وراء الأبصار .

والعقل بكل هذه المعانى موصول بكل حجة من حجج التكليف ، وكل أمر بمعروف وكل نهى من محظور ..

أفلا يعقلون ؟ أفلا يتفكرون ؟ أفلا يبصرون ؟ أفلا يتدبرون ؟ أليس منكم رجل رشيد ؟ أفلا تتذكرون ؟

إن هذا العقل بكل عمل من أعماله ، التى يناط بها التكليف حجة على المكلفين فيما يعنيهم من أمر الأرض والسماء ، ومن أمر أنفسهم ومن أمرخالقهم وخالق الأرض والسماء لأنهم :

﴿ يَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً ﴾

(سورة آل عمران آية ١٩١)

وإذا كانت هذه خصائص إنسانية الإنسان فى القرآن الكريم وتكاليف وممارسات الإنسان فى الهدى الإسلامى ، فما المنظور الإسلامى لتكامل وتوازن أبعاد الشخصية ؟

تلخيص :

* يمثل البناء الشخصى للإنسان نظام خصائص الفرد وأساليب سلوكه ، والتى يتحدد منه التوافق النفسى تجاه ظروف البيئة التى يعيش فيها .

وتكامل بناء الشخصية يقوم على حفظ التوازن بين الجوانب المختلفة للشخصية والمتطلبات الاجتماعية والحيوية فى حياة الإنسان . وإذا حدث اختلال فى هذا التوافق أو التوازن ، فإن الفرد يتعرض لاضطراب فى الشخصية .

* فى البناء الإنسانى اختلفت النظرة إلى الإنسان بتعدد العقائد التى يروجها دعاتها بإسم المادية أو الفاشية أو العقلانية .

* إنسانية الإنسان بالنسبة للمادية التاريخية لم يكن لها وجود .

* ونظرت الفاشية إلى الإنسان على أنه واحد من عنصر سيد أو عنصر مسود .

* وكانت نظرة الإنسان عند العقلانيين بأن إنسانية الإنسان شىء لاوجود له ، ووهم من أوهام العقل ، وأن الشىء الموجود حقاً هو الفرد الواحد .

* الإنسان فى العقيدة الإسلامية هو الخليفة المسئول بين جميع ماخلق الله وهو الكائن الذى يدين بعقله ويدرك ويتدبر فيما يرى ومايسمع .

* ورد فى القرآن لفظة البشر التى تفيد أن البشرية هى الآدمية المادية ، ووردت فيما يدل على بشرية الرسل والأنبياء ، مع النص على المماثلة فيما هو من ظواهر البشرية وأعراضها المادية ، أو دون التصريح بلفظ المماثلة فيها لبشرية الناس جميعاً .

* لفظ الإنسان فى القرآن يدل على اسم الجنس للسلالة الآدمية ، ويأتى لفظ الإنس فى الذكر الحكيم ، مع الجن على وجه التقابل والأنسية بمعنى عدم التوحش.

* إنسانية الإنسان فى الذكر الحكيم هى ارتقاء إلى الدرجة التى تؤهله للخلافة فى الأرض ، واحتمال تبعات التكليف وأمانة الإنسان لأنه المختص بالعلم والبيان والعقل والتمييز .

* وصف القرآن الكريم الإنسان بأوصاف مختلفة .

* الإنسان فى العقيدة الإسلامية أهل للخير والشر لأنه أهل للتكليف . ووصف الإنسان فى الذروة من الكمال المقدور له بما استعد له من التكليف ، ووصف وهو فى الدرك الأسفل من الحطة التى ينحدر إليها بهذا الاستعداد ، رغم أنه أكرم الخلائق إلا أنه يوصف بمساوئ لايوصف بها غيره .

* وليس أتم ولا أعجب من التوافق بين تمييز الإنسان بالتكليف وبين خطاب العقل فى كتاب الله العزيز بكل وصف من أوصاف العقل ، وكل وظيفة من وظائفه فى الحياة الإنسانية وأنه أهل لأمانة التكليف .

تعقيب :

* لاتهتم الدراسات النفسية المعاصرة «بالإنسان» والبحث عن وظيفته فى الحياة ودوره وطبيعة وجوده وحدود هذا الوجود ؛ حيث ينظر إلى ذلك على أنه ليس من اختصاص «علم النفس» مثل هذه المباحث ، بل إنها سبيل الفلسفة ، وحيث الاهتمام الأكبر فى علم النفس بسلوك الإنسان وتوافقه .

* وينظر «علم النفس» بتعدد ميادينه إلى الواقع النفسى للإنسان ؛ أى السلوك والتوافق البيئى للإنسان وحيث تفرعت وتشعبت مجالات واهتمامات الدراسات النفسية وفق هذه المحاور الرئيسية الخاصة ، وحيث انبثق عديد من النظريات والتطبيقات الخاصة بالسلوك عند الإنسان ، وليس عن خصائص إنسانية الإنسان أو الجانب الخلقى منه ، والذى لم يلق أى اهتمام البتة .

* وليس هناك مايُعرف بعلم النفس الإسلامى ، ولانقر مثل هذه التسمية ؛ إذ ليس فى كتاب الله العزيز نظريات نفسية بل اشتمل كتاب الله على عديد من أحوال النفس الإنسانية وأحوال القلب ، ومن ثم فهناك المعلومات التى يمكن أن تعطينا مجالاً واسعاً عن النفس الإنسانية والسلوك الإنسانى .

* والإسلام كما جاء فى كتاب الله العزيز وسنة نبيه المباركة وما أفاض به التشريع الإسلامى وجهود علماء المسلمين أوضح الكثير عن معرفة ومكونات النفس الإنسانية فى استوائها وانحرافها وصحتها ومرضها ووسائل التوجيه والإرشاد ومعالجة الانحراف على أساس سليم .

* وأسمى مافى التفسير الإسلامى للسلوك الإنسانى ، هو دراسة النفس الإنسانية وأحوال النفس فى اتصالها بالله خالق الإنسان ، ومودع مافيه من طاقات وإستعدادات .

* وحيث ورد فى الذكر الحكيم أوصاف عديدة عن الإنسان ، فقد أفاد ذلك فى تفسير أوفى للسلوك الإنسانى من وجهة نظر الإسلام .

تمـــارين :

١ – تكامل بنية الشخصية يقوم على حفظ التوازن بين مكونات الشخصية . وضح.

٢ – تعددت وجهات النظر إلى الإنسان بتعدد العقائد . اشرح .

٣ – وصف القرآن الكريم الإنسان بأوصاف مختلفة . وضح .

٤ – فى العقيدة الإسلامية وصف للإنسان بأنه أكرم الخلائق . وضح .

الفصل الثامن عشر

المنظور الإسلامي لتكامل وتوازن أبعاد الشخصية

المحتوى :

* تمهيد
* مقومات الشخصية فى بنية الإنسان .
* البناء النفسى للإنسان فى الإسلام .
* تحديد كيفية خلق الإنسان وعلاقته بالوسط الكونى .
* النظرة الكلية والتوازن بين أبعاد بنية الشخصية فى الكيان البشرى .
* طاقة الإنسان على أداءات الأنشطة العقلية العليا .
* الطبيعة الاجتماعية والميل للحياة فى مجتمع إنسانى .
* سمات التدين عند الإنسان وإيمانه بالغيبيات .
* المنظور الإسلامى للذات الإنسانية بين الفردية والجماعية .
* تلخيص .
* تعقيب .
* تمارين .

تمهـيد :

فى علم النفس المعاصر يُعرف البناء النفسى أو بنية الشخصية بأنه المفهوم الذى يصف سمات البناء الفردى ؛ من حيث هو وحدة متكاملة من الصفات والمميزات الجسمية والعقلية والاجتماعية والمزاجية ، التى تبدو فى سلوكه وتعامله وعلاقاته الاجتماعية فى المواقف الحياتية المختلفة ، والتى تميزه عن غيره من الأفراد تمييزاً واضحاً .

وهذه الوحدة المتكاملة تشمل الدوافع المحركة لسلوك الإنسان وعواطفه وميوله واهتماماته وسماته الخلقية وآراءه ومعتقداته واتجاهاته . كما تشتمل أيضاً العادات السلوكية الاجتماعية وطاقاته واستعداداته العقلية من ذكاء وقدرات وميول من أهداف ومثل وقيم اجتماعية ومواقف تجاه الحياة .

مقومات الشخصية في بنية الإنسان :

ينظر علم النفس المعاصر إلى مقومات الشخصية فى نموها وتطورها وبنائها إلى عوامل أو مقومات يكمل بعضها البعض ، وبقدر اتساق هذه العوامل والمقومات بقدر ماتتكامل الشخصية .

والإنسان ... هو وحدة جسمية نفسية اجتماعية تتفاعل وتتكامل فى مكوناتها وبنائها .

ولدراسة متكاملة للشخصية فى البناء الإنسانى يتناول علم النفس المعاصر جوانب الشخصية التالية :

- التكوينية البيولوجية أى الجسمية ، والتى تعمل على تشكيل وتلوين شخصية الفرد .
- العقلية والتى تشمل القدرة العقلية العامة (الذكاء) والقدرات والاستعدادات العقلية .

- الانفعالية والعاطفية والتى تتصل بدوافع السلوك اتصالاً وثيقاً .

- الاجتماعية والثقافية والتى تتطور داخل الإطار الاجتماعى والثقافى الذى يعيش فيه الإنسان الفرد ويتفاعل معه .

وبهذا نجد أن الشخصية فى علم النفس المعاصر ، تمثل وحدة نفسية بيولوجية اجتماعية ، وهى نظام متكامل من سمات مختلفة تميز الفرد عن غيره ، وبخاصة من ناحية التكيف الإجتماعى .

البناء النفسى للإنسان فى الإسلام :

وضع الإسلام صورة شاملة صادقة لطبيعة الإنسان ودوره ووظيفته ومصيره وبنائه النفسى ، لاتختلف إلا فى تفسيرها عما سبق الإشارة إليه فى الدراسة المتكاملة للشخصية . ويصور القرآن الكريم ماهية الإنسان وتطور خلقه ووظيفته . وإن كان الإنسان قد اشترك مع الحيوان فى الجانب الشهوى الترابى ، إلا أن الله تعالى نفخ فيه من روحه ، فميز الإنسان عن سائر المخلوقات بالجانب السامى الإلهى الروحى ، والذى هو من فضل الله الخالق البارئ المصور للإنسان، حيث منحه الله تعالى العقل الراجح واللسان الناطق والطاقات العقلية والاستعدادات، التى تمكنه من أن يكون أهلاً للعبادة والتدبر وإقامة دين الله على الأرض والتعارف «وجعلكم شعوباً وقبائل لتعارفوا» وهداه النجدين وأمره بالسعى فى مناكب الأرض «وامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه» ، وأناط به حمل الأمانة التى كلفه بها ، فجعله مستخلفاً فى الأرض ، وكانت هذه الأمانة التى أشفقت السماوات والأرض عن حملها ، وحملها الإنسان» .

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ ﴾

(سورة الأحزاب - آية ٧٢)

هذا الإنسان كيف يُفسر الإسلام البناء الشخصى للإنسان ؟ الواقع أنه ورد فى مواضع كثيرة فى آيات الذكر الحكيم والأحاديث النبوية الشريفة فى ذكر سمات الإنسان وسلوكه وطباعه وغرائزه ونزعاته وميوله .

ويقوم التفسير الإسلامى للبناء النفسى للإنسان ، على تحديد خصائص وسمات للإنسان تتمثل فى :

تحديد كيفية خلق الإنسان وعلاقته بالوسط الكوني :

ففى كتاب الله العزيز عديد من الآيات البينات ، التى ذكرت قصة خلق الإنسان من طين على شكل متميز ، يدل على عظمة الخالق وكمال قدرته ، ويدعو الإنسان منذ بداية تكوينه إلى تقدير نعم الله وفضله ، التى لاتعد ولاتحصى على الإنسان ، وعلى العلاقة الوطيدة التى تربط بين الإنسان وما سخره الله تعالى لخدمة البشرية :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ﴾

(سورة الحج - أية ٥)

وهناك أكثر من وصف لخلق الإنسان وخلق نسله من بعده . «من سلالة من ماء مهين ثم سواه فى أحسن تقويم» هذا الإنسان الذى قد يطغى ويتكبر ، عليه أن يعلم أنه لايعد شيئاً بالنسبة لقدرة الله وإرادته ، وبالنسبة لخلق السموات والأرض :

﴿ لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾

(سورة غافر - أية ٥٧)

والإنسان يجب أن يُدرك كيفية خلقه وعلاقته ببارئه ومايوحى للإنسان بأنه جزء من الكل الكونى المحيط به ، ولذلك عليه أن يتفاعل بطاقاته الجسمية والعقلية والروحية التى أودعها الخالق فى نفسه ، فيؤثر فى هذا الكون ويستخدم ماحوله من إمكانيات لتعمير البشر ، وليس لتدميرها ، ويحافظ على ثروات وموارد الحياة ، ويعمل على تنميتها وتطويرها وتحسينها ، والارتقاء بالوسط المادى والمعنوى الذى يعيش فيه . إذ إن الإنسان والبيئة التى يعيش فيها تكون العلاقات بينه وبينها علاقات متبادلة ، وأى ارتقاء بالوسط المادى من شأنه مساعدة الإنسان على الارتقاء بذاته ، وأى تكامل للإنسان من شأنه أن يجعل الوسط الذى يعيش فيه أكثر ارتقاء وتكاملاً ، وهو مايعرف علمياً بالتوازن البيئى بين حاجات الإنسان وإمكانياته المادية . (١٧٠)

أى إن الإسلام يوضح للنفس الإنسانية كيف تم خلقها وعلاقة الإنسان بالكون والطبعية ، وكيفية توجيه الإنسان إلى التفاعل مع الطبيعة والانتفاع بها .

﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْداً وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾

(سورة الزخرف – آية ١٠)

النظرة الكلية والتوازن بين أبعاد بنية الشخصية في الكيان البشرى :

جمع الإسلام الكيان البشرى فى عناصر وخصائص الجسم والعقل والروح .

ويُقدر الإسلام هذه الأبعاد فى الشخصية ، ويحدد أهمية كل بعد منها بالنسبة لحياة الإنسان حياة متوافقة ؛ فالإسلام يرى أن حياة الإنسان وأمنه واطمئنانه ، لايتم إلا بقدر ما حباه الإنسان من طاقات واستعدادات فى هذه الأبعاد الثلاث ، وبما يمكنه من إشباع حاجاته ومطالبه وتمكينه من الحصول على متاع الحياة دون إفراط أو تفريط .

وليست هذه الأبعاد متناقضة أو متضاربة فى الإسلام ، فالسعى فى مناكب الحياة وسلوك الإنسان ، يتم بالتوافق والترابط والتعاون بين هذه الأبعاد . وهذا عكس مانادت به الفلسفات والعقائد القديمة التى وصمت بالإلحاد والوثنية ، بأنه ليس الجسم مثلاً سجناً للروح ، بحيث لاتنمو الروح إلا بكبت حاجات الجسم ، بل إن الإسلام ينادى بأن الجسم يمكن أن يكون خير موجه وأفضل مهد للروح وخير أداة بممارسته المتوافقة لتنميتها وترقيتها .

وهذه النظرة الكلية الشاملة للإنسان التى يؤيدها الإسلام بما فيه من آيات قرآنية كريمة وأحاديث نبوية شريفة وأقوال للأئمة والسلف من علمائه ، هى مايقبله العقل ، ومايتوافق مع النظريات الحديثة فى الطبيعة الإنسانية . وهذه النظريات ترى هى الأخرى أن الطبيعة الإنسانية لاتقسم إلى جزئيات صغيرة أو كبيرة باختلاف الأسماء التى تعطى لها ، ولكنها كل متكامل بجميع أجزائه ، متفاعل يؤثر ويتأثر كل جزء فيه بالأجزاء الأخرى ، وهذا التفاعل أساسى فى إكساب الطبيعة الإنسانية النمط الذى نستهدفه ، فالتفاعل يكون طبيعة إنسانية متغيرة وبين بيئة اجتماعية متطورة أيضاً . (١٧١)

ويُقابل هذه النظرية الكلية الشاملة للإنسان نظريات جزئية تركز فى مفهومها للإنسان ، وفى اهتمامها بهذا الإنسان على جانب معين أو شطر معين من شخصية الإنسان . فتركز على الجانب الجسمى أو المادى فيه كما هى الحال عند الماديين والحسيين ، أو تركز على الجانب العقلى كما هى الحال عند

السلوكيين، أو تركز على الجانب الروحى ، كما هى الحال عند الروحيين وعند بعض المتصوفين .

ويعترف الإسلام بهذه الأبعاد الرئيسية لمكونات الشخصية فى الكيان الإنسانى ، وهى : الجسم والعقل والروح ، ويؤكد الإسلام ضرورة الاتساق والتعاون والانسجام بين هذه المكونات .

١- فبالنسبة للجسم فإن الإنسان يُدرك أهمية الجسم فى السلوك ، وأهمية ذلك فى اضطلاعه بمسئولياته وواجباته الدينية والدنيوية فى هذه الحياة . وغالب تكاليف الدين والعبادات التى يفرضها من صلاة وصوم وزكاة وحج وجهاد فى سبيل الله وعمل للخير ، وغير ذلك بما لايحصى من العبادات والأعمال المأمور بها من الدين لايمكن أن تتحقق إلا بالجهد البدنى والنفسى .

بالإضافة إلى هذا فإن الإسلام يُدرك أن البناء الجسمى هو الوعاء الذى يحل فيه العقل والروح والنفس بقواها المختلفة ، وهو المعمل أو المجال الذى تظهر فيه أنشطة كل هذه القوى المعنوية .

كما يُدرك الإسلام العلاقة الوثيقة التى تربط الجسم بالعقل والروح ، وبكافة قوى النفس وبالتأثر والتأثير المتبادلين بين الجسم من ناحية ، وكل عنصر من تلك العناصر الأخرى .

٢- وكما أدرك الإسلام أهمية الجسم بتوجيهات من تعاليم الدين الحنيف ، فإنه أيضاً اهتم بالعقل حتى اعتبره البعض أهم مافى الإنسان ، وأهم ماميز له عن الكائنات الحية الأخرى ، واعتبر هذا البعض أن «مزاولة التأمل أكمل حالات الوجود الإنسانى» .

ومن مظاهر أهمية العقل أنه يُمكن الإنسان من إدراك ماحوله ، ومن التمييز بين الضار والنافع ، وبين الخير والشر ، وبين الحق والباطل ، وبين العدل والظلم . كما يمكن الإنسان من القيام بعملياته العقلية ، وبجميع أوجه نشاطه العقلى على اختلاف مستوياته وأنشطته ، وفق مستوى الذكاء ؛ أى القدرة العقلية الفطرية العامة التى تمكن الإنسان من الإدراك الجسمى ومن التذكر والتعرف وإدراك العلاقات والتصور والتخيل والاستدلال والاستنباط واكتساب المعارف والمهارات .

٣- بالنسبة للجانب الروحى فى الشخصية فى الكيان الإنسانى ، فإن علماء

الإسلام أدركوا ما لهذا البعد من قيمة وأهمية فى حياة الإنسان وحياة المجتمع ، بل كانت نظرتهم إلى هذا البعد نظرة تفضيل بالنسبة للجانب الجسمى والجانب العقلى، لما يتمتع به العبد الروحى من قدرة أوسع على الإدراك من كل من الجسم والعقل، حيث تختص الروح بالغيبيات ، التى لاتخضع لمقاييس الحس بالاتصال بالملأ الأعلى .

فبالروح تكون هناك صلة الإنسان بالملأ الأعلى والتوسل إلى الإيمان بالخالق البارئ ، وإدراك ما يتعلق بأمور الغيب والعقيدة كالأمور المتعلقة بذات الله وصفاته ، والمتعلقة بالنبوة ومايرتبط بها من أحكام وشرائع ، وباليوم الآخر وأهواله وأحواله من البعث والنشور والحساب والجزاء ، فيكمل إيمانه بكل ذلك ويطمئن قلبه .

وبالروح يسمو الإنسان إلى آفاق الفضيلة ويرقى إلى المثل العليا من المعانى النبيلة والمقاصد الكريمة ، ويحقق لنفسه قيماً أخلاقية لاتقل فى قيمتها بالنسبة لسلامته ورفاهيته عن قيمه ومهاراته البدنية ومعارفه العقلية .

والقيم الروحية النابعة من الدين وروح الإيمان الصادق أفضل الطاقات الحافزة ، وأسمى الدوافع نحو تحقيق الأهداف التقدمية للإنسان وخير معالم الطريق الهادية له والمضيئة لحياته .

وإذا كان الإنسان بنزواته وشهواته قادراً فى بعض الأحيان أن يصل إلى درجة الزيغ فى الهبوط ، فإنه قادر بروحه السامية وعقله السليم وتوفيق الله له ، أن يصل فى أحيان أخرى إلى مستوى الملائكة من الطهر والسمو .

وبالروح والعقل ارتفع الإنسان عن مستوى الحيوانية واستطاع أن يخرج من حدود ذاته الضيقة ، ويتخطى حدود الزمان والمكان اللذين يعيش فيهما .

وفى الذكر الحكيم والأحاديث النبوية التى وردت فى مواضع كثيرة فى هذا المؤلف مايؤكد وجود الروح وخصائصها ووظائفها . ومما تقدم يتبين أن الإسلام يؤكد أبعاد الطبيعة الإنسانية ، وينظر إليها على أنها تتكون من جسم وعقل روح ، وكيف أن الحياة لاتتم فى نظر الإسلام ، إلا إذا أعطى كل عنصر من هذه العناصر، قدره من التمتع والتربية والتوجيه ، والذى يتم الاتساق والانسجام بينها ، وهذا لايمكن تحقيقه إلا فى ظل الإسلام .

طاقة الإنسان علي أداءات الأنشطة العقلية العليا :

من حيث يصف الإسلام الإنسان بالعقل ، فإن الإنسان لديه القدرة على القيام بالعمليات العقلية العليا ، والقدرة على الرمز ونزعته التساؤلية ، وهذه الأنشطة جميعها مرتبطة أشد الإرتباط بالعقل ، كما يتضح من الخصائص التالية :

١ – فالإنسان هو الكائن الذى لديه القدرة على الإدراك والتفكير المجرد الذى يتعلق بأمور معنوية تجريدية ، وعلى التخيل ، وعلى القياس والاستدلال والاستنباط ، واستنتاج النتائج السليمة من التجارب المتشابهة ، وأن يستخلص من خبراته الحسية الجزئية تصورات ، يكون كل تصور فيها دالاً على نوع من أنواع الأشياء ، وأن يربط هذه التصورات الذهنية فى قضايا يتداخل بعضها فى بعض ، أو تنفصل بعضها عن بعض ، وأن يستنبط قضايا جديدة فى قضايا معلومة .

وأبرز مايميز الإنسان من الناحية العقلية هو أن إدراكه للعالم من حوله لايقتصر على مجرد انطباع حواسه بألوان وأصوات وما إليها ، بل هو إدراك ما وراء هذه المحسوسات وتنظيمها وترتيبها ؛ وبحيث يصل فى النهاية إلى معرفة علمية معقولة .

٢ – والإنسان من سماته من الناحية العقلية أيضاً ، قدرته البيانية والرمزية واللغوية .

فالإنسان هو الكائن الذى له خاصية البيان .

قال تعالى :

﴿ الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الإِنسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾

(الرحمن – آية ١/٤)

والبيان معناه الوضوح والإبانة الكاشفة .

وبالتالى فإنه يختلف عن مجرد النطق الصوتى ، فهو ليس من خواص الإنسان وحده وليس مناط إنسانية المناطقة ، التى يتضمنها التعريف السائد لدى المناطقة للإنسان بأنه «حيوان ناطق» ، بل يمكن أن يضاف لغير الإنسان ، فقد جاء المنطق مضافاً إلى الطير .

قال تعالى :

﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴾

(سورة النمل - آية ١٦)

والبيان بمفهومه الخاص هو من خصائص الإنسان وحده . واختصاص الإنسان بالبيان ، ليس قاصراً على اقتداره عليه دون الحيوان الأعجم . بل يتسع مفهوم ذلك الاختصاص فيشمل انفعال الإنسان بالبيان وتذوقه إياه ، وإدراكه لواقعه المسيطر على منافذ التأثير والوجدان ، بل هو أداته فى التعبير المبين ، ووسيلته إلى ممارسة قدرته على التفكير وأهليته للتعلم ، التى استحق بها أن يكون خليفة فى الأرض . (١٧٢)

وإذا كان الإنسان يمتاز على بقية المخلوقات ببيانه وكلامه المعبر الذى له معانيه ، فإن أبرز أدواته فى هذا البيان والتعبير هى اللغة التى بدونها ... لانطق ولامنطق ولاتفكير ولاحوار مع الطبيعة ، ولا تواصل بين الأجيال وبين العصور ، وهذه هى الأبعاد الأفقية للإنسان . كما أنه دون اللغة ، لن يتمكن الفرد من معرفة أبعاده العميقة مثل الحرية والقيم والتملك . وبما أن اللغة ملتقى مجموع أبعاد الشخص الأفقية والعميقة ، أوجب أن تتبوأ الرتبة الأولى فى البحث عن الإنسان ، والذى تضيع لغته تضيع منه الإنسانية .

وكما يمتاز الإنسان من الناحية العقلية بقدرته على التفكير المجرد ، وبقدرته على استخدام الرموز المختلفة للتعبير عما فى نفسه وذهنه من صور وأفكار ومعان، فإنه يمتاز أيضاً من هذه الناحية بميله الفطرى إلى البحث المستمر عما يرضى دوافعه وحاجاته البدنية والنفسية والاجتماعية وبنزعته التساؤلية .

والإنسان بفطرته التى فطر عليها وبحكم ماهو مزود به من عقل ومن دوافع وحوافز فطرية ، فإنه أيضاً مدفوع على الدوام إلى البحث والتنقيب عن الوسائل التى من شأنها أن تساعده على إشباع دوافعه وحاجاته . والإنسان المعاصر غاياته متعددة ووسائله أكثر عدداً وأكثر تعقيداً عمن سبقه ، وحيث يعتمد الإنسان المعاصر أيضاً على الفكر فى إشباع حاجاته ورغباته .

والإنسان من جهة أخرى يمتاز بنزعته التساؤلية وبميله نحو التساؤل المستمر عما يحيط به من ظواهر كونية وأحداث طبيعية واجتماعية ، محاولاً بذلك

الوصول إلى فهم العلاقة بين وجوده ، و تلك الظواهر وهذه الأحداث ، وبميله نحو التساؤل عن وجوده هو نفسه وعما تحتويه ذاته وشخصيته ، وعن الطريقة التى تعمل بها طاقات الإنسان ، وعن حكمة وجوده وعن مصيره ، وعما ينتظره فى المستقبل ، وعن الغيبيات ، ولذلك نرى الإنسان يسأل باستمرار كيف بدأ الخلق ؟ وكيف نشأت هذه الأرض ؟ وكيف تم خلق آدم عليه السلام ؟ وكيف استطاع المسلمون الأولون أن يحققوا انتصارهم الباهر على أعدائهم فى فترة وجيزة من الزمن ؟ كما يسأل الإنسان من أين أتى ؟ وإلى أين مصيره ؟ وما مستقبله ؟ إلى غير ذلك من آلاف الأسئلة التى يمكن أن تتردد فى الأسئلة نفسها ، ويحاول الإنسان أن يجد ردوداً شافية لها .

والإسلام دين الحق والفطرة يعترف بوجود هذه النزعة التساؤلية فى السلوك العقلى للإنسان ، ويحاول أن يوجهها نحو الخير ويضع لها الشروط والموازين ليتم الجدال والحوار بالتى هى أحسن .

ولعل أوضح الآيات القرآنية الكريمة دلالة على أن الجدل من خصائص الإنسان المميزة له عن غيره من سائر المخلوقات .

قال تعالى :

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً ﴾

(سورة الكهف - آية ٥٤)

ولم ينكر الإسلام على الإنسان الجدال ، إلا أن يكون مماراة فاحشة فى الحق الجلى . وعندما يكون جدال الإنسان عن حاجة إلى الاقتناع ، فمن حقه أن يصغى ويجادل بالتى هى أحسن .

قال تعالى :

﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾

(سورة النحل - آية ١٢٥)

الطبيعة الاجتماعية والميل للحياة في مجتمع إنساني :

يشير الإسلام فى البناء النفسى للإنسان ، إلى وجود ميل فطرى عند الإنسان للميل إلى الانتماء وحب الاجتماع وبناء علاقات اجتماعية مع الآخرين ، وسعة أمله وطموحاته وحبه للمال ، ورغبته فى بناء الثقافة وصنع الحضارة والتقدم .

١- فالإنسان فى نظر الإسلام من حيث طبيعته الاجتماعية ، يميل إلى الحياة فى مجتمع إنسانى ، وبناء علاقات متنوعة مع غيره ، وحيث يمتص العلاقات الاجتماعية . وقدرة الإنسان على بناء هذه العلاقات الاجتماعية – بما زوده الله من عقل وعواطف – تتمثل فى اكتساب خبرات جديدة ، وفى تكييف نفسه عن روية وتفكير واختيار حسب الظروف المحيطة به ، وعلى تغيير سلوكه حسب مقتضيات البيئة الاجتماعية والطبيعة ، التى يتفاعل معها ويعيش فيها ، ومرونة طبيعته التى تجعله قادراً على هذا التجديد والتكييف والتغيير ؛ مما يجعله قابلاً بالتالى للتطور والنمو والتحسن فى سلوكه باستمرار . وهذا مايعرف فى علم النفس المعاصر بالتطبيع الاجتماعى .

كما يميل إلى كل مايجر عليه النفع والخير والنعمة ، وإلى مافيه اليُسر عليه، وإلى مايضمن له حقوقه ، وقدرته على تحمل المسئولية وأمانة التكليف وحرية الإرادة الإنسانية ... وإن جهل خطرها وقصر فى الوفاء التام بكل حقوقها» . وصدق الله العظيم إذ يقول :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً ﴾

(سورة الأحزاب – آية ٧٢)

وفى الوقت الذى يشعر فيه الإنسان الفرد بحاجته إلى الانتماء إلى جماعة وإلى مجتمع ، فإنه يظل حريصاً على الحفاظ على شخصيته المستقلة وكيانه المستقل ، ومن ثم يمكن القول : بأن النزعة الفطرية عند الإنسان موجودة جنباً إلى جنب مع الرغبة الملحة فى الإنسان .

وقد اعترف الإسلام بهذه النزعة الفطرية فى الإنسان فمنحه باعتباره فرداً شخصية مستقلة ، وجعله فى الوقت نفسه لبنة فى بناء المجتمع .

وباعتبار فرديته أثبت له حق الملكية لماله ودمه ، وحق الهيمنة على نفسه وولده ، وحق التصرف بما يكون له من مصلحة دون مساس بحق الغير .

وباعتبار انتمائه للجماعة أوجب عليه أن يُرشد الضال ويُعين الضعيف ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويخرج للغزو والجهاد ، ويساهم فى بناء بلده ويخلص فى عمله . وفى مقابلة هذه الواجبات ، أثبت له حقوقاً على المجتمع تتمثل فى حفظ دمه وماله وعرضه .

٢- وكما يمتاز الإنسان بنزعته الاجتماعية ، فإنه يمتاز أيضاً عن سائر المخلوقات بسعة آمله وطموحه ومغامرته وحبه للمال والتملك .

فالإنسان ينزع إلى الاهتمام بالمستقبل وآماله ، ويحاول تحديد وضعيته تجاه هذا المستقبل ، وهو أشد انتباهاً وانقياداً إلى ما له مساس بمصلحته الشخصية . ومن ثم فإن الآراء والأحكام العقلية المنطقية وحدها لاتكفى عند أكثر الناس ، ولابد من دعمها بأنواع من الالتزامات ، التى تمس مصلحة الإنسان فى نفسه وأولاده وأمواله .

والإنسان فى بحثه من أجل إشباع حاجاته لايقف طموحه عند حد ولايقنع بحل ، بل تجده على الدوام يسعى فى طلب الأسمى ، ويكافح من أجل تحقيق حياة أفضل ، فهو دائب السعى بخلاف كائنات أخرى ، إذا تحققت غايتها بإشباع حاجاتها تكتفى وتستريح .

وإذا كانت غريزة حب التملك غريزة ثابتة لدى كل المخلوقات ، فإن حب المال بالخصوص يأخذ مكان الصدارة فى هذه الغريزة ، وبالخصوص لدى البشر الذى صنع المال وحاجته الملحة إليه .

«والإسلام إذ يقر بثبوت هذه الحاجة الملحة ، فإن محمد صلى الله عليه وسلم فيما رواه عنه ابن عباس فيقول : لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى ثالثاً ، ولايملأ جوف ابن آدم إلا التراب» .

وفى هذا مايظهر مدى خطورة استباق الإنسان وراء ماتوحيه هذه الحاجة للمال .

ومحمد صلى الله عليه وسلم لايتركنا - حين يذكرنا بهذه الحالة للمال المستحكمة فى النفس الإنسانية .. دون توعية أو تنبيه ، بل يخاطب الإنسان وبما

توجبه عليه إنسانيته ، من وجوب التحكم فى أهوائه ، وخاصة تلك التى تلصقه بالأرض والماديات ، وتحول دون انطلاقه نحو الأعلى . بل إنه يذكر الإنسان بإنسانيته التى تقتضى ألا يفقد ذاتيته ، فى عبادة أشياء هى من صنع يديه .

٣- كذلك يمتاز الإنسان باستعداده لبناء الثقافة والحضارة وصنع التقدم ، وقدرته على المساهمة مع غيره من بنى البشر فى ذلك البناء ؛ فالثقافة التى من بين معانيها ذلك التراث المتراكم من المعارف والمفاهيم والأفكار والآراء ، والرموز ذات الدلالة والعادات والتقاليد والقوانين والقيم والمعتقدات والمذاهب والنظم وأساليب وأنماط الحياة المختلفة والمؤسسات الاجتماعية فى مفهومها المعنوى - لاتعد فى مجموعات وبمختلف أنواعها ومستوياتها أن تكون نتاجاً للتفاعل الفكرى والاجتماعى للإنسان مع أخيه المسلم الإنسان والخبرات والتجارب وأنشطة بنى الإنسان المختلفة مع بعضهم البعض ، ولتفاعل الإنسان مع بيئته العامة الثقافية والاجتماعية والطبيعية .

وما كان الإنسان ليستطيع بناء التراث الثقافى لولا مامنحه الله من عقل وحكمة وقدرة على الكلام والبيان ، والتفكير والتعامل بالرموز ، والنزعة الدينية والاجتماعية والاستعداد لتقبل المبشرين والمنذرين والرسل .

وهذه الإستعدادات والنزعات ، كما مكنت بنى الإنسان من بناء الثقافة بالمفهوم المشار إليه ، فإنها مكنتهم أيضاً من بناء حضارة ومدنية تظهر آثارها ومعالمها فى الحياة الملموسة المشاهدة . ولاهتمام الإنسان البالغ بمستقبله وبضمان هذا المستقبل ، جرب الكثير من النظم الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، واخترع من الاختراعات ما اقتضته حاجته ، باعتبار الحاجة هى أم الاختراع ، وبنى وشيد مختلف مظاهر العمران ، وجمع الأموال ، إلى غير ذلك من مناشط الإنسان المنتجة للحضارة .

والإسلام الذى كرم الإنسان واعتبره خليفة الله فى هذه الأرض ، يبنى تراثها الثقافى ويعمرها لخير الإنسان فى دنياه وآخرته ، يعترف بتلك النزعات والاستعدادات الفطرية لبناء الثقافة والحضارة ، ويحاول توجيه الإنسان فى هذا السبيل بما يحقق مطالب الجسم والعقل والروح ، ويتمشى مع روح العقيدة والدين والأخلاق الفاضلة ، بحيث لاتتجه جهوده نحو الظلم والطغيان والاستبداد واستعباد غيره من بنى الإنسان ، أو نحو القوة الغاشمة وتكديس الأموال من أى طريق ولو

كانت طريق الحرام ، أو نحو الإسراف والتبذير والترف الزائد والرفاهية والأمور الزائفة الباطلة فى نظر الحقيقة والواقع .

سمات التدين عند الإنسان وإيمانه بالغيبيات :

فالإسلام يرى فى بناء الشخصية عند الإنسان ، مايشير إلى نزعته وفطرته إلى التدين والتمسك بالعقيدة ، والإيمان بالغيبيات ونزعته نحو حب الخير والتخلق بالأخلاق الفاضلة ، والإرادة الموجهة إلى الخير والواقية من الانحراف والانزلاق إلى الشر ، وتقلب النفس وترددها بين أحوال نفسية لاتستقر بل تتضارب .

١ – فالإنسان كما يمتاز بخاصية العقل ، فإن الله تعالى منحه من الروح ، مايجعله ينزع نحو التدين والأخلاق والإرادة ، وتذبذب النفس وترددها بين حالات السمو والهبوط الروحى .

وبالنسبة لنزعة الإنسان نحو التدين أو نحو الإيمان بالغيب ، الذى من مكوناته الرئيسية الإيمان بقوة عليا تسيطر على هذا الكون وتدبره وتسيره وتوجهه بحكمة بالغة ، فإنها ترتبط بحاجات أساسية عند الإنسان ، من أهمها حاجته إلى الأمن والاطمئنان ، وإلى استجلاء كثير من غوامض الكون والحياة وما خفى عليه من أمور الغيب . وفى هذا مايحقق للإنسان عن طريق تلك النزعة أو بالأحرى عن طريق التدين والإيمان بالله وبدين الحق ، إشباع تلك الحاجات ،بالتالى يحقق لنفسه الأمن والاطمئنان ، ويجد الإجابة الشافية عن كثير من تساؤلاته حول كثير من مظاهر الكون والحياة وأمور الغيب .

والإيمان بالغيب وبالله تعالى كما هو مصدر من مصادر الأمن والاطمئنان للنفس ومعرفة الغيب ، فإنه الأساس لكل عبادة لله تعالى ، ولكل مظهر من مظاهر التقوى ، ولكل أحكام الدين وتشريعاته .

والغيبية من أسس التدين وهى سبب القداسة والخلود والإطلاق ، وهى تمثل الحاجة الملحة فى سلوك الإنسان إلى الغيب وإلى الاطمئنان والاستقرار فى كافة شؤونه الحياتية ، تلبى بواسطة هذه الصفة . وهذه الحاجة تنبع من الإحساس الطبيعى بضرورة المعايشة مع الخالق البارئ المصور ، وإلا فهو يعيش مضطرباً فى سلوكه ومتردداً وضعيفاً فى الحياة .

والحاجة إلى التدين والإيمان بالغيب ، حاجة أصيلة فى الإنسان تواكب وجوده منذ بدايته إلى نهايته ، ومعنى هذا أن الإنسان المعاصر – رغم ماتعرض

له من تقدم وتطور فى وسائل معارفه وتلبية إحتياجاته - لايزال يتمسك بالدين والإيمان بالغيب ؛ إذ إن هذه الحاجة أصيلة لديه تواكب وجوده الحاضر ، كما كانت تواكب وجود الإنسان منذ أمد بعيد .

بل إن الإنسان المعاصر قد أصبح بالتقدم المادى أكثر حاجة إلى هداية الدين ، وأن البعض أكثر بعداً عن الأصالة والإيمان . وقد كشفت الدعوات الهدامة كالوجودية مثلاً مدى الخسران الذى يهدد الإنسان ويدفعه إلى الغربة والتمزق .

والإنسان بطبيعة تركيبه النفسية والعضوية فى حاجة إلى هداية من خارج ذاته وكيانه لتكشف له طريق الحق ، وليس من مصدر أصدق من كتاب الله الذى يهدى البشرية إلى النور والضياء ، ومن سنة النبى المصطفى عليه أفضل صلاة وتسليم . (١٧٣)

٢- ثم إن الإنسان كما يمتاز بنزعته الدينية ، فإنه يمتاز أيضاً بنزعته الأخلاقية وميله للتخلق بالأخلاق الفاضلة والالتزام الخلقى ، والتمسك بقواعد أخلاقية معينة ينفذها ويطبقها فى كافة ضروب وأنماط سلوكه فى حياته .

بل إن الإنسان إذا وجد نفسه طليقاً من كل التزام خارجى ، فرض على ذاته أموراً معينة والتزم بها ، إرضاءً لما فى طبيعته من ميل للالتزام ، ومن ثم فإن الفوضى المطلقة فى حياة الإنسان ، لا وجود لها فى حياة الإنسان الملتزم بدينه فى الإسلام ، ولايمكن أن توجد ، لأنها ليست من طبيعة الإنسان .

ولعل أهم مايميز الإنسان عن بقية الكائنات هى الميزة الأخلاقية التى تتجلى «بالضمير الإنسانى» . وحتى التميز العقلى الذى يعتبر من سمات الإنسان ، ليس كذلك إلا من حيث كماله ، فالحيوانات لها عقل تدرك به كثيراً من معيشتها ، وقد ترتقى فى الحيوان قوة التعقل إلى درجة ملحوظة كما فى عالم القردة .

أما الميزة الأخلاقية فهى مايختص بها الإنسان وحده ولايشاركه فيها أى كائن آخر . ويشير «ابن مسكويه» إلى أن الإنسان هو الذى من بين الموجودات كلها، يلتمس له الخلق المحمود والأفعال المرضية ، وأن أفعاله وقواه وملكاته التى يختص بها من حيث هو إنسان ، وبها تتم إنسانيته . وفضائله هى الأمور الخلقية أو الأمور الإرادية التى تتعلق بها قوة الفكر والتمييز . (١٧٤)

٣- ويرتبط بميزة العقل والتدين والتخلق بالأخلاق الفاضلة ميزة ثالثة ،

وهى ميزة الإرادة الموجهة إلى الخير ، والواقية من الانحراف والانزلاق إلى الشر، والضابطة لجماح الشهوات والانفعالات .

أو هى ميزة صدور الفعل عن إرادة حرة مختارة .

فبالإرادة القوية التى فضل الله بها الإنسان على سائر الحيوانات ، يستطيع الإنسان أن يحمل أمانة المسئولية وتبعات التكليف ، ويفى بالتزامات الإيمان بالله وإلتزامات خوفه وطاعته ، وينهى نفسه عن الهوى ويكبح جماح شهواته ، ويصبر أمام الشدائد والمصائب واختبارات الحياة .

كما أنه يتخذ القرارات الضرورية لمواجهة المواقف والمشكلات ، التى تعترضه فى الحياة ، ويختار بين الخير والشر وبين الرشد والضلال . والإرادة بعد هذا كله هى مناط التكليف والمسئولية والثواب والعقاب فى الدنيا والآخرة ، بحيث ينتفى التكليف والمسئولية إذا فقدت الإرادة بالإكراه أو الموت أو بأى سبب آخر .

وكتاب الله العزيز والأحاديث النبوية الشريفة والأقوال المأثورة عن السلف الصالح المتعلقة بالإرادة الإنسانية من حيث فضلها وآثارها .

يقول تعالى :

﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴾

(سورة النازعات آية ٤٠/٤١)

وقوله صلى الله عليه وسلم :

«ليس الشديد بالصرعة ، إنما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب»

كما يقول الإمام أبو حنيفة النعمان فى الإرادة الإنسانية بأن الإيمان والكفر صفتان نكتسبهما فى هذه الدنيا ، ويشير أبو حنيفة إلى أن أفعال العبد مخلوقة من الله مكسوبة من العبد (المذهب الكسبى) ، وأن طاعات الإنسان ومعاصيه منسوبة إليه ، وله فيها اختيار وإرادة ، وأنه بذلك يسأل ويحاسب ولايظلم مثقال ذرة من خير أو شر .

٤- والإنسان كما يمتاز بنزعته الدينية ونزعته الأخلاقية وبإرادته ، فإنه يمتاز أيضاً بتقلب طبيعته وتردده بين حالات السمو الروحى التى تصل به أحياناً إلى مستوى الملائكة ، وحالات الهبوط الروحى التى تنزل به أحياناً إلى مستوى

الحيوانية أو الشيطان . فهو يتردد بين الشدة واللطف ، بين اللهفة والتمهل ، بين الغلظة والرقة ، بين العتامة والصفاء ، بين الخير والشر ، بين الاستعداد للإيمان والاستعداد للكفر ، بين الميل للعدل والميل للظلم .

المنظور الإسلامي للذات الإنسانية بين الفردية والجماعية :

يهتم الإسلام بالذات الإنسانية الفردية ، يوجه بالغ الاهتمام بالجانب الخُلقى وتهذيب الضمير ، وتوجيه السلوك ، وقد يخالف هذا المذاهب العصرية فيما تبذل من محاولات لتدارك الأخطاء عند الإنسان ، وتفادى عواقب هذه الأخطاء بما يعرف بحوافز الطموح .

والواقع أن الإسلام كبناء متكامل فى الحياة الاجتماعية لايفصل بين الفردية والجماعية فهو يهتم بالإنسان الفرد ، وينظر إلى قيمته الاجتماعية وسلوكه من داخل الجماعة التى يعيش فيها . والإسلام يقاوم بشتى الوسائل العنصرية والعصبية . وفى نظره أن الذات الجماعية لاتتم إلا عندما يتحقق للفرد ذاته ، وحيث ينظر الإسلام إلى أن استقامة أمر الجماعة تتم بصلاح الأفراد وسوية سلوك كل فرد ، مع وثاق الرباط بين الفردية والجماعية .

والإسلام فى أصول العقيدة وفروض العبادات وأحكام المعاملات وكل التوجيهات لسلوك الإنسان ، إنما ينظر إليه من حيث أن الإنسان اجتماعى بطبعه ، وليس له فردية شاذة .

والتوحيد وعدم الشرك بالله الواحد القهار ، هو تحرير الإنسان من مهانة العنصرية والعصبية .

والعبادات أسمى أهدافها وغاياتها صلاح الفرد والجماعة ، عندما تمارس بالتقوى والخشوع والتواضع والتراحم والتكافل .

والمعاملات ماهى إلا تنظيم للحياة العملية ، وضبط العلاقات بين الأفراد فى المجتمع ، بما يكفل العدل والإحسان والأمن وتكافؤ الواجبات ، وصيانة الحرمات الخاصة والعامة وفق ماتنظمه أحكام الشرع .

والسلوك الفردى فى الإسلام يتم توجيهه على أساس أن الفرد فى الجماعة ، يتجه سلوكه نحو :

التآلف والترابط والوحدة (التوحد مع الجماعة) والجهاد فى سبيل الحق ..

والتواصى بالمعروف والنهى عن المنكر . والدعوة إلى الخير ... والتعاون على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان .

ولذلك فالوحدة الاجتماعية فى الإسلام تأخذ منظور الحرمة الدينية فهى اعتصام بحبل الله ، بما ألف بين قلوب أبنائها بالعقيدة .

ويأمر الله تعالى الإنسان الفرد بأن يتسم سلوكه بالعدل والإحسان والبر وصلة الرحم وأداء الأمانات إلى أهلها ، والوفاء بالعهد والصدق والتواضع ، وينهاه عن العقوق والجور والبغى والفجور وقطع الأرحام ، وعن الأذى والفساد . ومثل هذه الأوامر والنواهى أو حدود الطاقات السلوكية لاتتعلق بتعامل الإنسان مع نفسه، وإنما تتعلق بالتعامل والعلاقات الاجتماعية مع الناس ، فليس الإنسان بحيث يبر ويعف ويفى ويصدق ويصلح ، أو يخون ويفسق ويطغى ، فى نطاق فرديته الخاصة .

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلا تَنقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾

(سورة النحل – آية ٩٠/٩١)

ومصداقاً للهدى النبوى فإنه من هدى السنة فى الذاتية الاجتماعية للشخصية الإسلامية ، ماورد فى الموطأ ، والصحيحين من الأحاديث النبوية :

«بعثت لاتمم مكارم الأخلاق» .

« لكل دين خلق وخُلق الإسلام الحياة» .

«مثل أمتى فى تراحمهم وتواصلهم كمثل الجسد ، إذا إشتكى منه عضو تداع له سائر الأعضاء بالسهر والحمى» .

إن الذات الإنسانية فى الإسلام لاتعمل بنظام فردى ؛ إذ إن تكامل الحياة الاجتماعية لا تفصل بين الفردية والجماعية ، وبالتالى فهى تمثل أسمى درجات التعامل والتفاعل الفردى والجماعى .

والإسلام يسعى دائماً إلى أن يكون الإنسان الفرد متوازناً فى فرديته ، ومتوازناً فى ميله إلى الجماعة وتعاونه معها . وحينئذ يصبح المجتمع يتشكل من أفراد واقعيين متساندين :

﴿ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴾

(سورة الصف – آية ٤)

والفردية ... الشخصية الاستقلالية ... الكيان الإيجابى القوى ... ينشئه الإسلام بربط القلب البشرى بالله . (١٧٥)

والصلة الفردية الشخصية بالله هى التى تمنح الإنسان وجوده المستقل ، فلاينبهم ولايضيع داخل الجماعة .

هذا بجانب المسئوولية الفردية عن الأعمال بالنسبة للفرد .

﴿ بَلِ الإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ ﴾

(سورة القيامة – آية ١٤/١٥)

وهى تبعة فردية ومسئولية فكل إنسان مسئوول عن عمله ، لايستطيع أن يُلقى حمله على غيره ، ولاهو يتلقى على كتفه أحمال الآخرين .

وهذا الشعور الدائم بهذه المسئولية الفردية يحدد للإنسان فى داخل نفسه كياناً متميزاً واضح الحدود .

وغذاء الفردية فى الإسلام يعمل فى الوقت ذاته على بث الروح الجماعية فى قلب الإنسان .

والانتماء والبذل والإيثار من جانب الفرد هو الرباط الحى ، الذى يربط الجماعة ويشدها كالبنيان المرصوص ، وحيث تكون كل لبنة قائمة بذاتها قوية الوجود .

والقرآن يُغذى الجماعة بتوجيهاته الدائمة إلى التعاون والتشاور والوفاق :

﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾

(سورة المائدة – آية ٢)

﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾

(سورة التوبة – آية ٧١)

كما يقوى الجماعية بالخطاب الجماعى والتوجيهات الجماعية ، التى تلقى المسئولية على الجماعة كلها متساندة ، لأنها فى الواقع مسئولية كل فرد ومسئولية الجميع .

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾

(سورة آل عمران – آية ١١٠)

هذا بالإضافة إلى أن طبيعة الإسلام ذاتها تقتضى وجود جماعة متكافلة تقوم بالتكاليف الجماعية . وكما أن التصور الإسلامى والفضائل الإسلامية تحتاج إلى جماعة .. إلى وسط اجتماعى تحيا فيه وتنمو ... إلى بيئة صالحة تعمل على تنشئة الأجيال على الفضائل . وتلك كلها مهام لايقوم بها الأفراد متفرقين ، وإلا ضاع جهدهم بدداً ولم يثمر ثماره المرجوة ، وإنما تقوم بها الجماعة مجتمعة فتصبح المهمة أيسر والثمرة أقرب إلى المنال .

وهكذا تتحد الجماعة فى الهدف وتتحد فى العمل ، وتلتقى القلوب وتتعاون وترتبط كلها بالله فى النهاية ، فلا يقوم بينها الشقاق والخصام ، وتلتقى النزعة الفردية والنزعة الجماعية كلتاهما فى نظام واحد .

... هذا هو المنظور الإسلامى للذات الإنسانية بين الفردية والجماعية ....

فما سمات وخصائص الإنسان فى المجتمع الإسلامى ؟

هذا مانعرضه فى ختام هذه الدراسة ... تحت مايُعرف بالإسلام والإنسان فى أحسن تقويم .

تلخـــيص :

* تكامل وتوازن أبعاد الشخصية عند الإنسان يمثل وحدة من الصفات والمميزات الجسمية والعقلية والاجتماعية والمزاجية ، التى تبدو فى سلوكه وتعامله، وعلاقاته الاجتماعية فى المواقف الحياتية المختلفة ، والتى تميزه عن غيره من الأفراد تمييزاً واضحاً ؛ أى إن التمييز هنا من ناحية التكيف الاجتماعى .

* يُصور القرآن الكريم ماهية الإنسان وتطور خلقه ووظيفته .

* فيما يتعلق بكيفية خلق الإنسان وعلاقته بالوسط الكونى ، يتضح أن تكامل الإنسانٍ من شأنه أن يجعل الوسط الذى يعيش فيه الإنسان أكثر ارتقاءً وتكاملاً ، وهو مايعرف بالتوازن البيئى .

* يعترف الإسلام بالأبعاد الرئيسية لمكونات الشخصية فى الكيان الإنسانى وهى الجسم والعقل والروح ، مع ضرورة الاتساق والتعاون والانسجام بين هذه المكونات ، ولاتتم الحياة فى نظر الإسلام ، إلا إذا أعطى كل عنصر من هذه العناصر قدرة من التمتع والتربية والتوجيه .

* من حيث يصف الإسلام الإنسان بالعقل ، فإن الإنسان لديه القدرة على القيام بالعمليات العقلية العليا ، والقدرة على الرمز ونزعته التساؤلية وهذه الأنشطة جميعها مرتبطة أشد الارتباط بالعقل .

* فيما يتعلق بالطبيعة الاجتماعية والميل للحياة فى مجتمع إنسانى ، يُشير الإسلام فى البناء النفسى للإنسان ، إلى وجود ميل فطرى عند الإنسان للميل إلى الانتماء وحب الاجتماع وبناء علاقات اجتماعية مع الآخرين ، وسعة أمله وطموحاته وحبه للمال ، ورغبته فى بناء الثقافة وصنع الحضارة والتقدم .

هذا بالإضافة إلى أن النزعة الفردية عند الإنسان موجودة جنباً إلى جنب مع الرغبة الجماعية الملحة فى الإنسان .

* والإسلام فى تكامل بناء الشخصية يشير إلى النزعة والفطرة إلى التدين والتمسك بالعقيدة والإيمان بالغيبيات ، والنزعة إلى حب الخير والتخلق بالأخلاق الفاضلة، والإرادة الموجهة إلى الخير والواقية من الانحراف ، والانزلاق إلى الشر، وتقلب النفس وترددها بين أحوال نفسية لاتستقر بل تتضارب .

* أهم مايميز الإنسان عن بقية الكائنات الميزة الأخلاقية التى تتحلى بالضمير الإنسانى ، وحتى التميز العقلى الذى يعتبر من سمات الإنسان قد يرتقى عند بعض الحيوانات إلى درجة ملحوظة ، لاتصل إلى مستوى الإنسان البتة ، وفى حين أن الميزة الأخلاقية يختص بها الإنسان وحده ولايشاركه فيها أى كائن آخر . هذا بالإضافة إلى ميزة الإرادة الموجهة إلى الخير ، والواقية من الانحراف والانزلاق إلى الشر ، والضابطة لجماح الشهوات والانفعالات ، أى هى ميزة صدور الفعل عن إرادة حرة مختارة .

* والإسلام كبناء متكامل فى الحياة الاجتماعية ، لايفصل بين الفردية والجماعية، فهو يهتم بالإنسان الفرد ، وينظر إلى قيمته الاجتماعية من داخل الجماعة التى يعيش فيها ، ولذلك فهو يقاوم العنصرية والعصبية . وفى نظره أن الذات الجماعية لاتتم إلا عندما يتحقق للفرد ذاته ، وحيث ينظر الإسلام إلى أن الإستقامة أمر الجماعة ، ولاتتم إلا بصلاح الفرد وسوية سلوكه ، مع وثاق الرباط بين الفردية والجماعية .

* العبادات فى الإسلام من أسمى أهدافها وغايتها صلاح الفرد والجماعة ، عندما تمارس بالتقوى والخشوع والتواضع والتراحم والتكامل .

والمعاملات هى تنظيم للحياة العملية وضبط العلاقات بين الأفراد فى المجتمع .

والأوامر والنواهى أو حدود الطاقات السلوكية لاتتعلق بتعامل الإنسان مع ذاته ، وإنما تتعلق بالتعامل والعلاقات الاجتماعية مع الناس .

* الذات الإنسانية فى الإسلام لاتعمل بنظام فردى ؛ إذ إن تكامل الحياة الاجتماعية لاتفصل بين الفردية والجماعية ، وبالتالى فهى تمثل أسمى درجات التعامل والتفاعل الفردى والجماعى .

تعقـــيب :

* فى توازن أبعاد البناء الشخصى للإنسان فى الإسلام مايُشير إلى وحدة وتماسك هذا البناء فى مكوناته الجسمية والعقلية والنفسية والمزاجية والإجتماعية .

ويؤكد الإسلام الجانب الاجتماعى فى السلوك الإنسانى ؛ حيث لا انفصال بين الفردية والجماعية ، لأن الجماعة هى جمع من الأفراد ، وسمو التفاعل الفردى يمثل سمو التماسك الاجتماعى ، وحيث ينادى القرآن بالاعتصام بحبل الله وعدم التفرق .

* والإنسان خُلق لعمارة الأرض ، ولذلك هناك علاقة وثيقة بين تكامل البناء الشخصى للإنسان والوسط البيئى الذى يعيش فيه ، وعندما يطغى الإنسان على الكون ، الذى يعيش فيه من سوء الاستغلال أو الإهمال أو الدمار يختل الوسط الكونى ، وتفنى البشرية قبل فناء الأرض .

* والكيان الإنسانى لا انفصام بين وحداته الجسم والروح والعقل ، وكل من هذه الوحدات لها نشاطها المتوازن ، وإلا إذا حدث صراع بين قوى الجسم أو العقل فقد الاتزان ، استقراره وتردى الإنسان إلى مزالق الشر والعصيان .

* والضمير الخُلقى عند الإنسان من أهم قوى الضبط والالتزام للنفس البشرية ، التى تتشكل من قوى عقلية وإرادية ووجدانية فى وحدة متوازنة متناسقة. فالقوى العقلية من شأنها أن تدرك عناصر الخير والشر فى البيئة المحيطة، وتعمل على اختيار الاتجاهات السليمة وتحسين تقدير المواقف ، ومن ثم تصدر الأحكام المتروية . والقوى الإرادية من شأنها تحدث العزم والتصميم لموجهة المواقف ، وتترصد وتقاوم دواعى الانحراف والاختلال .

وتعمل القوى الوجدانية على تحفيز الفرد على فعل الخير ، وترده عن فعل الشر ، وفى هذا مايحدث الرضا الذاتى ، والقناعة والاقتناع بسلوك الخير ، والابتعاد عن فعل الشر الذى ليس من وراءه إلا القلق والاضطراب .

* وهذا الضمير الخلقى يُعد أسمى مكونات النفس الإنسانية ، فهو أكثر اتصالاً بالقلب والروح والوجدان ، بل هو الرقيب الذى يتحكم فى السلوك الإنسانى.

* وبحكم تأثير الضمير وارتباطه بالعقل ، فإنه إن كان سليماً يتسم بالوعى والإدراك يحفز صاحبه إلى غلبة العقل على الهوى وغواية النفس والشهوة ،

ويوجهه إلى حُسن الاختيار بين المواقف .

* والنية الطيبة وهى ركن أساسى من أركان الأدب مع النفس فى الإسلام يتحدد السلوك عن طريقها ، عندما يقوم الضمير الخلقى بتحديد مسار السلوك وعندما يمارس قوته على الجانب العقلى والوجدانى عند الإنسان .

* والنفس فى الإسلام إما أمارة بالسوء وحيث يكون الضمير الخِلقى مسئولاً عن التوجيه الخاطئ ، حيث يوجه صاحبه إلى الشر ، وحيث يصبح الفرد طوع ملذاته وشهواته وتدنى السلوك ، وحيث تغلب الشهوة العقل أيضاً .

كما أن النفس المطمئنة أو صاحبة الضمير الأعلى أو الضمير الحى اليقظ الأسمى ، هى التى لاتعرف إلا الخير وتسعى بكل جوارحها لإتيانه .

ويتماثل ذلك فى ضمائر الرسل والأنبياء والصالحين ، الذين يبذلون كل طاقاتهم لخير الإنسانية .

كما أن هناك النفس اللوامة وهى التى ترى الخير وفق مايراه الأعراف والتقاليد والضوابط . وأصحاب هذه النفس يقعون فى مرتبة وسطى بين الأنفس المشار إليها آنفاً ، وهم يميلون إلى العيش فى هدوء وآمن وسلام .

* ويؤكد الإسلام رقابة وعصمة الضمير ، لما له من آثار على السلوك الإنسانى ، الحسن والقبيح ، الطيب والخبيث ، الأعلى والأدنى ، والذى يتوافق أو يخالف مبادئ الشرع والدين ، كالنفاق والرياء والحسد والحقد والفسق والفجور والضلال وإرتكاب مختلف الشرور والآثام .

* إن الضمير هو الرقيب أو ميزان الخير من الشر عند الإنسان ، أو الطيب من الخبيث أو هو الذى يقرب من الإحسان والجود أو ينفر من الخبائث . وإن من أبرز أعماله الاستحسان والاستهجان .

وضوابط السلوك فى الإسلام – إضافة إلى ماسبق إيضاحه فى الفصل الرابع عشر – تعنى الالتزام والمسئولية من قبل الفرد ، وكلاها مكمل للآخر فإذا اختل الالتزام اضطربت المسئولية ، وعم الانحراف والاضطراب السلوكى . والعبادات والمعاملات فى دين الحق تؤكد وجود الالتزام فى حق الفرد فيما يتعلق بذاته وحق الآخرين عند تعامله معهم ، وفى هذا مايشعر الفرد بأن هناك قوة خارجية تفرض عليه الالتزام . وليس هذا فحسب بل أنه يشعر من جانبه

بأنه مسئول عن الالتزام باتباع الحق والابتعاد عن الباطل ؛ أى إنه يشعر بالمسئولية والالتزام باتباع ماشرعه الحق تبارك وتعالى وماورد فى السنة ، ويتجاوب معها من موقع الاقتناع والطاعة والارادة والاختيار .

بل إنه باتباع المسئولية والالتزام يشعر بتحقيق الذات والرضا والتجاوب مع الإلتزام الذى يمثل القوة الخارجية ، والالتزام المشار إليه يمثل قوة داخلية ، وكلما كان الالتحام بين القوتين الخارجية مع الداخلية أى الإلزام مع الالتزام ، كان السلوك الإنسانى أكثر توافقاً فى حياة الفرد مع ذاته وفى المجتمع الإنسانى.

* وإن أساس الإيمان الصادق هو تقبل أحكام الله وتطبيق شرائعه . والإنسان لايُعد مؤمناً إيماناً صادقاً إلا إذا حاسب ذاته على أفعالها ، ليتبين جانبى الالتزام ،والالتزام ، وتوافق ذلك مع شريعة الله والتى جاء بها رسوله ، ويحتكم إليها ويرضى أحكامها فى إذعان وتسليم واقتناع .

وأن الله تعالى رؤوف بعباده ، وقوله الحق :

﴿ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾

(سورة الكهف – أية ٥٦)

فقد أوضح الرسل كيفية التجمع بطيبات الحياة ، وأنه لايُحرم مايُحرم إلا محافظة على الفرد والجماعة من أضرار المحرمات ، لتحقيق مصلحة الفرد ومصلحة الجماعة ، فيعم الخير والأمن والاطمئنان .

تمـــارين :

١ – يُمثل التكيف الاجتماعى جانباً هاماً فى تكامل وتوازن أبعاد الشخصية. وضح.

٢ – يُؤكد الإسلام الأبعاد الرئيسية لمكونات الشخصية فى الكيان الإنسانى وهى الجسم والعقل والروح . وضح .

٣ – هناك مايُعرف بالميل الفطرى عند الإنسان للميل إلى الانتماء وحب الإجتماع. وضح .

٤ – الفطرة إلى التدين والتمسك بالعقيدة والإيمان ، تمثل جانباً هاماً فى تكامل بناء الشخصية فى الإسلام . وضح .

٥ – لايفصل الإسلام بين الفردية والجماعية فى الحياة الاجتماعية . وضح.

٦ – حدد دور العبادات فى الإسلام فى صلاح الفرد والجماعة .

الفصل التاسع عشر

الإسلام والإنسان فى أحسن تقويم

المحـــــتوى :

* تمهيد .
* الإسلام والإنسان فى أحسن تقويم .
* السمات العامة للإنسان المؤمن فى الإسلام .
* مواقف الاستعلاء فى سلوك الإنسان المؤمن .
* أحاسيس ومشاعر إنسانية متكاملة .
* التوازن فى السلوك .
* الفاعلية والإيجابية .
* النزعة الاستقلالية والرغبة فى التماسك الاجتماعى .
* الحس المرهف فى التعامل الجماعى والفردى .
* المجالات الرئيسية لسلوك الإنسان المؤمن فى الإسلام .
* تلخيص .
* تمارين .
* تعقيب ختامى .

تمهيد :

تسعى مناهج التربية المعاصرة إلى إعداد مايُعرف بالمواطن الصالح ، بينما يسعى الإسلام إلى تحقيق هدف أكبر وأشمل ، وهو إعداد الإنسان الصالح .. الإنسان بمعناه الإنسانى الشامل .. الإنسان من حيث هو إنسان .. لا من حيث هو مواطن .

والإسلام فى عمله لإعداد الإنسان الصالح ، يُحدد سمات هذا الإنسان فى دقة ووضوح . (١٧٦)

﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ... ﴾

(سورة الحجرات – آية ١٣)

وهو الإنسان الذى يعبد الله ويهتدى إليه :

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾

(سورة الذاريات – آية ٥٦)

والعبادة ليست مقصورة على المناسك التعبدية المحدودة ، وإنما هى معنى شامل جداً وواسع ، يشمل دقائق الحياة وتفصيلاتها ، ويشمل كل عمل وفكر وشعور وهو التوجه بكل نشاط حيوى إلى الله ، ومراعاة مايرضى الله فى هذا النشاط ومايغضبه وتوقى غضبه والعمل على رضاه .

وهو الإنسان الذى يتبع هدى الله :

﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

(سورة البقرة – اية ٣٨)

هو يستمد من هذا الهدى منهج الحياة ومنهج المشاعر ومنهج السلوك ولايتلقى من مصدر سواه .

وهو بالجملة الإنسان الذى يفى بشرط الخلافة فى الأرض :

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾

(سورة الإسراء – آية ٧٠)

وشرط الاستخلاف هو العمل بمقتضى هذا التكريم الإلهى ، فلا يهبط الإنسان عن مستوى الإنسانية ، ولايتنازل عن الأفضلية فى عمارة الأرض بما يوحيه حمله (فى البر والبحر) ورزقه (من الطيبات) ، فيستغل هذه الطاقات الممنوحة له فى كل اتجاه ، ولكن على المستوى الكريم الرفيع ، فى حدود التقوى والاستمداد من منهج الله . وبذلك يكون سلوكه على أسمى درجات السلوك الإنسانى . إذاً ... ماصورة الإنسان فى الإسلام ؟ وما سمات الإنسان فى أحسن تقويم ؟ .

الإسلام والإنسان .. في أحسن تقويم :

يقوال الله تعالى :

﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾

(سورة التين – آية ٤)

والقصد بأحسن تقويم ، أى خلقه الله تعالى جنس الإنسان فى أحسن شكل ، متصفاً بأجمل وأكمل الصفات ، من حسن الصورة ، وانتصاب القامة وتناسب الأعضاء ، مزيناً بالعلم والفهم ، والعقل والتمييز ، والنطق والأدب . وأحسن تقويم هو أحسن صورة وأبدع خلق . (١٧٧) وفى هذا ما يصور أسمى مستويات البناء لشخصية الإنسان .

السمات العامة للإنسان المؤمن في الإسلام :

العبادة .. هى منهاج الحياة كلها لهذا الإنسان ، وهى الصورة التى تبدو فى سلوكه فى كل لحظة من لحظات حياته ، أى أنه لايكون عبداً إلا لله ، وأنه فى كل عمله يعمله وكل سلوك يسلكه ، وكل فكر وعمل عقلى .. متصل بالله .. مراع

لله ... متوجه إلى الله (١٧٨) إن سمات التقوى والخشوع والحياء تظهر على وجهه.

﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ... ﴾

(سورة الحجرات - آية ١٣)

وهذا الإنسان الذى تبدو التقوى من وجهه ، ويبدو فى قسماته الخشوع ، وتتسم حركاته وحديثه بالهدوء والوداعة والحياء .. هذا الإنسان لايوصف بالضعف ، بل إنه لايضعف ولايخشع إلا لله وحده لاشريك له . أما ما عدا ذلك فهو بناء إنسانى قوى ، صلب العود شديد المراس متين متماسك ، ذو خلق متين .

﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾

(سورة الفتح - آية ٢٩)

والشدة التى يتسم بها لاتمنع الرحمة ، ولا الشدة فهذه فى موضع وتلك فى موضع وكلاهما صواب .

وهى ليست الدقة المطلقة والرحمة فى كل مناسبة ومع كل فرد .

وليست الشدة الجافية التى تسم الطبع بالغلظ والجفاء ، وإنما هى المرونة الحية التى تقدر على مواجهة كل موقف بما يليق ، والتى تملك فى داخلها طاقة للرحمة وطاقة للشدة ، تستمد منها بحرية حين تشاء . والهدف الأسمى عند الإنسان المؤمن هو الخير ، وهو يصل إليه الإنسان بكل طريق ممكن ، بل إن سلوكه الدائب يتسم بالخير كله .

قد تكفيه فى دفع الشر كلمة طيبة :

﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾

(سورة فصلت - آية ٣٤)

وقد تفلح الموعظة الحسنة معه :

﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾

(سورة النحل - آية ١٢٥)

وقد تخفق الوسائل كلها فلاتنفع إلا الشدة ، وعندئذ يكون سلوك الشدة هو الأصوب . والإنسان المؤمن فى كل حالاته ، مستعل وهذه سمة من سماته :

﴿ وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾

(سورة آل عمران – آية ١٣٩)

هذا الإنسان لايستعلى فى حال السراء بالتعاظم والخيلاء ، أو بالكذب والفرح فى حال الرخاء .

كلا . فما هذا استعلاء .. إنما هو الكبر والغرور

.. وهما سمات لايحبهما الإسلام .

﴿ وَلاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾

(سورة لقمان – آية ١٨/١٩)

إنها دعوة إلى الإنسان المؤمن بالتواضع والقصد والاعتدال :

﴿ وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً ﴾

(سورة الإسراء – آية ٣٧)

والاستعلاء الحقيقى للإنسان فى الإسلام هو الاعتزاز بالله ، قولاً وعملاً والاعتزاز بالذات وصيانتها عن كل مذلة لغير الله ، وكل دنس يصيبها ، وكل خضوع لما يملك الإنسان دفعه من الأذى والضرورات . وهذا الاستعلاء من أبرز سمات الإنسان المؤمن – وهو إنسان الإسلام .. وهو الإنسان الصالح – وهذا الاستعلاء يصاحبه فى كل موقف من مواقف حياته ، ومن شأن هذا أن يحدد له السلوك الذى ينبغى أن يسلكه ... إذاً ما مواقف الاستعلاء فى سلوك الإنسان المؤمن .

مواقف الاستعلاء فى سلوك الإنسان المؤمن :

هو فى وجه الظلم والعدوان مستعل ولو كان فى موقف الهزيمة ؛ لأنه لايستمد استعلاءه من النصر فتفقده الهزيمة إياه . وإنما يستمده من الإيمان بالله والاتصال به ، ومن ثم لايفقده فى الهزيمة ويسترده فى النصر ، بل هو كامن فى ذاته .. فى داخل نفسه ... مصاحب لها فى كل حال .

وهو فى وجه المغريات مستعل ولو كان فى حاجة . لأنه لاينبغى له – وهو المؤمن المتصل بالله – أن يحيد عن منهج الله ويخالف عن دستوره ، من أجل كسب مهما يكن من عظمه فهو حقير ، ومهما يكن من كثرته فهو زائل ، ويبقى الله ، وحساب الله ، وهو بهذا يملك طاقة محاسبة الذات .

﴿ وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾

(سورة طه – آية ١٣١)

وهو فى وجه الشهوات مستعل ، لأنه وهو المؤمن المتصل بالله أكرم عند الله وعند نفسه من أن يذل لشهوة تدنسه وتمرغه فى الوحل ، من أجل متعة عابرة لن تغنيه ، وسيجد أطيب منها فى الحلال ويجد أطيب منها دائماً عند الله ، وهو بذلك ثابت غير متقلب أو متردد .

﴿ وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ﴾

(سورة النور – آية ٣٣)

وهو فى وجه القيم الزائفة مستعل لأنه يملك القيم الحقيقية المستمدة من الله ومنهج الله ، فلا تزلزله ولايضطرب سلوكه نتيجة قيم زائفة من صنع البشر ، لاترفع ولاتخفض إلا فى ظاهر الأمر ، ولايمكن أن تفرض نفسها على مشاعر المستعز بالله والمستعز بنفسه وقيمه ، لأنها لاتساوى شيئاً فى ميزانه ، ولاتغير حقائق الأشياء :

﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾

(سورة الكهف – آية ٢٨/٢٩)

وهذا النمط من السلوك .. أى الاستعلاء أمام الوجوه التى سبق ذكرها ، فلايصعر خده للناس ولايمشى فى الأرض مرحاً ، فهى صغار يستعلى عنها المؤمن ، وفى هذا مايجعل الناس يحترمونه ويقدرونه ؛ لأنهم يحسون أن بداخله كياناً صلباً متماسكاً .

وبذلك فإن المؤمن فى استعلائه لايقلل من قدر غيره أو يحتقر الناس من حوله ... ليست هذه سماته ... إلا إذا ناله الأذى ممن حوله ، وعندئذ يرد عن نفسه ، فيزدرى من يزدريه ويحتقر من يعامله بالمثل ، والله تعالى صرح للمظلوم أن يجهر بالسوء من القول ولايحبه :

﴿ لا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَن ظُلِمَ ﴾

(سورة النساء – آية ١٤٨)

وهو بذلك لايظلم ذاته ، بل إنه يبيح رد العدوان بمثله ، ويظهر الاستعلاء على من يسلكون معه هذا السلوك .

﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا ﴾

(سورة الفرقان – آية ٦٣)

أحاسيس ومشاعر إنسانية متكاملة :

هذا الإنسان المؤمن يتسم سلوكه بالنزعة الإنسانية فى أكمل مستوياتها .

يفيض قلبه بالعطف على الناس من حوله ، أى المشاركة الاجتماعية فى أسمى صورها ، رغم ما قد يواجهه من ضعف أو طمع أو جشع أو لجاجة أو غرور فى سلوك البعض منهم .

ودافعه إلى ذلك مايتذكره من وحدة المنشأ ، فليس فى سلوكه عصبية أو عرقية .

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾

(سورة الأعراف – آية ١٨٩)

وبذلك يتذكر واجب الأخوة فى التعامل الإنسانى . ويتفكر أنه يصارع أهواءه أحياناً ويجاهد نفسه ويخضع لضرورة قاهرة فيعطف على من حوله ويبرر لهم الاعتذار عما يرتكبونه من هفوات أو زلات :

﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ﴾

(سورة آل عمران – ١٣٣/١٣٤)

وينزع إلى الخير دائماً ، وتفيض أحاسيسه بالرحمة نحو الناس ، أقارب كانوا أم رفاقاً ، يعرفهم أو لا يعرفهم أو لاتربطهم به علاقات . وفى سلوكه هذا يبذل جهده وطاقته لينفع ويعم نفعه أكبر عدد من الناس . ويقول محمد عليه أفضل صلاة وتسليم :

«إن من نفس ابن آدم إلا عليها صدقة فى كل يوم طلعت فيه الشمس »

قيل : يارسول الله من أين لنا صدقة نتصدق بها ؟

فقال : إن أبواب الخير لكثيرة . التسبيح والتحميد والتكبير والتهليل والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وتميط الأذى عن الطريق وتسمع الصم وتهدى الأعمى وتدل المستدل عن حاجته ، وتسعى بشدة ساقيك مع اللهفان المستغيث وتحمل بشدة ذراعيك مع الضعيف»

(رواه ابن حبان والبيهقي)

بل إن النزعة الإنسانية تسمو وتنطرح حتى فى الشدة وفى الحرب والقتل فى سبيل الله .

وفى هذا يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« إن الله كتب الإحسان على كل شىء . فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة . وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة ، وليحد أحدكم شفرته ، وليرح ذبحته» .

(رواه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة)

ومشاعر الحب ... والقدرة على الحب .. فى سلوك الإنسان الصالح المؤمن، هو حب خالص لاينتظر من وراءه جزاء مادى أو معنوى ولاشكورا ولايهدف لكسب أو منفعة .. إنه الحب الخالص فى الله . وهو إنسان يمنح الحب لمن حوله بمقدار مايقدر عليه من الحب .

« لايؤمن أحدكم حتى يُحب لأخيه مايُحب لنفسه»

(رواه البخاري)

إنه النبع الحسى الفياض والسمو النفسى من الداخل ، والغنى النفسى .. الذى يفيض على الناس بمشاعر الحب ويمنحهم العطاء ، لأنه يستمد من معين

ضخم لاينفذ ، معين الحب الإلهى الزاخر الفياض .

ومن حُبه للناس يحب لهم الخير ، ويدعوهم إلى الخير .

إنه حين يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر – وتلك سمات دائبة من سماته – يسلك ذلك لأنه يحب للناس الهداية دون الانحراف ويحب لهم الخير دون الشر . وليس فى ذهنه أو قلبه أنه يحب أن يسيطر عليهم ويسوقهم أمامه فيطيعوه .

وفى سلوكه الكرم والمروءة ، حيث يُحس بأحاسيس الآخرين ، وينفعل عندما يحس بآلام الناس ، فيسرع إلى نجدتهم ، ويبذل لهم العون ويبذل لهم الجهد والمال ، وهو المال الذى تشتهيه كل نفس ، ولكنه يبذله طواعية وليس كراهية ، فهو يبذله لمرضاة الله .

﴿ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ ﴾

(سورة البقرة – آية ١٧٧)

التوازن فى السلوك :

هو الإنسان الصالح المؤمن المتوازن فى سلوكه وفى فكره وفى قوله وفى وعده وفى مشاعره . متوازن لأن طاقته كلها تعمل ، وتأخذ نصيبها من الحياة . متوازن فى طاقاته الجسمية والعقلية والروحية . متوازن لاتثيره الأهواء ولايندفع وراء نزوة طارئة ، لأن قلبه المؤمن وعقله المتزن يرده عن الاندفاع .

متوازن لايسبح فى بحر عاجى من الأفكار والأحلام ويترك الواقع ، لأن قوته الحيوية ترده عن الخيالات والأوهام وتوقظه لواقع الحياة .

متوازن لايغرق فى متاع الأرض ولايغرق فى عالم المادة ، لأن روحه النقية المتفتحة الطليقة تنتشله من هذه الوهدة ؛ فهو يستمتع بطيبات الحياة دون تكالب عليها ، وهو على استعداد دائم للتخلى عنها إذا دعا إلى ذلك داع من دواعى الجهاد فى سبيل الله .

متوازن لايستطيره خبر يسمعه حتى يتثبت ويتبين ، وحتى لايصيب غيره بالجهالة ، فينتابه الندم والحسرة .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴾

(سورة الحجرات - آية ٦)

متوازن لاتستطيره كل نظرية جديدة يسمعها ، حتى يزنها بميزان ويتثبت مما فيها من الحق ، لأنه يدرك أنه لايبتغى أن يكون قبل الذين :

﴿ وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴾

(سورة النجم - آية ٢٨)

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾

(سورة الإسراء - آية ٣٦)

وفى الوقت ذاته لايتمسك ويجمد على كل قديم عنده ، فالجمود ليس من الإيمان ، والاعتراف بنعمة الله يقتضى إعمال الفكر الذى وهبه الله للإنسان للتدبر والمعرفة . فالإسلام يحث الإنسان إلى البحث عن الحق ، ويتبعه حالما يثبت له أنه حق .

متوازن لأن فيه قوة ضابطة موجهة ، تهتدى بمنهج الله وشريعته ، وتوجه سلوكه فى خير مسار .

الفاعلية والإيجابية :

هذا الإنسان قوة فعالة فى الحياة بفاعليته وإيجابيته ؛ إذ إن إيمانه يُبعده عن سلبيات الحياة ، بل يدفعه لتحقيق الإيجابيات فى واقع الحياة . بل إن تمسكه بالعقيدة وإتباع دستور الله ومنهجه ، يدفعه إلى التمسك بإيمانه ويعمل على تنفيذ ما أمر الله به وسنة نبيه المصطفى عليه أفضل صلاة وتسليم ، ويحول الواقع الشعورى لديه إلى واقع عملى .

بل إن تدبره فى خلق السموات والأرض وتصوراته لحقيقة القوة الخالقة وحقيقة الإيمان وحقيقة الكون كله وحقيقته هو كإنسان خلق فى أحسن تقويم ... وإرتباطها بعضها ببعض ، ليحدد لذاته كإنسان يدرك الواقع فى أعلى مراتبه ،

يُحدد آراءه وفق منهج الله ويسترشد بوصاياه ووصايا رسوله الكريم . لذلك لايملك أن يكون سلبياً إزء حادث أو فكرة أو رأى أو عمل ، مادام له تصور خاص لما ينبغى أن يكون عليه الحادث والفكرة والعمل .

بل إن الطاقة الحيوية وما يتبعها من دافعية الإنجاز ، والتى زوده بها الإسلام ... تدفعه إلى تعمير الأرض وترقيتها بمقتضى إرادة الله ، ومن ثم لايكون خاملاً أو كسولاً أو متواكلاً حتى تدفعه الأحداث ، بل هو قوة متحركة فعالة منجزة لكل ما فيه الخير لذاته وللجميع من حوله . ومن إيجابياته الفِعالة أنه يقف أمام طريق الشر ، وحيث يمكنه أن يتخطى هذا الطريق ؛ إذ إنه يدرك أن هذا الشر مخالف لما فى طبعه من إيجابية ، ومخالف لقواعد الإيمان .

وهو يُجاهد الشر ما وسعه الجهاد ، وحتى إن غُلب على أمره لايُسلم قلبه للشر ، وإنما يغير المنكر فى قلبه ، وهو أضعف الإيمان .

النزعة الاستقلالية والرغبة في التماسك الاجتماعي :

هذا الإنسانِ ... بمقتضى إيجابيته وفاعليته ينزع فى سلوكه إلى الاستقلالية، فهو يدرك ذاته ويشعر بكيانه ووجوده وأهميته فى الحياة ، وفى هذا مايوجه سلوكه فى الحياة .

والشعور بالذات قائم على اعتزازه بإيمانه ، وبما هدى الله قلبه من تماسك وقوة ، وليس هذا الشعور قائماً على زيف وزيغ من كونه ينتمى إلى حسب أو نسب أو قوة أو مال .

وهدى الله يجعل منه قوة فعالة ، ومن شأن ذلك مايُحس به من قيمته الحقيقية ، وفى هذا مايجعله استقلالى النزعة ؛ إذ إنه يستمد قيمته من ذاته المهتدية بهدى الله .

وليس فى النزعة الاستقلالية مايباعد بينه وبين الوسط الاجتماعى الذى يعيش بينه ، إذ إنه بكيانه المتفرد شخص اجتماعى إلى أمد بعيد . فليس فى استقلاليته حاجز يحجز بينه وبين الناس ، فالرباط الدائب الحى يربط بينه وبين غيره من الكائنات ، وهذا الرباط الحى مستمد من الصلة بالله ، وهى الصلة والرابطة التى يلتقى عليها جميع الأحياء .

والحُب طاقة الإيمان الكبرى ، قوة واصلة تكره الحواجز وتجرف السدود .

وفى طبع المؤمن التعاون على البر والتقوى وفى هذا ما يدفع الفرد إلى التماسك الاجتماعى والاجتماع مع الناس .

والإسلام يكره العزلة وينفر منها .

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم :

«المؤمن الذى يخالط الناس ويصبر على أذاهم أعظم أجراً من الذى لايخالطهم ولايصبر على أذاهم»

(رواه البخاري وأحمد)

لذلك من سمات هذا الإنسان أنه اجتماعى – رغم نزعته الاستقلالية – وهو مصاحب ... وصول ... ودود .

الحس المرهف فى التعامل الجماعى والفردى :

هذا الإنسان الاجتماعى بطبعه ، والذى ليس بينه وبين الناس حواجز ، لايزعج الناس ويشق عليهم ويرفع الحواجز والتكليف بينه وبينهم . ليس معنى أنه يحب الناس ويخالطهم أن يقتحم عليه دورهم بلا موعد ، ويقتحم عليهم راحتهم بغير استئذان .

لقد هذبه الإيمان وأصلح سلوكه وزوده بالحس المرهف

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾

(سورة النور – آية ٢٧)

وهذا الحس المرهف والتهذيب جعله يحس براحة الناس ، بل جعل من حبه للناس مايقف حائلاً بين إزعاجهم وإقلاق راحتهم ، وليس طلب الموعد والمحافظة عليه والإستئذان للزيارة إقامة للحواجز وتعطيلاً للمودة ، بل إن فى هذا السلوك مافيه الحرص على المودة ، وإيثار للناس بالراحة ، ومنطق الحب ليس إلا الإيثار .

ومن سمات الحس المرهف النظافة فى الثياب وفى السلوك وفى التعامل مع الناس .

﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾

(سورة المدثر – آية ٤)

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا ﴾

(سورة النساء – آية ٥٨)

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾

(سورة البقرة – آية ٢٢٢)

والنظافات متعددة بتعدد السلوك الإنسانى :

– فالخشوع فى الصلاة والمحافظة عليها نظافة فى التعامل مع الله ونقاء فى السريرة .

– والإعراض عن اللغو نظافة فى اللسان وفى الفكر والضمير ، وصون لها عن التنمية والتفاهة والانحراف .

– والزكاة نظافة النفس من شح المال .

– وحفظ الفرج نظافة من دنس الشهوة ، التى تدنس الفرد وتحط من قدره ، وتشيع الفاحشة فى المجتمع فتدنسه .

– ورعاية الأمانة والعهد نظافة فى التعامل مع الناس واستقامة الطبع وصدق وإخلاص .

– والحس المرهف من شأنه أن يجعل منه إنساناً يُحس بالجمال من حوله ، ولكن على نظافة واعتدال .

إن دأبه وطول مصاحبته للقرآن والحياة الدائمة فى كلمات الله ، فتحت بصيرته على الجمال فى الكون ، وأحدثت فى نفسه حساسية مرهفة لكل شىء حى وكل شىء جميل .

وفى آيات الكون من حوله ، مايُثير حسه المرهف ووجدانه .

وهو لايقع فى الفتنة والضلال ، فينظر إلى الحُسن إلا فى حدود ما أباح له الله . وفى هذا مايقيد سلوكه بالنظافة والسمو ، التى تعمقت فى حسه وقنع بها وإرتضاها .

... وخلاصة هذه السمات كُلها أن هذا الإنسان الذى خلقه تعالى فى أحسن تقويم وهو شخص :

- يؤدى واجبه فى الحياة ويتوكل على الله فى السماء ويُسلم أمره إلى الله .
- يستعلى على الدنايا ، ويستعلى على القوى الزائفة ، ويستعلى على الباطل ويترك مصيره لله .
- ويسعى للرزق بكل ما أوتى من قوة ويترك النتيجة لله .
- ينفق مما أعطاه الله ، ويترك حساب الغد إلى الله .
- ويسير مع الأقدار مؤمناً بأنه لن يصيبه إلا ماكتبه له الله .
- ويحتمل الشدة ويصبر على الضراء فى سبيل الله .
- ويرجو من الله الخير .

إنه إنسان يعيش بأقصى طاقاته واستعداداته فى عالم الواقع ، ويبذل جهده فى تحقيق ذاته وتحقيق المثالية فى ذات الوقت ، ولاانفصال فى واقعه وذاته ولافى عالمه بين الواقع والمثالية .

ولذلك فإن سلوكه يُمثل أعلى مستويات السلوك الإنسانى ، وإن هذه السمات التى تمثل الإنسان فى أحسن تقويم ، هى سمات المؤمنين .

المجالات الرئيسية لسلوك الإنسان المؤمن فى الإسلام :

يمكن تصنيف سمات المؤمنين فى الإسلام إلى تسعة مجالات رئيسية من مجالات السلوك : (١٧٩)

١ - **سمات تتعلق بالعقيدة** : الإيمان بالله ، وبرسله ، وكتبه ، وملائكته ، واليوم الآخر ، والبعث ، والحساب ، والجنة ، والنار ، والغيب ، والقدر .

٢ - **سمات تتعلق بالعبادات** : عبادة الله ، وخشيته ، وأداء الفرائض من صلاة وصوم وزكاة وحج وجهاد فى سبيل الله بالمال والنفس ، وتقوى الله وذكره دائماً ، واستغفاره ، والتوكل عليه ، وتلاوة القرآن .

٣ - **سمات تتعلق بالعلاقات الاجتماعية** : معاملة الناس بالحسنى ، الكرم والجود والإحسان ، والتعاون ، الاتحاد والتماسك ، الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، العفو ، الإيثار ، الإعراض عن اللغو ، حب الخير ، إغاثة الملهوف .

٤- **سمات تتعلق بالعلاقات الأسرية** : إطاعة الوالدين والبر بهما ، الإحسان بالوالدين وبذى القربى ، حسن المعاشرة بين الأزواج ، رعاية الأسرة والإنفاق عليها ، والتنشئة السليمة للأبناء .

٥- **سمات خلقية** : الصبر ، الحلم ، الصدق ، العدل ، الأمانة ، الوفاء بالعهد، العفة ، التواضع ، القوة فى الحق ، عزة النفس ، قوة الإرادة ، التحكم فى أهواء النفس .

٦- **سمات انفعالية وعاطفية** : حُب الله وخشيته ، الخوف من عذاب الآخرة، الأمل فى رحمة الله ، حب الناس ، كظم الغيظ والتحكم فى الغضب ، عدم الاعتداء على الغير ، عدم حسد الآخرين ، الرحمة ، لوم النفس ، والشعور بالندم عند ارتكاب ذنب ما ، عدم الغرور .

٧- **سمات عقلية ومعرفية** : التفكير فى الكون وخلق الله ، طلب المعرفة والعلم ، عدم اتباع الظن وتحرى الحقيقة ، حرية الفكر والعقيدة .

٨- سمات تتعلق بالحياة العملية : الإخلاص فى العمل وإتقانه ، السعى بنشاط وجد فى سبيل كسب الرزق .

٩- **سمات بدنية** : القوة ، الصحة ، النظافة ، الطهارة .

... تلك هى سمات المؤمنين . ولكن هل كل الناس على السمات نفسها ؟

الواقع إن كتاب الله العزيز وردت فيه أوصاف للناس ، تُفسر سلوكهم على أساس العقيدة فهناك :

- الضالون المكذبون :

﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ ﴾

(سورة الواقعة آية ٥١)

- الكافرون : .

﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾

(سورة المائدة – آية ٤٤)

- الظالمون :

﴿ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ ﴾

(سورة الشوري – آية ٨)

- السفهاء :

﴿ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ ﴾

(سورة البقرة - آية ١٣)

ولقد وردت أوصاف عديدة للناس فى القرآن الكريم ، وماذكرناه بعض من كثير مما يوصف به الناس ويفسر سلوكهم .

ومن حيث إن العقيدة الإسلامية لها أهميتها فى تكوين شخصية الإنسان وفى تحديد سماته الشخصية ، وفى توجيه سلوكه على نحو معين خاص يتميز به، فإن تصنيف الناس على أساس العقيدة فى القرآن الكريم يتضمن أنماط الشخصية إلى ثلاثة أنماط ، هى :

المؤمنون والكافرون والمنافقون ، وكل نمط من هذه الأنماط الثلاثة له سماته الرئيسية العامة إلى تميزه عن النمطين الآخرين .

وقد عرضنا سمات المؤمنين الذين يمثلون أسمى السمات الشخصية ، ولانود أن نطيل فى توصيف سمات الكافرين أو المنافقين ، وبصفة عامة يتصف الكافرون بعدم الإيمان ، والظلم والعدوان وسوء الخلق والكراهية والحقد للمؤمنين ، وجمود التفكير .

ويتصف المنافقون بعدم اتخاذ موقف محدد من عقيدة التوحيد ، والرياء فى أداء العبادات ، وضعف الثقة بالنفس ، والجبن ، والكذب والخداع ، وكراهية المسلمين والحقد عليهم ، والتردد والريبة ، وعدم القدرة على اتخاذ قرار ، والميل إلى التبرير للدفاع عن تصرفاتهم .

وبعد إن كتاب الله العزيز «الذى لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد» و «الذى جمع فأوعى» والأحاديث النبوية الشريفة والعقيدة الإسلامية أوضحت الكثير عن النفس البشرية والشخصية الإنسانية فى أسمى سماتها وفى أدنى مراتبها .

وليس هناك أصدق من الله حديثاً ، إذ يقول الحق تبارك وتعالى فى وصف الإنسان :

﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾

(سورة الإنسان - آية ٣)

وما أقل الشاكرين فى هذا الزمان ، وما أقل المؤمنين الذين يعملون الصالحات .

﴿ إلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ﴾

(سورة ص – آية ٢٤)

وفى ختام حديثنا عن الإسلام والإنسان فى أحسن تقويم ، لانملك إلا أن نقول :

إن إتباع أمر الله وسنة رسوله والإقبال على طريق الله بقلوب خاشعة مطمئنة هى السبيل إلى الاستقامة والإيمان والعمل الصالح ، وهى الطريق إلى السكينة والأمن والأمان ، والابتعاد عن الشهوات والانحرافات ، حيث تعمر القلوب بالضياء ، وتتطهر النفوس من الدنايا والخبائث والنقائض ، فتسلم من أمراض القلوب، وحيث تلتزم بما أمر الله تعالى .

.... إن إتباع أمر الله لايقدر عليه إلا المؤمن الذى يلتزم بعمل الصالحات ، والذى يذكر الله فى قيامه وقعوده ويخشى غضبه وعذابه ، وهو فى هذا يسعى إلى سبيل النجاة والفوز العظيم .

وصدق الحق تبارك وتعالى إذ يقول :

﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

(سورة النور آية ٦٣)

﴿ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴾

(سورة الجن – آية ١٧)

وبعد ....

اللهم اجعل سعادتنا فى الإيمان بك ، وإيماننا صادق بك ونابعاً من خشيتك وذكرك الدائم ، وتعلقنا وحبنا هو الذى يعمر قلوبنا بك . واجعل كتاب هدايتك الذى فيه شفاء لما فى الصدور .. ربيع قلوبنا .. وشفاء نفوسنا .. ومطهر قلوبنا ... وجلاء همومنا .. ونور عقولنا .. وضياء أبصارنا .

اللهم آمين

وليس لنا من ذكر بعد سوى ذكرك :

﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾

(سورة الإسراء – آية ٩)

وصدق الله العظيم

* تلخيص :

* تعمل مناهج التربية المعاصرة على إعداد المواطن الصالح ، بينما يسعى الإسلام إلى إعداد الإنسان الصالح بمعناه الإنسانى الشامل .

* والإنسان الصالح فى الإسلام هو الأتقى ، وهو الذى يعبد الله ويهتدى إليه، وهو الذى يتبع هدى الله ، ويستمد من هذا الهدى منهج سلوكه ، وبذلك يفى بشرط الخلافة فى الأرض .

* فى خلق الإنسان فى أحسن تقويم ، مايعنى أحسن صورة وأبدع خلق .

* العبادة كمنهاج الحياة كلها للإنسان فى الإسلام ، تمثل الصورة التى تبدو فى سلوك الإنسان فى كل لحظة من لحظات حياته .

* من أبرز سمات الإنسان المؤمن .. الاستعلاء الذى يصاحبه فى كل موقف من موقف حياته ، وهو الذى يحدد للإنسان السلوك الذى ينبغى أن يسلكه .

* والاستعلاء يكون فى وجه الظلم ، وهو كامن فى ذاته ، فى داخل نفسه مصاحب لها فى كل حال .

* والاستعلاء فى وجه المغريات ولو كان فى حاجة ، وفى وجه الشهوات وفى وجه القيم الزائفة ، وهو لايقلل من قدر غيره أو يحتقر غيره .

* والإنسان الصالح يتسم سلوكه بالنزعة الإنسانية فى أكمل مستوياتها . يفيض قلبه بالعطف وبالمشاركة الاجتماعية فى أسمى صورها .

ويعرف واجب الأخوة فى التعامل الإنسانى ، وينزع إلى الخير دائماً ، والنزعة الإنسانية لديه تسمو وتنطرح حتى فى الشدة وفى الحرب وفى القتل فى سبيل الله .

ومشاعر الحب لديه فى أسمى صورها ، إنها الحب الخالص فى الله . وهو نبع حسى فياض وسمو نفسى من الداخل وغنى نفسى ، يفيض على الناس بمشاعر الحب ويمنحهم العطاء ، كما أن فى سلوكه الكرم والمروءة .

* وهو الإنسان الذى يتسم سلوكه بالتوازن فى الفكر وفى القول وفى الوعد وفى المشاعر . وهو متوازن لأن فيه قوة ضابطة موجهة ، تهتدى بمنهج الله وشريعته ، وتوجه سلوكه إلى الخير .

* والإنسان الصالح فى الإسلام قوة فعالة فى الحياة بفاعليته وإيجابيته ، إذ إن إيمانه يبعده عن سلبيات الحياة ، بل يدفعه لتحقيق الإيجابيات فى واقع الحياة .

* والإنسان الصالح فِى الإسلام بمقتضى إيجابيته وفاعليته ينزع فى سلوكه إلى الاستقلالية ، فهو يدرك ذاته ويشعر بكيانه ووجوده وأهميته وقيمته فى الحياة ، وفى هذا مايوجه سلوكه فى الحياة . بل إنه اجتماعى رغم نزعته الاستقلالية فهو مصاحب وصول ودود .

* ورغم كونه اجتماعياً ، فإنه لايرفع الحواجز والتكليف بينه وبينهم ، بل هذب الإيمان وأصلح سلوكه وزوده بالحس المرهف فى تعامله مع نفسه ومع الناس ومع خالقه .

* هذا الإنسان الصالح يعيش بأقصى طاقاته واستعداداته فى عالم الواقع ويبذل جهده فى تحقيق ذاته وتحقيق المثالية فى ذات الوقت ، ولا انفصال فى واقع وذاته ، ولا فى عالمه بين الواقع والمثالية .

تمـــــارين :

١- تعمل التربية المعاصرة على إعداد المواطن الصالح ، بينما يعمل الإسلام على إعداد الإنسان الصالح . وضح .

٢- تمثل العبادة منهاج الحياة والذى يتمثل فى سلوك الإنسان فى كل لحظة من لحظات حياته . اشرح .

٣- الاستعلاء ... هو إبراز سمات الإنسان المؤمن . اشرح .

٤- يتسم سلوك الإنسان الصالح بالنزعة الإنسانية فى أكمل مستوياتها . وضح .

٥- الإيمان الصالح فى الإسلام قوة فعالة بفاعليته وإيجابيته فى الحياة . وضح .

تعقيب ختامى :

* ليس لنا من تعقيب فى ختام هذا الكتاب فيما يتعلق بسمات الإنسان الصالح الذى يوصف فى أحسن تقويم من حيث كونه يتحلى بأسمى درجات ومستويات السلوك الإنسانى للفرد المؤمن ، إلا أن نصفه بما يأتى :

إنه الإنسان المؤمن الذى نورد فيما يلى بعضاً مما ورد بشأنه . (١٨٠)

* عن عائشة رضى الله عنها قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:

«إن المؤمن ليُدرك بحُسن الخُلق درجات قائم الليل وصائم النهار»

(رواه أبو داود)

* وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم :

«كرم المؤمن دينه ، ومروءته عقله ، وحسبه خلقه»

(رواه الحاكم)

* وعن أبى ذر الغفارى رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم :

«قد أفلح من أخلص قلبه للإيمان ، وجعل قلبه سليماً ولسانه صادقاً ، ونفسه مطمئنة ، وخليقته مستقيمة»

(رواه ابن حيان)

وفى وصف سمات وسلوك المؤمن ، ذكر أحد المؤمنين :

المؤمن بشره فى وجهه ... وحزنه فى قلبه ... أوسع صدراً ... وأخفى نفساً ... زاجراً عنِ كلِ شر ... آمراً بكل خير ... لاحقود ... ولاحسود ... ولامرتاب ... ولاسبّاب ... ولاعيّاب .. يكره الرفعة ... ويبّغض السُّمعة ... طويل الهم ... (أ) ... كثير الغم ... (ب) ... حليف الصمت ... (جـ) ... عزيز الوقت (د) ... لامتفاخر ... ولامتهتك ... ولامتكبر ... ضحكه تبسم ... واستفهامه تعلم ... ومراجعته تفهم ... لايبخل ... ولايعجل ... ولايضجر ... ولايجهل ... قليل المنازعة ... جميل المراجعة ... عدل إن غضب ... رفيق إن طلب ... خليص الودّ ... وثيق العهد ... وفيِ الوعد ... شفوق ... وصول ...

حليم ... حمول ... قليل الفضول (هـ) ... راضٍ عن مولاه ... مخالف لهواه ... لايغلظ علىٍ من يؤذيه ... ولايخوض فيما لايعنيه ... إن سب وأوذى لم يسب ... وإن طلب ومنع .

أ- دائماً وأبداً مهموماً بأمر الآخرة ومايتعلق بها .

ب- إذا رأى مايُغضب الله سبحانه وتعالى تراه دائماً وأبداً متألماً .

جـ- لاينطق إلا بالكلمة الطيبة .

د- أى وقته ثمين .

هـ- أى لايتدخل فيما لايعنيه .

لم يغضب ... ولايشمت بمصيبة ... ولايذكر أحداً بغيبة ... هشاش ... بشاش ... لافحاش ... ولاغشاش كظامٌ ... بسّام ... دقيق النظر ... عظيم الحذر.

وهذا هو المؤمن حقاً .... (١٨١)

وبعد نتفق على أن هذه السمات تمثل أسمى درجات التكامل فى بنية الشخصية .. للإنسان فى أحسن تقويم .

ولعل لنا القدوة المثلى فى أسمى تكامل البناء الإنسانى متمثلة فيمن اصطفاه الله تعالى وبعثه رحمة للعالمين ، فى أكرم الأولين والآخرين ، فى شخصية نبى الهداية حيث زكى الله تعالى عقلى رسوله محمد عليه أفضل صلاة وتسليم فقال :

﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴾

(سورة النجم - آية ٢)

وزكى لسانه :

﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴾

(سورة النجم - آية ٣)

وزكى جليسه :

﴿ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴾

(سورة النجم - آية ٥)

وزكى فؤاده :

﴿ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴾

(سورة النجم – آية ١١)

وزكى صدره :

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾

(سورة الشرح – آية ١)

وزكاه كله عليه أفضل صلاة وتسليم حيث قال :

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾

(سورة القلم – آية ٤)

ولعل لنا القدوة المثلى فيما جاء على لسان محمد عليه أفضل صلاة وتسليم:

«بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق»

«أدبنى ربى فأحسن تأديبى»

وبعد ... ما أحوجنا أن نتبع آثار القدوة الحسنة لأسمى درجات التكامل فى بنية الشخصية الإسلامية الفزة ، لأسمى سلوك لرسول الله صلى الله عليه وسلم والذى بعثه الحق تبارك وتعالى رحمة للعالمين ؛ ليزكى الناس ويعلمهم الكتاب والحكمة .

﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾

(سورة الجمعة – آية ٢ –٣)

وصدق الحق تبارك وتعالى ·

المراجـــع

المراجـــع

مراجع الفصل الأول :

١- منصور / دكتور طلعت وآخرون : أسس علم النفس العام ، القاهرة ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٧٨ ، ص ص ٥-٢١ .

٢- Guilford, J.P. General Psychology 3rd ed. New York. Van Nostrand Reinhold co.,1971.

٣- دسوقى / دكتور كمال : علم النفس ودراسة التوافق ، بيروت ، دار النهضة العربية ، ١٩٧٤ ، ص ص ٣١/٣٥ .

٤- منصور / دكتور طلعت وآخرون : (مصدر سابق) ، ص ص ٢٥/ ٤٠ .

٥- Hernstein, R.J. & Boringg, E.G. A Source Book in The History of psychology. Cambridge: Harvard Univ. Press,1965, pp.581.

٦- أناستازى / وجون فولى : الفروق بين الأفراد والجماعات ، (ترجمة بإشراف أ. د سيد خيرى و أ. د. مصطفى سويف) القاهرة ، الشركة العربية للطباعة والنشر ، ١٩٥٩ ، ص١٥ .

٧- منصور / دكتور طلعت وآخرون : (مصدر سابق) .

٨- ر. بيرد : جان بياجيه وسيكولوجية نمو الأطفال ، (ترجمة فيولا الببلاوى) ، القاهرة ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٧٧ .

٩- ل. س. فيجوتسكى : فى علم النفس السوفيتى ، التفكير واللغة ، (ترجمة طلعت منصور) ، القاهرة ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٧٥ .

١٠- فيجوتسكى : (المصدر السابق) .

١١- ك. سيفيرين : علم النفس الإنسانى ، (ترجمة طلعت منصور ، عادل عز الدين ، فيولا الببلاوى) ، القاهرة ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٧٧ .

١٢- زيور / دكتور على : مذاهب علم النفس (مدخل إلى علم النفس مع قراءات ونصوص) ، بيروت ، دار الأندلس للطباعة والنشر ، الطبعة الثانية ، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م ، ص ص ١٨٤-١٨٦ .

مراجع الفصل الثاني :

١٣- زيور (المصدر السابق) - ص ص ١٩٠ - ١٩٤ .

١٤- القرآن الكريم .. كتاب الله العزيز .

١٥- عبدالباقى / محمد فؤاد : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، كتاب الشعب ، القاهرة ، دار ومطابع الشعب ، (بدون تاريخ) .

١٦- ابن كثير (التفسير المختصر) : محمد على الصابونى ، المجلد الأول والثانى والثالث ، بيروت ، دار القرآن الكريم ، الطبعة السابعة ، ١٤٠٢هـ/١٩٨١م.

١٧- الطويل / دكتور عزت عبدالعظيم : فى النفس والقرآن الكريم ، الإسكندرية ، المكتب الجامعى الحديث ، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م ، ص ص ٥١-٦٦ .

١٨- عزت / أحمد ، وآخرون : الدين والعلم ، القاهرة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٥٠ ، ص ص ٢٤٠-٢٤٢ .

١٩- ابن القيم الجوزية : محمد مسلم الغنيمى ، دمشق ، المكتب الإسلامى ١٩٧٧ ، ص ص ٢٧١-٢٨٠ .

٢٠- العثمان / عبدالكريم : الدراسات النفسية عند المسلمين والغزالى بوجه خاص، القاهرة ، مكتبة وهبة ، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م ، ص ص ٦٤-٦٥ .

٢١- الغنيمى / محمد مسلمى (مصدر سابق) .

٢٢- ابن القيم الجوزية : (تحقيق محمد أنيس عبادة والسرجانى) ، القاهرة، مكتبة نصير ، ١٩٧٩م ، ص٣٤٩ .

مراجع الفصل الثالث :

٢٣- شمس الدين / أبو عبدالله بن القيم : الروح ، القاهرة ، محمد على صبيح ١٣٦٩هـ/ ١٩٥٠م ، ص ص ٣٢٨-٣٣٧ .

٢٤- القاضى / دكتور يوسف مقداد بالجن : علم النفس التربوى فى الإسلام ، الرياض ، دار المريخ للنشر ، ١٤٠١هـ/١٩٨١م . ص٥٩ .

٢٥- الطويل : مرجع سابق ، ص ص ٦٧-٦٨ .

٢٦- الطويل : مرجع سابق ، ص ص ٧١-٧٢ .

٢٧- خليل / دكتور محمد رشاد : علم النفس الإسلامى العام والتربوى (دراسة مقارنة) الكويت ، دار القلم للنشر والتوزيع ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م ص ص ٧٦-٧٨ .

٢٨- ابن القيم : إغاثة اللهفان ، القاهرة ، عيسى البابى الحلبى ، الجزء الأول ص١٦ .

٢٩- كرم / يوسف : تاريخ الفلسفة اليونانية ، القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٣٦ ، ص ص ١٠٥-١٠٦ .

٣٠- دسوقى : (مصدر سابق) ص ص ١٥-١٨ .

٣١- العثمان : (مصدر سابق) ص ص ٨٧-٨٩ .

٣٢- العثمان : (مصدر سابق) .

٣٣- الغزالى / الإمام أحمد : فرائد اللآلى (وفيها معراج السالكين ، منهاج العارفين ، روضة الطالبين) ، فرج الله الكردى ، ١٣٤٤هـ ، ص٢٥ .

٣٤- راجح / دكتور أحمد عزت : أصول علم النفس ، القاهرة ، المكتب الحديث ، الطبعة العاشرة ، ١٩٧٦م ، ص٢٥ .

٣٥- راجح / دكتور أحمد عزت : (المرجع السابق) .

٣٦- ابن القيم : الروح (مصدر سابق) ، ص ص ٢٧٦/٢٧٧ .

مراجع الفصل الرابع :

٣٧ - السمالوطى / دكتور نبيل محمد توفيق : الإسلام وقضايا علم النفس الحديث، جدة ، دار الشروق للنشر والتوزيع والطباعة ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م ص ص ٢٥-٢٨ .

٣٨ - صليبا / جميل : تاريخ الفلسفة العربية ، بيروت ، دار الكتاب اللبنانى ١٩٧٣ ، الطبعة الثانية ، ص ١٧٠ .

٣٩ - العثمان : (مصدر سابق) ، ص ص ١٦٣-١٧٤ .

٤٠- نجاتى / دكتور محمد عثمان : الإدراك الحسى عند ابن سينا ، سلسلة علم النفس فى حياتنا اليومية ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٩٤٦م ، ص ص ٢٧-٢٨ .

٤١- العثمان : (مصدر سابق) ، ص١٧٤ .

٤٢- الإمام ابن حامد محمد بن محمد الغزالى : إحياء علوم الدين ، بيروت، دار المعرفة ، المجلد الأول ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م ، ص ص ١٦١-١٦٣ .

٤٣- الإمام الغزالى : (مصدر سابق) .

٤٤- الإمام الغزالى : (مصدر سابق) . الجزء الثالث ص ص ٣٠٥-٣٠٧ .

٤٥- الإمام الغزالى : (مصدر سابق) . الجزء الثالث ، ص ص ٤١/٤٥ .

مراجع الفصل الخامس :

٤٦- فرويد / سيجموند : (ترجمة) سامى محمود على وآخرين ، الموجز فى التحليل النفسى ، ١٩٦٢ .

٤٧- زهران / دكتور حامد عبدالسلام : الصحة النفسية والعلاج النفسى ، القاهرة عالم الكتب ، الطبعة الثانية ١٩٧٨ ، ص ص ٣٤/٣٥ .

٤٨- عودة / دكتور محمد ودكتور كمال إبراهيم مرسى : الصحة النفسية فى ضوء علم النفس والإسلام ، الكويت ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م ، ص ص ٧١/١٢١ .

٤٩- Maslow, A.H., The Further Reaches of Human Nature, New York, The Viking Press, 1972.

٥٠- Hansel, N., The Person In Stress: on The Biosocial Dynamics of Adaptation, New York, Human Sciences Press, 1976.

٥١- Erikson. E.H., Childhood and Sociaty (2nd ed.) N.Y., W.W Norton & co. Inc., 1963.

٥٢- صالح / دكتور أحمد زكى : علم النفس التربوى ، القاهرة مكتبة النهضة المصرية ، الطبعة الحادية عشر ، ١٩٧٩ ، ص ص ٧٨٩/٨٠٦ .

٥٣- الحاج / دكتور فائز محمد على : بحوث فى علم النفس العام ، دمشق، المكتب الإسلامى ، الطبعة الثانية ، ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م ، ص ص ١٤٧/١٥٠ .

٥٤- العثمان / عبدالكريم : (مصدر سابق) ص ص ١٧٥/٢١٦ .

٥٥- الإمام الغزالى : العقود واللآلى ، من رسائل الإمام الغزالى ، (رسالة كيمياء السعادة) ، القاهرة ، المطبعة المحمودية التجارية .

٥٦- الإمام الغزالى : إحياء علوم الدين ، الجزء الثالث (مصدر سابق) ص ص ٤١/٤٥ .

٥٧- العثمان / عبدالكريم : (مصدر سابق) ص ص ١٨٣/١٨٥ .

٥٨- الإمام الغزالى : معارج القدس فى مدارج معرفة النفس ، فرج الله الكردى ، ١٣٢٧هـ ، ص٨٤ .

٥٩- الإمام الغزالى : الأربعين فى أصول الدين ، فرج الله الكردى ، ١٣٢٨هـ ص١٩٤ .

٦٠- الإمام الغزالى : إحياء علوم الدين ، (مصدر سابق) الجزء الثالث ، ص ص ٧٩/١٠٧ .

٦١- الإمام الغزالى : (المصدر السابق) ، ص ص ١٩٢/١٩٣ .

٦٢- الحاج / دكتور فائز محمد على : (مصدر سابق) ، ص ص ١٥٦/١٦١ .

٦٣- هاربر / روبرت : (مترجم) التحليل النفسى والعلاج النفسى ، ترجمة دكتور سعد جلال ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٤ ، ص١١٣ .

٦٤- نجاتى / دكتور محمد عثمان : القرآن وعلم النفس ، القاهرة ، دار الشروق ، ١٩٨٣م .

مراجع الفصل السادس :

٦٥- حجر / الإمام أحمد بن على بن - فتح البارى بشرح صحيح الإمام أبى عبدالله محمد بن إسماعيل البخارى - الجزء التاسع - «باب الترغيب فى النكاح» - ص ١٠٤ - حديث رقم ٥٠٦٣ .

٦٦- العثمان / عبدالكريم : (مصدر سابق) ص ص ٢١٧/ ٢٣٠ .

٦٧- مسكويه/ أبو على أحمد بن محمد - «تهذيب الأخلاق عند الغزالى» تحقيق الدكتور قسطنطين زريق ، القاهرة ، المكتبة التجارية الكبرى .

٦٨- المبارك / دكتور محمد زكى : الأخلاق عند الغزالى ، القاهرة ، المكتبة التجارية الكبرى ، (دون تاريخ) ، ص١١٣ .

٦٩- العثمان / عبدالكريم : (مصدر سابق) ، ص ص ٢٢٠/ ٢٣٠ .

مراجع الفصل السابع :

٧٠- العثمان / عبدالكريم : (مصدر سابق) ، ص ص ٢٣١/٢٤٥ .

٧١- الفارابى : آراء أهل المدينة الفاضلة ، القاهرة ، ١٩٤٨ ، ص٥٠ .

٧٢- ابن سينا : «أحوال النفس ، تحقيق الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى ، القاهرة ، ١٧٣١هـ/١٩٥٢م . ص٦٣ .

٧٣- المبارك : دكتور محمد زكى : مرجع سابق .

٧٤- دنيا / سليمان : الحقيقة فى نظر الغزالى ، مصر ، ١٩٤٧م ، ص ص ٣٤٧/٣٤٨ .

٧٥- العثمان / عبدالكريم : (مصدر سابق) ، ص ص ٢٣٧/٢٤٥ .

٧٦- المبارك / دكتور محمد زكى : (مصدر سابق) ، ص١٠٢ .

٧٧- المبارك / دكتور محمد زكى : (مصدر سابق) .

مراجع الفصل الثامن :

٧٨- Guilford, J.P., General Psychology, New York Van Nostrand Reinhold co.,1971, p.p172-173.

٧٩- منصور . دكتور طلعت وآخرون : (مصدر سابق) ، ص ص ١٤٣/١٥٧ .

٨٠- ابن سينا : القانون فى الطب ، (طبعة جديدة بالأوفست عن طبعة بولاق) الجزء الأول ، بيروت ، (دون تاريخ) ، ص ٩٤ .

٨١- العثمان / عبدالكريم : (مصدر سابق) ، ص ص ٢٥٠/٢٦١ .

٨٢- عبدالقادر / دكتور حامد : العلاج النفسانى عند العرب ، القاهرة ، عيسى البابى الحلبى ، ١٣٦٦هـ / ١٩٤٧م ، ص٦٧ .

٨٣- العثمان / عبدالكريم : (مصدر سابق) ، ص٢٥٧ .

٨٤- العثمان / عبدالكريم : (مصدر سابق) ، ص٢٦٠ .

مراجع الفصل التاسع :

٨٥- خيرى / دكتور السيد محمد وآخرون : علم النفس التربوى (أصوله وتطبيقاته) ، الرياض ، مطبوعات جامعة الرياض ، ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م ، ص ص ٤٠/٤٣ .

٨٦- العثمان / عبدالكريم : (مصدر سابق) ، ص ص ٢٦٧/٢٧٣ .

٨٧- العثمان / عبدالكريم : (مصدر سابق) ، ص ٢٦٧ .

مراجع الفصل العاشر :

٨٨- خيرى / دكتور السيد محمد وآخرون : (مصدر سابق) ، ص ص ٧٧/٨١ .

٨٩- عثمان / حسن ملا : الأفكار النفسية عند ابن سينا ، (مجلة كلية العلوم الاجتماعية) ، جامعة الإمام محمد بن مسعود الإسلامية ، الرياض ، العدد الخامس ، ١٤٠١هـ/١٩٨١م ، ص ص ٦٦٠/٦٨٣ .

٩٠- العثمان / عبدالكريم : (مصدر سابق) ، ص ص ٦٧١/٦٧٢ .

٩١- ابن سينا : «الهداية» تحقيق وتقديم الدكتور محمد عبده ، القاهرة ، مكتبة القاهرة الحديثة ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٤ .

٩٢- عثمان / حسن ملا : (مصدر سابق) ، ص٦٧٤.

مراجع الفصل الحادي عشر :

٩٣- Thurstion, L.L., Primary Mental Abilities, Psychometrica Mon. Chicago,1938.

٩٤- Guilford, J.P. The Nature of Human Intelligence Macgraw Hill,1967.

٩٥- زيور / دكتور على : (مصدر سابق) ص ص ٣٦/ ٤٠ .

٩٦- نجاتى / دكتور محمد عثمان : (مصدر سابق) .

٩٧- زيور / دكتور على : (مصدر سابق) ص ٣١ .

٩٨- عثمان / حسن الملا : (مصدر سابق) ص ص ٦٧٢١ / ٦٧٩ .

٩٩- العثمان عبدالكريم : (مصدر سابق) ص ص ٣٣٤/٣٤٨ .

مراجع الفصل الثاني عشر :

١٠٠- جابر / دكتور جابر عبدالحميد : سيكولوجية التعلم ونظريات التعلم ، القاهرة ، دار النهضة العربية ، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م . ص ص ٣-١٠ .

١٠١- الطويل : دكتور عزت عبدالعظيم : (مصدر سابق) ص ص ٥١/ ١١١ .

١٠٢- هارى ويلز بافلوف وفرويد : ترجمة شوقى جلال ، الجزء الأول ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٥ ، ص٦١ .

١٠٣- محمود / دكتور إبراهيم وجيه : التعلم - أسسه ونظرياته وتطبيقاته - القاهرة ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٧٦ ، ص ص ١٥٨/ ١٥٩ .

١٠٤ - القاضى / دكتور يوسف مصطفى ودكتور مقداد بالجن : (مصدر سابق) ص ص ٢٠٠/ ٢٠٢ .

١٠٥- الحاج / دكتور فائز : (مصدر سابق) ص ص ٢١٢/ ٢١٤ .

١٠٦- الحاج / دكتور فائز : نظرية الفعل المنعكس الشرطى عند الغزالى ، دمشق، مطبعة الفجر ، ١٣٩١هـ / ١٩٧١م .

١٠٧- ابن جماعة : تذكرة السامع والمتكلم فى آدب العالم والمتعلم ، بيروت، دار الكتب العلمية ، ١٩٨٠ ، ص ص ٤٩/ ٥٠ .

١٠٨- عثمان / دكتور سيد أحمد : التعلم عند برهان الإسلام الزرنوجى ، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م - ص ص ٢٦/٩٥ .

مراجع الفصل الثالث عشر :

١٠٩- زهران / حامد عبد السلام : (مصدر سابق) ص ص ٩/ ١٤ .

١١٠- زهران / دكتور حامد عبد السلام : (المرجع السابق) .

١١١- دسوقى / دكتور كمال : علم النفس ودراسة التوافق ، بيروت ، دار النهضة العربية ، ١٩٧٤ ، ص ص ١٥/ ٤٥ .

١١٢- دسوقى / دكتور كمال : (المرجع السابق) .

١١٣- السمالوطى / دكتور نبيل محمد توفيق : الإسلام وقضايا علم النفس الحديث، جدة ، دار الشروق ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٤/ ١٩٨٤م ، ص ص ١٠٣/ ١١٣ .

١١٤- السمالوطى / دكتور نبيل محمد توفيق : (المرجع السابق) .

١١٥- عودة / دكتور محمد ودكتور كمال إبراهيم مرسى : (مصدر سابق) ص ص ١٢٥/ ١٧٧ .

١١٦- عودة / دكتور محمد ودكتور كمال إبراهيم مرسى : (مرجع سابق) .

١١٧- الطيب / محمد عبدالظاهر : الآراء النفسية عند ابن مسكويه . مجلة المسلم المعاصر ، العدد ٣٢ ، ١٩٨٢ ، ص ص ١٣٣/ ١٤١ .

١١٨- عودة / دكتور محمد ودكتور كمال إبراهيم مرسى : (مصدر سابق) .

١١٩- Holme, R., Abnormal Psychology, California, C.R.M. Books,1972.

١٢٠- عودة / دكتور محمد ودكتور كمال إبراهيم مرسى : (مصدر سابق) .

مراجع الفصل الرابع عشر :

١٢١- Guilford, J.P. General Psychology, Van Nostard Reinhold co., 3rd ed., New York,1971, p.p524-25.

١٢٢- القاضى / دكتور يوسف مصطفى ودكتور مقداد بالجن : (مصدر سابق) ص ص ٥٧/٨٣ .

١٢٣- فيليب فينيكس : فلسفة التربية ، ترجمة الدكتور محمد لبيب النجيحى ، القاهرة ، دار النهضة المصرية ، ص٨٥٨ .

١٢٤- إبراهيم / دكتور زكريا : المشكلة الخُلقية ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، مكتبة مصر ، ١٩٦٩ ، ص٤٨ .

١٢٥- أفلاطون : محاورات جورجياس ، ترجمة الدكتور محمد حسن ظاظا، القاهرة الهيئة المصرية العامة للتأليف ، ١٩٧١ ، ص١٢٩ .

١٢٦- ابن مسكويه : تهذيب الأخلاق ، القاهرة ، مطبعة صبيح وأولاده ، دون تاريخ ، ص٣٢ .

١٢٧- فيليب فينيكس : ترجمة الدكتور محمد لبيب النجيحى ، (مصدر سابق) ص٨٥٩ .

١٢٨- الطويل / دكتور توفيق : الفلسفة الخلقية ، القاهرة ، دار النهضة العربية ، ١٩٦٧ ، ص١٨٠ .

١٢٩- ابن مسكويه : (مصدر سابق) ص ص ٣٢/٣٣ .

١٣٠- جمهورية أفلاطون : ترجمة نظلة الحكيم ، الطبعة الثانية ، / القاهرة، دار المعارف ، ص ص ١٧٠/١٧١ .

١٣١- العثمان عبدالكريم : (مصدر سابق) ص ٥٦ .

١٣٢- فيليب فينيكس : ترجمة الدكتور محمد لبيب النجيحى ، (مصدر سابق) ص٨٦٣ .

١٣٣- كانط : التربية ، ترجمة الشيخ طنطاوى جوهرى ، القاهرة ، المطبعة السلفية ، ١٣٥٥هـ ، ص٧٨ .

١٣٤– فيليب فينيكس : ترجمة الدكتور محمد لبيب النجيحى ، (مصدر سابق) ص٨٦٤ .

١٣٥– قطب / محمد : فى النفس والمجتمع ، القاهرة ، دار الشروق ، الطبعة السابعة ، ١٤٠٣/١٩٨٣م ، ص ص ٤٦/٥٥ ، ص ص ١٢٦/١٤٤ .

١٣٦– قطب / محمد : دراسات فى النفس الإنسانية ، القاهرة ، دار الشروق، الطبعة السادسة ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م ، ص ص ١٧٢/١٨١ و ص ص ٣٢٧/٣٤٢ .

١٣٧– قطب / محمد : (المرجع السابق) .

١٣٨– خليل / دكتور محمد رشاد : (مصدر سابق) ص ص ٢٦/٨١ و ص ص ١٣١/١٣٢ .

١٣٩– الجزائرى / أبو بكر جابر : منهاج المسلم ، المغرب ، دار الطباعة الحديثة ، الطبعة الثالثة ، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م ، ص ص ٨٠/٨٢ و ص ص ٩٢/٩٨ .

١٤٠– النراقى / محمد مهدى : جامع السعادات ، بيروت ، مؤسسة الأعلمى للمطبوعات ، المجلد الثالث ، دون تاريخ ، ص ص ٤٩/١٠٠ .

١٤١– الطويل / دكتور عزت عبدالعظيم : (مصدر سابق) ص ص ٧٥/٧٧ .

١٤٢– Hacon, Richard, Personal and Organistional Effectiveness, McGraw-Hill Book co., U.K., ltd. England,1972, pp95-103.

١٤٣– قطب / محمد : فى النفس والمجتمع ، (مصدر سابق) ، ص ص ٤٦/٥٥ .

١٤٤– قطب / محمد : دراسات فى النفس الإنسانية ، (مصدر سابق) ، ص ص ١٧٨/١٧٩ .

١٤٥– خليل / دكتور محمد رشاد : (مصدر سابق) ص ص ١٣١/١٣٢ .

مراجع الفصل الخامس عشر :

١٤٦– منصور / على : شريعة الله وشريعة الإنسان ، سلسلة كتابك ، القاهرة ، دار المعارف ، العدد الثالث ، ١٩٧٧ ، ص ٦ .

١٤٧- قطب / محمد : دراسات فى النفس الإنسانية ، (مصدر سابق) ص ص ٦٢/٦٣ .

١٤٨- قطب / محمد : فى النفس والمجتمع ، (مصدر سابق) ، ص ص ١٣٥/١٤٤ .

١٤٩- شريف / محمد بديع : المساواة فى الإسلام ، سلسلة كتابك ، العدد ١٧ ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٧٧م ، ص٦٧ .

١٥٠- الخراشى / ناهد عبدالعال : أثر القرآن الكريم فى الأمن النفسى ، مطابع الأهرام التجارية ، القاهرة ، ١٩٨٧ ، ص ص ١٤٥/ ١٥١ .

١٥١- نجاتى / دكتور محمد عثمان : القرآن وعلم النفس ، دار الشروق ، القاهرة ، ١٩٨٢ ، ص ص ٢٣٧/٢٤٧ .

١٥٢- كارنيجى / ديل : دع القلق وابدأ الحياة ، ترجمة عبدالمنعم الزيادى، الطبعة الخامسة ، القاهرة ، ص ص ٢٨٦/ ٣٠١ .

١٥٣- كارنيجى / ديل : (مصدر سابق) ص٢٨٦ .

١٥٤- نجاتى / دكتور محمد عثمان : (مصدر سابق) ص٢٤٠ .

١٥٥- الجندى/ أنور : مفاهيم العلوم الاجتماعية والنفس والأخلاق فى ضوء الإسلام ، دار الاعتصام ، القاهرة ، ١٩٧٧ ، ص١٩٥ .

مراجع الفصل السادس عشر :

١٥٦- زهران / دكتور حامد عبدالسلام : الصحة النفسية والعلاج النفسى ، عالم الكتب ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٨ ، ص١٠ .

١٥٧- الخراشى / ناهد عبدالعال : (مصدر سابق) ، ص ص ٨٤/ ١١٠ .

١٥٨- الشرقاوى / دكتور حسن محمد : نحو علم النفس الإسلامى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الأسكندرية ، مصر ، ١٣٩٦هـ-١٩٧٦م ، ص ص ٦٩/١٢٨ .

١٥٩- الشرقاوى / دكتور حسن محمد : (مصدر سابق) ، ص ص ١٠٨/ ١١٠ .

١٦٠- الشرقاوى / دكتور حسن محمد : (مصدر سابق) ، ص ص ٦٩/ ٧٤ .

١٦١- الشرقاوى / دكتور حسن محمد : (مصدر سابق) ، ص٧٠ .

١٦٢- الخراشى / ناهد عبدالعال : (مصدر سابق) ، ص ص ٩٢/ ٩٤ .

١٦٣- نجاتى / دكتور محمد عثمان : (مصدر سابق) ، ص ص ٢٣٦/ ٢٣٧ .

١٦٤- مرسى / دكتور سيد عبدالحميد : الإرشاد النفسى والتوجيه التربوى والمهنى، مكتبة الخانجى ، القاهرة ، ١٩٧٦ ، ص١٢٩ .

مراجع الفصل السابع عشر :

١٦٥- العقاد / عباس محمود : الإنسان فى القرآن الكريم ، القاهرة ، دار الإسلام ، ١٩٧٣م ، ص ص ١٣/ ٢٨ .

١٦٦- عبدالرحمن / دكتورة عائشة (بنت الشاطئ) : القرآن وقضايا الإنسان ، بيروت ، لبنان دار العلم للملايين ، ١٩٨١ ، ص ص ١٥/ ٤٥ و ص ص ١١٣/ ١٢٢ .

١٦٧- عبدالرحمن / دكتور عائشة (بنت الشاطئ) : المرجع السابق .

١٦٨- العقاد / عباس محمود : (مصدر سابق) .

١٦٩- العقاد / عباس محمود : (مصدر سابق) .

مراجع الفصل الثامن عشر :

١٧٠- الشيبانى / دكتور عمر محمد التومى : مقدمة فى الفلسفة الإسلامية، ليبيا - تونس ، الدار العربية للكتاب ، الطبعة الثانية ، ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م ، ص ص ٩٣/ ١٢٦ .

١٧١- النجيحى / دكتور محمد لبيب : مقدمة فى فلسفة التربية ، القاهرة ، مكتبة الأنجلو المصرية ، الطبعة الثانية ، ١٩٦٧ ، ص٢٥٦ .

١٧٢- عبدالرحمن / دكتور عائشة (بنت الشاطئ) : (مصدر سابق) .

١٧٣- الجندى / أنور : الإسلام فى مواجهة الفكر ، «مجلة دعوة الحق» ، العدد

الرابع ، السنة الخامسة ، يوليو ١٩٧٢م ، ص ص ٢٥/٢٨ .

١٧٤- أبو على أحمد بن محمد مسكويه : تهذيب الأخلاق ، تحقيق : قسطنطين زريق ، بيروت ، لبنان ، الجامعة الأمريكية فى بيروت ، ١٩٦٦م ، ص ص ١٠/١١ .

١٧٥- قطب / محمد : منهج التربية الإسلامية ، الجزء الأول (فى النظرية) ، الطبعة الرابعة ، القاهرة ، وبيروت ، دار الشروق ، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م ، ص ص ١٦٢/١٦٨ و ص ص ٢٢٣/٢٣٤ .

مراجع الفصل التاسع عشر :

١٧٦- قطب / محمد : (المرجع السابق) .

١٧٧- تفسير الطبرى : الجزء الثالث ص١٥٦ .

١٧٨- قطب / محمد : منهج التربية الإسلامية (مصدر سابق) .

١٧٩- نجاتى / دكتور محمد عثمان : (مصدر سابق) ، ص٢١٤, ٢١٥ .

١٨٠- الغزالى /محمد : خلق المسلم ، الطبعة الثامنة ، القاهرة ، دار الكتب الحديثة ، ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م ، ص ص ١٥/١٦ .

١٨١- العفيفى / طه عبدالله : من وصايا الرسول صلى الله عليه وسلم ، الجزء الخامس القاهرة ، دار الاعتصام / ص٢٠ .

بيان الجداول :

بيان الأشكال :

هذا الكتاب

إن المتتبع لنتاج مدارس علم النفس المعاصر فى أنحاء مختلفة من العالم ، يلمس تأثر فكر علماء النفس - فى روسيا أو ألمانيا أو بريطانيا أو الولايات المتحدة الأمريكية أو غيرها - بثقافة الحياة وفلسفة المجتمعات التى نشأ فيها علماء النفس بهذه البلاد ، حيث تتميز كل مدرسة فكرية بخصائص وملامح ، كان من نتاجها نظريات وقوانين واهتمامات وقضايا ومناهج بحثية متباينة تارة ومتشابهة تارة أخرى .

وفيما يتعلق بهوية علم النفس فى العالم العربى ، نجد أنها تتشكل من نظريات وأفكار وآراء مدارس علم النفس المعاصرة غير العربية غالبًا . كما أصبح واضحًا مدى تغلغل أفكار هذه المدارس فى عالمنا العربى فى تفسير وضبط سلوك الفرد ، والتنبؤ بما يمكن عمله من السلوك وتعرّف دوافعه ، وعلاج الاضطرابات أو الانحرافات السلوكية فى ضوء ماتشير إليه مدارس ومناهج علم النفس تلك البلدان . ومثال ذلك أنه رغم اختلاف البيئة والثقافة والعقيدة فى عالمنا الإسلامى والعربى ، فإننا لانزال نستخدم المنهج العلاجى ، الذى تنادى به مدارس علم النفس المعاصر فى علاج الاضطرابات والانحرافات السلوكية ، دون أن نتجه إلى منهج العلاج ، الذى ينادى به الإسلام من تزكية النفوس وإصلاح القلوب .

ونود أن نشير إلى أن تناول التفسير الإسلامى للسلوك من خلال مقارنة لرؤية علم النفس المعاصر ، لا يُقصد من وراءه رفض نظريات وأفكار ومقولات وتجارب علم النفس المعاصر رفضًا تامًا ؛ إذ ليس فى هذا موضوعية العلم ، وحيث يؤكد الإسلام الاستفادة من المعارف ، التى تعمل على استقرار حياة الإنسان وأمنه وأمانه ، وتقلل قدر ماتستطيع من المعوقات ، التى تعمل على اضطراب حياته الاجتماعية أو تؤدى إلى سوء توافقه النفسى والاجتماعى .

إن دراسات علماء المسلمين للنفس الإنسانية لم تكن مجرد معرفة نظرية ، ولكنها كانت بهدف الوصول إلى تعديل السلوك والرقى بالأخلاق والوصول إلى التوافق النفسى للفرد وتكامل الشخصية .

وبذلك سبق علماء المسلمين فى أصالتهم فى دراساتهم ، ماهو معاصر لنا من الميادين نفسها فى الدراسات النفسية .

ومن خلال مايحتويه هذا المؤلف ، نرجو أن تتضح جهود علماء المسلمين عن التفسير الإسلامى للسلوك الإنسانى ، حيث نعرض ماتوصلت إليه الدراسات النفسية المعاصرة من مفاهيم وقضايا عديدة تتعلق بتفسير السلوك الإنسانى وأنماط أنشطة وجوانب السلوك وآثارها على الحياة النفسية ، والتوافق النفسى ، وبنية الشخصية . كما نعرض فى مقابل ذلك تفاسير وجهود علماء المسلمين من الفلاسفة والسلف الصالح وأئمة الإسلام المعاصرين فى هذه المناحى الخاصة بالسلوك الإنسانى والنفس الإنسانية. وبقدر مانعنى أن يكون فى هذا الإيضاح مايفيد طالب العلم المتخصص فى علم النفس ، بقدر مايهمنا أيضًا أن يستفيد القارئ ، الذى له اهتمامات بهذا المجال من العلوم الإنسانية .

الناشر

